الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد علي

التاريخ الروماني

تقديم وتحقيق

أ.د. حسان حلاق



دار النهضة العربية

التاريخ الروماني

التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والإداري والديني والسياسي والعسكري

التاريخ الروماني

التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والإداري والديني والسياسي والعسكري

الأستاذ الدكتور

عبد اللطيف أحمد علي

أستاذ التاريخ القديم السابق في

جامعة القاهرة وجامعة بيروت العربية

العميد السابق لكلية الآداب ـ جامعة القاهرة

تقديم وتحقيق

أ.د. حسان حلاق

دار النهضة العربية

رقم الكتاب :19160ج

اسم الكتاب :التاريخ الروماني

المؤلف :د. عبد اللطيف احمد علي

الموضوع :تاريخ

رقم الطبعة :الأولى

سنة الطبع :2011م.

القياس :17 × 24

عدد الصفحات :335

منشورات : دار النهضة العربية

بيروت ـ لبنان

بيروت ـ شارع الجامعة العربية ـ مقابل كلية طب الاسنان

بناية اسكندراني رقم 3 ـ الطابق الأرضي والاول

تلفون : 854161 ـ 1 ـ 961 +

فاكس : 833270 ـ 1 ـ 961 +

ص ب : 0749 ـ 11 رياض الصلح

بيروت 072060 11 ـ لبنان

بريد الكتروني: e-mail: darnahda@gmail.com

ISBN 978-614-402-387-7

تقديم

بقلم: أ. د. حسان حلاق

يعتبر الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد علي ـ رحمه الله ـ أستاذ التاريخ القديم في جامعة القاهرة، وعميد كلية الآداب الأسبق فيها، من أهم أساتذة التاريخ القديم لا سيما التاريخ اليوناني والروماني، وله العديد من الكتب والمؤلفات والدراسات في موضوع تخصصه.

إنه لشرف عظيم أحظى به،عندما اختارتني دار النهضة العربية في بيروت المحروسة لأقدم لهذا الكتاب، ولأستاذي الفاضل المرحوم الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد علي، الذي تتلمذت عليه في كلية الآداب ـ قسم التاريخ ـ جامعة بيروت العربية في مرحلة الاجازة الجامعية لا سيما عندما كنت في السنة الرابعة في العام الدراسي 1970 ـ 1971 مسبوقة بالعام الدراسي 1969 ـ 1970 عندما قام بالتدريس في قسم التاريخ كاستاذ زائر من جامعة القاهرة، وقد استمر معاراً للجامعة لمدة أربع سنوات للأعوام 1970 ـ 1974. ولا يمكن أن أنسى في هذا المجال أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور مصطفى العبادي الذي سبق أ.د. أحمد عبد اللطيف علي في الأعارة لجامعة بيروت العربية في التخصص ذاته، فلهما مني الوفاء والتقدير والاعتزاز.

لقد كانت مذكرات ومحاضرات أ. د. عبد اللطيف أحمد علي بمثابة كتب علمية موثقة توثيقاً علمياً، مع حرصه على الاعتماد على مصادر ومراجع لاتينية وعربية فضلاً عن مصادر ومراجع أجنبية متنوعة. وكان هذا الكتاب الذي بين

أيدينا قد طبعته دار النهضة العربية عام 1974، وصدر عنها كمذكرة لطلاب السنة الثانية ـ قسم التاريخ، وحاول العديد من الأساتذة من ذوي الاختصاص الحصول على نسخة منها ولكن دون جدوى إلى أن وُفق الزميل الدكتور أحمد سميح حسن بالحصول على نسخة من أحد الأساتذة في جامعة القاهرة، د. رجب سلامة عمران، فصورها لي مشكوراً، وحرصاً من دار النهضة العربية ومني على تكريم الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد علي، وعلى تخليده، وعلى احياء علومه والاستفادة منها نظراً لأهميتها، لهذا كان هذا الكتاب ـ الذي بين أيدينا ـ بحلته الجديدة، متمنياً للقارىء وللباحث العربي الاستفادة منه على قاعدة حديث الرسول محمد (ﷺ): «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

لقد ترك لنا العلاّمة المرحوم الأستاذ الدكتور عبد اللطيف أحمد علي الصدقة الجارية، والعلم النافع، والولد الصالح. وبالمناسبة، فإني أتوجه بالشكر الجزيل لدار النهضة العربية، وأخص بالذكر السيدة الفاضلة لينا مصطفى كريدية، والسيدة الفاضلة نسرين كريدية، مترحماً في الوقت نفسه على روح والدهما المؤسس للدار المرحوم السيد مصطفى كريدية.

بيروت المحروسة في 11/5/2009

أ. د. حسان حلاق

أستاذ التاريخ في الجامعة

اللبنانية وجامعة بيروت العربية

الفصل الأول

جغرافية ايطاليا

وأثرها في تطورها التاريخي

تشق إيطاليا جبال الأبنين، وتحدها من الشمال جبال الألب ويحيط البحر بجوانبها الأخرى وهو بمثابة قنطرة بين أوروبا وساحل أفريقيا الشمالي، وتشمل إيطاليا منطقتين مختلفتين في التضاريس اختلافاً بيّنا. فالشمالية تتبع القارة والجنوبية شبه جزيرة. والثانية أكبر من الأولى قليلاً في الساحة، ومساحتهما معاً حوالي 91،200 ميل مربع. وتشمل المنطقة الشمالية السلسلة الجنوبية من جبال الألب والسلسلة الشمالية من جبال الأبنين والسهل المنخفض الواقع بينهما. ويبلغ عرضها من الشرق إلى الغرب حوالي 320 ميلاً ولا يزيد طولها من الشمال إلى الجنوب عن 70 ميلاً. وتمتد الألب على هيئة هلال غير منتظم لمسافة تبلغ 1200 ميل من مدينة نيس على البحر الأبيض المتوسط إلى تريستا على البحر الأدرياتي. وترتفع ارتفاعاً فجائياً من ناحية الجانب الايطالي، ولكنها تنحدر إنحداراً تدريجياً من ناحية القارة حيث تهيىء وديان الأنهار مرتقى سهلا إلى الممرات التي تخترق الجبال إلى السهل الذي يقع تحتها. ويتراوح ارتفاع هذه الممرات بين 6000 و 7000 قدم ولا تكسوها الثلوج في الفترة ما بين مايو وسبتمبر. ويوجد في الغرب ممر عند نهاية السلسلة الألبية على ساحل الريفييرا. ومعنى هذا أن الألب لم تكن سداً منيعاً في وجه الغزاة أو المهاجرين إلى إيطاليا، حتى لقد قيل أن تاريخ

إيطاليا مرتبط بتاريخ غزاتها كل الارتباط. غير أن هذا القول لا يتضمن في الواقع سوى جانب من الحقيقة وينبغي ألا تقاس صعوبة اجتياز جبال الألب بمقدار ارتفاعها فقط. ذلك أن عرض الألب يبلغ في بعض الجهات ما بين 150 و 180 ميلاً، فضلاً عن أن كثيراً من الممرات كانت وعرة خطرة وهي في حالتها الطبيعية قبل أن يشق فيها المهندسون الرومان مختلف الطرق. كما أن هلال الألب المريض الذي يحتضن شمال إيطاليا يعطى المدافعين عنها ميزة القتال من (خطوط داخلية) وهي ميزة كانت لها أهميتها البالغة عندما وقعت غزوة الكمبرى والتيوتون. إذ أنها أتاحت للقائد الروماني ماريوس أن يتغلب على هجومهم المشترك من الغرب (أي من ناحية الألب البحرية) ومن الشمال (عند ممر برينو). كانت الألب إذن بوجه عام درعا واقيا لايطاليا، عندما كانت تحتاج إليه. وإليها يرجع الفضل في تقليل عدد الغزوات الكبرى التي لم تزد في الفترة السابقة لقيام الامبراطورية الرومانية عن أربع وهي: غزوة الغال حوالي سنة 390 ق.م غزوة هانيبال في سنة 318 وغزوة أخيه هسدروبال سنة 207. وغزوة الكمبرى (Cimbri) سنة 101[1].

ويشغل السهل وادي نهر البو (Padus) أعظم أنهار إيطاليا الذي ينبع من غرب الألب ويجري شرقاً مسافة 360 ميلاً حتى البحر الأدرياتي وتتصل به في الطريق فروع عديدة. ولما كان سهل البو قد تكون من الرواسب الطميية للأنهار، فقد أصبحت أرضه خصبة. غير أن الطمي ينجرف إلى البحر ويسد المصب ويجعل الساحل يتوغل في البحر باستمرار. وعن هذا الطريق دلتا البو المليئة بالمستنقعات والبرك التي نشأت فوقها مدينة البندقية. غير أن أنهار الألب تمد السهل بمقادير وفيرة من المياه على مدار السنة مما يزيد من صلاحيته للزراعة. وكانت هذه المنطقة في الأصل مكسوة بالغابات والمستنقعات واحتاجت على مر العصور إلى مجهودات مضنية حتى أزيلت الأدغال وجففت مياه الأوحال

وأصبحت صالحة للزراعة.

وتشمل المنطقة الجنوبية شبه جزيرة ضيقة تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي بين البحرين المتوسط والأدرياتي وتنتهي «بالحذاء الايطالي». ويبلغ طول شبه الجزيرة 650 ميلاً ولا يزيد عرضها في أي مكان عن 125 ميلاً. وعلى عكس الحال في سهل البو تتخلل المنطقة الجنوبية من إيطاليا سلاسل جبال الأبنين المتوازية والتي تقسمها إلى تلال ووديان لا حصر لها وتجعل الاتصال صعباً بين الساحلين الغربي والشرقي وبين شبه الجزيرة وحوض البو. ولا يزيد متوسط ارتفاع هذه الجبال (الأبنين) التي تعتبر بمثابة «العمود الفقري لظهر شبه الجزيرة عن حوالي 4000 قدم بل أن أقصى ارتفاع وهو 9500 قدم يقع تحت خط الجليد الدائم[2]، وتبلغ سلسلة الأبنين أقصى ارتفاعها في جانبها الشرقي حيث تقترب من الأدرياتي، فلا تترك سوى شريط ساحلي ضيق تقطعه سيول جارفة عديدة. والجانب الغربي من الجبال منخفض وبينه وبين البحر مساحة فسيحة تحتوي على منخفضات أو سهول ثلاثة هي: أترويا ولاتيوم وكمبانيا، وتجري أيضاً في غربي الأبنين أنهار متوسطى الطول صالحة لملاحة السفن الصغيرة مثل نهر أرنو (Arnus) ونهر التيبر (Tiberis) ونهر ليريس (Liris) وفولتورنوس (Volturnus) التي تربط وديانها الساحل بالمناطق الجبلية في الداخل.

البراكين

كان الساحل الغربي لإيطاليا قديما ولا يزال إلى اليوم هو والجزر المتاخمة له مسرحاً لنشاط بركاني عظيم. ففي شمال نهر التيبر وجنوبه توجد براكين خامدة وان كانت توجد إلى الجنوب من ذلك ثلاث قمم بركانية لا تزال نشطة وهي فيزوف على مقربة من خليج نابلي[3] وأسترومبولي في جزر الليباري، ثم أتنا (Etna) في صقلية وهو أعظم بركان في أوروبا، وعلى الرغم مما أحدثته هذه البراكين من

اضرار جسيمة مؤقتة فانها عادت بالنفع مع مرور الزمن على هذه المنطقة فازدادت خصوبة تربتها بفضل الرماد والصخور البركانية المتفتتة وجعلتها صالحة لزراعة الكروم بوجه خاص.

أما عن جزر صقلية (Sicilia) وسردينا (Sardinia) وكورسيكا (Corsica) فإن موقعها الجغرافي يبرر تسميتها جميعاً بالمنطقة الثالثة في إيطاليا ويرتبط تاريخها بشبه الجزيرة ارتباطاً وثيقاً[4]. وصقلية جزيرة كبيرة مثلثة الشكل يفصلها عن طرف الحذاء الايطالي مضيق مسانا (Messana) وهو مسينا حاليا الذي لا يزيد عرضه في أوسع جزء عن أربعة أميال، ويفصلها عن الساحل الأفريقي بحر عرضه حوالى 80 ميلاً. والجزيرة في الواقع امتداد لسلسلة جبال الأبنين. وكانت في العصور الجيولوجية الأولى جزءاً من اليابسة التي تصل إيطاليا بأفريقيا. وليست الجزر الصغيرة مثل مالطة (Melita) وبنتلليريا (Pentelleria) الواقعة جنوب صقلية أو جزر الليباري (Lipari) الواقعة شمالها ليست إلا رؤوس جبال بارزة غمرها البحر. أما سردينيا وكورسيكا الواقعتان في غرب البحر التيراني فهما جزيرتان وعرتان. في التضاريس ومتشعبتان من سلسلة الجبال الايطالية، والأولى تقع شمالي الثانية وأكبر منها في المساحة.

وسواحل ايطاليا، على نقيض سواحل اليونان غير متعرجة، فهي منتظمة انتظاماً واضحاً، ولا تحتوي برغم طولها البالغ حوالي 2000 ميل إلا على قليل من الخلجان العميقة أو المرافىء الجيدة وكلها قريباً تقع على الساحلين الجنوبي والغربي. فليس على الساحل الشرقي المطل على الأدرياتي سوى ميناء برنديزي الذي يقع على «كعب الحذاء» الايطالي. وقد بلغ من قرب المسافة بين برنديزي وبين بلاد الاغريق أن تين قرطاجنة ـ كما يروي كاتو ـ كان يصل طازجا إلى روما، وأن يوليوس قيصر قطع المسافة في ليلة واحدة أثناء تعقبه لخصمه بومبي في أواخر عام 49.

ويقع على الساحل الجنوبي ميناء تارنتوم (Tarentum) عند رأس الخليج الذي يحمل الاسم نفسه[5]. ومن تارنتوم تبدأ غالباً رحلات السفن المتجهة إلى بلاد الاغريق والشرق الأوسط. وعلى الساحل الغربي يوجد ميناء نيابوليس. (Neapolis) وهو نابلى الحديثة، ويتاخمها ميناء بوتيتولي (Puteoli) الذي ازدهر في عصر الامبراطورية[6]. وعلى خليج جنوه نشأ ميناء جنوه (Genua) الذي لم تظهر أهميته إلا في الحقبة الأخيرة من التاريخ الروماني.

وأهم موانىء صقلية هي سيراكوزاي Syracusae ـ الشهيرة بسراقوصة ـ التي تقع على الساحل الشرقي، وبانورموس Panornaus (بالرمو الحالية) التي تقع على الساحل الشمالي، ثم دريبانوم (Drepanum) التي تقع على الساحل الغربي للجزيرة. ولما كانت سفن العصور القديمة لا تحتاج إلى موانىء عميقة، فقد كان في وسعها أن ترسو في مصبات الأنهار الخالية من التيارات الشديدة والرواسب الطميية والكثبان الرملية. ولهذا السبب نشأت مدن كثيرة مثل روما على بعد حوالي 16 ميلا من البحر لا على الساحل مباشرة. على أن معظم البضائع الواردة إلى روما من وراء البحار كانت تفرغ عند المصب وتنقل على ما يشبه المواعين التي تسحبها الثيران إلى أرصفة المدينة. وأما ميناء أوستيا (Ostia) التي قامت على الساحل مباشرة فلم تكن سوى مرسى على الساحل المكشوف ويصعب الوصول إليها بسبب حاجز كوّنه طمى النهر، ولم تصبح أوستيا ميناء صالحة مزودة بالأحواض إلا منذ عصر الامبراطور كلوديوس (41 ـ 54م).

وكان لمزايا الساحل الايطالي المطل على البحر الأبيض كسهوله الخصبة وأنهاره وموانئه ومواجهته الجنوب ما جعله أكثر ملاءمة من الساحل الأدرياتي لاستقبال السفن، وجعله أسبق مناطق شبه الجزيرة في الأخذ بأسباب الحضارة. ومع ذلك فلا ينبغي أن ننسى أن المياه المتاخمة لإيطاليا كانت بها ثلاثة مراكز من

مراكز الاضطراب في البحر المتوسط وهي خليج الأسود وبحر الليباري والبحر الأدرياتي الذي يكاد يخلو من الموانىء. ولعل هذه الظروف غير المؤاتية تفسر الحقيقة المتناقضة ألا وهي انتزاع الرومان السيادة في غرب البحر المتوسط من القرطاجيين وانتصارهم في أكبر معركتين بحريتين وهما ميلأي (Mylae) سنة 260 ومعركة اكنوموس (Ecnomus) سنة 256 ومع هذا فإنهم (أي الرومان) لم ينشئوا أسطولاً بحرياً مستديماً إلا في عصر أغسطس (27 ق.م ـ 14م) وتركوا لغيرهم ميدان أعمال النقل التجاري في البحر المتوسط. ومع هذا فإن اتصالات إيطاليا مع الأقطار الأجنبية كانت تتم معظمها عن طريق البحر، وأصبحت روما برغم عدم اقبال أهلها على الأعمال البحرية مركزاً نشطاً لتجارة البحر المتوسط في العالم القديم.

ومع أن مناخ إيطاليا كمناخ أوروبا وشمال أفريقيا قد تعرض في العصور قبل التاريخية لتقلبات شديدة إلا أنه لم يتغير على الأقل منذ القرن الخامس قبل الميلاد حتى اليوم تغيراً محسوساً. وهو بوجه عام مناخ البحر الأبيض متوسط، ويتميز بارتفاع معدل درجة الحرارة وعدم اشتداد الحر أو البرد[7]. والشتاء المطير والصيف الجاف. ومع هذا فالمناخ يختلف في مكان عن الآخر تبعاً لموقع المكان في الشمال أو الجنوب تبعاً لانخفاضه أو ارتفاعه، قربه أو بعده عن البحر. فمناخ حوض البو يشبه مناخ وسط القارة الأوروبية إذ الفرق كبير بين درجتي الحرارة في الصيف والشتاء. والربيع والخريف فصلان متميزان عن بقية الفصول وتكثر الثلوج والأمطار في الشتاء وتقل في الصيف.

فإذا اتجهنا جنوباً في شبه الجزيرة نجد الشتاء أكثر دفئاً والصيف أشد حرارة، ويقل سقوط المطر السنوي (فترة الجدب في روما شهران في السنة ومتوسط درجة الحرارة في يناير 8 درجات مئوية وفي يوليه 2/1 24 درجة مئوية). ويزداد الصيف جفافاً حتى ليكاد ينعدم المطر خلاله في جنوب إيطاليا

وصقلية. وتقتصر فترة الانتقال بين الفصول وتسطع الشمس فترات طويلة حتى في فصل الأمطار. وليس المناخ الايطالي صحيا فحسب، بل إنه باعث على النشاط. وكانت إيطاليا قديما وما تزال أحياناً تعاني من وباء الملاريا التي تعزى إلى كثرة المستنقعات في أودية الأنهار وعلى امتداد الساحل. وقد تكونت معظم المستنقعات بسبب الطمي الذي تجرفه المياه معها مما يهيء الظروف الملائمة لتوالد بعوض الملاريا. وقد تفاوتت الأضرار التي نجمت عن الوباء بتفاوت التقدم الحضاري وطأتها عندما استصلحت هذه المناطق الموبوءة وصرفت مياهها، واشتدت عندما أهمل شأنها.

الغابات

تمتاز إيطاليا عن معظم أقطار البحر المتوسط بوفرة غاباتها التي تكثر على السفوح الجنوبية للألب وفي وادي البو وعلى الأبنين وبخاصة على الساحل الليجوري (في الشمال الغربي) وفي جنوب أترووريا ووديان التيبر وفروعه ولا تيوم. واشتهرت كورسيكا بكثافة غاباتها كما كانت جبال «الحذاء الايطالي» مكسوة بالأشجار الضخمة حتى أن شجرة واحدة منها كانت كافية لبناء صاري سفينة من أضخم سفن العالم القديم (وهي التي بناها هيرون الثاني (Hieron II)، ملك سيراكوز (265 ـ 215). وإلى جانب الغابات كانت توجد أدغال كثيفة وشجيرات قصيرة جافة كالغار والآس وغيرها من الأشجار الصغيرة. وقد اشتد الاقبال على الأخشاب الايطالية لبناء سفن القرطاجيين والاتروسكيين والاغريق والرومان أنفسهم. ولم تكن تستخدم في بناء المنازل حيث استخدم الطوب والحجر والبلاط. ومن هذه الغابات كان يستخرج القار والراتنج. ومن أشجار البلوط والزان كان يستمد العلف لتغذية قطعان الخنازير. وكانت إيطاليا حتى العصر المسيحي غنية بالغابات، ولو أن معظمها كان قد أزيل قبل ذلك

العصر بفترة طويلة لأن الناس دأبت على قطعها لاستعمالها في المنازل كوقود أو لاستغلال أرضها في الزراعة أو رعي الماشية. ولم تكن الغابات تزرع ثانية بعد ازالتها إلا في القليل النادر مما أدى إلى أن أمطار الشتاء كانت تكتسح التربة الرقيقة بعد تعريها قبل اكتمال نمو النباتات الجديدة، فإذا ما بدأت تنمو من جديد فسرعان ما كانت تلتهمها قطعان الماعز التي ترعى في الغابات فتحدث ـ كشأنها دائماً ـ أشد التلف بكل أنواع النباتات.

النحاس

لم تكن ثروة إيطاليا المعدنية كبيرة. كانت أهم معادنها قديما هي النحاس والحديد، وقد استخرج النحاس من مناجم إترويا وليجوريا وسردينيا. واستخرج الحديد من مناجم جزيرة ألبا (Elba)، والذهب من اتروريا، والفضة من سردينيا. كذلك كان الاوبسبيديان (Obsidian) يستخرج من محاجر سردينيا وبعض أماكن أخرى[8]. وأما الملح فكان يجلب من سردينيا ومن مستنقعات مصب نهر التيبر.

مواد البناء

أهم من ذلك فإن إيطاليا كانت غنية بمواد بناء من مختلف الأنواع ولا سيما الحجر الجيري المعروف باسم الحجر التيبوري (Tiburtinus) (نسبة إلى بلدة تيبور (Tibur) التي تقع بالقرب من روما. ويسمى ذلك الحجر الآن ترافرتينو (Travertino) وكذلك الحجر البركاني المعروف باسم بوتزولانا Bozzolana الذي كان يستخدم لعمل الخرسانة وهي التي مكنت الرومان من تشييد الأقواس والأقبية وهي من خدماتهم التي أسدوها للفن المعماري. ولا ننسى الرخام الفاخر الذي كان يستحضر من محاجر كرارا Carrara في ليجوريا.

وكانت توجد في لاتيوم واتروريا وغيرهما أصناف جيدة من الطمي لعمل الطوب والآجر والفخار.

الزراعة

كانت إيطاليا قديماً كشأنها الآن بلاداً زراعية وغنية بالمراعي. ففي المناطق الواطئة كانت تزرع بوفرة مختلف الحبوب كالذرة والقمح والشعير وكافة البقول كالفول والبازلاء والفاصوليا وغيرها. وقد مرت بإيطاليا فترات تدهورت أثناءها الزراعة، ولكن ذلك كان يرجع إلى عوامل سياسية وخاصة بسبب اقفار الريف من الرجال الذين كانوا يجندون في الجيش أثناء الحروب الكثيرة فيما وراء البحر وإحلال العبيد من أسرى الحروب مكانهم. ولم يكن هؤلاء العبيد يعملون في الأرض بنفس النشاط والهمة، فضلاً عن أنهم كانوا يفتقرون إلى الخبرة الزراعية، ويعملون مكرهين في ظروف بالغة القسوة والوحشية. كان هذا التدهور الزراعي إذن يرجع إلى عوامل سياسية وليس إلى قحل التربة. كذلك لا ينهض اعتماد روما على استيراد القمح الأجنبي دليلاً على قلة الحاصلات الايطالية لأن مشكلة تموين العاصمة نشأت عن صعوبة المواصلات. وقد تبين أن نقل الحبوب بالسفن من الولايات أيسر من نقلها براً من الريف الايطالي إلى روما على ظهور الدواب. وكانت الفلاحة في كافة مراحل التاريخ الروماني هي المصدر الرئيسي للثروة. وليس هناك دليل على أن التدهور الزراعي الذي حدث فيما بعد يرجع إلى اقفار التربة اقفاراً شاملاً.

الخصوبة

إن الارتفاع النسبي لدرجة خصوبة الأرض في إيطاليا هو السبب الجوهري في كثرة عدد سكانها منذ القدم بالقياس إلى غيرها من دول البحر

المتوسط. ولقد قدر عدد سكان إيطاليا بها في ذلك العبيد (دون سكان الجزر) بحوالي 14 مليون نسمة استناداً إلى التعداد الذي أجراه الامبراطور أغسطس قبل وفاته مباشرة في عام 14م، والذي قدر فيه عدد اللائقين للخدمة العسكرية بحوالي 5 مليون أو أقل (4،937،000). والدليل على أن هذا العدد الضخم من السكان لم ينشأ عن فتوحات خارجية بل كان أحد العوامل التي حفزت روما على هذه الفتوحات هو أن عدد المحاربين الذين استطاعت روما أن تجندهم من شبه الجزيرة وحدها في عام 225ق.م. بلغ 770 ألف من المشاة والفرسان، كما ورد عند المؤرخ الشهير بوليبيوس **Polybius** (203 ـ 120).

واشتهرت كمبانيا بخصب أرضها حتى منه كان من الممكن زراعتها ثلاث مرات في السنة. وظلت صقلية فترة طويلة من أهم صوامع الغلال في حوض البحر المتوسط. كما ازدهرت أيضاً زراعة الكروم والتين والزيتون وصارت بمرور الزمن أربح من زراعة الحبوب. وكان من بين الحاصلات الأخرى التفاح والكمثرى والجوز. ولكن الليمون والبرتقال كالأرز لم تدخل زراعتهما إيطاليا إلا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية. وكانت المنخفضات الساحلية في فصل الصيف تصبح مراعي جيدة للأغنام والماعز والماشية والخيول. وكانت تربية الماشية تلي الزراعة في الأهمية كمهنة للسكان.

لقد عاقت التضاريس شبه جزيرة إيطاليا عن الوحدة السياسية أكثر مما ساعدت عليها. ومع هذا فإن سلسلة جبال الأبنين التي تسير بموازاة شبه الجزيرة لم تقف حائلاً جسيماً دون تلك الوحدة. ولا يمكن مقارنتها بشبكة الجبال المتقطعة في بلاد الإغريق ولا بتعرجات سواحلها. وبعد أن اندمجت إيطاليا كلها في دولة واحدة تحت سيطرة روما (وقد ساعد على هذا الاندماج تلك الجهود التي بذلها مهندسو الطرق الرومان للتغلب على وعورة أرض الريف الإيطالي وتعبيدها).

بعد أن تم الإندماج ساعد موقعها المتوسط على بسط النفوذ الروماني في اتجاه حوض البحر الأبيض المتوسط. لكن لما كانت إيطاليا أبعد من بلاد الاغريق عن مراكز الحضارة القديمة في مصر والشرق الأدنى، فلم تتأثر إلا قليلاً بتلك الحضارة. وترتب على ذلك أنها تأخرت عن بلاد الاغريق ومنطقة بحر ايجه في مسيرة موكب الحضارة. ولما كان الساحل الشرقي لإيطاليا يكاد يكون خلوا من الموانىء، وكان الساحل الغربي من بلاد الاغريق يكاد هو الآخر يخلو منها فكأن كلا منهما كانت تولي ظهرها للأخرى. ومن ثم فقد سلكت كل منهما في تطورها طريقا مختلفا عن الأخرى، فاتجهت اليونان نحو الشرق وإيطاليا نحو الغرب ولم تقم بينهما علاقات سياسية إلا بعد مرور خمسة قرون من تأسيس روما أي في حوالي سنة 228 ق.م.

وكانت القرية Vicus في إيطاليا كبلاد اليونان هي محلة السكنى الطبيعية في عصر ما قبل التاريخ. وغالبا ما كانت تقوم على مقربة من مجرى مائي. وظلت هي الظاهرة الشائعة في مرتفعات الأبنين حتى نهاية عصر الجمهورية سنة 27 ق.م. كما استمرت المقاطعة Pagus ـ وهي مجموعة من القرى ـ هي الوحدة السياسية الطبيعية حتى نهاية ذلك العصر. غير أن المدن بدأت كما حدث في بلاد اليونان تظهر في الفترة قبل التاريخية. وسرعان ما ألف الناس تحت تأثير المهاجرين الاغريق والاتروسكيين الاقامة فيها. وكان الايطاليون كالاغريق يفضلون اقامة المدن في مواقع تتوسطها هضبة مرتفعة منحدرة لتشييد قلعة فوقها وبشرط أن تكون قريبة من المنطقة المنزرعة وحبذا لو كانت تقع على لسان من الأرض المرتفعة الواقعة عند مصب أحد الأنهار التي استعملت كوسيلة للدفاع عن المدن نظراً لعدم جفافها. لكن بينما اختيرت مواقع المدن الايطالية لميزاتها الدفاعية، فقد انشئت مجموعة هامة من البلدان وهي المستعمرات الرومانية (Coloniae) في

السهول أو في أسفل التلال أو عند معابر الأنهارأو نهاية ممرات الجبال. وكان المقصود منها أن تكون مراكز للمواصلات وقواعد للجيوش أكثر منه حصوناً أو معاقل يأوى إليها الناس.

وقد شابهت المدن الايطالية في تطورها السياسي دويلات الاغريق (Poleis) وما تاريخ إيطاليا حتى توطيد السيادة الرومانية في جوهره إلا تاريخ مدنها الرئيسية. على أن لسهولة التضاريس من ناحية بالقياس إلى تضاريس بلاد الاغريق الوعرة انعكس في ذلك التعارض الواضح بين المصالح السياسية والاقتصادية المتضاربة (مصالح سكان السهول ومصالح سكان التلال الذين لم تنقطع الحرب بينهم في العصور الأولى من التاريخ الروماني). ويظهر ذلك فيما يسمى «بالحرب السمينة الثانية» (327 ـ 304) التي كانت في حقيقتها صراعاً بين المقاطعات الجبلية المؤتلفة وبين مدن السهول المتحالفة. وقد زاد من حدة العداء بين سكان جبال الأبنين وسكان السهول الساحلية انقسام المراعي في إيطاليا إلى مراع صيفية ومراع شتوية مما كان يحمل الناس على التنقل بقطعانهم بين الجبال والسهول، فكان هذا بدوره يساعد على الاحتكاك بين أهالي المنطقتين.

تأثير الظروف الجغرافية

أثرت الظروف الجغرافية في أساليب القتال الرومانية. ففي فصل الشتاء كانت أرض إيطاليا كأرض اليونان (حتى بعد انشاء الطرق) تمتلىء بالأوحال التي تعوق سير العمليات العسكرية. وقد أدرك الرومان ذلك كما أدركه هنيبال نفسه (218 ـ 202) بعد أن تكبد بعض الخسائر لتجاهله ناموس الطبيعة ومحاولته القتال شتاء. وتشتمل إيطاليا على مناطق جبلية فسيحة أكثر ملاءمة لتحركات القوات خفيفة العدة منه للقوات ثقيلة العدة. ولم يفطن الرومان إلى هذه الحقيقة في أول الأمر. ولكنهم تعلموا بعد أن لحقت بهم الخسائر في جبال اقليم سمنيوم

(Sammium) ـ أن يحموا تقدم فرقهم كاملة العدة بستار من الجنود الذين يقومون بالمناوشات، وأدركوا ضرورة مراعاة طبيعة التضاريس فقسموا الفرق إلى وحدات (أو فصائل) تسمى كل منها Manipulus وكل منها يتكون من 60 جندي. وكانت كل وحدة منها تقاتل مستقلة إذا تطلبت الأرض ذلك. على أن الرومان أخذوا بنظرية اليونان العسكرية في الاعتماد على الفرقة (Legio) المتراصة صفوفها جنبا إلى جنب على غرار الفيلق الاغريقي (Phalanx) لأن جانباً كبيراً من الأراضي الايطالية كان يلائم في الواقع ذلك التشكيل العسكري. ولكنهم أخطأوا في عدم اهتمامهم بسلاح الفرسان الذي كان في امكانه إذا درب تدريباً حسناً أن يرجح كفة القتال في الأراضي المنبسطة المكشوفة على نحو ما أثبته كل من بيروس اليوناني (Pyrrhus) في معركة هراقليا عام 270 ق.م. وهنيبال القرطاجني (Hanibal) في معركة كنأي عام 216 ق.م. وكانت مواقع المدن في إيطاليا (كما هو الحال في بلاد الاغريق) حصينة بطبيعتها مما جعلها عسيرة المنال على المحاصرين. ولئن كنا لا نصدق أن حصار مدينة ڤيي (Veii) الاتروسكية استغرق عشر سنوات (انتهت عام 396 ق.م) فمما لا شك فيه أنه كبد الرومان خسائر فادحة. ومع أن هنيبال استطاع أن يجلى الجيوش الرومانية عن ميادين القتال إلا أنه لم يستطع تتويج انتصاره بالاستيلاء على المدن. ولعل صعوبة الحصار في إيطاليا قديما تفسر إلى حد ما لماذا كان الرومان يمنحون أعداءهم المنهزمين شروطاً سخية في كثير من الأحيان.

أما عن اسم إيطاليا نفسه Italia فهو مشتق من كلمة Vitelliu أي «أرض العجل» لوفرة العجول الصغيرة فيها، وهي كلمة أوسكية الأصل (والأوسكيون شعب ايطالي قديم). وقد أطلقها الاغريق من القرن الخامس ق.م. على الجزء الواقع في اقصى الجنوب الغربي من شبه الجزيرة المتاخم لجزيرة صقلية. وسرعان ما اكتسبت هذه التسمية أهمية أكبر حتى صارت لفظة إيطاليا يقصد

بها جغرافيا وسياسيا (قبل نهاية القرن الأول ق.م.) كل شبه الجزيرة حتى جبال الألب شمالا. كما عرفت إيطاليا باسم قديم آخر وهو أوينوتريا (Oenotria) أي أرض النبيذ. وكان الاغريق يعرفون كل شبه الجزيرة باسم هسبريا (Hesperia) أي «الأراضي الغربية» (غربية بالنسبة لليونان). ومن أسمائها الأخرى «أوسونيا» (Ausonia) وتللوس ساتورنوس Tellus Saturnia أي «أرض ساتورنوس» (Saturnus)، وهو إله قديم للزراعة وحبوب (القمح).

هوامش ومراجع الفصل الأول

1 ـ التواريخ كلها قبل الميلاد ما عدا المتبوعة بما يفيد غير ذلك.

2 ـ وهي هصة أبروزي Abruzzi الشاهقة في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة الايطالية وأعلى قمة هي جران ساسو إيطاليا Gran Sasso d'Italia التي يبلغ ارتفاعها 9700 قدم.

3 ـ ثار بركان فيزوف في عام 79م في عهد الامبراطور تيتوس وغطت حممه مدينتي هركولانيوم Herinlaneum وبومبي Pompeii. وعن هذه الكارثة أنظر: بلينيوس الأصغر، الرسالة السادسة، الفصل 16 حيث يروي لنا كيف لقي عمه بلينيوس الأكبر مصرعه.

4 ـ المنطقة الأولى هي سهل البو (لومبارديا)، والثانية هي شبه الجزيرة الايطالية جنوب ذلك السهل.

5 ـ تسمى حالياً «ترانتو».

6 ـ ويسمى حالياً بوتزيولي Pozzuoli.

7 ـ يشيد الشاعر الروماني فرجيل باعتدال مناخ ايطاليا. أنظر «الأشعار الريفية» Georgica ـ الكتاب الثاني ـ بيت 149 وما بعده

8 ـ كان الأوبسيديان Obsidian (وهو حجر بركاني بلوري أسود لامع) لشدة صلابته يقوم كالصوان مقام المعادن في العصر الحجري)

الفصل الثاني

إيطاليا قبل التاريخ

العصر النيوليتي (الحجري الحديث):

إيطاليا شبه جزيرة ذات سواحل طويلة. وقد عرضها موقعها الجغرافي وطول سواحلها للمؤثرات الآتية من وراء البحر، لأن البحر الأبيض المتوسط لم يكن عامل انفصال بقدر ما كان عامل إتصال بين شعوب العالم القديم. لذلك وفد إليها المهاجرون بحراً من جهات الجنوب والغرب والشرق. ومع أن سواحلها ليست غنية بالموانىء كبلاد اليونان إلا أن الساحل الغربي لا يخلو من بضعة خلجان صالحة جداً لرسو السفن. كذلك تقع أخصب سهولها في الجانب الغربي وتواجه الغرب. وترتبط إيطاليا بالغرب والجنوب عن طريق جزيرة صقلية التي لا يفصلها عنها سوى مضيق مسينا، ولا يفصلها عن الساحل الشمالي لأفريقيا إلا مسافة قصيرة. وترتبط بالغرب كذلك عن طريق ساحل خليج ليجوريا. وكان ارتباط إيطاليا بالشرق وثيقاً. إذ أن نهر البو يجري شرقا ليصب في البحر الأدرياتي. كما توجد سلسلة من الجزر تربط ساحلها الشرقي بالساحل الغربي لبلاد اليونان. وكان خليج تارنتوم مفتوحا على مصراعيه لاستقبال السفن القادمة من خليج كورنثة. كذلك وفد إلى إيطاليا مهاجرون من الشمال وعلى الأخص من حوض الدانوب لأن جبال الألب والغابات والمستنقعات لم تقف أي منها حائلاً دون بلوغ المهاجرين شبه الجزيرة حاملين معهم التيارات الحضارية من وسط أوروبا.

وكانت ثروة إيطاليا الطبيعية، ومناخها المعتدل، ومحاصيلها الوفيرة هي

التي اجتذبت إليها هؤلاء المهاجرين. وبينما كانت مراعيها الغنية تغري رعاة وفلاحي وسط أوروبا بالبحث عن موطن فيها، كان ملاحو الشرق والمهاجرون منه يقصدون موانئها الجنوبية المؤدية إلى سهل كمبانيا المليء بالخيرات، ووديان الأنهار الخصيبة في الجنوب، وغاباتها البكر على التلال المتاخمة، وهي غابات كانت غنية بالأخشاب اللازمة لبناء السفن. وبالاجمال كانت إيطاليا ملتقى شعوب آتية من الشرق والجنوب والغرب عن طريق البحر، وشعوب أخرى آتية من الشمال عن طريق البر (عبر ممرات الألب). وكان كل شعب من هذه الشعوب يحمل معه خصائصه الجنسية واللغوية والثقافية فيصبغ الحياة، في إيطاليا بصبغته الخاصة. ويرجع تاريخ أولى الهجرات إلى عصر قديم جدا. ولم تنقطع هذه الهجرات حتى بداية الفترة التاريخية التي نجد فيها إيطاليا مأهولة بشعوب مختلفة الجنس واللغة والنظم والحضارة.

حوالي عام 5000 ق.م.[1] وفد إلى إيطاليا مهاجرون من شمال افريقيا واقتحموها من الجنوب عن طريق صقلية. وقد نزلوا أيضاً بسردينيا وكورسيكا. ويبدو أن مهاجرين آخرين وفدوا عن طريق اسبانيا فساحل فرنسا الجنوبي، واستقروا بمنطقة ليجوريا في الشمال الغربي من شبه الجزيرة الايطالية. وقد وافق مجيء هؤلاء المهاجرين الجدد بداية العصر الحجري الحديث (النيوليثي) إذ أحضروا معهم حضارة تتميز بأسلوب جديد في صنع الأدوات والآلات الحجرية، وهو صقل الحجر (غالباً الصّوان) أو شحذه بدلا من الاقتصار على تشظيته وشطفه كما كان الحال في العصر الحجري القديم (الباليوليثي) وبذلك أمكنهم الانتفاع بطائفة متنوعة من الأحجار كالحجر الرملي والجاديت والصوان. وصنعوا أيضاً أشكالاً كان من العسير الحصول عليها من قبل كالمطارق والفؤوس والأزاميل والهراوات والخناجر ورؤوس الحراب المصنوعة من الصوان (Flint) والأوبسيديان (Obsidian)[2]. واستخدموا الأقواس كسلاح في القتال أو في

الصيد. وكانت مجتمعات العصر الحديث في الشرق الأدنى قد انتقلت منذ زمن بعيد (بين 7000 ـ 5000) من مرحلة جمع الطعام، عن طريق التقاط الثمار إلى مرحلة انتاج الطعام بفضل معرفتها بالزراعة (أو ما يسمى بالثورة الزراعية)، أي زراعة النباتات الغذائية، واستئناس وتربية مختلف الحيوانات للحصول على القوت. ومن الشرق الأدنى انتقل الاقتصاد الزراعي غرباً على امتداد سواحل البحر المتوسط، وشمالاً عبر وسط أوروبا. وقد تعرض أثناء انتقاله من شعب لآخر أو نقله على يد المهاجرين، لعدة تغييرات. ومن المحتمل أنه بلغ صقلية وجنوب إيطاليا حوالي عام 3500، وأنه انتشر في أرجاء إيطاليا وحوض البو وجزيرتي سردينيا وكورسيكا حوالي عام 2500. وكان انتشاره في إيطاليا من الجنوب إلى الشمال بوجه عام، لكن من الجائز أنه دخل الشمال الشرقي من شبه الجزيرة على يد شعوب مهاجرة من منطقة الدانوب. وقد ترتب على بلوغ «الثورة الزراعية» إيطاليا نتيجتان هامتان وهما: نشأة الجماعات المستقرة في قرى تحيط بها الحقول والمراعي، وتضخم عدد السكان نتيجة لتوافر الغذاء بصورة منتظمة.

وكشفت الحفائر الأثرية عن قيام عدة مراكز حضارية مختلفة في إيطاليا حوالي عام 2000 قرب نهاية العصر النيوليثي وهي الشمال الغربي حيث كان سكان ليجوريا لا يزالون يعيشون في كهوف وكانوا يدفنون أيضاً موتاهم. وفي شرق وادي البو (جنوبي النهر) نشأت عدة قرى مكشوفة يستدل على وجودها من بقايا أساسات أكواخها المسماة الآن في الايطالية باسم فونده دي كبانّه Fonde di capanne. وتحتوي هذه الأساسات على رماد المواقد المكشوفة المطمورة فيها فضلات الطعام المتفحمة والنفايات والمهملات والأواني الفخارية المستغنى عنها. وغالبية الأكواخ مستديرة الشكل أو ناقصة الاستدارة، ولها جدران تتركب هياكلها من قوائم خشبية ومقوّاة بأغصان صغيرة متشابكة، أو هي من قش، ومطلية بالطين. ويوجد في وسط كل كهف ما يشبه الحوض لاستقبال مياه

الأمطار التي كانت تنفذ إلى الكوخ من فتحة في سقفه. وليس من المستبعد أن هذا الحوض كان النموذج الأول لقاعة الأتريوم atrium وال Impluvium التي تميزت بها البيوت الرومانية في العصور اللاحقة. كذلك أمكن التمييز في الجنوب بين حضارتين الأولى في صقلية حيث نشأت جماعات كانت بعضها يسكن في كهوف، وبعضها الآخر يسكن في قرى مكشوفة؛ والثانية في جنوب شرق إيطاليا حيث كان الناس يستخدمون كمساكن لهم الكهوف والقرى العامرة بالأكواخ على السواء.

وكانت شعوب العصر النيوليثي في إيطاليا لا تعتمد في الحصول على القوت على الزراعة بقدر اعتمادها على تربية المواشي كالثيران والأغنام والماعز والخنازير. ولم يكن للزراعة وقتئذ ما للرعي من أهمية وان زرعت عدة أنواع من الحبوب وكذلك الكتان. وكان الصيد لا يزال مورداً هاماً من موارد القوت، وعلى الأخص صيد الغزلان والخنازير والأرانب البرية. وإلى جانب صناعة الأدوات والأسلحة الحجرية كانت الصناعتان الرئيسيتان في إيطاليا أثناء العصر النيوليثي هما الأواني الفخارية والنسيج. وكلتاهما لم تكن معروفة في العصر الحجري القديم. وكانت الأواني الفخارية تصنع باليد (لا بعجلة الفخاري) وتجفف في نيران مكشوفة في العراء. وكانت الأواني على أشكال وأحجام متنوعة وتفي بحاجات المنزل ومستلزمات دفن الموتى. واقتصرت زخارف هذه الأواني الفخارية على الأشكال الهندسية المحفورة على السطح أو المرسومة عليه. وتعتبر الجبانات العديدة أحد المصادر إلها مة التي نستقي منها معلوماتنا عن إيطاليا في عصرها النيوليثي. وقد لوحظ أنه كان يسود إيطاليا ـ برغم وجود اختلافات محلية ـ عادات واحدة في الدفن. فكان الموتى يدفنون دائما في وضع متقلص تثنى فيه الذراعان على الصدر مع شد الركبتين إلى الجسد. وكان الموتى يدفنون اما في أرضية الكهوف أو في أخاديد أو في حفر بالعراء. وجرت العادة على تجريد

عظام الجثث من اللحم أو اعادة دفن العظام بعد أن يبلى اللحم، ثم طليها بمغرة حمراء. وكانت ملابس الموتى وأدوات زينتهم تدفن معهم في العادة، فضلاً عن الأسلحة والأواني التي كانوا يستعملونها أثناء حياتهم. ونجد القبور أحياناً مبطنة بألواح حجرية أو مغطاة بها، ونجدها أحياناً أخرى مكدسة بالحجارة لوقاية عظام الموتى. وجدير بالذكر أن أهل حضارة العصر النيوليثي في إيطاليا توصلوا إلى معرفة الملاحة، واستخدموا المراكب المسيّرة بالمجاذيف والأشرعة. وكان ذلك ـ على ما يظن ـ هو الذي أتاح لهم الهجرة من افريقيا إلى صقلية وإيطاليا ثم إلى سردينيا وكورسيكا اللتين كانتا غير مأهولتين بالسكان حتى بداية العصر النيوليثي. كما ساعدتهم الملاحة على عقد صلات مع أقطار أخرى. وبدأ تجار هذه الأقطار بمنطقة البحر المتوسط يترددون على سواحل ايطاليا. وترتب على ذلك نشأة التجارة، وتبادل الأفكار والخبرات مما كفل اطراد التقدم الحضاري.

وفيما عدا المظاهر الحضارية التي كشفت عنها أطلال مساكن هؤلاء القوم ومقابرهم، فإن معلوماتنا عن شعوب إيطاليا في العصر النيوليثي ما تزال طفيفة جداً. ويسمى بعض علماء الآثار حضارة إيطاليا في ذلك العصر بالحضارة الليجورية لكنها لم تكن مقصورة على ليجوريا بل كانت منتشرة في كل إيطاليا وغيرها من أقطار غرب أوروبا. ولم يكن لهؤلاء القوم ـ على ما يبدو ـ اسم مشترك. ولكن من المؤكد أنهم كانوا منقسمين إلى عدد كبير من الوحدات السياسية الصغيرة. ولم يتبق من لغتهم إلا بعض أسماء لأماكن وأنهار وجبال انتقلت إلى لغات الشعوب التي سكنت إيطاليا في العصور التالية. ومن دراسة هذه الأسماء يتبين أنها كانت لغة مختلفة عن اللغات الهندية ـ الأوروبية التي سادت إيطاليا فيما بعد. وأما عن الخصائص البدنية فإن هؤلاء القوم كانوا ـ على ما يبدو ـ ينتمون إلى سلالة البحر الأبيض المتوسط، وهي فرع من المجموعة القوقازية، وقد استقرت على شواطىء البحر المتوسط وجزره منذ العصر النيوليثي. وتتميز

هذه السلالة بالبشرة السمراء، والشعر الأسود، والرأس غير العريضة، والقامة المعتدلة أو القصيرة. وما يزال إنسان هذه السلالة سائداً في إيطاليا وأقطار البحر المتوسط حتى اليوم، بعد استيعابه خصائص السلالة الألبية المستديرة الرأس، الصفراء الشعر، والسلالة النوردية ذات الرأس الطويلة، وهما سلالتان جاءت بهما إلى إيطاليا هجرات لاحقة.

العصر الخالكوليثي (الحجر والنحاس):

لم يلبث سكان إيطاليا في العصر الحجري الحديث أن توصلوا بفضل الاتصالات بالعالم الخارجي إلى معرفة النحاس، وهو أول معدن استعمله الانسان كبديل افضل من الحجر. وفي أغلب الظن أن هذا المعدن استحضر لأول مرة إلى إيطاليا بحرا من جزيرة قبرص الغنية بالنحاس، عبر طريق تجاري كان يمر بكريت وجزر البحر الإيجي، ومنها إلى جنوب إيطاليا فصقلية وسردينيا وكورسيكا وليجوريا. ومن الجائز أيضاً أن النحاس جلب من وادي الدانوب الأوسط الذي كان على اتصال بشمال ايطاليا، وكذلك استورد من اسبانيا التي كانت على اتصال بالجزر المتاخمة لساحل إيطاليا الشمالي الغربي. وكانت كلتا المنطقتين غنية بالنحاس ومصدرا اضافياً لهذا المعدن. وأما خامات النحاس المحلية (في ايطاليا) فكانت لا تزال غير مستغلة. وجدير بالذكر أن دخول النحاس إلى إيطاليا لم يبطل استعمال الأدوات الحجرية حيث أن كميات النحاس الميسورة كانت محدودة، فضلاً عن أنه لم يكن أكثر ملاءمة من الحجر في صناعة بعض الأدوات. ولهذا السبب يسمي العلماء عصر الحضارة الجديدة «بالعصر الخالكوليثي» أي عصر النحاس والحجر، وقد بدأ في إيطاليا حوالي عام 2200. وكانت أهم الآلات المعدنية هي الخناجر والأزاميل التي كانت تصنع من النحاس الخالص. ولم يستمر استعمال الأدوات الحجرية بعد ظهور النحاس فقط، بل أن من صناعتها بلغ أيضاً ذروته في تلك

الحقبة التي تتمثل أجود منتجاتها في رؤوس البلط والمطارق ذات الثقوب.

وليس هناك ما يدل على أن حركة الهجرة إلى إيطاليا كانت نشطة أو واسعة خلال «عصر الحجر والنحاس». ولم تتقدم الحضارة أثناءه إلا تقدما بطيئاً وان كان مطّردا حتى ليتعذر أحياناً أن نميز بين آثار العصر الحجري الحديث وآثار العصر الحجري النحاسي. وفي جنوب إيطاليا ووسطها والجزر المتاخمة تأثر الناس باستعمال الكهوف الطبيعية فحفروا مقابرهم في الجروف وجوانب التلال الصخرية. وقد نشأ عن المقابر الأخدودية المبطنة بالأحجار شكل من المقابر الضخمة المبنية فوق الأرض في جنوب إيطاليا وصقلية وسردينا. وكانت بعض هذه المقابر في شكل قاعة يتكون كل جانب منها وسقفها أيضاً من كتلة واحدة حجرية ضخمة. ويسمى الأثريون هذا النوع من المقابر باسم دولمن **Dolmen**. وترتبط بهذه القاعات المقبرية، أحجار ضخمة كانت تنصب عمودية فوق الأرض في شكل دائري، ويسميها علماء الآثار باسم منهير **Menhir**. وقد استعملت معظم المقابر من نوع «الدولمن» هي والمقابر الكبيرة المنحوتة في الصخر كمدافن جماعية خلال أجيال عديدة. ومن أمثلتها البارزة ما يعرف «بمقابر العمالقة» في سردينيا، وهي قاعات طويلة تشابه «الدولمن» ولها جدران حجرية وأسقف من ألواح حجرية مستوية.

عصر البرونز:

حوالى عام 1800 هبط إيطاليا قوم جدد وافدون من الشمال عن طريق ممرات جبال الألب السويسرية. واستقروا أولاً قرب بحيرة ماجيوري الحالية (**Maggiere**) وبعدئذ توسعوا غرباً وسكنوا حول البحيرات الشمالية الأخرى (في حوض البو). وكانوا يحملون معهم لوناً جديداً من الحضارة يختلف كل الاختلاف عن حضارة سكان وادي البو السابقين، ويشبه إلى حد كبير حضارة

سويسرا (القديمة) وحوض الدانوب الأعلى. ولا يتبين من مستعمراتهم المبكرة أي دليل على وجود الأدوات المعدنية. ولكن مستعمراتهم التالية تكشف عن وفرة من الأدوات البرونزية التي تنتمي إلى مرحلة متقدمة جداً من مراحل تطور حضارة «عصر البرونز»، وتشبه مساكن هؤلاء المهاجرين الوافدين من الشمال مساكن بحيرات سويسرا شبهاً شديداً، إذ كانت تبنى على شواطىء البحيرات المليئة بالمستنقعات والتي تغمرها المياه خلال فصل الأمطار. ولهذا السبب كان هؤلاء القوم يقيمون أكواخهم فوق مصاطب من ألواح خشبية سميكة ترتكز على أوتاد طويلة أو «خوازيق» مغروسة في القاع الرخو تحت الماء. ويطلق الأثريون الآن على هذا النوع من المساكن أو المستعمرات اسم «بلافيته» (Palafitte) وهي كلمة ايطالية حديثة معناها صف من الأوتاد. وكان أهل قرى «حضارة البلافيته» يمارسون مهن القنص والصيد والزراعة، ويصنعون جنادل أو زوارق خشبية مقعرة لاستخدامها في عبور البحيرات، ويطهرون شواطىء البحيرات من الأوحال لاستخدامها في الزراعة. وكانت أهم محاصيلهم القمح والدخن (نوع من الذرة)، ومن بين حيواناتهم الأليفة الثيران والأغنام والكلاب، ثم الخيول في فترة متأخرة. وأما أوانيهم الفخارية فكانت لا تزال تصنع باليد (لا بعجلة الفخاري) من الطفل العادي، وتزخرف بأشرطة أفقية محفورة في السطح تحصر بينها أشكالاً دائرية أو متعرجة. وتشهد بقايا فلكات مغازلهم وبقايا أقمشتهم على براعتهم في فن النسيج. وكانوا يستعملون بلطاً ذات رؤوس مثقوبة مصنوعة من الحجر، فضلاً عن بلط عادية وخناجر مصنوعة من البرونز. ولدينا بعض قرائن تشير إلى أنهم كانوا يألفون استعمال العربات. وكان أهل «حضارة البلافيته» يختلفون عن سابقيهم من سكان حوض البو في أنهم كانوا يحرقون جثث موتاهم (Cremation) بدلاً من أن يدفنوها في الأرض كما هي (Inhumation). وكانوا يضعون الرماد المتخلف في قوارير من الفخار الرمادي اللون مع أدوات

الزينة ومقتنيات الراحلين البسيطة. وقد ـ ظلت «حضارة قرى البحيرات» ـ كما تسمى أحياناً ـ قائمة في شمال إيطاليا حتى حوالي عام 1000 ق.م. فكأنها استمرت حوالي ثمانية قرون في عصر البرونز (1800 ـ 1000 ق.م).

وتتمثل حضارة عصر البرونز في جماعة أخرى كانت تسكن القرى التي اشتهرت عند الأثريين باسم «قرى تيرّا مارا» **Terramara**. وقد ظهرت في الجزئين الأوسط والشرقي من وادي البو في وقت يوافق المراحل المتأخرة من «حضارة بلافيته» (حوالي 1500 ق.م.). وقد أرشد علماء الآثار إلى أماكن هذه القرى تلك التربة السوداء الخصبة التي اكتسبت تلك الصفة من تجمع الطين فيها نتيجة لبقائها مأهولة بالسكان حقبة طويلة. وتعرف هذه التربة في اللهجة الايطالية المحلية الحديثة باسم «تيرّامارا»، وهو اسم يطلق الآن ـ كما أسلفنا ـ على هذه القرى نفسها والحضارة التي كشفت عنها. وقد ثبت الآن أن قرى «تيرّامارا» لم تبن وفقاً لخطة منتظمة أو مطردة. كانت بيوتها عبارة عن أكواخ مستديرة الشكل في أول الأمر ثم بيضاوية الشكل في النهاية. وكانت جدرانها من الأغصان المضفورة والطين، ومقواة بأعمدة خشبية لا يزال بعض أجزائها السفلى قائماً في مكانه حتى اليوم. ولدينا ما يدل على أن هذه المساكن كانت ـ في أحوال قليلة فقط ـ تبنى فوق مصاطب مرتكزة على أوتاد مغروسة في الأرض وكانت قرى «تيرّامارا» على خلاف قرى «بلافيته» مشيدة على أرض جافة بل مرتفعة في بعض الأحيان. غير أن مثل هذه القرى كانت متأخرة زمنياً، وترجع ـ على ما يبدو ـ إلى أن المنطقة كانت تغمرها المياه فترات طويلة. وكانت القرى تحصّن أحياناً بأسوار من الطين النيء وبالخنادق، وأحياناً أخرى بأسوار وتدية. ولا جدال في أن حضارة سكان قرى تيرّامارا (Terramaricoli) كانت أرقى من «حضارة بلافيتي». وتشابه حضارتهم من وجوه عديدة حضارة عصر البرونز المعاصرة لها في بعض أجزاء سهل المجر بحوض الدانوب الأوسط.

كان هؤلاء الغزاة الوافدون من الشمال يمارسون في إيطاليا مهنتي الزراعة والرعي بوجه خاص، ولو أنهم كانوا في الوقت ذاته صيادين ونسّاجين مهرة، وذوي خبرة كبيرة بصنع الأدوات الخشبية والبرونزية. وكانوا يزرعون الكتان وبعض البقول وصنفين من القمح. وقد استخدموا الخيول والثيران والأغنام والخنازير والكلاب في مختلف مآربهم. وتتسم كل أوانيهم الفخارية غير المصقولة، وآلاتهم وأسلحتهم البرونزية، وأدوات زينتهم بطابع خاص ينسب أصله إلى منطقة وسط أوروبا. وقد شاع بينهم ـ إلى جانب الفؤوس ورؤوس الحراب والخناجر المصنوعة من البرونز ـ استعمال السيوف القاطعة ذات الحدين أو السكاكين الطويلة البرونزية. ويبدو أنهم عرفوا استعمال العربات. وكان من بين آلاتهم الموسيقية البوق المصنوع من البرونز. وفي المراحل الأخيرة من «حضارة» تيرّامارا، إن لم يكن في المراحل الأولى، درج القوم على حرق جثث موتاهم ووضع الرماد المتخلف في قدور تعرف الآن باسم قدور عظام الموتى (Ossuaries) أو قوارير رماد الموتى (Cinerary urns). وكانت هذه القدور أو القوارير توضع أول الأمر في صفوف متراصة بجبانات متاخمة للقرى، لكنها عزلت فيما بعد الواحدة عن الأخرى بألواح حجرية. وأخيراً بدأ كل فرد من سكان «تيرّامارا» يبني لنفسه قبراً خاصاً. وفي فترة معينة كان الموتى يحرقون وعليهم ملابسهم دون أن يدفن مع رمادهم أي شيء من مقتنياتهم الدنيوية. لكن لم تلبث أن نشأت مع الاطّراد في استعمال الحفر أو اللحود المنفصلة لموازاة قوارير رماد الموتى ـ نشأت عادة وضع الأسلحة وأدوات الزينة والآنية الفخارية معها. وبازدياد الثروة، واشتداد النزعة الفردية، وبتأثير السكان القدامى الذين بدأوا ينشئون معهم علاقات ودية سواء كرعايا خاضعين أو جيران مستقلين، تغير طابع البساطة الأولى في شعائر دفن الموتى عند سكان «قرى تيرّامارا» وصارت طقوسهم الجنائزية أكثر تنوّعاً وتعقيداً.

وليس لدينا حتى الآن فكرة واضحة من أصول حضارات عصر البرونز في ايطاليا. لكن لا شك في أن هذا العصر هو الذي تسللت أثناءه شعوب جديدة بأعداد غفيرة أتاحت لهم أن ينشروا في شبه الجزيرة اللهجات الايطالية التي اقتلعت اللغة القديمة من كل المنطقة عند بداية الفترة التاريخية. ولم يتبق من تلك اللغة القديمة إلا آثار طفيفة جداً. كانت اللهجات الايطالية تنتمي إلى أسرة اللغات الهندية ـ الأوروبية، وترتبط ارتباطاً وثيقاً باللغة اليونانية واللغة الكتلية. ومن ثم ينبغي أن نفسر ظهورها في إيطاليا كنتيجة لحركة الانتشار العام التي قامت بها الشعوب المتكلمة باللغات الهندية ـ الأوروبية (والمسماة أحياناً بالآرية) واتجهت منها نحو الجنوب والغرب. ويمكن أن نتتبع سيرها من ايران عبر أعالي بلاد الرافدين فآسيا الصغرى إلى شبه جزيرة البلقان خلال الفترة الممتدة بين عامي 2000 و 1000 ق.م. ولعل أهل حضارتي «فلافيته» و «تيرّامارا» كانوا ينتمون أصلاً إلى تلك الشعوب الهندية ـ الأوروبية. غير أنهم كانوا بمعزل عن مجرى التيار الرئيسي للشعوب التي دخلت شبه الجزيرة الايطالية مجتازة المنطقة الواقعة حول رأس البحر الأدرياتي أو عابرة هذا البحر من الليريا (غرب البلقان) إلى شبه الجزيرة الايطالية. ولا نستطيع الآن قبول الرأي القائل بأن أهل «حضارة تيرّامارا» قد هاجروا من وادي نهر البو في الشمال إلى جنوب شبه الجزيرة، ولا الرأي القائل بأنهم الأجداد الأوائل للشعب اللاتيني التاريخي. إن احتلال «الايطاليين» Italici لمعظم شبه الجزيرة الايطالية وصقلية حدث ـ على ما يرجح ـ في أواخر عصر البرونز، وتم حوالي عام 900 ق.م.

وقد تقدمت حضارة عصر البرونز في صقلية وسردينيا وجنوب إيطاليا تقدماً ملحوظاً بفضل المؤثرات الوافدة من كريت وبلاد اليونان. ولعلها كانت أسبق في الظهور هناك من نظيرتها في شمال ايطاليا. وقد أنشأ أهالي حضارة عصر البرونز في الجهات الثلاث المذكورة علاقات تجارية مع مراكز الحضارة المنيوية في

كريت منذ بداية ذلك العصر (1800)، ومراكز «الحضارة الميكينية» (بعد عام 1600)، كما يتبين من محتويات مقابر عصر البرونز في صقلية. ولنذكر منها ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ السيوف الطويلة المستدقة الأنصال، والبلط الصغيرة البرونزية، والخناجر الميكينة الطراز، وأدوات الزينة من مختلف الأنواع. وفي ذلك العصر كان مستوى الرخاء المادي والتقدم الحضاري في صقلية أرقى منه في جنوب ايطاليا، حتى أن حضارة صقلية وقتذاك تركت تأثيراً قوياً في إيطاليا بوجه عام. وفي عصر البرونز أيضاً بلغت سردينيا ذروة حضارتها. ولم يتوقف فيها بناء المقابر الحجرية الضخمة المسماة «بمقابر العمالقة». لكن أغرب منها وأشد انطباعاً في النفس منظر تلك القلاع الحجرية الضخمة المسماة نوراجي (Nuraghi) والتي يبدو أنها استخدمت كحصون دفاعية.

عصر الحديد:

حدث الانتقال من «عصر البرونز» إلى «عصر الحديد» في إيطاليا في أعقاب هجرات تلك الجماعات الهندية ـ الأوروبية المتكلمة باللهجات الايطالية سواء من منطقة حوض الدانوب الأوسط أو من شبه جزيرة البلقان. ويختلف تاريخ ظهور فجر «عصر الحديد» في إيطاليا من اقليم إلى آخر، فقد ظهر في صقلية حوالي عام 1000 ق.م. بينما لم يظهر في وسط إيطاليا وشماليها إلا حوالي 800 ق.م. على ما يرجح. وقد استغرق الطور المبكر من عصر الحديد (وهو طور ينتمي إلى ما قبل التاريخ في ايطاليا)، استغرق حوالي قرنين من الزمان أي من عام 800 حتى عام 600 على وجه التقريب. وتتميز تلك المرحلة بنشأة حضارات اقليمية في جهات مختلفة من حوض البو وشبه الجزيرة الايطالية. وكانت شعوب بعض هذه الحضارات تمارس عادة حرق جثث الموتى شأنها في ذلك شأن شعوب حضارتي «بلافيته» و «تيرّامارا» في عصر البرونز. وقد انتشرت هذه العادة في منطقة أميليا

بالجزء الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة (جنوبي وادي البو)، وفي اتروريا إلى الشمال من نهر التيبر، وفي لا تيوم إلى الجنوب من ذلك النهر. ولكن عادة دفن الجثث كما هي كانت تمارس أيضاً في الاقليمين الأخيرين (أتروريا ولاتيوم). وكانت هذه هي العادة السائدة في بقية أنحاء شبه الجزيرة الايطالية وفي الجزر المجاورة لها. وقد تأخرت سردينيا وكورسيكا عن إيطاليا وصقلية في الانتقال من «عصر البرونز» إلى «عصر الحديد». وفي الحق أن عصر الحديد في سردينيا يتميز بتدهور عام في الحضارة.

ويمكن اعتبار «حضارة فيلانوفا» Villanova نسبة إلى قرية بالقرب من بولونيا ـ نموذجاً لما كانت عليه الحضارة في جميع شمال إيطاليا في فجر «عصر الحديد»، كانت المستعمرات فيها عبارة عن قرى مكشوفة غير منتظمة تتناثر فيها الأكواخ المستديرة وكان أهل هذه الحضارة ـ التي اصطلح على تسميتها «بحضارة فيلانوفا» ـ يستعملون في أول الأمر قوارير من الفخار ـ وبعدئذ من البرونز ـ غريبة ذات شكل مخروطي مزدوج لكي يودعوا فيها رماد الموتى وعظامهم. وكانت هذه القوارير تدفن في حفر مغطاة بألواح حجرية (Tombe a pozzo) أو في قبور مستطيلة الشكل مبطنة بالحجر (Tombe a fossa). وكانت أسلحتهم هي السيوف والحراب والبلط المصنوعة من الحديد (الذي استوردوه ـ على ما يظن ـ أولاً من حوض الدانوب، وبعدئذ من جزيرة البا الغنية بهذا المعدن). وعرفوا من أدوات الزينة الخواتم والأساور الذهبية والدبابيس ذات الرؤوس الزجاجية الملونة، والخرز الكهرماني[3]. وكانوا يضعون ملابسهم من الصوف، ويصلون أجزاءها بعضها بالبعض الآخر بمسابك برونزية دقيقة الصنع. وقد طرأ ـ في عصر فجر الحديد ـ على صناعة البرونز تحسن كبير نتيجة لابتكار طريقة لصنع الصفائح الرقيقة من البرونز بعد طرقه. وقد ساعدت هذه الطريقة على صناعة الخوذات البرونزية والدروع والتروس، وكذلك الصناديق وغيرها من الأدوات المنزلية.

لقد توقفت الهجرات في عصر البرونز المتأخر من حوض الدانوب الشرقي ومن الليريا حوالي عام 900 ق.م. وفي القرون التالية مباشرة وفد إلى إيطاليا من الشرق شعبان آخران عن طريق البحر، واستقرا بالساحل الغربي لإيطاليا وجزيرة صقلية. كان أحدهما هم الاتروسكيين (Etrusci) والآخر هم الاغريق (Graeci) وقد وطد الأتروسكيون أقدامهم على الساحل الغربي إلى الشمال من مصب نهر التيبر، وأسس الاغريق مستعمراتهم في الجنوب الغربي والجنوب من خليج نابلي حتى خليج تارنتوم. وحدثت هجرة الأتروسكيين في أوائل القرن الثامن ق.م. وأما هجرة الاغريق فاستغرقت فترة امتدت بين منتصف القرن الثاني (بعد حوالي 750 ق.م) ومنتصف القرن السادس (550 ق.م)، بل انهم أسسوا بعض مستعمرات بعد هذا التاريخ وكان للمستعمرات الأتروسكية والاغريقية أهمية كبيرة لأنها وثقت صلات إيطاليا بحضارة العالم القديم شرقي البحر المتوسط. وعن طريق التجارة مع قرطاجة الفينيقية أخذ الأتورسكيون يجلبون إلى إيطاليا السلع الشرقية، ومعها المؤثرات الشرقية، كما ساعدوا المستعمرات الاغريقية في الجنوب ـ بطريق غير مباشر ـ على نشر الحضارة والثقافة اليونانية في شبه الجزيرة. ولم تلبث شعوب إيطاليا أن تخلصت ـ تحت تأثير هذه الصلات الجديدة ـ الواحدة بعد الأخرى من البدائية والبربرية، وأقبلت على الحياة المدنية، وانبثق فجر تاريخها، إذ إن الاغريق ـ في الواقع ـ هم أول من دوّنوا تاريخ إيطاليا وأخبار شعوبها.

شعوب إيطاليا في القرن السادس ق.م:

لقد وافق فجر «عصر الحديد» في إيطاليا فترة تكوين الشعوب المختلفة التي قامت بأدوار هامة في تاريخها اللاحق. ومنذ بداية القرن السادس ق.م. يصبح من الميسور أن نستعرض تاريخ تطور هذه الشعوب السياسي والاقتصادي

والحضاري على نحو متصل، وإن يكن مجملاً فقط في بعض الفترات. فإذا استعرضنا الوضع في إيطاليا في القرن السادس ق.م. نجد أنها قد أصبحت مأهولة ـ كنتيجة للهجرات السالفة الذكر ـ بشعوب مختلفة ويمكن تقسيم هذه الشعوب إلى مجموعتين:

1 ـ الأمبريون ـ السابلليون واللاتين وهم من يطلق عليهم في العادة اسم الايطاليين Italici تمييزاً لهم عن شعوب المجموعة الأخرى غير المتجانسة.

2 ـ مجموعة غير الايطاليين التي تشمل الليجوريين واللاليريين والأتروسكيين والاغريق.

وكان الامبريون ـ السابيليون (Umbri – Sabelli) ينتظمون عدداً كبيراً من الجماعات أو القبائل المعروفة بالشجاعة وشدة المراس كالأومبريين (Umbri) والسابينيين (Sabrni) والآيكويين (Aequi) والمارسيين (Marsi) والفولسكيين(Volsci) والفستينين(Vestini) والفرنتانيين Frentani) والسمنيين (Sannites) أو السابليين (Sabelli) [4]. وكانوا يسكنون في وديان جبال الأبنين الوسطى. لكنهم لم يقتصروا على سكنى المناطق الجبلية إذ توسعوا خلال القرن السادس نحو الساحل الغربي في جنوب لاتيوم، ونحو وسط الساحل الأدرياتي في الشرق. بل انهم توغلوا خلال القرنين الخامس والرابع في الجنوب وأقصى الجنوب الغربي على حساب الشعوب المجاورة كسكان أقاليم كمبانيا ولوكانيا وبروتيوم[5]. وفي الحق أن الفرع الشمالي منهم هو الذي عرف باسم «الاومبريين» بينما عرف الفرع الجنوبي باسم «السابلليين»[6]، وأما اللاتين (Latini) ـ الذين قدّر لهم أن يسودوا إيطاليا بعد سنين ـ فكانوا يسكنون في منطقة وسطى بين هذين الفرعين أي في سهل لاتيوم (Latium) الذي يقع جنوب المجرى الأدنى لنهر التيبر. وكان «الأومبريون ـ السابلليون» واللاتين ينحدرون جميعاً من أصل واحد، ويتكلمون لغات مشتقة من أصل مشترك،

وتشكل الفرع القديم من أسرة اللغات الهندية ـ الأوروبية، فكان الأومبريون يتكلمون اللغة الأومبرية [7]، والسابلليون وسائر القبائل المنتمية إليهم يتكلمون اللغة «الأوسكية» بلهجاتها المختلفة[8]. وأما اللاتين فكانوا يتكلمون لغة تعرف «باللاتينية». وبينما تؤلف الاومبرية والأوسكية شعبة واحدة من اللغات الايطالية القديمة، تؤلف اللاتينية شعبة أخرى متميزة عنهما. وجدير بالذكر أن الشعب اللاتيني قد تكوّن من امتزاج الغزاة الذين كانوا يتكلمون لغة هندية... أوروبية ويمارسون عادة حرق جثث الموتى، بسلالة سكان العصر النيوليثي الذين كانوا يقلون عنهم عدداً ويمارسون عادة دفن جثث الموتى كما هي. وقد اختلطت بهذين العنصرين (عند بداية القرن السادس ق.م.) نسبة ضئيلة من العنصر الاتروسكي[9].

وأما عن «الشعوب غير الايطالية» فكانت موزعة في إيطاليا خلال القرن السادس ق.م. على النحو التالي:

أ ـ الليجوريون Ligures: كانوا يقطنون الركن الشمالي الغربي من إيطاليا الذي يشمل وادي البو على امتداده شرقاً حتى نهر «تيكينوس» وكذلك الساحل على امتداده جنوبا حتى نهر «أرنو». وكانوا سلالة منحدرة من سكان العصر النيوليثي لم تمتزج بالمهاجرين الذين وفدوا في العصور التالية. لكنهم كانوا يتكلمون لغة هندية ـ أوروبية في بداية الفترة التاريخية، وان كانت ظروف اكتسابهم هذه اللغة لا تزال غير معروفة[10].

ب ـ الالليريون: ويقصد بهم الشعوب الالليرية الأصل. وكانت تسكن في منطقتين رئيسيتين، وقد عرفت بأسماء مختلفة تبعاً لذلك. ففي الجزء الشرقي من إيطاليا الممتد من نهر البو إلى جبال الألب شمالا ومن بحيرة جاردا حتى شبه جزيرة هستريا، كان يسكن الفينيتيون (Veneti) الذين كانت لغتهم كلغة الالليريين هندية ـ أوروبية. وفي الجزء الواقع إلى الشمال والغرب من موطن الفينيتيين،

تحت سفوح الألب ووديانها، كان يقطن شعب يسمى بالرايتيين (Raeti) الذين كانت لغتهم خليطاً من عناصر الليرية وغير الليرية. ومن هذين الجزئين تتألف المنطقة الرئيسية الأولى التي كانت الشعوب الالليرية الأصل تسكنها في الشمال. وأما المنطقة الرئيسية الثانية لهم فكانت في الجنوب حيث كان عدد من القبائل الالليرية الأصل تعيش في جزء من اقليم أبوليا (على الساحل الجنوبي الشرقي)، وفي اقليم كلابريا القديمة[11] (كعب الحذاء الايطالي) على امتداد الساحل الأدرياتي وخليج تادنتوم في الجنوب. وكانت هذه القبائل تحمل أسماء مختلفة. لكن غالباً ما يطلق عليها كلها اسم اليابيجيين (Iapygi) وكانت قد استقرت في تلك الجهات حوالى عام 900 ق.م. وطغت على سكانها القدامى الأصليين.

حـ ـ شعوب الجنوب القديمة المختلطة بالالليريين: كانت الغالبية العظمى من هذه الشعوب تنحدر من سكان العصر النيوليثي المختلطين عرقياً بالألليريين. وكانوا يسكنون في اقاليم كمبانيا ولوكانيا وبروتيوم (مقدمة الحذاء الايطالي)، ويحملون أسماء قبلية مختلفة كالأوسكيين والأوبيكيين.

وجدير بالملاحظة أن أجزاء كثيرة من المناطق التي ذكرناها قد احتلها الاتروسكييون في القرن السادس ق.م. على نحو ما سنرى بعد قليل.

د ـ الأتروسكيون: وفدوا إلى إيطاليا ـ على نحو ما ذكرنا ـ في أوائل القرن الثامن ق.م. ونزلوا بالمنطقة الواقعة غربي جبال الأبنين الرئيسية والمحصورة بين نهر الأرنو في الشمال ونهر التيبر في الجنوب. وقد عرفت المنطقة باسم اتروريا (Etruria). وكان السواد الأعظم من سكان هذا السهل خليطاً من سلالة سكان العصر النيوليثي والمهاجرين إلى إيطاليا منذ أواخر عصر البرونز الذين كانوا يتكلمون لغة هندية ـ أوروبية ويتفوقون عليهم عددا وحضارة. ولما جاء الاتروسكيون احتلوا المنطقة وطغوا على هؤلاء السكان السابقين الذين

كانوا يختلفون عنهم لغة وحضارة. ولكن الأتروسكيين أخذوا يتوسعون في إيطاليا منذ القرن السادس ق.م. وسيطروا على عدة مناطق متباعدة: ففي الشمال وضعوا أيديهم على الأجزاء الوسطى والشرقية من وادي البو، محتلين المنطقة الواقعة بين موطن الليجوريين وموطن الفنيتيين. واجتاحوا القطاع الساحلي الممتد من نهر البو حتى مدينة أريمينوم على الأدرياتي. ثم وطدوا أقدامهم في عدة مراكز باقليم لاتيوم في وسط شبه الجزيرة. وانحدروا جنوباً وأسسوا بعض المستعمرات في اقليم كمبانيا. كذلك عبر الأتروسكيون البحر وأسسوا مستعمرات في جزيرتي ألبا وكورسيكا المتاخمتين لاتروريا. وفي الحق أن البحر في تلك المنطقة قد عرف بالبحر «التيراني» نسبة إليهم لأنهم كانوا يعرفون عند اليونان باسم التيرينيين (Tyrrhenoi)، وعرفت بلادهم باسم تيرينيا (Tyrrhenia). كذلك يسمون أحياناً «بالتوسكيين» (Tusci)، أو «الاتروريين».

هـ ـ الاغريق: وهؤلاء هاجروا إلى جنوب إيطاليا وجنوبها الغربي واحتلوا المناطق الساحلية وأسسوا عدداً كبيراً من المستعمرات ابتداء من منتصف القرن الثامن ق.م. (أو بعده بقليل) حتى منتصف القرن السادس ق.م.

وجدير بالملاحظة أنه حتى نهاية القرن السادس ق.م. لم يكن قد ظهر أي أثر لتحرك السابلليين من أواسط الأبنين نحو جنوب شبه الجزيرة واحتلال مواقع فيه.

و ـ سكان الجزر: كان سكان صقلية، قبل الاستعمار الاغريقي، يمتون بصلات نسب قوية بسكان مناطق جنوب إيطاليا المتاخمة لجزيرتهم. وكانوا يعرفون باسم الصقليين (Suculi) أو السيكانيين (Siculi). ويرجع الطابع الهندي ـ الأوروبي في لغتهم إلى صلاتهم بالالليريين. ولم يأت القرن السادس ق.م. حتى كان الساحلان الشرقي والجنوبي، وأجزاء من الشمالي قد وقعت في يد

الاغريق الذين توغلوا أيضاً في قلب الجزيرة. غير أن الطرف الغربي الأقصى من الجزيرة فقد أنشأ فيه القرطاجيون عدداً قليلاً من المستعمرات.

وأما سردينيا فكان معظمها في يد سكانها القدامى الذين استوطنوها منذ العصر النيوليثي وعصر البرونز، ولو أن القرطاجيين وطدوا أقدامهم في الساحل الجنوبي للجزيرة.

وبالمثل كان العنصر القديم من السكان في كورسيكا يسيطر على الجزيرة فيما عدا قطاع على الساحل الشرقي سيطر عليه الأتروسكيون.

يتبين مما سبق أنه في فجر التاريخ الروماني كانت الشعوب الايطالية وغير الايطالية لا تزال غير مترابطة بل كانت جماعات متنافرة، على الرغم من امتزاج بعض عناصرها المتباينة في وقت مبكر وغلبة اللهجات الهندية ـ الأوروبية. لكن يلاحظ أن هذه اللهجات كانت متميزة الواحدة عن الأخرى. ولم ينشأ بينها أدب مشترك يساعد على التقريب بين هذه اللهجات وثقافاتها على نحو ما قربت الملاحم الهومرية بين الاغريق الأوائل برغم اختلاف لهجاتهم. ولا ساعدت على الربط بينهم عبادة دينية مشتركة. وكانت آلهتهم متباينة أشد التباين ومصطبغة بصبغة محلية واضحة. ولم يكن لدى هذه الشعوب أعياد دينية مشتركة كتلك الأعياد الهللينية العامة التي أسهمت في بناء القومية الاغريقية. وقد نشبت بينها الحروب بسبب المنازعات على الحدود. وقد ظل العداء دفينا فترة طويلة بين سكان السهول وسكان التلال القريبة. إذ دأب الأخيرون على الاغارة على السهول الخصبة طمعاً في خيراتها وللسلب والنهب وعلى الأخص في بلد كإيطاليا ينقسم انقساما واضحا إلى مناطق جبلية وسطى (على امتداد الأبنين) وسهول ساحلية متاخمة لها كإتروريا ولاتيوم وكمبانيا.

ونخلص من توزيع شعوب إيطاليا عند نهاية القرن السادس ق.م. إلى أنه لم يكن هناك وحدة جنسية أو ثقافية بين أنحائها المختلفة. وكان ذلك الوضع

يشكل عقبة أخرى إلى جانب العوائق الجغرافية التي وضعتها الطبيعة في طريق قيام وحدة سياسية وتكوين أمة ايطالية.

ولما كان الاتروسكيون من ناحية، والاغريق من ناحية أخرى هما الشعبين اللذين كان لهما تأثير بالغ الأهمية في الرومان وحضارتهم، فمن الملائم أن نتحدث عن كل منهما بشيء من التفصيل.

هوامش ومراجع الفصل الثاني

1 ـ التواريخ كلها قبل الميلاد إلا إذا قرنت بما يفيد غير ذلك.

2 ـ حجر صخري بركاني أسود لامع كالزجاج شديد الصلابة، واشتهرت به جزيرة ميلوس في البحر الايجي.

3 ـ كان الكهرمان يستورد من منطقة بحر البلطيق. ولعل ذلك يدل على قيام تبادل تجاري عبر القارة الأوروبية مع الشمال. وقد ظل هذا التبادل قائماً بصورة متقطعة حتى القرن الثالث ق.م.

4 ـ كانوا في جوهرهم يمثلون السلالة الباقية من سكان العصر النيوليثي بعد امتزاجها امتزاجاً شديداً بالغزاة الذين وفدوا من الشمال وأدخلوا في لغتهم عنصراً هندياً

5 ـ كان أغلب سكان لوكانيا وبروتيوم (في الجنوب الغربي) ينحدرون من سكان العصر النيوليثي المختلطين باللير ين الدين صبغوا لهجاتهم المحلية بصبغة هندية ـ أوروبية. وكانوا وثيقي الصلة بأهل كمبانيا، ويحملون أسماء قبلية مختلفة كالأوسكيين Osci والأوبكيين Opici وغير ذلك من الأسماء.

6 ـ كانت المنطقة المحصورة بين الساحل الشرقي للأدرياتي (حتى جنوب مدينة أنكونا) وهضبة أبروزي Abruzzi الشاهقة في جبال الأبنين يحتلها قوم يسمون بيكنتيس Picentes اشتهروا بالشجاعة وحب القتال. ويرجح أنهم كانوا سلالة منحدرة من أصل نيوليثي، وان امتزج بهم ـ على ما يبدو ـ عنصر الليري امتزاجاً طفيفاً. وقد استطاعوا صد اغارات أهل حضارة فيللانوفا في الشمال. وكانوا يمارسون ـ على نقيضهم ـ عادة دفن جثث الموتى كما هي. ويرتبط تاريخهم المبكر بتاريخ ساحل الليريا المواجه لهم في غرب البلقان. وأما تاريخهم اللاحق فيرتبط باغريق جنوب إيطاليا الذين تبادلوا معهم التجارة عن طريق البر.

7 ـ إن معرفتنا «باللغة الأومبرية» مستمدة كلها تقريباً من «ألواح اجوفيوم» (Tabulae Iguviae). واجوفيوم هي بلدة جوبيو (Gubbio) الحديثة في اقليم أومبريا. وبعض هذه الألواح البرونزية مكتوب بالأبجدية الأومبرية، وهي مقتبسة (عن طريق الأتروسكية) من اليونانية. وأما بقية الألواح فمكتوبة بالأبجدية اللاتينية. وترجع أقدم هذه الألواح إلى حوالي عام 400 ق.م. وأحدثها إلى ما قبل عام 90 ق.م ويتضمن النص المدون على هذه الألواح محضراً أعمال هيئة أو جماعة أخوية كهنوتية مختصة بالطقوس والعبادات، وهي شبيهة «بجماعة الأخوة الأرفاليس» الرومانية. وفي المحضر قواعد تنظيمية لتطهير اجوفيوم تطهيراً دينياً، وبعض قرارات إدارية أخرى وتفوق ألواح أجوفيوم في شمولها ومضمونها وقدمها كل الوثائق الأخرى المتصلة بدراسة الديانة الايطالية القديمة، فضلاً عن كونها المصدر الرئيسي لمعرفتنا باللغة الأومبرية.

8 ـ غالباً ما يقتصر مفهوم «اللهجات الايطالية القديمة» على الأومبرية «والأوسكية» وهما اللهجتان الرئيسيتان غير اللاتينيتين في هذا الفرع الايطالي القديم من أسرة اللغات الهندية ـ الأوروبية. وقد وجدت النقوش المدونة بالأوسكية في أقاليم سمنيوم وكمبانيا وأبوليا ولوكانيا وبروتيوم. وأقدمها عبارة عن كتابات مرسومة على العملة (450 ـ 350 ق.م) وأحدثها عبارة عن نقوش عابرة أو ما يسمى عادة بالمخربشات graffiti ـ مدونة على جدران شوارع مدينة بومبي Pompeii ـ قرب نابلي ـ (بعد عام 63م). ومعظمها مكتوب بالأبجدية الأوسكية المقتبسة من اليونانية (السائدة في شبه جزيرة خالكيديكي) عن طريق الأتروسكية. غير أن قليلاً منها مدون بالأبجدية اللاتينية (ويشتمل على أطول نص أوسكي، وهو المدون على «لوحة بانتيا Tabula Bantina المودعة الآن بمتحف نابلي، وتتضمن قواعد خاصة بتنظيم الشؤون البلدية في مدينة بانتيا في حوالي عام 125 ق.م)؛ والبعض الآخر الذي اكتشف في الجنوب مدون بالأبجدية اليونانية. ولم تكن الأوسكية مجرد لهجة محلية أو اقليمية، بل كانت هي اللغة الرئيسية في إيطاليا الوسطى حين كانت اللغة اللاتينية لا تزال مقصورة على روما ولاتيوم.

9 ـ كانت هناك على تخوم لاتيوم عدة قبائل صغيرة كالفاليسكيين (Falisci) والهرنيكيين (Hernici) تمت بصلة قرابة وثيقة للاتين ولا تختلف عنهم في الجنس أو اللغة أي اختلاف جوهري. ومن ثم يمكن ادراجهم تحت اسم «اللاتين».

10 ـ كان جانب كبير من سكان جزيرة كورسيكا ليجوري الأصل.

11 ـ من الغريب أن اسم كلابريا Calabria صار يطلق ـ حتى منذ العصر الروماني ـ على «مقدمة الحذاء» الايطالي (أي على اقليم بروتيوم (Bruttium) بدلاً «من كعب الحذاء».

الفصل الثالث

الأتروسكيون والاغريق

الأتروسكيون

كان الأتروسكيون في الواقع هم أول من أتاحوا للسلالة الايطالية فرصة الظهور كأمة قوية في حوض البحر المتوسط. ولكي نفهم كيف تم ذلك ينبغي أن نلقي نظرة على خريطة لوسط إيطاليا تمدنا بصورة واضحة لمرتفعات هذه المنطقة من شبه الجزيرة. ويتبين من دراسة هذه الخريطة أن التيبر، وهو النهر الوحيد ذو الأهمية التاريخية، يقسم ساق إيطاليا الطويلة قسمين عند منتصفها على وجه التقريب. ويتألف هذا النهر من عدة فروع تنحدر من وسط جبال الأبنين، لكنها تتجمع في نهر سريع غير عريض المجرى يندفع من تلك المنطقة الجبلية التي تبعد عن البحر حوالي خمسة وعشرين ميلاً إلى اقليم لاتيوم «كمبانيا الحالية» (Latium)[1]. ويدور النهر حول الحافة الشمالية لهذه المنطقة المستوية نوعاً ما، ويصب في البحر التيراني عند منتصف الساحل الغربي تقريباً لشبه الجزيرة دون أن ينشىء ميناء طبيعياً. وقد نشأت في شمال النهر والسهل عدة مدن، وفيها كان يسكن الاتروسكيون الذين لم يعرف بعد اصلهم على وجه اليقين. فما يزال الخلاف قائماً بين الباحثين حول أصل الاتروسكيين. وفي الحق أن المؤرخين القدامى أنفسهم اختلفت رواياتهم حول هذا الموضوع. وأياً كان الأمر، فالبعض يرى مع هيرودوت[2] أن الأتروسكيين جاؤوا من الشرق أي من ليديا بآسيا الصغرى أو من جزيرة لمنوس في شمال البحر الايجي. ويرى البعض الآخر مع ديونيسيوس

إلها ليكرناسي[3]، أنهم شعب قديم نشأ في ايطاليا. وثمة رأي ثالث يقول إنهم مهاجرون وفدوا إلى إيطاليا من وراء شمال الألب أو من أراضي الدانوب أو كانوا مزيجاً من هؤلاء المهاجرين والسكان الأصليين. غير أن القرائن اللغوية ترجح الرأي القائل بأن الاتروسكيين كانوا دخلاء كالاغريق جاؤوا إلى إيطاليا بحراً من شرق البحر المتوسط، وفي أكبر الظن من إحدى جهات آسيا الصغرى المتاخمة لساحلها الغربي.

ولما كان الأتروسكيون من ناحية، والإغريق من ناحية أخرى هما الشعبين اللذين كان لهما تأثير بالغ الأهمية في الرومان وحضارتهم، فمن الملائم أن نتحدث عن كل منهما بشيء من التفصيل.

وينبغي أن نؤكد في الوقت نفسه أن الحضارة الاتروسكية (في العصر التاريخي) نشأت في أتروريا نفسها ولم تجلب من الخارج.

كذلك لا يزال الجدال محتدماً حول تاريخ استقرار الاتروسكيين في ايطاليا. وقد ساد الاعتقاد فترة من الزمن بأنهم ربما يكونون شعب «تورشا» المذكور بين «شعوب البحر» التي أغارت على مصر بحراً حوالي عام 1226 ق.م. لكن هذا على ما يبدو الآن اعتقاد خاطىء. ومن الأصوب ـ في ضوء الكشوف الأثرية الحديثة ـ أن نؤرّخ نزولهم في إيطاليا بالشطر الأول من القرن الثامن ق.م. أي قبل استعمار الاغريق لجنوب إيطاليا وصقلية بفترة غير طويلة. ومن المرجح أيضاً أن الاستعمار الاتروسكي لم يكن حركة غزو واسع النطاق بقدر ما كان حركة تسلل تدريجي، قامت بها جماعات صغيرة وفدت في أعقاب التجار الاتروسيكيين الأوائل باحثة عن مصادر غنية بالحديد والنحاس.

ولم يكن عددهم كبيراً لكن حضارتهم كانت أرقى من حضارة الأهالي الوطنيين وكانوا متفوقين في السلاح والتنظيم العسكري. وساعدهم ذلك في الاستيلاء على المراكز الحيوية القريبة من الساحل وبخاصة على مدينتي

تاركوييني (Tarquinii) وكايري (Caere)، وفي التوغل ـ بعد ذلك ـ في شبه الجزيرة والسيطرة على مراكز عمرانية أخرى كانت قائمة منذ فجر عصر الحديد. وقد ترتب على ذلك أن نشأت عدة مدن أتروسكية في المنطقة الواقعة بين «الأرنو» و «التيبر». وكانت كل منها عاصمة لإمارة أو مملكة صغيرة. وقد اندمجت أقوى هذه المدن، وعددها اثنتا عشرة، فيما يشبه العصبة بقصد الاحتفال المشترك بالأعياد الدينية. لكن المدن ظلت كل منها محتفظة باستقلإلها السياسي. وكان يحكم كل منها ملك يعاونه مجلس من زعماء الأسر الشريفة (Lucumones). لكن حدث بعد مرور فترة من الزمن أن سقطت الملكيات وقامت على أنقاضها حكومات أرستقراطية. ولم يكن الأترورريون الأصلاء يشكلون سوى أقلية صغيرة بين السكان في مدن أتروريا وظلوا هم الفئة الأرستقراطية المسيطرة. ومع أنه كان بوسعهم أن يفرضوا لغتهم على رعاياهم الايطاليين إلا أنهم لم يندمجوا معهم بل أخضعوهم لسيطرتهم واستغلوهم لتحقيق أهدافهم الخاصة.

وعند نهاية القرن السابع ق.م. عبر الأتروسكيون نهر التيبر واجتاحوا جانباً كبيراً من اقليم لاتيوم، واحتلوا روما ومواقع أخرى هامة. وفي أوائل القرن السادس زحفوا جنوباً واحتلوا الأراضي المنخفضة الخصبة في كمبانيا حيث أصبحت مدينة كابوا (Capua) مركزاً رئيسياً لهم. واستطاعوا بمعاونة القرطاجنيين إرغام الاغريق على إخلاء مستعمرة الآلايا (Alalia) في جزيرة كورسيكا حوالي عام 536 ق.م. وآلت إلى الاتروسكيين كل الغابات الفسيحة في الجزيرة، وان لم يحتلوا أبداً سوى قطاع ضيق على امتداد ساحلها الشرقي. وقرب نهاية القرن السادس اجتاز الاتروسكيون الأبنين ونزلوا في وادي البو حيث غزوا المنطقة الوسطى التي تقع بين موطن الليجوريين وموطن الفينيتيين وتمتد من الساحل الأدرياتي حتى جبال الألب شمالاً. وكانت فلسينا (Felsina)

القريبة من بولونيا الحديثة هي مدينتهم الرئيسية في شمال الأبنين. وقد اشتق البحر الأدرياتي اسمه من اسم ميناء أدريا (Adria) الذي أسسه الاتروسكيون شمالي مصب نهر البو مباشرة، في أراضي الفينيتيين[4].

هكذا أصبح الأتروسكيون في القرن السادس ق.م. أقوى جماعة سياسية في ايطاليا، وإن كانت مقاومة الاغريق لهم في كمبانيا قد حالت دون توحيد إيطاليا تحت السيادة الاتروسكية. ولم يقم مركز الاتروسكيين على أساس وطيد إذ عجزوا عن بناء نظام سياسي مستقر. وكانت فتوحاتهم داخل أتروريا وخارجها قد تمت على يد جماعات محاربة صغيرة لا يوجد بينها أي تنسيق أو تعاون وثيق. وقد أنشأت ولايات منفصلة لا ترابط بينها أو حلف متين. ولم تكن تعترف بأي سلطة مركزية ولو أنها كانت تتبادل المساعدات في وقت الحرب. كذلك أدت قسوة الاتروسكيين في معاملة رعاياهم إلى انعدام روح الولاء والنفور بين هؤلاء الرعايا. وترتب على ذلك أنه كلما توسع الاتروسكيون في فتوحاتهم ازداد حكمهم تعرضاً للأخطار.

ولم تلبث أن تدهورت قوة الأتروسكيين. وكانت أول ضربة تلقوها في إقليم لاتيوم حيث ثار أهل روما وطردوا الملك الاتروسكي تاركوينيوس «المتغطرس»، وألغوا الملكية عام 510 وأقاموا الجمهورية في العام التالي 509 ق.م. وتمردت بعض المدن اللاتينية الأخرى وألحقت الهزيمة ـ بالتعاون مع أرسطوديوس، حاكم كوماي الاغريقي ـ بجيش اتروسكي عند بلدة أريكيا (Aricia)[5] حوالي عام 505. وقد حاول الاتروسكيون بعد فترة قصيرة دعم مركزهم المتزعزع فشنوا هجوماً كبيراً على كومأي (Cumae) من البر والبحر. لكن هيرون الأول (Hieron I)، ملك سراقوصة (478 ـ 466) ـ وهي سيراكيوس (Syracusae) أعظم مدن صقلية ـ خفّ لنجدة كومأي الاغريقية، ودمر الأسطول الاتروسكي في معركة كبرى عام 474. وتحطمت

قوة الاتروسكيين البحرية. وأغارت سفن سراقوصة على جزيرتي كورسيكا وألبا وساحل أرتروريا ذاتها. وتوالت هذه الاغارات في مطلع القرن الرابع على يد ديونيسيوس الأول Dionysius) (I، طاغية سراقوصة (406 ـ 367)، إذ قام هذا العاهل الكبير بتعزيز جيشه بالمرتزقة وبناء أسطول قوي، وشرع في سياسة التوسع العسكري، واضعاً نصب عينيه طرد القرطاجنيين من صقلية. فسيطر على معظم مدن صقلية، وبسط نفوذه على مدن «بلاد الاغريق العظمى» في جنوب وجنوب غرب ايطاليا، مؤسسا أول دولة عظمى ذات طابع اغريقي نشأت في الغرب[6]. ولم يطهر ديونيسيوس الأول البحر التيراني من القراصنة الاتروسكيين فقط بل استولى كذلك على الموانىء الاتروسكية المطلة على البحر الأدرياتي (مثل أدريا وأنكونا) وان كانت الأدلة على ذلك غير قاطعة. وأما في كمبانيا فقد أدى تدفق السمنيين من الأبنين الوسطى بغية التوسع في الجنوب إلى انهيار الحكم الاتروسكي الذي انتهى هناك بسقوط كابوا في أيديهم عام 438. ولم يكن ضياع كابوا هو آخر النكبات التي حلت بالاتروسكيين إذ هبطت قبائل الغاليين أو الغال (Galli) من ممرات جبال الألب إلى وادي البو حوالي عام 400 وسرعان ما اجتاحوا الأراضي التي كان الاتروسكيون قد احتلوها في شمال شبه الجزيرة.

ومنذ ذلك الحين أصبح الأتروسكيون محصورين داخل حدود اتروريا الأصلية. وأما تاريخهم اللاحق فيرتبط بتاريخ روما وتوسعها في شبه الجزيرة والذي أدى إلى اندماج الاتروسكيين في الدولة الرومانية. غير أن تدهور قوة الاتروسكيين لم يترتب عليه تدهور حضارتهم التي ظلت مزدهرة بل إنها بلغت أوجها تحت السيادة الرومانية. وفي الحقيقة أن أتروريا لم تنهَرْ حضارياً أو اقتصاديا إلا في القرن الأول ق.م نتيجة لفوضى الحروب الأهلية الرومانية وتفشي الملاريا في أنحائها الساحلية.

الحضارة الاتروسكية:

ويتبين من الكشوف الأثرية أن الحضارة الأتروسكية كانت منذ القرن السابع ق.م. وخلال القرون التالية خليطاً من العناصر التي أحضروها معهم إلى إيطاليا والعناصر الأصلية للشعوب الايطالية التي أخضعوها. كذلك احتوت على قدر من العناصر الاغريقية التي تولدت عن الاتصالات التجارية مع المستعمرات الاغريقية في جنوب شبه الجزيرة. وكانت هذه الحضارة ترتكز على الزراعة والصناعة والتجارة، تلك الحرف التي نشطت كلها بتاثير الأتروسكيين نشاطاً كبيراً. كان الأتروسكيون يزرعون الكروم والزيتون والحبوب للتصدير، ويعنون بتربية الخيول عناية شديدة. وقد حفروا الانفاق وأقاموا السدود على نطاق واسع لزيادة رقعة الأراضي المنزرعة ووقف تآكل التربة. واستغلوا إلى أقصى حد الموارد الاقتصادية في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم، votes وروجوا المصنوعات الحديدية في ارترورويا، وجدّوا في التنقيب عن الحديد في أتروريا ذاتها كما استخرجوه من مناجم جزيرة ألبّا. كذلك استغلوا نحاس كورسيكا وقصدير اتروريا. واكتسبت مصنوعاتهم البرونزية، وعلى الأخص المرايا والشمعدانات، شهرة واسعة في أثينا خلال القرن الخامس ق.م. وكان الصناع الأتروسكيون يصيغون من الذهب والفضة حليا وأدوات للزينة بالغة الدقة تكشف عن مهارة فنية فائقة. وقد ارتقت صناعة الفخار الأسود المعروف باسم **Buichero nero** بعد الاحتلال الاتروسكي، وتوسعت صناعة الخزف بإنتاج أوان مقلدة عن الأواني الاغريقية المستوردة.

شعب بحري:

كان الأتروسـكيون ملاحـين قبـل مجيئهـم إلى ايطاليـا، وظلـوا شـعبا بحريـا قويـا فـترة طويلـة. وقـد أنشـأوا علاقـات تجاريـة مـع القرطاجنيـين منـذ البدايـة. وعنـد

نهاية القرن السابع ق.م. نشطت تجارتهم مع بلاد الاغريق كما يتبين من محتويات مقابرهم والأثر الاغريقي في حضارتهم بوجه عام. وقد تبادلوا التجارة مع أثينا مباشرة في القرن السادس وكان الجانب الأكبر من هذه السلع التجارية ينقل ـ فيما يبدو ـ على مراكب اتروسكية. لكن تجارة الأتروسكيين مع المدن الاغريقية في جنوب إيطاليا كانت على نطاق أوسع. ولقد استقرت جماعات من التجار الاغريق في الموانى الاتروسكية على ساحل البحر التيراني وساحل البحر الأدرياتي. ولم يلبث ازدياد حجم التجارة أن أدى إلى دخول العملة. ففي أواخر القرن السادس انصرف الأتروسكيون عن نظام المقايضة حيث كانوا يستعملون كتلا من النحاس كوسيلة للتبادل. وأخذوا يستعملون نقود المدن الأيونية الاغريقية. وبعد عام 500 بدأت بعض المدن الاتروسكية في اصدار عملة من الذهب والفضة والنحاس. وقد التزمت أو اتبعت في أول الأمر قاعدة نقدية مقتبسة من ليديا. لكنها لم تلبث أن تخلت عنها واتبعت قاعدة النقد الاغريقية التي كانت شائعة في جزيرة يوبويا وكمبانيا، وكان الاتروسكيون وكذلك القرطاجنيون ينظرون بعين القلق والخوف من التوسع الاغريقي في غرب البحر المتوسط حتى أن هذين الشعبيين تحالفا في عام 536 على طرد المستعمرين الاغريق من جزيرة كورسيكا. وتوطدت سيادة الاتروسكيين في البحر التيراني منذ ذلك الحين. ولعل ذلك هو ما أدى إلى اشتهارهم بالقرصنة في الأوساط الاغريقية.

إن معلوماتنا عن الحضارة الاتروسكية مستمدة في جوهرها من أطلال مدنهم ومن مقابرهم. لقد درج الاتروسكيون أثناء فتوحاتهم في إيطاليا على احتلال المستعمرات الوطنية القديمة التي كان أغلبها مشيداً فوق قمم التلال أو في مواقع أخرى يسهل الدفاع عنها. ولم تلبث هذه المستعمرات أو القرى المنيعة أن تضخمت تحت الحكم الاتروسكي وصارت مدنا غنية محصنة بأسوار من الطين الذي قد يكسى جانب منه بالحجر. وكانت المعابد هي أهم المباني العامة

في المدن. كان المعبد الاتروسكي النموذجي بناء في شكل المربع تقريباً ويرتكز على قاعدة مرتفعة، ومدخله عبارة عن رواق ذي أعمدة (Portico) مساحته لا تقل عن مساحة قاعة المعبد الداخلية الرئيسية (Cella). وكانت جدران المعبد تبنى من الطوب (الآجر) المرتكز على أساس في شكل صفوف أفقية من الحجر. وأما الأعمدة وممرات السقف (الشديد الانحدار) فكانت من الخشب. وكانت الأجزاء الخشبية في المعبد تطلى بالطين النضيج الملون، كما كان السقف يزخرف بأشكال خزفية. وغالباً ما كانت المنازل الخاصة تبنى من الخشب أو الآجر، وكانت يتوسطها أحياناً فناء مكشوف على نمط الفناء الاغريقي المحاط بالأعمدة (Peristylon). وقد عزا الرومان إلى الاتروسكيين فضل ابتكار طرز متميزة من الأعمدة، والردهة المنزلية التي أصبحت مألوفة في البيوت والمسماة بالأترويوم (Atrium). وقد تعلم الرومان من الأتروسكيين بناء العقود والأقبية.

إحراق الجثث:

وأما عن الطقوس الجنائزية فإن الاتروسكيين كانوا يمارسون عادتي دفن الموتى كما هم (Inhumation) واحراق جثثهم (Cremation) وكانت قبور الفقراء منهم لحودا أو حفرا تودع فيها توابيت الموتى أو قوارير رماد جثثهم. وأما مقابر النبلاء التي تشكل أعجب آثار الحضارة الأتروسكية فكانت على أنواع مختلفة، فهي تارة ركام من تراب (Tumulus) يحوي حجرة الدفن، وتارة أخرى قبو حجري مستدير (Tholos) منحوت في سفح التل، أو سرداب يحتوي على حجرات كثيرة محفورة في الصخر. ويبدو أن المقابر السردابية الضخمة كانت مدافن عائلية. وكثيراً ما تكون جدرانها الصخرية مزخرفة بنقوش محفورة أو بأفاريز مزينة بصور ملونة. ومن هذه الزخارف نستقى معظم معلوماتنا عن ملامح الأتروسكيين وأزيائهم وعاداتهم. وتنهض كثرة الحلى الذهبية وغيرها من

الأدوات النفيسة التي اكتشفت في مقابرهم المؤرخة بالقرنين السابع والسادس دليلا على إثراء الطبقة الأرستقراطية الحاكمة عندهم[7].

الفن الأتروسكي:

ويظهر الفن الاتروسكي في أشكال مختلفة: كصور مرسومة على الأواني الفخارية وعلى جدران المقابر، وكرسوم محفورة على الصناديق والمرايا البرونزية، وكتماثيل كبيرة وصغيرة والفخار، ونقوش بارزة أو غائرة في شواهد القبور، وكتوابيت، وقوارير برونزية رائعة (Situlae)، وزخارف معمارية فخارية أو حلى من الذهب والفضة. وقد نشط عندهم الانتاج الفني نشاطاً عظيماً نتيجة للاتصال بالاغريق في القرن السادس ق.م. وقد أصبح الفن الاغريقي منذ ذلك الحين مصدر إلها م مستمر للفنانين الاتروسكيين. ويبدو أن بعض الفنانين الاغريق استقروا باترورريا، وأنشأوا مدارس فنية هناك. لكن الفنانين الاتروسكيين لم يقلدوا الأصول أو النماذج الاغريقية تقليداً أعمى. لقد اقتبسوا من الفن الاغريقي الأشكال والأفكار والأساليب التطبيقية، لكنهم لم يتخلوا عن مفاهيم الفن الأساسية عندهم وبذلك نجحوا في ابتداع فن قومي خاص بهم. ومع أن الفن الاتروسكي يفتقر إلى كثير من خصائص الفن الاغريقي كالمثالية والجمال والتناسق والتحفظ، إلا أنه يتميز بالواقعية والقوة والحيوية، وصدق التعبير عن نظرة الاتروسكيين إلى الحياة الدنيا والآخرة. ولعل اشهر آثار فن النحت الأتروسكي هي مجموعة التماثيل الزخرفية الصغيرة من الطين النضيج (Sigilla) والمسماة بمجموعة «التنافس على الآيلة المقدسة». وقد اكتشفت في مدينة فيي (Veii) وترجع إلى أواخر القرن السادس ق.م. ومع أن هذه المجموعة تكشف عن التأثير الاغريقي في اختيار الموضوع وطريقة معالجته، إلا أن التمثال الرئيسي فيها، وهو «تمثال للإله أبوللون»، يتميز بخصائص اتروسكية واضحة.

وليس من المستبعد أن تكون بعض هذه الخصائص وليدة تقاليد فنية كانت سائدة في المنطقة قبل مجيء الاتروسكيين. ومن أشهر آثارهم الفنية الأخرى «خيمايرا أبروزو» و«ذئب اللاتيران» و «المحاربون الثلاثة» (في متحف نيويورك) والمرأة «المضطجعة» (في الدنمرك) و «خطيب تراسيمينوس».

الدين:

وكان للدين دور بارز في حياة الأتروسكيين الذين كانوا يعبدون عدة آلهة، ويؤمنون بأرواح قوية (غالباً شريرة) تهيمن على الحياة الأخرى. وفي سعيهم إلى التعرف على مشيئة الآلهة وإلى درء الشرور التي قد تصيبهم، فقد ابتدعوا طريقة بل نظاماً محكماً للتنبؤ والرجم بالغيب عن طريق فحص أكباد الاضاحي (أي الحيوانات التي تنحر كقرابين) وتأويل معنى ومضات البرق، وغيره من نذر الشر أو بشائر الخير. وهو ما يسمى بالعرافة (Divinatio). وربما تنهض العرافة عن طريق فحص كبد الذبيحة دليلاً على ارتباط الاتروسكيين بشعوب غرب آسيا. ولم يلبث الاتروسكيون أن أدمجوا في زمرة آلهتهم آلهة ايطالية وآلهة اغريقية، واقتبسوا مع الأخيرة طائفة كبيرة من الأساطير الاغريقية. وكان من بين الآلهة الكبار ثالوث له في قلوبهم منزلة خاصة ويتألف من تينيا Tinia)[8]، وجونو (Juno)[9] ومنيرفا (Minerva)[10]. وكانت الالهتان الأخيرتان تعبدان أيضاً في روما. ولما كان الأتروسكيون يحرصون حرصاً شديداً على تكريم موتاهم وتحقيق الخلود لهم في الحياة الأخرى، فقد ساد بينهم الاعتقاد بضرورة التضحية بأرواح بعض الأحياء وتقديمهم كقرابين للآلهة. ولعل ذلك يفسر سبب إقامة «مصارعات المجالدين» في احتفالات دفن الموتى، وربما يفسر أيضاً عادة ذبح أسرى الحرب عند الأتروسكيين.

اللغة:

وأما عن اللغة الاتروسكية فما تزال لغزا عسير الحل. ومعلوماتنا الطفيفة عنها مستمدة من حوالي 9000 نقش معظمها اهداءات رثائية (مرات) مقتضية مدونة على شواهد القبور. وهي مكتوبة بأبجدية اقتبسها الاتروسكيون من الأبجدية الاغريقية التي كانت مستعملة في الغرب أي في مدينة كمدينة كومأي التي اتصلوا بها بعد استقرارهم في ايطاليا، أو لعلهم اقتبسوها ـ على نحو ما يرى الآن بعض الباحثين ـ من اغريق شرق البحر المتوسط في تاريخ سابق على هجرتهم إلى ايطاليا. وقد ظلت اللغة الاتروسكية مستعملة كلغة تخاطب في بعض جهات إيطاليا حتى القرن الثاني الميلادي. ولا بد أن الامبراطور الروماني كلوديوس (41 ـ 54م) قد توافرت لديه مصادر كثيرة مدونة بهذه اللغة عندما ألف مجلداً من عشرين جزءاً عن التاريخ والحضارة الاتروسكية، وهو مجلد اندثر ولم يصلنا منه شيء. وعلى الرغم من أننا نعرف الآن شيئاً عن نطق حروف الهجاء الاتروسكية، وتوصلنا إلى فهم معنى عدد كبير من الألفاظ، ولدينا فكرة عن قواعدها النحوية، فقد أخفقت كل الجهود التي بذلت حتى الآن لترجمة نصوص هذه اللغة. ومع هذا فثمة قرائن كثيرة تشير إلى أن اللغة الاتروسكية تمت بصلة قرابة للغات غرب آسيا الصغرى السابقة على اللغات الهندية ـ الأوروبية. وباستثناء سكان المستعمرات الاغريقية وسكان المنطقة التي تغلغل فيها نفوذهم الثقافي، فان جميع شعوب إيطاليا قد اقتبست نظام الكتابة من الاتروسكيين بطريق مباشر أو غير مباشر.

والانطباع العام الذي نخرج به من هذه الدراسة هو أن الأتروسكيين كانوا شعباً ثرياً، محبا للترف، لكنهم لم يكونوا ـ كما يصورهم بعض الكتاب الاغريق ـ شعباً منغسا في الملذات والشهوات.

المرأة:

وقد تبوأت المرأة في المجتمع الأتروسكي مكانة مرموقة. كانت النساء الاتروسكيات يتمتعن بقدر كبير من الحرية في الحياة الاجتماعية. وغالباً ما كان الأبناء ينسبون إلى الأمهات لا إلى الآباء.

كان الأتروسكيون شعباً لماحاً يقدر انجازات غيره من الشعوب ويعرف قيمتها ويبادر إلى محاكاتها أو الاقتباس منها. لكنهم أنفسهم لم يوهبوا ملكة الأصالة كاملة. وتتسم طباعهم بالقسوة كما يتضح من ديانتهم وعلى الأخص في طقوسهم الجنائزية الخاصة بتكريم الموتى. وكانوا شعباً جريئاً جم الحيوية كما تشهد بذلك فتوحاتهم لكنهم مع هذا كانوا يفتقرون إلى روح الطاعة والنظام، والتعاون، والمقدرة على انشاء كيان سياسي مستقر.

لقد كان الاتروسكيون بوجه عام عاملاً فعالاً في تقدم الحضارة في الفترة المبكرة من تاريخ ايطاليا. وقد أثروا في كل الشعوب الايطالية التي اتصلوا بها اتصالاً وثيقاً وعلى الأخص شعوب وسط إيطاليا وشمإلها . وكان هذا التأثير عميقاً في مجالات: تخطيط المدن، والمعمار، والفن، والحرب، والنظام السياسي، والدين.

الاغريق:

نشط الاغريق في تأسيس مستعمرات خارج بلادهم خلال قرنين يمتدان من حوالي منتصف الثامن إلى منتصف السادس، وتسمى هذه الفترة (750 ـ 550) بعصر الاستعمار الاغريقي لأنه شمل معظم سواحل البحر المتوسط. وقد أنشأت دويلات المدن الافريقية المختلفة عدداً كبيراً من المستعمرات التي ازدهرت ثم استقلت عن أمهاتها في الوطن الأصلي. وكان من بين المناطق التي

امتلأت بهذه المستعمرات منطقة جنوب وجنوب غربي إيطاليا وصقلية. فقد أسس الاغريق مستعمرات كثيرة على سواحل صقلية الشرقية والجنوبية وعلى امتداد ساحل إيطاليا الجنوبي والجنوبي الغربي من تارنتوم (وهي احدى مستعمراتهم) إلى خليج نابلي (وهي أيضاً مستعمرة اغريقية). ثم وطدوا أقدامهم عند مصب نهر الرون (مرسيليا) وفي ساحل الريفييرا (موناكو). لكن مقاومة القرطاجنيين لهم حالت دون قيام أي مستعمرات تذكر سواء في غرب صقلية أو في اسبانيا[10]. كما حالت مقاومة الاتروسكيين دون انشائهم أي مستعمرات عبر الساحل الايطالي شمالي نهر التيبر. وأدى تحالف القرطاجنيين والاتروسكيين إلى ابعاد الاغريق عن جزيرتي سردينيا وكورسيكا.

وفي القرن الخامس كانت المدن الاغريقية في صقلية وجنوب إيطاليا وجنوبها الغربي قد بلغت ذروة قوتها ورخائها. ففي صقلية لم يلتزم الاغريق بالساحل (كعادتهم) بل توغلوا في قلب الجزيرة حيث أخضعوا لسيطرتهم الأهالي الوطنيين. وقد تصدى لهم القرطاجنيون ووقفوا لهم بالمرصاد. لكن انتصار جيلون Gelon[12]، طاغية جيلا ثم سراقوصة (491 ـ 478)، الذي كان أول من أنشأ أقوى دولة اغريقية في الغرب، على القرطاجنيين في معركة هيميرا Himera الشهيرة (قرب ساحل صقلية الشمالي) عام 480 جعل من اغريق صقلية سادة على الجزء الأكبر من صقلية، وجعلهم أيضاً في مأمن من خطر الغزو القرطاجني زهاء سبعين عاماً[13]. ولم يلبث أخوه وخليفته هيرون الأول، ملك سراقوصة ـ الذي مر بنا ذكره ـ أن أنزل بالأسطول الاتروسكي هزيمة ساحقة في معركة كبرى عند كومأي (Cumae) في عام 474، جاعلاً بذلك المدن الاغريقية في جنوب إيطاليا آمنة من العدوان الاتروسكي. لكن يلاحظ ـ أن الاغريق لم يسيطروا سيطرة كاملة إلا على الطرف الأقصى من جنوب غرب شبه الجزيرة (وهو ما سموه بايطاليا) وكانت مستعمراتهم على السواحل، ولم يتوغلوا في داخل إيطاليا

سواء لمقاومة الاتروسكيين أو القبائل الايطالية المحلية.

وفي هذه المنطقة، جنوب إيطاليا وجنوبها الغربي، اتصل الرومان بمواطني المدن الاغريقية وأطلقوا عليهم اسم الاغريق (Graeci) نسبة إلى الجرايين (Graioi) وهم احدى قبائل بلاد اليونان التي أسهمت في تأسيس مستعمرة كومأي (750 ـ 725 ق.م) لكن الاغريق كانوا يسمون أنفسهم بالهللينيين (Hellenes) الذين عرفتهم الشعوب الشرقية باسم اليونانيين (وهو تحريف للايونيين، اغريق أيونيا حيث اتصل بهم سكان المدن الفينيقية). وليس أدل على رسوخ قدم الاغريق في جنوب ايطاليا، ومدى تغلغل ثقافتهم في أرجائه من أن هذه المنطقة (جنوب وجنوب غرب ايطاليا) أطلق عليها اسم «هللاس الكبرى» أي «بلاد الاغريق الكبرى» (Magna Graecia).

غير أن الاغريق في هذه المنطقة لم تقم بينهم أي وحدة أو اتحاد سياسي بل أن ترابطهم كان أضعف من ترابط الاتروسكيين. كانت كل مستعمرة تعتبر نفسها دولة مدينة، مستقلة وذات سيادة، ولا تدين بأي ولاء سياسي للمدينة الأم (في الوطن الأصلي). هكذا انعكست على «بلاد الاغريق الكبرى» صورة بلاد الاغريق الأصلية بكل خلافاتها وانقساماتها وتمزقها السياسي. ولم تكن هذه المستعمرات الاغريقية تتخلى عما بينها من حزازات وأحقاد، وتوحد قواتها إلا في ساعات الخطر المشترك الداهم. وأما القوى السياسية الكبرى كالتي أنشأها بعض طغاة سراقوصة باخضاع غيرها من المدن فكانت قوى موقوتة ببقاء هؤلاء الطغاة، ولم تلبث أن زالت سريعاً بعد زوالهم. كذلك كان من العوامل التي أضعفت المدن الاغريقية بالمنطقة احتدام الصراع الأهلي والتطاحن الحزبي داخل أسوارها. وقد أدى ذلك التفكك إلى الحد من قدرة الاغريق على التوسع. ولسوف يمهد في آخر الأمر لسقوط هذه المدن الاغريقية الواحدة تلو الأخرى في يد «البرابرة الايطاليين»، أي في يد الرومان.

وقد بدأ تدهور اغريق الغرب حتى قبل نهاية القرن الخامس. ففي إيطاليا تعرضت مدنهم للاغارات المستمرة من جانب الشعوب السمنية (السابللية) الزاحفة من جبال الابنين الوسطى. وسقطت كومأي في يد السمنيين عام 421. ومنذ ذلك الحين كانت المدن الاغريقية في صراع من أجل البقاء مع سكان لوكانيا وبروتيوم ـ (وهم فرع من سلالة السمنيين). وفي صقلية عاد القرطاجنيون من جديد إلى مهاجمة الاغريق في عام 408. ولا جدال في أن ديونيسيوس الأول، طاغية سراقوصة، الذي نوهنا به من قبل، استطاع أثناء عهده (406 ـ 367)، أن يوحد مدن صقلية وجنوب إيطاليا تحت لواء دولة أو امبراطورية استطاعت أن تصد هجمات العدو وتوقفه عند حده. لكن امبراطورية ديونيسيوس الأكبر لم تنشأ في الواقع إلا على حساب الاغريق إذ سلبت المدن الاغريقية حريتها وحطمت قوتها المعنوية. فما أن قضى نحبه حتى وجدت هذه المدن نفسها أضعف مما كانت، وأقل ترابطاً وأكثر انقساماً عن ذي قبل. ومضت فترة تخللتها حروب. لكن حوالي عام 339 كان القرطاجنيون قد أحكموا قبضتهم تماماً على النصف الغربي من صقلية، وأما في جنوب إيطاليا فلم تستطيع إلا قلة من المدن الاغريقية كتارنتوم (Tarentum) وتوريي (Thurii) وريجيوم (Rheguum) أن تحافظ على كيانها بصعوبة بالغة ضد عدوان الايطاليين المتصاعد. غير أن صراع هذه المدن الأخيرة من أجل البقاء، ثم سقوطها في يد الرومان، ينبغي إرجاء الحديث عنه إلى موضع آخر.

أثر الاغريق على الرومان:

كان مجيء الاغريق إلى الغرب هو الذي هيأ لإيطاليا الظهور على مسرح التاريخ وجعلها على اتصال بحضارة أرقى، وهي حضارة شرق البحر المتوسط. ومن الجغرافيين والمؤرخين الاغريق نستمد أول معلوماتنا عن الشعوب الايطالية.

وكان هؤلاء الكتاب الاغريق أنفسهم هم الذين نسجوا الأساطير التي حسبت ـ لمدة طويلة ـ كأنها تاريخ إيطاليا المبكر. وقد أعطى وجود المدن الاغريقية في إيطاليا دفعة قوية لتطورها الثقافي عن طريق الاتصال المباشر وغير المباشر (بواسطة الاتروسكيين) ولقد لعبت كوماي، وهي في أقصى شمال الجزء الجنوبي، وأقدم المستعمرات الاغريقية، دورا بالغ الأهمية في نشر الثقافة اليونانية بالمنطقة. ولقيت نظم الاغريق السياسية والعسكرية المتقدمة، والفن والأدب والميثولوجيا الاغريقية، رواجا سريعاً بين الشعوب الايطالية، وكانت عاملاً عميق الأثر من عوامل تقدمهم السياسي والفكري. وكان هذا التأثير الاغريقي أظهر ما يكون في روما ذاتها. وقدر للسيطرة الثقافية التي فرضتها بلاد الاغريق على روما منذ وقت مبكر، أن تبقى حتى سقوط الامبراطورية الرومانية.

هوامش ومراجع الفصل الثالث

1 ـ ويعرف اقليم لاتيوم حاليا في الايطالية باسم كمبانيا الرومانية **Campagna Romana** وهو غير اقليم كمبانيا القديمة Campania (الذي يقع إلى جنوب لايتوم).

2 ـ عاش في القرن الخامس قبل الميلاد (484 ـ 424).

3 ـ عاش في القرن الأول قبل الميلاد (60 ـ 70).

4 ـ تسمى «أدريا» أو خطأً «هدريا» (hadria)، والصحيح «أتريا» (Atria). وتقع على بعد حوالي 13 ميلاً من الساحل بين مصب الأديج ومصب البو.

5 ـ أريكيا بلدة في لاتيوم تقع أسفل جبل ألبا (Alba) على بعد 16 ميلاً جنوب شرقي روما. وكانت قد أسهمت في طرد الملك الأتروسكي تاركوينيوس من روما عام 510. وأصبحت بعد ذلك مركزاً «للعصبة اللاتينية». وقامت بدور بارز في معركة بحيرة رجيللوس **Regillus** حوالي عام 496 (حيث انتصرت روما على العصبة اللاتينية)، وفي «معاهدة كاسيوس» التالية (حوالي عام 493). ثم اشتركت أريكيا في «الحرب اللاتينية» التي نشبت بسبب تمرد العصبة على روما. وقد حصلت المدينة بعد الحرب على حقوق المواطنة الرومانية. ,اصبحت مدينة مستقلة

استقلالاً ذاتياً municipium على جانب من الرخاء. وأريكيا هي مسقط رأس أتيا Atia، والدة أكتافيانوس (أغسطس). وقد اشتهرت البلدة بمعبدها الفاخر، وهو معبد الربة ديانا (Diana Nemorensis)، المتخم لغابة (مقدسة) لا تزال آثارها باقية بالقرب من بحيرة نيمي (Nemi).

6 ـ كان ديونيسيوس الأول كسلفه هيرون الأول محباً للثقافة اليونانية ودعا إلى قصره عدداً من الأدباء والفلاسفة الاغريق كان من بينهم أفلاطون. وقد دعا ابنه ديونيسيوس الثاني (الأصغر) هذا الفيلسوف أفلاطون إلى بلاطه مرتين (366)، (361)، ليستشيره في اقامة دولة مثالية على أسس فلسفية. لكن التجربة فشلت وانتهت بطرد أفلاطون من سراقوصة.

7 ـ كانت المصنوعات الذهبية من بلدة فيتولونيا (Vetulonia) تضارع أجود مصنوعات أيونيا نفسها.

8 ـ وهو الذي اعتبر مناظراً للإله يوبيتر أو جوبيتر Iupiter فيما بعد. وجوبيتر عند الرومان يقابله زيوس عند اليونان.

9 ـ جونو عند الرومان تناظرها هيرا عند اليونان.

10 ـ مينرفا الرومانية هي أثينة عند اليونان.

11 ـ لم يؤسس الاغريق في الساحل الشرقي لاسبانيا سوى مستعمرتين.

12 ـ بالتعاون مع ثيرون Theron، طاغية أكراجاس (Acragas) أو أجريجنتوم (Agrigentum) على الساحل الجنوبي من صقلية (488 ـ 472).

13 ـ وافق هجوم القرطاجنيين على صقلية حينئذ هجوم الفرس على بلاد الاغريق وانتصار الأخيرين في معركتي سلاميس البحرية وبلاتيا (479) على ملك الفرس خشيارشاي (Xerxes).

الفصل الرابع

«الآلهة الرومانية»

مقدمة: الآلهة اليونانية:

كان اليونان على خلاف الرومان ـ شعب خصب الخيال. وقد ابتدعوا وفرة من الأساطير بأنواعها المختلفة: خرافات عن الكون والآلهة والعبادات الدينية (Myths) وقصص بطولية متواترة تمتزج فيها الحقيقة التاريخية بالخيال (Saga) وحكايات شعبية (Marchen). ولعل أعظم قصصهم البطولية المتواترة هي الألياذة التي تروي قصة «الحرب الطروادية»، وهي ملحمة شعرية (Epic) تجمع بين العناصر أو الأنواع الثلاثة من الأساطير سالفة الذكر. ومع أن الاغريق أنشأوا ـ على نحو ما رأينا ـ مستعمرات كثيرة في جنوب إيطاليا منذ القرن الثامن قبل الميلاد، فإن الرومان لم يتصلوا بهم اتصالاً وثيقاً إلا بعد مرور فترة طويلة من الزمن. ذلك لأن روما نفسها ـ إن صح تاريخ تأسيسها المتواتر وهو 753 ق.م. ـ كانت لا تزال طفلة عندما وضع الاغريق أقدامهم على الساحل الايطالي. ولذلك لم يتعرف الرومان على الميثولوجيا (أي الأساطير) الاغريقية إلا منذ القرن الثالث ق.م. ولم يكن للرومان ـ على ما يبدو ـ أساطير من صنعهم أو كان لهم منها قدر ضيئل. كانت الآلهة والإلها ت ـ في تصور الرومان ـ كائنات أهم ما تميز به هو أنها تمتلك قوة خارقة للطبيعة. وكانت هذه القوة الخارقة تعرف في لغتهم ـ وهي اللغة اللاتينية ـ بلفظ نومن (Numen). وكانت الآلهة تستخدم هذه القوة أو الروح في مساعدة المتعبدين لها بالابتهال والصلوات وممارسة الشعائر الصحيحة،

فكانت كيريس (Ceres)، وهي ربة القمح ـ على سبيل المثال ـ تجعل الأرض تنبت الغلال عن طريق أدعية معينة وطقوس محددة. كذلك كان مارس (Mars) إله الحرب، له اختصاص آخر، إذ كان في وسعه أن يدرأ عن المتعبدين له مختلف الشرور... وهكذا كان الحال مع بقية الآلهة. وأما عن أشخاص هذه الآلهة، وكيف كان شكلها، وهل كانت ذكوراً أم أناثاً، والأوصاف العديدة الأخرى التي خلعها الاغريق عليها، فهي أسئلة لم يشغل الرومان بالهم بمحاولة الاجابة عليها، لأنها كانت تحتاج إلى خيال خصب واسع، وهو ما لم يتصف به الرومان. واكتفوا بما سمعوه أو نقلوه عن اليونان من قصص وأساطير. لكنهم لم يتصوروا آلهتهم تماماً كما تصورها اليونان. فآلهتهم تملك تلك القوة الخارقة للطبيعة التي أشرنا إليها، ولكل منها وظائف محددة، ويكتنفها شيء من الغموض والابهام. لكنها لم تكن ـ كآلهة أوليمبوس تنجب أطفالاً أو تنغمس في علاقات غرامية مع إلها ت وأدميات أو تعقد صداقات مع البشر، أو تفعل هذه الأشياء الغريبة التي نسبها خيال الاغريق إليها. غير أن إعجاب الرومان بثقافة الاغريق وقدرتهم على الابتكار، وخيالهم المشرق البهيج كان كبيرا بقدر ما كان احتقارهم كبيراً للاغريق الذين التقوا بهم وهزموهم في ميادين القتال. لذلك تقبلوا أساطير الاغريق وخرافاتهم بترحاب. وراقتهم نظرية الاغريق عن تجسيد الآلهة أي تصورها في شكل البشر، واقتبسوا كثيراً من أساطيرهم وآلهتهم. وقد ساعد أيضاً على ذلك ما كان يسود الشعوب القديمة من اعتقاد أو افتراض بأنهم كانوا جميعاً يعبدون نفس الآلهة مع اختلاف فقط في أسمائها.

وعلى ذلك فقد شبه الرومان آلهة الاغريق بآلهتهم، إذ اعتبروا كرونوس، وهو إله اغريقي قديم انحدرت من صلبة الآلهة، اعتبروه مماثلاً تماماً لإلههم ساتورنوس (Saturnus) وهو إله غير معروف الأصل والاختصاص. لكن لعل وجه المقارنة يرجع إلى أن عيده المسمى ساتورناليا (Saturnalia) كان يشبه

عيد الإله اليوناني كرونوس المسمى «كرونيا» من بعض الوجوه إذ كان مثله يسوده الفرح والمرح وتزول فيه مؤقتاً ما بين السادة والعبيد من فوارق فيجلسون معاً ويأكلون سويا، وإن كان العيد اليوناني يوافق وقت الحصاد في الصيف (يوليو) بينما كان العيد الروماني ميعاده في الشتاء (ديسمبر). وكما تصور اليونان عصر كرونوس كعصر ذهبي كانت تسوده الفضيلة والبراءة والسعادة والخيرات الوفيرة التي تغني حتى عن الكد والعمل، كذلك كان تصور الرومان لعصر ساتورنوس. وشبهت زوجة الإله اليوناني المسماة ريا (Rhea) بزوجة الإله الروماني المسماة أوبس (Ops)، ربة الخصب والوفرة، ولو أن الربة الرومانية لوا (Lua) هي التي كانت تقرن غالباً بساتورنوس في العبادة.

وكان للإله اليوناني كرونوس وزوجته ريا ـ كما هو معروف ـ ذرية من بينها ستة أبناء: ثلاثة منهم ذكور وهم هاديس، وبوسيدون، وزيوس، وثلاث أناث هن هستيا، وديميتير، وهيرا.

وتزوج زيوس (وهو أصغر اخوته وفقا لرواية هيسيود، وأكبرهم وفقا لهوميروس) من أخته هيرا. ثم استوى على العرش بعد التخلص من أبيه. ولم ينجب زيوس من هيرا سوى إله أوليمبي واحد هو أويس. وأنجب من نساء منحدرات من صلب الجبابرة أربعة أبناء هم أثينة وأبوللون وأرتميس وهرميس.

وأما أفروديتي فقد أنجبها من عشيقة أو زوجة سابقة على هيرا تدعى ديوني، وان كان غير هوميروس ينسبونها إلى كرونوس نفسه أو لأورانوس، إله السماء.

هكـذا أصبحـت الأسرة الإلهيـة فـوق أوليمبـوس تتألـف مـن زيـوس وإخوتـه الخمسـة وأبنائـه السـتة، وابـن هـيرا وحدهـا المسـمى هيفايسـتوس، غـير ان الاغريـق درجـوا عـلى تقديـر عددهـم باثنـي عـشر إلهـا وإلهـة. وكانـوا يتحدثـون دائمـاً عـن الالهـة الأولمبيـة الاثنـي عـشر. ويقيمـون المعابـد للآلهـة الاثنـي عـشر، ويقسـمون

اليمين بالاثني عشر ومنذ القرن الرابع ق.م. أصبح كل واحد منهم يقترن ببرج من الأبراج السماوية الاثني عشر، بل إن أفلاطون اقترح أن يقرن كل واحد من هؤلاء الآلهة الاثني عشر بشهر من شهور السنة. وهذا الفرق في الحساب (بين 13، 12) يرجع إلى أن اليونان غالباً ما كانوا يسقطون من القائمة هاديس، إله العالم السفلي أو عالم الموتى، الذي كان إلها رهيبا بغيضا خفيا إذ لم يكن يعيش مع أسرته فوق جبل أوليمبوس بل كان يعيش محتجباً في مملكته بباطن الأرض. وفي بعض الأحيان كان يسقط اسم إله آخر من بين الثلاثة عشر، مع بقاء العدد ثابتاً عند اثني عشر. في الحق أن تحديد أسماء الاثني عشر إلها كان متروكا لكل مدينة حسب أهوائها. ففي أثينا ـ مثلاً ـ كان اسم هستيا، منذ القرن الخامس ق.م. يسقط من القائمة ويوضع بدلاً منه اسم ديونيسوس (باكخوس)، وهو إله النبيذ، الذي صعد نجمه فحل مكان هستيا كعضو في أسرة آلهة أوليمبوس. ولعلها تخلت له عن مكانها عن طيب خاطر لأنها كانت ـ كما يتبين من اسمها ـ ربة موقد البيت. ونادراً ما كانت تغادر بيتها مع بقية الأسرة سواء لحضور الحفلات الكثيرة الصاخبة أو المشاركة في المواكب التي اعتاد زيوس أن يقودها عبر السماء.

جوبيتر:

ومضى الرومان في تشبيه آلهتهم بآلهة أوليمبوس اليونانية. فاعتبروا زيوس، وهو رب الآلهة والناس، وإله السماء والفضاء والظواهر الجوية من ضوء وسحاب ورعد وبرق وصاعقة ومطر، اعتبروه بحق كفواً لكبير آلهتهم جوبيتر Jupiter[1]، الذي كان معبده الرئيسي فوق تل الكابيتول، أحد تلال روما السبعة. وهناك قام ثالوث الهي يتألف من جوبيتر وجونو وميترفا. وفي الحق أن اسمه معناه في اللاتينية «رب السماء» لكن جوبيتر كان له ألقاب أخرى حيث أن الرومان قرنوه بالقمر عندما يكون بدرا، وبالحجر القديم، وكذلك

بالشجر. فكان منتصف كل شهر (يوم 13 أو 15) يعتبر مقدسا له وكان يعبد في هذا الوقت على الأخص. وكان من ألقابه الأخرى «جوبيتر العلي الأعظم» (Jupiter Optimus Maximus). وإلى معبده فوق الكابيتول اعتاد القادة الرومان أن يتجهوا فور عودتهم منتصرين من الحملات العسكرية. وكانت الأعياد الكابيتولينية (Ludi Capitolini) التي يحتفل بها في يوم 15 أكتوبر من كل عام هي أقدم أعياده. لكن جوبيتر كانت له أعياد سنوية أخرى، وأعظمها هي:

أ ـ الألعاب الرومانية: (Ludi Romani)، وكانت تقام بين من 4 ـ 19 سبتمبر.

ب ـ ألعاب العامة (أي طبقة العامة): (Ludi Plehei)، وكانت تقام من 4 ـ 17 نوفمبر.

وكان يصاحب هذه الأعياد اقامة ولائم دينية رسمية تسمى بولائم جوبيتر (Epula lovis)، التي أنشئت منذ عام 196 ق.م.

كانت هذه الأعياد أو المهرجانات الدينية تجري داخل روما، وأما في خارجها فكان أشهر عيد هو العيد اللاتيني (Feriae Latinae) الذي كان يقام له بوصفه إلها للاتين (Jupiter Latiraris). وكان يحتفل به سنوياً عند جبل ألبا (على بعد بضعة أميال من روما) في تاريخ غير محدد. وكان هذا العيد في الواقع عيداً قديماً جداً، ولذلك كان اللبن لا النبيذ هو السائل الذي يصب عند تقديم القرابين. وكان يحضر الاحتفال بهذا العيد اللاتيني مندوبون من كل المدن اللاتينية ليطالبوا بنصيب مدنهم من لحم القرابين وللمشاركة في المراسم الدينية التي كانت تجري ـ كالعادة ـ بمنتهى الدقة.

وباتساع الدولة الرومانية اتسع اختصاص جوبيتر وشمل مجالي الأخلاق والسياسة فلم يعد يرتبط بالحرب فقط بل أيضاً بالمعاهدات وجميع أشكال القسم (حلف اليمين). ذلك أن جوبيتر كان بوصفه ربا للسماء، ربا للصاعقة. وقد اعتقد

الرومان أن الصاعقة تتجسد في أشكال مختلفة من الحجر القديم (النيوليثي). وكان هذا الحجر بمثابة تجسيد لجوبيتر نفسه (Jupiter Lapis) ولذلك كان يستعمل عند أداء القسم. ومن ثم نفهم لماذا كان جوبيتر هو الإله الذي يتولى عقاب من يحنثون باليمين أو ينقضون العهد أو ينتهكون المعاهدات. وهذا يفسر وجود تلك الهيئة الرسمية إلها مة من الكهنة المعروفين باسم «فتياليس» (Fetiales) في روما منذ القدم. كانت هذه الهيئة المؤلفة من عشرين كاهنا هي التي تهيمن على العلاقات الدولية كالمعاهدات واعلان الحرب. إذ كانت روما ترسل اثنين من هؤلاء الكهنة ليحضرا عقد المعاهدة ويستمعا إلى نصوصها بحضور كهنة الطرف الآخر. وعندئذ يدعوان بنزول اللعنة على روما إذا كانت هي البادئة في خرق المعاهدة، مؤكدين دعاءهما بنحر خنزير بواسطة حجرة من تلك الأحجار القديمة المقدسة (النيوليثية). وفي حالة وقوع اعتداء على روما من جانب دولة أخرى، كان أحد الكهنة الفتياليس يجتاز الحدود (ما بين ممتلكات روما والدولة الأخرى)، معلناً أولاً (ورأسه مغطى بدثار من الصوف) عن شخصيته أو الغرض من حضوره، داعياً جوبيتر، بل منادياً الحدود ذاتها لتسمعه، ومقسما بجوبيتر أن مهمته عادلة. وتتكرر هذه الصيغة عدة مرات أثناء رحلته. فإذا لم يقدم العدو تعويضاً أو ترضية كافية خلال مدة أقصاها ثلاثة وثلاثين يوماً، أعلن الكاهن الروماني رسمياً إدانة الدولة المعتدية مشهداً كل الالهة على ذلك. ويقفل راجعاً إلى روما. ويطرح القنصلان (رئيسا الدولة) الأمر على السناتو (مجلس الشيوخ)، فإذا اقترع على ضرورة التعويض باعلان الحرب العادلة الحقة، عاد الكاهن مرة أخرى إلى الحدود، وأعلن رسمياً قيام الحرب لحضور ثلاثة رجال راشدين. ثم يرمى بحربة عبر الحدود أو بوتد خشبي ذي طرف مسنن ومقسى بالنار. وفي حالة الحرب مع دولة بعيدة عن ايطاليا، كان الكاهن يقذف بالحربة فوق قطعة من الأرض[2] كانت تعتبر ـ بحيلة قانونية ـ بمثابة أرض معادية.

جونو: – هيرا

واعتبرت هيرا، زوجة زيوس الرسمية عند اليونان، صنوا للربة جونو زوجة جوبيتر، التي كانت ـ على الرغم من عدم ارتباطها به في الأصل ـ تشابه هيرا اليونانية في الاختصاص ولا سيما كربة للزواج المقدس، وراعية للنساء وكل ما يتصل بحياتهن الجنسية وعلى الأخص الولادة، فكانت تساعدهن في حالات الوضع. ومن ثم فقد لقبت جونو بلقب «لوكينا» Lucina أي «ربة النور» لأنها كانت تجعل الأطفال يرون نور الدنيا وبذلك تكون «جونو المنيرة» قد اكتسبت اختصاص ايليثويا (Eileithyia)، ابنة هيرا والتي كانت عند اليونان بمثابة «الربة القابلة» التي تعين النساء عندما يجيئهن المخاض. ولعل ارتباط جونو بالولادة والنور هو ما جعل بعض القدماء والمحدثين يعتقدون بأنها كانت «ربة القمر» أو كان لها على الأقل صلة بالقمر. وكان من أهم أعيادها عيد ماتروناليا (Matronalia) الذي كان ميعاده أول مارس (آذار) من كل عام، وهو رأس السنة الرومانية (حتى عام 153 ق.م)[3] وهو أيضاً يوافق ذكرى تأسيس معبدها كربة للنور. وعلى أي حال فإن أول يوم من كل شهر كان يعتبر مقدسا لجونو. وقد اكتسبت اختصاصاً أوسع وصارت إلهة كبرى للدولة، وعلى الأخص في مدينة لانوفيوم (باقليم لاتيوم) حيث كانت تعبد بلقب «سوسبيتا» (Sospita) أي المنقذة أو المخلصة، وكانت ترسم مسلحة مرتدية جلد الماعز، لكنها كانت تلقب أيضاً في روما «بجونو الملكة» (Iuno Regina) بوصفها قرينة لجوبيتر ملك الالهة، وعضوا في الثالوث الالهي فوق الكابيتول (المؤلف من جوبيتر وجونو وميزفا). وكان من أطرف أعيادها عيد «كابروتيناي» (Caprotinae) أي «عيد شجرة التين»، الذي كان يحتفل به في ساحة مارس (Campus Martius) ـ خارج سور المدينة ـ في يوم 7 يوليو (تموز) من كل عام وفيه كانت تقوم معركة

صورية (عند شجرة التين القديمة) بين الخادمات اللائي كن يتقاذفن بالأحجار ويتنابذن بألفاظ بذيئة ويأتين أفعالاً فاضحة. وكانت السيدات الحرائر يقدمن القرابين لجونو بوصفها ربة التين (كابروتينا). ويبدو أن هذه كانت شعيرة دينية قديمة متصلة بالخصوبة (خصوبة الأرض والمرأة)، إذ كان من المعتقد أن عصارة التين لها مفعول اللبن (في الرضاعة) أو تساعد النساء على الحمل.

بلوتو ونبتونوس وفستا وكيريس:

وبينما كان زيوس إلها للسماء والفضاء والضوء، كان أخوه هاديس ـ على نحو ما ذكرنا ـ إلها للعالم السفلي المظلم الموحش حيث كانت تذهب أرواح الموتى. وكان اليونان يلقبونه أحياناً باسم بلوتون أي «الثرى» أو «واهب الثروة» نظراً لأنه كان خازناً لما في باطن الأرض من خصب لولاه ما أثمر شجر أو أينع زهر أو انبثقت سنابل قمح. كما كان هاديس أيضاً زوجاً للفتاة «كوري»؟ ابنة ديميتير، ربة القمح نفسها، والتي لقبت بعد زواجها من هاديس وتبوئها معه عرش مملكة الموتى، باسم برسيفوني. هذا الإله المزدوج الاسم عند اليونان، اكتفى الرومان أحياناً باقتباس لقبه الثاني فسموه بلوتو (Pluto) بحذف النون تمشيا مع طبيعة لغتهم، أو ترجموه أحياناً أخرى إلى اللاتينية بكلمة ديس (Dis)، وهي صورة مدغمة لكلمة ديفيس Dives بمعنى «الثرى». وأما بوسيدون، إله البحر عند اليونان، فقد اعتبره الرومان نظيراً للإله نبتونوس (Neptunus)، وهو إله للمياه العذبة غير خطير الشأن عندهم.

وكانت هستيا، أخت زيوس العذراء، ربة موقد البيت وناره المقدسة. وكان الموقد ـ الذي تلتف الأسرة حوله عادة ـ يرمز لتضامن الأسرة، وأما النار فترمز لاستمرار حياة الأسرة جيلاً بعد جيل أو حياة المدينة أو الدولة. هذه الربة التي لم تنسج حولها أساطير كثيرة، اعتبرها الرومان مماثلة تماماً أو هي نفسها

فستا (Vesta) التي كان لها في روما معبد تختار كاهناته من فتيات الأسر العريقة اللاتي كن ينذرن أنفسهن لخدمة الربة، ويتبتلن من أجلها متعهدات بالحفاظ على عذريتهن حتى يبلغن سنا معينة وإلا تعرضن لعقاب رهيب. ووجد الرومان في ديمتير، ربة القمح اليونانية، صورة مطابقة لكيريس (Ceres)[4]. ربة القمح عندهم التي كان لها فوق تل الأفنتين معبد منذ القرن الخامس ق.م.

مارس: إله الحرب:

يعادل أريس إله الحرب عند اليونان، بمارس (Mars) الروماني الذي كان في الواقع إلها أعظم من عديله الاغريقي، وأكثر مهاماً وأوسع نشاطاً، إذ كان يلي جوبيتر نفسه في المكانة. وقد سمي أحد الشهور (وهو مارس) باسمه وكان أول شهر في السنة الرومانية حتى عام 153 ق.م. كان الرومان شعبا مقاتلاً كثير الحروب، ومن ثم نفهم لماذا اكتسب مركزا مرموقاً بين آلهة الرومان. ففي ثلاث مناسبات في شهر مارس كانت جماعة الكهنة القديمة المسماة بالساليين (Salii) المختصة بعبادة ثلاثة من كبار آلهة الرومان وهم جوبيتر ومارس وكويرينوس[5]، تقوم برقصات عسكرية أي وهي حاملة السلاح، وتنشد تراتيل تقليدية لكل الآلهة ومارس بوجه خاص. وكان هذا الاحتفال يعتبر جزءاً من إجراءات الاستعداد للقيام بأي حملة عسكرية. وفي 15 أكتوبر كانت تقام مباراة في سباق العربات «بساحة مارس» (Campus Martius) الكائنة خارج سور روما. وجرت العادة على ذبح الحصان الأيمن في عربة الفريق الظافر في السباق وتقديمه قربانا[6]. وكان يتنازع على رأس الحصان سكان الطريق المقدس (Via Sacra) وسكان ضاحية سوبورا (Suburra). وفي يوم 19 أكتوبر كان يقام احتفال آخر تجري فيه طقوس تطهير أسلحة الجنود قبل ايداعها في المخازن أثناء الشتاء. وللمرة الثالثة من الشهر نفسه كانت جماعة الكهنة القديمة وهم الساليون

Salii يقومون برقصات ملوحين فيها بتروس عتيقة تشابه في شكلها رقم ثمانية الافرنجي (8) ويسميها الرومان أنكيليا Ancilia. وكان على أي قائد روماني قبل الخروج من حملة عسكرية أن يهز «حراب مارس» المقدسة في قصر الكاهن الأعظم (Regia) قائلاً: مارس انتبه!. وكان للإله مارس كاهن كبير مختص بعبادته يسمى **Flamen Martialis** شأنه في ذلك شأن جوبيتر، كبير الآلهة، وكويرينوس، الإله القديم الذي نشأت عبادته منذ وقت مبكر فوق تل كويرينال، أحد تلال روما السبعة. وكان حيوانه المقدس هو «الذئب»، وطائره هو «ناقر الخشب». ليس بغريب إذن أن يعتبر الرومان مارس إلها للحرب، ويجعلونه صنوا لأريس، إله الحرب اليوناني.

لكن مما يستلفت النظر أن مارس كان له أيضاً اختصاص آخر بعيد عن الحرب، وهو الزراعة. فقد كانت لهذا الإله بعض أعياد في روما يستدل من مواعيدها وطقوسها على أنها كانت زراعية. وهناك ثلاثة آراء لتفسير اختصاص «مارس» بالزراعة: أحدها يقول أنه كان في الأصل إلها للحرب، وبالتالي كان المتعبدون له يتوجهون إليه بالدعاء لكي يحرس حقولهم من الأعداء المنظورين وغير المنظورين. والرأي الثاني يقول أن مارس كان في الأصل إلها من آلهة باطن الأرض، أي كان له صلة بالموتى، وبالتالي صار إلها للحرب، ولو أنه كان في الأصل يرتبط بخصوبة تربة الأرض. وأما الرأي الثالث ـ وهو الأرجح ـ فيقول أن مارس كان إلها كبيراً ولا يوجد تمييز واضح بين اختصاصاته لدى شعب كالرومان كان مشتبكاً في حروب مستمرة، ومشتغلاً بالزراعة ويعتمد عليها في تحصيل قوته وصناعاته الأساسية.

فولكانوس ومينرفا:

وقوبل هيفايستوس بن هيرا وحدها، القميء الأعرج، بالإله الروماني

فولكانوس (Vulcanus) الذي يبدو أنه بدأ حياته ـ كنظيره اليوناني، كإله لنار البراكين ثم للحدادة وعلى الأخص صناعة الأسلحة. وأما أثينة ابنة زيوس العذراء، التي قيل أنه ابتلع أمها وهي حامل فيها، ثم انبثقت هي من رأسه بعد فترة مدججة بالدرع الشهير والحربة وصارخة صرخة الحرب المدوية، فكانت أثيرة إلى قلب أبيها، بل أحب أبنائه اليه، وتليه في الأهمية. وقد رأى فيها الرومان صورة طبق الأصل من مينرفا (Minerva) التي كانت ـ كأختها اليونانية ـ ربة للحرف المنزلية كالغزل والنسيج وصناعة الفخار. وغدت ـ كنظيرتها ايضاً (وبعد أن تهذبت طباع الرومان الريفية الخشنة) ربة للثقافة والفنون والعلم والحكمة، وان لم تفقد أي منهما روحها القتالية وصفاتها الحربية الأولى، إذ كانت أثينة قديما ربة القلعة، وحامية القصر في العصر الميكيني، والذائدة عن حياض المدينة (أثينا). لكن مينرفا الرومانية لم تقترن دائماً ـ مثلما ارتبطت أثينة بالزيتون والثعبان والبومة، وهي تلك الكائنات النباتية والحيوانية التي كانت تنمو أو تعيش في جحور وشقوق صخرة الاكروبول[7]. لكن مينرفا هي وجوبيتر وجونو كانوا يؤلفون «ثالوثا إلهيا»، يعبد فوق جبل الكابيتول، على نحو ما ذكرنا.

أبوللون وديانا ومركوريوس:

كان أبوللون إلها قديماً يلي أثينة في الأهمية بين أرباب أوليمبوس. وإذ كان في الأصل ربا للرعاة، فقد صار ربا للرماية بالقوس والسهم، وللشفاء، والموسيقى والشعر. ولا يدري أحد كيف أصبح إلها للنبوءة التي كان معبده في دلفى أشهر مراكزها. ففي هذا المعبد كانت كاهنته المسماة بيثيا (نسبة إلى بيثو وهو اسم آخر لدلفى) تتقمصها روح أبوللون أو تغشاها فتروح في غيبوبة، وتتنبأ بالغيب بوحي أو إلهام منه. كما لا يدري أحد كيف أصبح أبوللون مختصا بشعائر التطهير (من دنس جريمة قتل ذوي الأرحام)، ومن ثم حجة ثقة فيما يتصل

بالطقوس الدينية السليمة التي ينبغي للمدينة تأديتها لكي تتجنب عواقب وخيمة قد تنجم عن نذر شؤم أو ترفع نقمة سماوية حلت بها كطاعون أو أي وباء آخر. وكان أبوللون ـ فوق ذلك ـ رمزاً للفتوة الناضجة، والاعتدال. كان بالاجمال تجسيداً للمثل اليونانية الحقة، وأكثر الآلهة تمثيلاً للروح الهللينية الصميمة. هذا الإله اليوناني استعاره الرومان كما هو اسما واختصاصا، لأنهم لم يجدوا عندهم إلها رومانيا أو إيطاليا مشابها له. وعلى ذلك فقد أبقوا على اسمه حاذفين فقط الحرف الأخير مراعاة لطبيعة لغتهم: أبوللو (Apollo)، وأما أخته التوأم أرتميس، ربة الصيد العذراء، التي ولدت مع أخيها في جزيرة ديلوس، فقد جعلها الرومان صنوا لديانا (Diana) نظراً للتشابه بين اختصاص الربّتين. وعودل هرميس، رسول زيوس والآلهة الكبار، وحارس أرواح الموتى ومرشدها إلى هاديس (العالم السفلي) ورب الطرق جميعاً وعلى الأخص مفارقها، وبالتالي رب التجار، عودل بمركوريوس (Mercurius) ما لم يكن مركوريوس، رب التجارة الروماني، هو في الأصل هرميس نفسه مكتبسا لقبا لاتينا، حيث أن لفظ مركيس Merces يؤدي في اللاتينية معنى «تجارة».

فينوس:

ولا يبقى سوى أفروديتي التي ذكرت أنها كانت (وفقا لرواية هوميروس) ابنة زيوس من ديوني، وهي عشيقة له أو زوجة سابقة على هيرا. لكن هناك رواية أخرى (عند هيسيود) تقول أنها انبثقت من زند البحر الذي اختلط به عضو تساقط من جسم أورانوس، إله السماء، عندما مزقه أبناؤه اربا للتخلص منه. حدث ذلك قرب كيثيرا (جنوب البلوبوينز) حيث خرجت افروديتي من البحر عارية ناضجة الأنوثة فاتنة. لكنها لم تلبث أن رحلت إلى قبرص حيث شيد لها في مدينة بافوس أقدم معبد في كل العالم اليوناني. ويؤيد أصحاب هذه الرواية

رأيهم قائلين بأن اسم افروديتي مشتق من كلمة «أفروس» اليونانية بمعنى «زبد البحر». غير أن كلتا الروايتين غير صحيحة. والحقيقة التي لا يكاد يرقى إليها الشك هي أن أفروديتي ليست إلا عشتر، ربة البابليين والأشوريين، والتي عرفت بعشترت لدى الكنعانيين. ويرد اسمها في التوراة بهذه الصيغة المفردة أو في صيغة الجمع «عشتروت». وعلى ذلك فان اسم افروديتي ما هو إلا تحريف يوناني للاسم السامي عشتروت[8]. وكانت عشتر أو عشتروت عند شعوب الشرق القديم هي ربة الخصب (خصب الأرض وخصب المرأة) وبالتالي ربة الحب، إذ كانت ترمز إلى الدورة الطبيعية في حياة النبات وخصوبة الأرض، وترمز إلى استمرار الحياة عن طريق التناسل. وكانت عشتروت الهة للحرب في الوقت نفسه. وتصور في الأدب والفن القديم متعطشة إلى الدماء ويسرها تذبيح الرجال. وكانت ربة متقلبة الأهواء كثيرة العشاق الذين كانت تدنيهم منها ثم تقصيهم عنها فتعذبهم أو يلقون مصارعهم بسببها. وكان عشيقها الذي هامت به هو الإله السومري البابلي «تموز» الذي كان على ما يبدو فتى وسيما غض الاهاب. وتموز كلمة سومرية معناها «ابن المياه العذبة الحقة»، أي ابن الأرض التي اخصبتها المياه العذبة. وكان تموز من أشهر آلهة الخصب والنبات. وقد أطلق السومريون اسمه على أحد شهور السنة. وظل الاسم باقياً في التقويم الأكدي وبعدئذ عند العبريين والآراميين والعرب. فكان تموز هو الشهر الرابع من السنة التي كانت تبدأ عند هذه الشعوب بشهر نيسان (ابريل وقد عرف تموز عند الكنعانيين باسم «أدون» وهي كلمة معناها «سيد» في الفينيقية والاوجاريتية والعبرية. وكانت مدينة جبيل (بيبلوس) بوجه خاص تعبده بهذا الاسم «أدون». وحدث أن قتله خنزير بري فبكته عشتروت وبكته معها كل النساء وظللن يحتفلن بالبكاء عليه كل عام، إذ ساد الاعتقاد بأن «أدون» كان ينزل إلى أرض الموتى في كل خريف، فيذبل النبات. ولهذا كن يبكينه حتى يعود إلى سطح الأرض مع مطلع الربيع، فيزهر النبات من

جديد. وكان من بين ألقابه الغالبة عندهم لقب «حبيب عشرت» و «حبيب ملكة السموات». وكثيراً ما كان ينادى بـ«أودني» أي «يا سيدي» و بـ«الراعي»، و«سيد البستان».

ولما كانت قبرص هي أقرب جزء في العالم اليوناني إلى الساحل الفينيقي، فقد اقتبس اليونان اسم عشتروت من الشرقيين وحرفوه فصار «افروديتي» التي اشتهرت عند اليونان أيضاً باسم «القبرصية». واقتبسوا كذلك اسم حبيبها «أدون» أو بالأحرى صيغة المنادي «أدوني» وجعلوه أدونيس ليتمشى مع طبيعة لغتهم. ونشفع هذا بدليل آخر يؤيد ما نذهب إليه من أن افروديتي ما هي إلا عشتروت: فقد دأب الكتاب اليونان كـ (هيرودوت وباوسنياس) على الاشارة باستمرار إلى أصل افردويتي الشرقي. وثمة قرينة على تعاطفها مع الشرقيين وهي علاقتها الشهيرة بأنخيسيس الطروادي وانجابها منه البطل أيناس ووقوفها إلى جانب طروادة والآسيويين في الحرب الطروادية ضد الأخيين الاغريق. وتظهر أفروديتي في أساطير اليونان كالهة للخصب والنبات والحب والجمال، وهي عندهم تجسيد الغريزة الجنسية وقوة الحب القاهرة وهذه هي نفس خصائص عشتروت، الهة الساميين. لكن أفروديتي لا تظهر مثلها كربة للحرب إلا في القليل النادر. لقد اشتركت مرة واحدة في القتال أثناء الحرب الطروادية وجرحت في يدها، فولت مولولة صارخة، وقيل لها في أوليمبوس أن الحرب ليست وظيفتها وإنما وظيفتها الحب وحده. ومع هذا فإن الصفة الحربية الأصلية لم تغب عن بال الاغريق ولم يغفلوها، فقرنوا أفردويتي في الأساطير بأريس إله الحرب الذي كان يتعطش دائماً إلى المعارك ويبتهج لسفك الدماء. كانت افروديتي ـ على نقيض زوجة أبيها هيرا ـ وهي ربة الزواج المقدس ـ الهة ضحوكا لعوبا ماجنة ومتقلبة كاختها الشرقية عشتروت التي يعيرها جلجامش عندما عرضت عليه الزواج منها ـ يعيرها بقصص غرامها الكثيرة قائلاً: مَنْ عشاقك أحببت إلى الأبد؟ ومن

عجب أن اليونان زوجوا أفروديتي من هيفايستوس، ابن هيرا وحدها، القميء الأعرج، إله النار والحدادة. وكان من البديهي أن يزيدها هذا الزواج انحرافا وعلى الأخص أنها ربة الحب والجمال وقد اتخذت لها عدة عشاق من آلهة خالدين وبشر فانين. وكان العشيق الذي ارتبطت به أكثر من غيره هو أريس إله الحرب والدمار (وهو مارس عند الرومان). وفي الحق أن أفروديتي توصف بأنها زوجة لأريس في الأساطير المتأخرة. بل إنها عبدت كربة للحرب في اسبرطة وقبرص وكيثيرا وغيرها من الأماكن[9]. وكل ذلك يشير إلى اصلها الشرقي حيث أن عشتروت ـ على نحو ما ذكرت ـ كانت، إلى جانب كونها ربة للحب، ربة للحرب في الوقت نفسه. ورب سائل يسأل عن سر الجمع بين هاتين الصفتين المتعارضتين. والحقيقة هي أن عشتروت في الأصل كانت تجمع بين صفتي الذكورة والأنوثة. كانت في الأصل نجم الصباح، تارة، ونجمة المساء، تارة أخرى. وإذا كانت قد عبدت كالهة انثى في الشمال، فقد عبدها عرب الجنوب (اليمن) كإله ذكر باسم عشتر (إله نجم الصباح) في الحق أنه كان يكتنفها غموض شديد. لكن لم يلبث أن أزيل هذا التناقض بين صفتي الذكورة والأنوثة بأن اتحدت في شخص عشرت الهة الحب (جانب الأنوثة) والهة الحرب (جانب الذكورة). ومن الطريف أن هذا أيضاً لم يخف على الاغريق، ويتردد صداه في اسطورة علاقة أفروديتي بإله آخر وهو هرميس، رسول الالهة ومرشد أرواح الموتى إلى «العالم السفلي». كان هذا الإله يشتق اسمه من كلمة يونانية معناها حجرة أو كومة من حجر. وكان يصور دائماً كتمثال نصفي، له رأس انسان منحوت في حجرة لها شكل عضو الذكورة. وفي الحق أن عضو الذكورة كان شعاراً مميزا لهذا الإله الذي كان معنيا دائماً بالخصوبة. ولعل ذلك يفسر سبب ارتباطه أحياناً بأفروديتي، ربة الخصوبة. وكان يربطه بالخصوبة عامل آخر وهو اختصاصه كمرشد لأرواح الموتى إلى العالم السفلي، لقد كان فريدا بين آلهة أوليمبوس في ارتباطه بباطن الأرض وما فوق

الأرض على السواء. وأياً كان الأمر، فإن الأسطورة اليونانية تقول أن أفروديتي عاشرت هرميس وأنجبت منه مولودا يجمع بين صفتي الذكورة والأنوثة كما يتبين من اسمه هرمافروديتوس (Hermaphroditus) وهو مخلوق خنثى. ويرسم عادة في صورة هرميس له نهدان بارزان، أو في صورة افروديتي مقرونة بأعضاء الذكورة، وعندئذ قد يسمى «افروديتوس»، أي افرودتي الذكر.

وإذا لم تكن الأدلة السالفة مقنعة فإليك قرائن أخرى قاطعة بأن أفروديتي اليونانية هي صورة طبق الأصل من عشتروت السامية. لقد ورد في بعض الأساطير اليونانية ـ على نحو ما أشرت ـ أن أفروديتي كانت ابنة لأورانوس، إله السماء عند الاغريق. وكانت تلعب عندهم «بالمساوية»[10]. كذلك كانت عشتروت ـ قبل أن تصبح ربة للأرض وخصوبتها ـ «كوكب الزهرة» عند السومريين والأكدنيين. وكانوا يسمونها أيضاً انينا (Innina) أي «سيدة السماء» أو «ملكة السماء». وكانت تأتي بعد أبيها «سين» (إله القمر) الذي كان يلقب أيضاً باسم نانا Nanna أي «رجل السماء»، وبعد أخيها شمش (إله الشمس).

وكما قرن الساميون عشترت بتموز أو «أدون»، قرن الاغريق أفردويتي بأدونيس وجعلوا من أدونيس ابنا لكينيراس (Cinyras)، ملك قبرص الذي أنجبه من علاقة محرّمة بابنته ميرا Myrraha (لبان المر) وهو اسم حرف فيما بعد فصار سميرنا Smyrna وهي «أزمير». وقد صرعه خنزير بري وهو يصطاد ـ مثلما صرع تموز وأدون ـ عند نهر يرجح أنه نهر ابراهيم بلبنان، أو قتله هيفايستوس، زوج افردويتي المخدوع أو أريس، عشيقها الغيور. ومن ثم فقد أصبح هذا النهر يصطبغ سنوياً بلون أحمر كلون الدم القاني الذي سال من جسد الفتى الجميل. وكما بكته نساء الشرق بكته نساء اليونان حتى يبعث حيّا من جديد. وكانت له في بلاد اليونان أعياد سنوية تنوح فيها النساء ويندبنه متفجعات عليه. وكن يضربن صدورهن ويمزقن شعورهن، ويقطعن منها خصلا يعلقنها في المعابد. بل ان

بعضهن وهبن أنفسهن لأدونيس وأصبحن عاهرات في معابده، وعلى الأخص في كورنثة. وذلك ما يعرف بالدعارة المقدسة. وفي الحقيقة أن أفروديتي كانت راعية لهؤلاء النسوة، ولقبت بربة العاهرات (Porneia) وفي الاسكندرية كان يقام في عهد البطالمة مهرجان فاخر يسمى «أدونيا» (Adoneia). أي عيد أدونيس. وفيه كانت المحتفلات يقمن بتزويج أفروديتي من أدونيس ثم يحملن صورته أو تمثاله إلى ساحل البحر وسط البكاء والعويل. وفي أثينا كانت النساء في احتفال أدونيس ـ إلى جانب النحيب ـ يقمن بساتين مؤقتة فوق أسطح المنازل، وفي جزيرة ديلوس كان هناك احتفال يقام لأدونيس منذ القدم. غير أن الاحتفال بأدونيس كان يختلف في المضمون والتاريخ من مكان لآخر. لكنه كان يقام بأثينا أثناء القرن الخامس ق.م في شهر يوافق نيسان (أبريل) أي في الشهر الرابع من السنة، وهو نفس ميعاد الاحتفال به عند الأكديين والعبريين الذين كان تموز عندهم هو الشهر الرابع من السنة[11]. وأما في عصر الامبراطورية فكان عيد أدونيس يقام دائماً في 19 تموز. ولم تطلق المدن اليونانية اسمه على أي شهر. لكن كثيراً من هذه المدن كانت تسمى أحد الشهور باسم أفروديتي.

ومنذ أن فتك الخنزير البري بأدونيس فلقي مصرعه، وبكته أفروديتي بكاء مرا، كان المتعبدون لها وهي مقرونة به، يتقدمون بقرابين من الخنازير. ولقبت افروديتي بألقاب متصلة به كذات الأزهار (Antheia)، وذات البساتين (en kepois).

وأخيراً فكما تركزت في عشترت الإلها ت جميعاً، أصبحت افروديتي، التي انتشرت عبادتها وعلى الأخص في قبرص (بافوس وأماثوس) وكيثيرا وكورنثه، أصبحت في بعض المدن كأثينة وطيبة وميجالوبوليس، ربة الشعب كله؟ (Pandemos) وكان ذلك يمثل اسمى فكرة سياسية نشأت حول عبادتها.

وقد عرفت افروديتي عند الرومان باسم فينوس (Venus) في العصر الكلاسيكي. لكن فينوس التي يؤدي اسمها في اللاتينية معنى الجمال البهيج،

لم تكن في أول الأمر سوى ربة ايطالية صغيرة مغمورة الشأن، إذ كانت عبادتها محصورة في طائفة من زارعي البساتين والحدائق. كانت تشابه إحدى هؤلاء الربات المسميات عند الاغريق خاريتيس (Charites) وكن يرمزن للجمال الحسي أو المعنوي الذي يثير النشوة في الجسم أو الابتهاج في النفس، وكن يرتبطن دائماً بأفروديتي ويشاهدن في صحبتها. كانت فينوس في نشأتها هي تلك القوة الخارقة أو الروح الخفية (numen) التي تجعل البساتين والحدائق تبدو أكثر رونقاً ونضارة وثمارا. وليس هناك دليل على أنها كانت ربة خصب أو تناسل، لكن لم يلبث الرومان أن شبهوها بأفروديتي اليونانية، وجعلوها صنوا لها في العصر الكلاسيكي. واقتبست فينوس من أفروديتي معظم خصائصها كربة للخصب والحب والجمال، بل وربة للحظ أيضاً، وقرنوها بمارس، إله الحرب مثلما كانت افروديتي مقترنة بأريس. وقد زاد من أهمية فينوس أنها أصبحت ـ مثل افروديتي ـ أمّاً لاينياس، البطل الطرواد الذي أسس هو أو واحد من ذريته روما نفسها، واعتبرت الأم التي انحدرت منها سلالة الرومان، ومن ثم لقبت بفينوس الأم (Venus Genetrix). وكانت عشيرة يوليوس قيصر على الأخص تعتبر نفسها سليلة الربة فينوس[12]. ولذلك ازدهرت عبادتها في عصر الامبراطورية التي أسسها أكتافيانوس أغسطس الذي ينتمي بالتبني إلى عشيرة يوليوس (Gens Iulia).

ديونيسوس زاجريوس:

ولقد مر بنا ذكر ديمتير، ربة القمح، التي شبهت عند الرومان بالربة كيريس. وكان لديميتير ابنة وحيدة من زيوس تدعى «كورى»[13] (Koré) أي «الفتاة العذراء أو البنت البكر». لكنها اشتهرت باسم برسيفوني بعد أن اختطفها عمها هاديس أو بلوتون (وخإلها في الوقت ذاته)، وتزوجها لكي يؤنس بها وحشته في «العالم السفلي» المقبض وقد حزنت عليها أمها حزنا شديدا، وبكتها

بكاء مراً حتى حزنت الأرض معها وأجدبت ولم تعد تنبت القمح، وهو غذاء لا غناء عنه للبشر. وأخيراً وبعد أن عرفت الأم مكان ابنتها وتم الاتفاق على أن تعيش برسيفوني مع زوجها هاديس في العالم السفلي كملكة على عالم الموتى[14]، وتعيش أربعة شهور أخرى مع أمها ديميتير على سطح الأرض، وهي توافق شهور نضج القمح وحصاده (من يونيو ـ سبتمبر). وأما بقية السنة فقد ترك لبرسيفوني أن تتصرف فيه كيفما تشاء وتقضيه على نحو ما تهوى. هذه الربة حرّف الرومان اسمها فأصبح ينطق عندهم بروسربينا (**Proserpina**). لكن برسيفوني (أو بروسربينا) كان لها اسم ثان عند الرومان. ولكي نفهم ذلك لا بد من أن نتحدث أولاً عن إله آخر وهو ديونيسوس، إله النبيذ، الشهير أيضاً باسم باكخوس.

ظلت برسيفوني فتاة عذراء (كأثينة وأرتميس). لكنها لم تعد كذلك بعد اختطافها وزواجها من عمها هاديس، إله الموتى. ولم تنجب برسيفوني منه أبداً، وظل الزواج عقيما كالموت ذاته إلى أن عاشرها أبوها نفسه زيوس مثلما عاشر من قبل أمها ديميتير. لقد أتاها بوصفه زيوس الباطني «أو» تحت الأرض، متقمصاً شكل الثعبان[15]. وبهذه الصفة كان زيوس يلقب بلقب زاجريوس (**Zagreus**)، وهي كلمة معناها «الصياد العظيم». وقيل بأن ذلك حدث في أحد الكهوف بجزيرة صقلية، بل قيل إنه حدث برضى الأم نفسها. وتمخض عن المعاشرة طفل له قرنان يدعى «ديونيسوس تحت الأرض»، ولو أنه اكتسب أيضاً لقب أبيه فأصبح يسمى ديونيسوس ـ زاجريوس (**Dionysus Zagreus**).

وكان من الطبيعي أن تحقد هيرا، زوجة زيوس، على الطفل كحقدها دائماً على الأطفال الذين كان زوجها ينجبهم من إلها ت أو نساء أخريات. وتواطأت مع «التيتانيس» وهم الجبابرة أعداء الآلهة، على التخلص منه. وبالفعل استطاع هؤلاء الجبابرة الأشرار اختطاف ديونيسوس ومزقوه إربا ثم أكلوه فيما عدا القلب الذي استطاعت أثينة أن تستخلصه منهم وتحمله إلى زيزس الذي طواه في جوفه.

ذلك هو ديونيسوس «الأول» أو «ديونيسوس زاجريوس».

ومضت الأيام ووقع زيوس في حب امرأة من البشر اسمها «سيميلي» أو زيميلي، وهو اسم معناه باطن الأرض ويرمز للخصب والنبات. وكانت سيميلي ابنة كادموس، ملك طيبة، ابن أجينور، ملك مدينة صور. وقد أتاها زيوس متنكرا في صورة بشر، وجامعها أو أعطاها شرابا من دم قلب الطفل ديونيسوس فحملت منه. وأثار ذلك غيرة هيرا فدبرت مكيدة انتهت بمصرع سيميلي. لكن زيوس استطاع أن ينتزع الجنين من رحمها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة. وأخفى الجنين في فخذه. وعندما آن الأوان ولد ديونيسوس «الجديد» من فخذ أبيه. وعهد بالطفل إلى ثلاث حاضنات أو أربع لكفالته والعناية به. حدث ذلك كله في مكان بوسط جزيرة صقلية غير بعيد عن المكان الذي كانت برسيفوني قد اختطفت فيه.

وأما عن التيتانيس (Titanes) أو الجبابرة فقد أحرقهم زيوس بصاعقة. ومن رمادهم خلق الانسان، على نحو ما يقول «المذهب الأورفي»، وهو مذهب ديني فلسفي ينسب إلى أورفيوس، ويحاول تفسير نشأة الكون وخلق البشر. وخلاصة هذا المذهب في خلق البشر أنه لما كان الإنسان قد نشأ من رماد الجبابرة الأشرار الذين التهموا الطفل الالهي، فإن الإنسان يولد له طبيعتان: إحداهما تيتانية (أي شيطانية إن جاز التعبير) والأخرى الهية، أي يجمع بين صفتي الشر والخير. ويضيف هذا المذهب بأن الجسم (Soma) هو قبر (Sema) الروح، لأن الروح تعاقب على ذنوب الانسان بأن تظل حبيسة في سجن البدن. ومن الواضح أن الروح تمثل جانب الخير الالهي في الانسان بينما يمثل الجسم جانب الشر التيتاني. ومن ثم فقد جاء في أولى تعاليم المذهب الأورفي تحريم قتل الحيوان أو أكل لحمه. ولعل التحريم يرجع إلى نجاسة الجسد أو إلى جريمة التيتانيس أو إلى الاعتقاد بتناسخ الأرواح. والأخير هو الرأي الأرجح. وقد اعتنق الأورفيون فكرة العقاب في العالم السفلي أي العذاب في الآخرة. ومع أن الفكرة ليست فكرتهم وحدهم،

إلا أنها اكتسبت في مذهبهم أهمية خاصة: إذ يدعو المذهب الأورفي إلى التطهر من الاثم في الحياة الدنيا على أمل الخلاص من عقاب الآخرة عن طريق الاشتراك في الطقوس الدينية السرية، والاستقامة والهدى. ومن لا يفعل ذلك فإن مصيره التردي في أوحال العالم السفلي. ومن يهتدي عن طريق الطقوس السرية سوف يعيش في الآخرة في هناء ونعيم. وكان أفلاطون أحد القلائل الذين فهموا هذا المذهب كما يتضح من قوله أن الروح تعاقب ببقائها سجينة في البدن. وقد ظهر في بلاد الاغريق، حتى قيل العصر الكلاسيكي، اتجاه يتعارض وأفكار الاغريق الدينية، ومؤداه احتقار الحياة الدنيا. وكان هذا الاتجاه الغيبي أو «التصوفي» يتفق مع اتجاه الأورفيين الذين اتخذوا من ديونيسوس زاجريوس إلههم الرئيسي، ومحورا لمذهبهم الديني الفلسفي.

ديونيسوس باكخوس:

ومن رماد الجبابرة أيضاً نبتت ثمار الفواكه وعلى الأخص الكروم، وهي غذاء أفضل من لحم الحيوان النيء أو لحم البشر. وتتمثل الكروم في شخص ديونيسوس. وكان ديونيسوس ـ في واقع الأمر ـ إلها فريجي الأصل (أي من فريجيا بآسيا الصغرى). وكان في الأصل إلها للنبات ولا سيما الحبوب ثم أصبح بعد ذلك (ربما في ليديا) إلها للفواكه وعلى الأخص العنب، وبالتالي إلها للنبيذ وبهذه الصفة اكتسب لقبا آخر بجانب زاجريوس، وهو لقب باكخوس (Bacchus). وكلمة باكخوس ليدية الأصل معناها براعم الكرم المتفتحة أو محاليق العنب. وهذا اللقب مشابه جداً أو هو تحريف للقب باكخوس (Bacchus) الذي كان يطلق على ديونيسوس وهو طفل ـ بعد ولادته الثانية ـ أثناء تلك الطقوس السرية التي كانت تمارس في عبادة ديميتر، ربة القمح، ببلدة اليوسيس (احدى ضواحي أثينا).

عبادة ديميتير ذات الطقوس السرية:

ففي هذه البلدة كانت ديميتير قد سمعت أول نبأ هداها إلى مكان اختفاء ابنتها كورى (برسيفوني). ومن ثم فقد باركت الربة هذا المكان، وعلمت أهله الزراعة[16]. ونشأت لها فيه عبادة ذات طقوس سرية (Mysteria)، تعتبر أقدم العبادات من هذا النوع، وأوسعها انتشاراً، وأطولها بقاء. وكان الاحتفال بها يجري في وقت بذر القمح أي في شهري سبتمبر/ أكتوبر من كل عام. ومع أن عبادة ديميتير كانت خاصة أي فردية وليست عامة أو رسمية (لأنها كانت تعبر عن تحرر الفرد من الأسرة والدولة) فإن دولة مدينة أثينا قد تولت ـ بعد اندماج اليوسيس في الدولة قبيل عام 600 ق.م ـ الاشراف على طقوس هذه العبادة السرية الاليوسية (Eleusinia).

كان الاحتفال يبدأ بموكب يخرج من أثينا ويسير حتى اليوسيس التي تبعد عنها حوالي 12 ميلاً. وكان المشتركون في الموكب ممن سمح لهم بالدخول في هذه العبادة، يغتسلون في البحر، ويحملون معهم تلك الأدوات المقدسة أو المقدسات التي سبق أن أحضرت من اليوسيس. وفي اليوسيس كانت تقام الطقوس في المساء بقاعة الأسرار الدينية (Telesterion) المضاءة بعدد كبير من المشاعل. ولا يعلم أحد علم اليقين ما الذي كان يجري داخل قاعة الأسرار الدينية. ذلك أنه كان محظوراً على المشتركين أن يبوحوا بما يشهدونه من أسرار، وإلا حقت عليهم اللعنة. وهناك آراء كثيرة وجيهة حول هذا الموضوع. لكنها لا تخرج عن كونها مجرد افتراضات. ولا تزال الشعائر الرئيسية في هذه العبادة غير معروفة. لكن بعض الكتاب القدامى يحدثوننا عن تراتيل كانت تنشد، وعن أشياء مقدسة كان يظهرها الكهنة للمشتركين في العبادة، وعن طقوس تؤدى. وكانت الطقوس على مراحل أو مراتب ثلاث: التعريف بأصول العبادة الأولية

ومراسمها كالأدعية والاغتسال والصوم التي ترمي إلى طهارة الجسم، ثم مرحلة التعرف على الأسرار الدينية، وأخيراً مرحلة أو مرتبة رؤية المعبود نفسه والاتحاد به، وهي أسمى المراتب وأشقها إذ تتطلب من المتعبدين اجتياز امتحان عسير، ومعاناة شديدة. ولعل المرتبة الثالثة لم يكن المشترك يبلغها إلا في العام التالي. ومن المرجح أن المقبولين في هذه العبادة كانوا يشهدون تمثيلية دينية تحكي عن قصة حزن ديميتير ومعاناتها بسبب اختطاف ابنتها «كورى» ثم فرحتها بالعثور عليها أو عن ديونيسوس زاجريوس الذي عانى هو الآخر معاناة شديدة عندما مزقه الجبابرة إربا ثم ولد ثانية من فخذ أبيه أي بعث حيا من جديد.

ويلاحظ أن العبادات ذات الطقوس السرية (Mysteria) وفي مقدمتها عبادة ديميتير في اليوسيس، تتصل بآلهة الخصوبة، والدورة الطبيعية للنبات الذي يذبل ويموت ثم يعود وينمو ويزدهر كل عام من جديد. وكذلك حال الانسان. ذلك أن هذه العبادة ـ وغيرها (كعبادة ديونيسوس) ـ ذات الطقوس السرية كانت تعد المشتركين فيها بحياة أخرى بعد الموت، وتمني المطلعين على أسرارها بالنعيم في الحياة الأخرى. ومعنى هذا أنها كانت تنادي بفكرة البعث، وهي فكرة كانت جديدة ودفعت كثيراً من الناس إلى الاقبال عليها ولا سيما أن العبادة اقترنت بعد ذلك بمبادىء أخلاقية مطهرية كالطهارة الروحية والاستقامة وصفاء النية. ولم تعد مقصورة على مراسم أو طقوس شكلية. لذلك ازداد إقبال الناس عليها من كل الطبقات وعلى الأخص الفقراء، منصرفين عن عبادة آلهة أوليمبوس التي كانت شكلية بحتة، جامدة باردة لا تثير في النفوس أي حماس ديني أو مشاعر عميقة. ووجد الناس في عبادة ديميتير ذات الطقوس السرية، فرصة للتعبير عن مشاعرهم الدينية، وأملاً في حياة أخرى بعد الموت قد تكون أفضل من الحياة الدنيا وما فيها من شقاء. وكان من عوامل تهافت الناس على هذه العبادة أنها كانت تهيىء الفرصة للمتعبدين لكي يتحدوا بالمعبود اتحاداً، ويصيروا جزءاً منه.

ومعنى هذا أنهم كانوا يصبحون خالدين مثله.

الثالثوث الالهي في اليوسيس: (ديميتير وكوري وباكخوس)

(كيريس وليبرا وليبر)

وقد اشتركت مع ديميتير في هذه العبادة باليوسيس ابنتها كوري (برسيفوني).

ولما كانت عبادة ديونيسوس أو باكخوس كإله للنبيذ تشابه عبادة ديميتير ذات الطقوس السرية في نقطة أساسية وهي فكرى البعث فلم يلبث أن أشرك هو الآخر مع ديميتير وابنتها في عبادة اليوسيس.

ذلك أن ديونيسوس ـ على نحو ما ذكرنا ـ كان في الأصل إلها في فريجيا بآسيا الصغرى. ثم انتشرت عبادته ووصلت إلى طراقيا. ومنها وفدت إلى بلاد الاغريق. ولقيت عبادته هي الأخرى رواجاً كبيراً بين الناس وعلى الأخص بين النساء والأرقاء والمعدمين. إذ كانت عبادته باسم «باكخوس»، إله النبيذ، تقترن بطقوس غريبة متطرفة جامحة عربيدة (Orgia)، وتصاحبها مواكب صاخبة تخرج متجهة إلى قمم الجبال في الليل البهيم. وتتميز بالأناشيد والرقص العنيف، والتبذل. وكان أغلب أتباع هذا الإله من النساء. فكانت تغمرهن النشوة، ويغلبهن الشوق إليه، ويسرفن في شرب النبيذ، وهو هدية باكخوس إلى البشر، حتى يفقدن الوعي من الشراب والرقص ويقمن بأعمال غريبة خارقة، ثم يرحن في غيبوبة ويصرن كالممسوسات أو كالمجنونات (Maenades) إذ يتصورن وكأن روح باكخوس قد تقمصتهن، وأنهن قد اتحدن به تماماً، وتلك كانت أسمى مراتب العبادة. وبذلك يتحقق لهن الخلود، ويتأكدن من البعث بعد الموت، والأمل في حياة أخرى أكثر هناء ونعيما من هذه الحياة الدنيا التي يعشن فيها حبيسات الخدور، مهضومات الحقوق، خاضعات لوصاية الرجل الاغريقي

دون أن يتمتعن بما يتمتع من حرية وانطلاق.

والخلاصة أنه نشأ في عبادة اليوسيس السرية ثالوث الهي يتألف من ديميتير وكوري وباكخوس. وقد انتشرت عبادتهم انتشاراً كبيراً في العصر الهلينستي وعصر الامبراطورية الرومانية.

هذا الثالثوث الالهي، استعاره الرومان بأسماء أخرى هي: كيريس (= ديميتير) وليبرا (= كورى)، وليبر (= باكخوس). وكانت ليبرا (Libera) هي وليبر (Liber) إلهين قديمين لزراعة الكروم وصنع النبيذ عند الرومان.

لكن عبادة باكخوس وحده، انتقلت من جنوب إيطاليا بسرعة إلى الشمال وانتشرت في روما منذ القرن الثاني ق.م. وكسبت هذه العبادة اليونانية الأجنبية (Superstitio externa) أنصارا كثيرين وعلى الأخص بين النساء والعبيد الرومان. ونشأت جمعيات سرية حول عبادته ومارست طقوسها الغريبة العربيدة. وانزعجت السلطات الرومانية انزعاجا شديدا حتى أن السناتو (مجلس الشيوخ الروماني) إما حرصاً على التقاليد الدينية الرسمية، أو حماية للأخلاق من التبذل، ومنعا للشغب والصخب، أو ربما ارتيابا في أن يكون وراء هذه الجمعيات الدينية السرية أهداف سياسية فتشجع على الانقلابات أو الثورات، أصدر قراراً بحل جمعيات باكخوس في كل إيطاليا عام 186 ق.م (S.C. de Bachanalibus). وقد نص في هذا القرار الشهير على ضرورة الحصول على ترخيص من البريتور (الحاكم القضائي)، بل وموافقة السناتو، لممارسة طقوس هذه العبادة، وأن تمارس طقوسها علنا لا سرّاً، وأن لا يجتمع معا في وقت واحد أكثر من خمسة أفراد (رجلين وثلاث نساء) عند تأدية هذه الطقوس.

فاونوس ـ سيلفانوس:

وكان عند الرومان إله اسمه فاونوس (Faunus). وهو في الحقيقة

ليس إلها بالمعنى الدقيق، بل هو جان أو روح أو عفريت كان يسكن المناطق غير المزروعة وغير المأهولة، ويحوم في الغابات والبراري وما إليها. وكان يشابه إلى حد كبير المعبود اليوناني بان (Pan). ولذلك كان الرومان يعتبرونه مناظراً له. وكان فاونوس يلقب عند الرومان بلقب سيلفانوس (Silvanus) أي ساكن الغابات التي تقع وراء المزارع. ولذلك اعتبر مرادفاً للقب سيلينوس (Silenos)، وهو لقب كان يحمله «بان» اليوناني في بعض الأحيان. وفي الحقيقة أن الجن الرومانية (Fauni) كانت تشبّه أحياناً بالساتيري اليونانية (Satyri) التي كانت هي الأخرى أرواحاً للغاب ترمز للخصوبة، وقد تصورها اليونان كمخلوقات بشرية ولكنها شائهة الوجه قبيحة الصورة إذ أن بعضها كان في هيئة الخيل له أذنان كبيران مدببان وذيل حصان، وبعضها الآخر في هيئة الجديان متمردة الطبع شديدة الأذى جامحة الشهوة. وكانت تشاهد كثيراً في صحبة ديونيسوس في الغابات مثلما كانت الحوريات (Mynphae) يشاهدن عادة في رفقة أرتميس (ديانا)، ربة الصبا، إلها ثمة على وجهها في البراري والتلال.

هيراكليس (هركوليس): هرقل:

ولا يبقى بعد ذلك سوى هيراكليس الذي اعتدنا أن نسميه «هرقل». لم يكن هيراكليس عند اليونان إلها بل كان بطلاً، خلد بعد موته وصار يعبد أحياناً كبطل، وأحياناً أخرى كإله. والدليل على أنه بشر هو أن اسمه مشتق من اسم «هيرا» ولا يوجد إله يوناني له اسم مشتق من اسم إله آخر. وكان هيراكليس أكثر الأبطال شعبية وحظيت عبادته بانتشار أوسع مما حظيت به عبادة أي بطل اغريقي آخر. وقد نسبه الاغريق إلى زيوس الذي قيل أنه أنجبه من امرأة آدمية وهي «الكميني» زوجة ملك طيبة، التي كانت حفيدة لبرسيوس، ملك أرجوس القديم. ومن هنا جاء ارتباط هيراكليس بمدينة طيبة، وقيامه في اقليمها (بويوتيا)

بعدد من مغامراته الشهيرة. وقد زعمت طيبة تبعاً لذلك أنه أحد أبنائها وكان يلقب فيها بلقب الكايوس أو «الكيديس» بمعنى «الباسل». لكن يبدو أن الحقيقة غير ذلك وأن طيبة شبهت به بطلا محلياً كان يحمل اللقب المذكور. كذلك حاول الدوريون الذين انتشرت عبادتهم بينهم أن ينسبوه إليهم، وقد أصابوا بعض النجاح حتى لقد ساد الاعتقاد بين الباحثين المحدثين فترة بأن هيراكليس بطل دوري. وأما الاثينيون فقد اكتفوا بتقريب صورة ثيسيوس، بطلهم القومي، من صورة هيراكليس.

ولقد ذكرت أن هيراكليس كان في أغلب الظن بشرا لا إلها ، بدليل أنه يحمل اسما من أسماء الآدميين كان انسانا ويرجح أنه كان شخصية حقيقية لا خيالية وأنه كان أحد أبناء شعب أرجوليس الذي كانت هيرا ربتهم الرئيسية، وكان أشهر معابدها يقوم في بلدة «هيرايوم» على مقربة من مدينة ارجوس. وهذا الرأي يتسق تماماً مع الرواية الراسخة التي تقول أن هيراكليس كان من أرجوليس، وعلى وجه الدقة من مدينة تيرينس، وينتسب ـ على ما يبدو ـ إلى الفرع الأصغر من أسرة برسيوس المالكة في مدينة أرجوس، ويمت بصلة قرابة ليورسثيوس سليل برسيوس، وملك أرجوس الذي قام هيراكليس بأعماله الخارقة بتكليف منه. فإذا كان هيراكليس الحقيقي أميراً على مدينة تيرينس فلعل ملك أرجوس (أوميكيني القريبة) كان سيدا عليه. ومن الجائز أن هيراكليس كان قد قام بخدمة ممتازة في إحدى الحروب التي طواها النسيان أو بأي عمل فذ آخر. وكانت تلك هي النواة الأولى التي بنيت عليها شهرته الواسعة كبطل قوي شجاع، وان كان يتعذر علينا تتبع أطوار صعوده تدريجياً إلى هذا المركز الفريد وشعبيته بين الجماهير. فهذه أمور لا تزال خافية علينا. لكن لدينا قرينة أخرى على أنه كان من أرجوليس وهي أن ستة من أعماله الشاقة الاثني عشر انجزت في البلوبونيز، وأن الستة الأخرى لا تتناقض مع اصله الأرجوسي.

وكان من الطبيعي أن تحقد عليه هيرا حتى قبل مولده لأن اباه زيوس تباهى قبيل اليوم الذي كان هيراكليس سيولد فيه، بأنه سيوهب ولدا بطلا مقدراً له أن يؤول إليه عرش آل برسيوس في أرجوس بدلاً من ولد آخر وهو يورسثيوس، حفيد برسيوس من ناحية الأب. وأكلت الغيرة قلب هيرا حتى أنها أخرت ميعاد مولد هيراكليس يوما واحدا عن ميعاد مولد يورسثيوس. وهكذا فوتت عليه فرصة العرش الذي آل إلى يورسثيوس في أرجوس. ولم تقف عند هذا الحد. فلما ولد هيراكليس بعثت هيرا إليه وهو في المهد بثعبانين ضخمين ليفتكا به. لكن هيراكليس كان منذ ولادته جباراً عتيا، فخنق الثعبانين بيديه. ولما شب عن الطوق لاحقته هيرا في حياته بحقدها وكراهيتها. على أن هذه الكراهية ليست بمفهومة ولعلها ليست اصيلة في القصة ولا بد أنها مقحمة أو مختلقة على غرار الأساطير الكثيرة المألوفة التي نسجت حول أبناء زيوس من زوجات غير هيرا، زوجته الرسمية. وليس أدل على ذلك من ان اسم هيراكليس مشتق من اسم هيرا، ومعناه «مجد هيرا» أو «فخر هيرا» أو «هدية هيرا الفاخرة إلى والديه». وهذا لا يتفق مع تلك الكراهية التي نسجها خيال كتاب الأساطير.

وعلى أي حال فإن هيرا قد دفعته ذات مرة إلى الجنون، فتقتل بيديه بعض أبنائه. ولقد نصح بالاتجاه إلى دلفى ليكفر عن جريمة قتل ذوي الأرحام بالتطهر وفقا للطقوس التي كان أبوللون أعرف من غيره بها. وبذلك شفي هيراكليس وعاد إليه صوابه. لكن نبرة دلفى فرضت عليه شركاً آخر استكمالاً للتكفير عن ذنبه والتطهير من دنسه وهو أن يضع نفسه تحت خدمة قريبه يورسثيوس، ملك أرجوس. وعهد إليه هذا الملك بانجاز أعمال شاقة، اشتهرت في الأساطير والأدب باسم «الأعمال الاثني عشر» الأصلية أو الرئيسية (Prexeis)، فضلاً عن قيام هيراكليس بمغامرات جانبية أخرى متفرعة عنها (Parerga). ولا يتسع المقام لسرد كل هذه الأعمال البطولية الخارقة. لكن حسبي أن أشير إلى أنها كانت

بالفعل خارقة، فلقد أزهق فيها هيراكليس أرواح ملوك متجبرين. وفتك باسود ضارية وخنازير برية وثيران متوحشة وأفاع مهلكة. وفضلاً عن ذلك فقد قتل في احدى مغامراته الجانبية لاوميدون، ملك طروادة وهو أبو برياموس الذي كان وعده بمكافأة معينة نظير انقاذ طروادة من وحش بحري ضار ثم حنث بوعده. واشترك هيراكليس ـ أو أشركته الأساطير ـ في الحملات الشهيرة القديمة السابقة على الحرب الطروادية كحملة «ملاحي السفينة أرجو» لاسترداد «الفروة» الذهبية من شرق البحر الأسود، وحملة «صيد الخنزير الكاليدوني» (قرب إقليم بويوتيا، وحملة ثيسيوس الأثيني ضد «الأمازونات»، وهن نساء مسترجلات مستوحشات ماهرات في القتال والفروسية حتى لقد قطعن أحد الثديين تسهيلاً لشد القوس ورمى السهام) وطردن الرجال من مملكتهن بآسيا الصغرى (فيما عدا زيارات خاطفة عندهم حفاظاً على النسل).

ومن غريب ما يروى عن هيرا كليس أنه ضاق في ذات يوم ذرعا بالقيظ الشديد فصوب إلى الشمس سهمه ولولا اعجاب إله الشمس به لحدث ما لا تحمد عقباه. وأغرب من ذلك ما ذكره هوميروس وهو أن هيرا كليس اصطرع مرة مع «الموت» نفسه، إذ اقتحم العالم السفلي، وخلص ثيسيوس من العذاب بعد أن قهر «ثناتوس» وهو ملك الموت. ثم تغلب على كربيروس، ذلك الكلب اليقظ المسعور ذي الرؤوس العديدة الذي كان يتولى حراسة مدخل عالم الموتى. تغلب عليه هيراكليس واستأذن هاديس، ملك الموتى (وهو غير ملك الموت) أستأذنه في حمل الكلب معه إلى سطح الأرض واعداً إياه بارجاعه بعد فترة. وكان ذلك هو أشق الأعمال الاثني عشر التي أنجزها هيراكليس.

ويروى أيضاً أن هيراكليس ذهب مرة إلى جزر البليار في الغرب أو قادس في اسبانيا ليقوم باحدى مخاطراته. وبعد الانتهاء منها انتهز فرصة وجوده هناك وشيد عمودين (أحدهما يسمى كالبى وآخر أبيلا) عند الممر المائي الضيق الذي

يفصل بين أوروبا وأفريقيا. وهو الممر الذي صار الاغريق والرومان يطلقون عليه اسم «عمودي هرقل»، ولكننا نسميه الآن «مضيق جبل طارق».

وفي أثناء عودة هيراكليس من هذه المغامرة في الغرب، عرج على إيطاليا وزارها. وقيل أنه قام ببعض أعمال باهرة أثناء هذه الزيارة أو الاقامة القصيرة. فقد أبطل عادة السابينيين (Sabini) الذين جروا على التضحية بالبشر عند تقديم القرابين وأدخل عادة استعمال النار في الطقوس الدينية. ثم قتل كاكوس (Cacus)، ذلك اللص العملاق الرهيب ابن فولكانوس الذي كان يعيش في كهف فوق تل الأفنتين واجترأ وسرق من هيراكليس جزءاً من قطيع الثيران الذي كان البطل قد أخذه من جيريون، وقد أعجب سكان إيطاليا بشجاعة هيراكليس وقوته، فكرموه، كرّمه ايفاندر، وهو ملك في احدى مناطق ايطاليا، اغريقي الأصل (من أركاديا)، كرمه بأن قرر عبادته رسمياً كإله.

ولم يجد الرومان عندهم بطلاً يناظر هيراكليس اليوناني. ولذلك استعاروه مع تحريف اسمه في النطق إلى هركوليس (Hercules). وقد نشأت له منذ وقت مبكر عبادة في قلب روما، وشيد له معبد في سوق المواشي (Forum Boarium) وهو مكان كان يقع على مقربة من أقدم مركز عمراني نشأ فوق البلاتين، أحد تلال روما السبعة. هكذا أضفى هركوليس حمايته الالهية على هذا الموقع التجاري الذي كان الأجانب يأتون إليه لشراء الجلود وغيرها من منتجات الماشية. وكان هيراكليس الذي أصبح صنوا لهركوليس، قد اشتهر بأنه دافع الأذى عن الناس (Alexikakos) و «قاهر كل شر» (Kallinikos) وكان المتعبدون له من الأفراد يبتهلون إليه بهذه الصفة. ولما كان هيراكليس قد اشتهر بالشجاعة والصلابة، والتقشف في حياته وبالشهامة في خدمة الانسانية، فقد وجد «الرواقيون في صفاته (التي أضفيت على عديله الروماني) ما يتفق ومبادئهم فقد تمثلوه في صورة الكمال واتخذوه مثلاً أعلى ليحتذيه أنصار مذهبهم الفلسفي

وهو مذهب لقي رواجاً بين الرومان[17].

ولا يبقى بعد ذلك سوى عدد قليل من الآلهة التي لم يجد الرومان ما يقابلها عند اليونان فتركوا بعضها على ما هي عليه دون معادلة. ومن بين هذه الآلهة ـ على سبيل المثال ـ يانوس (Ianus)، الإله ذو الوجهين، إله «الأبواب» والمداخل على اختلاف أشكالها ، ومن ثم إله لكل البدايات. وقد اشتق من اسمه اسم «يناير» (Ianarius)، وهو الشهر الذي تبدأ به السنة. وأما البعض الآخر من هذه الآلهة فقد شبهه الرومان بآلهة يونانية تشبيها خاطئاً. وعلى سبيل المثال تلك الربة الرومانية المغمورة الأصل فورينا (Furina) التي كان الرومان يعتبرونها أحياناً مناظرة لربات القصاص عندهم المسميات «فورياي» (Furiai)، مع أن الاسم الأخير (ومعناه الهياج الشديد أو الغضب العارم أو الجنون) هو ترجمة لاتينية لكلمة ارينويس (Erinyos)، وهو اسم «ربات القصاص» أو «اللعنات المجسدة عند اليونان».

نخلص من ذلك إلى أنه عندما يتحدث شاعر روماني قائلاً ـ على سبيل المثال ـ أن «جوبيتر» قضى على «ساتورنوس» فإنه يعني أن «زيوس» قضى على «كرونوس» وعندما يشير إلى قصص غرام «فينوس» و «مارس» فإنه يقصد بذلك «أفروديتي» و «أريس» وهكذا دواليك[18]. ومن النادر جداً أن يجازف كاتب لاتيني باختلاق أسطورة عن إله من الالهة من نسج خياله. وقد يفعل ذلك فقط بطريقة عابرة أو على سبيل الاستطراد في قصة طويلة. وعندما يفعل ذلك فإنه يصوغها في العادة على غرار أسطورة يونانية. والاستثناءات من ذلك عبارة عن قليل من قصص المعجزات التي يقوم بها الالهة والإلها ت الرومانية. بل إن هذه القصص أيضاً مستوحاة من قصص يونانية مشابهة، وهي القصص التي يسميها اليونان «بقصص الكرامات» (Aretai)، والتي تجري غالباً في المعابد. فقد روى مثلاً أن احدى كاهنات الربة فستا العذارى، واسمها «آميليا» اتهمت ذات مرة

بالكفر. وكان الدليل على كفرها هو انطفاء النار المقدسة في موقد الربة، وهي نار كانت متقدة دائماً مشتعلة أبداً. ولكي تثبت الكاهنة براءتها، مزقت قطعة من ردائها وألقت بها على رماد النار الخامدة. ولم تلبث النار أن اشتعلت وتوهجت في الحال. وثمة قصة أخرى تقول أن «توكا» ـ وهي أيضاً كاهنة عذراء في معبد الربة فستا ـ اتهمت بالتفريط في عفتها. وكان عقاب مثل هذه الجريمة هو القاء المذنبة في جب تحت الأرض (بساحة تسمى «ساحة النحس» (Compus Sceleratus) حتى تموت المسكينة جوعا أو اختناقا. لكن «توكا» استطاعت أن تحضر ماء من نهر التيبر في غربال بمعجزة من الربة ذاتها. فكان ذلك وحده كافيا لتبرئتها من التهمة. واتهمت سيدة رومانية اسمها «كلوديا» بجريمة الزنا. وبرأت نفسها لا بمعجزة من معجزات الربة فستا، بل من الربة الفريجية كيبلي (Cybele)، وهي «أم الآلهة». وحدث ذلك أثناء احضار الرومان للحجر الأسود المقدس لهذه الالهة من بلدة بسينوس (Pessinus) في فريجيا بآسيا الصغرى إلى روما عام 204 ق.م. إذ انغرزت السفينة التي كانت تنقل هذا الحجر في طين نهر التيبر. ولم يستطع أحد تحريكها. وابتهلت «كلوديا» إلى «أم الآلهة»، وأمسكت بحبل جر المراكب، وسحبت وحدها السفينة إلى الشاطىء. وهكذا تأكدت براءتها. لكن ليس لدينا أي قصص رومانية صحيحة مشابهة للقصص اليونانية الكثيرة عن علاقات الآلهة بعضهم بالبعض الآخر وعلاقاتهم بالأبطال والشخصيات القديمة، أو زيجاتهم ومكائدهم وذريتهم.

ولا يفتقر الرومان تماماً إلى قصص البطولة (Saga) أو الحكايات الشعبية (Marchen). لديهم منها عدد قليل ليس مستقى أو متأثراً بقصص يونانية، بل هو أصيل على ما يرجح. ونخص بالذكر قصة تروي عن شخصيتين شهيرتين هما «كايكولوس»، مؤسس مدينة براينستي، وسرفيوس توليوس، الملك قبل الأخير من ملوك روما السبعة. فقد جاء في هذه القصة الرومانية الصحيحة أن فتاة في

سن الزواج قضت إحدى الليالي ساهرة بالقرب من موقد النار. ولعلها فعلت ذلك متأثرة برؤية علامة عجيبة أو آية، ظهرت أمامها في اللهب. ولم يأت الصباح حتى وجدت الفتاة نفسها حاملاً. وكان ابنها هو أما كايكولوس أو سرفيوس تولليوس. وتعكس القصة فكرة واسعة الانتشار قائمة على الاعتقاد الشعبي السائد قديماً وهو أن الحياة صنو للنار والضوء والحرارة (حيث أن الجسم الحيّ دافىء بينما جثة الميت باردة). وكأن النار قد نفخت الحياة في بطن الفتاة، حقيقة لا مجازاً.

وإليك قائمة بالالهة الرومانية وما يقابلها من الآلهة اليونانية، بادئة بآلهة جبل أوليمبوس:

الإله الروماني		الإله اليوناني
جوبيتر	=	زيوس
جونو	=	هيرا
بلوتو ـ ديس (أوركوس)	=	بلوتون (هاديس)
نبتونوس	–	موسيدون
فستا	=	هستيا
كيريس	=	ديميتير
مارس	–	أويس
فولكانوس	=	هيفايستوس
مينرفا	–	أثينة
أبوللو	=	أبوللون
ديانا	=	أرتميس
مركوريوس	=	هرميس
فينوس	=	أفروديتي

كذلك قوبلت الآلهة الرومانية الآتية باليونانية على النحو التالي:

الإله الروماني		الإله اليوناني
ساتورنوس	=	كرونوس
أوبس	=	ريّا
باكخوس (ليبر)	=	باكخوس (ديونيسوس)
هركوليس (هرقل)	=	هيراكليس
فاونوس	=	بان (الجن)
سيلفانوس	=	سيلينوس (ساتيروس)
كوبيدو	=	ايروس

هوامش ومراجع الفصل الرابع

1 ـ أو Iuppiter. والنطق الأصح «يوبيتر»، حيث أن اللغة اللاتينية ليس فيها حرف أل J.

2 ـ كانت هذه القطعة من الأرض قرب عمود يسمى «عمود الحرب» Columna Bellica في ساحة مارس (Campus Martius)، خارج سور المدينة المسمى بوميريوم (Pomerium) وكانت ربة الحرب عند الرومان اسمها بللونا (Bellona).

3 ـ ثم أصبح أول يناير هو أول العام.

4 ـ ينطق حرف الـ C كافاً في اللاتينية لأنه يمثل حرف الـ K اليوناني. ولكنه ينطق الآن «سيناً» في اللغات الأوروبية الحديثة. ومن اسم الربة (Ceres) اشتق لفظ Cereals (حبوب) لأنها كانت ربة للقمح.

5 ـ كويريوس هو روميلوس المؤله. وتروى الأسطورة بأن روميلوس بعد تأسيسه لروما، وحكمه عدة سنوات، اختفى في ظروف غامضة. ومن ثم فقد إله باسم كويرينوس ولا يعلم أحد الأصل اللغوي لهذه الكلمة. لكن يعتقد أنها تعني «الحشد» أو جمع الرجال. وبالتالي فإن لفظ Quirites، أصبح يطلق على الشعب الروماني. وقد حل الثالوث الآخر محل هذا الثالوث.

6 ـ الحصان الأيمن هو البعيد عن الموضع الذي يدخل المتسابقون منه في المركبة.

7 ـ كانت هضبة أو صخرة الأكروبول Acropolis ـ على ما يبدو ـ تسمى بأثينة Athene. وقد أعطيت اسمها للربة التي أعطته بدورها للمدينة التي سميت أثينأي Athenai وهي ما نعرفها باسم اثينا. وأثينأي Athenai هي صيغة طرف المكان بمعنى «أثينة»، أي في الصخرة. وفي رأي آخر أن اسم المدينة في اليونانية «أثينا» هو صيغة الجمع من اسم الربة أثينة Athene.

8 ـ ليس في اليونانية حرف العين ويقوم مكانه حرف الألف. ولا يوجد في اليونانية القديمة حرف الشين، فقام مقامه حرف الفاء (Ph).

9 ـ ولقبت كربة للحرب بلقب أريّا Areia (نسبة إلى عشيقها أريس) واستراتيا Strateia أي المحاربة. كذلك عبدت أفروديتي كربة للبحر والملاحة بلقب «بونتيا» (Pontia) و «يوبلويا» (Euploia) بعد أن جاءت إلى قبرص وبلاد اليونان.

10 ـ أورانيا (Ourania).

11 ـ حيث أن السنة عندهم كانت ـ على نحو ما ذكرت ـ تبدأ بشهر نيسان (ابريل).

12 ـ إذ زعمت أنها منحدرة من صلب يولوس Iulus (وهو اسم آخر لأسكانيوس Ascanius) بن آينياس بن فينوس.

13 ـ تنطق هذه الأسماء المنتهية بالياء نطق ليلى وضحى في اللغة العربية، مع الامالة.

14 ـ يبدو أن لفظ برس (Persê) وما إليه كان يؤدي معنى «ملكة».

15 ـ كان الثعبان والثور يقترنان دائماً بزيوس وديونيسوس. ويوصف ديونيسوس، في هذه المرحلة من حياته، بأنه «إله ثور». وهذا يدل على ارتباطاهما بكريت حيث كان الثور يقوم بدور هام في عبادات الجزيرة اثناء عصر الحضارة المينوية.

16 ـ وقد عاون الربة في ذلك تريبتوليموس (Triptolemus) الذي اخترع المحراث وفن الزراعة. وكان رائداً كبيراً من رواد الحضارة وكان له دور بارز في عبادة اليوسيس السرية.

17 ـ عن «الفلسفة الرواقية»، انظر فيما بعد.

18 ـ أنظر جدول المقابلة بين آلهة الشعبين.

الفصل الخامس

تأسيس روما

1 ـ آينياس

فرجيل والأينيادة:

في عصر أكتافيانوس أغسطس (30 ق.م ـ 14م)، مؤسس الامبراطورية الرومانية، ظهر شاعر كبير هو بوبليوس فرجيليوس مارو (P. Vergilius Maro) الشهير باسم فرجيل (70 ق.م ـ 19 ق.م). وكان لهذا الشاعر ـ الذي ولد في بلدة مانتوا Mantua (شمالي نهر البو)[1]، ضيعة صودرت ووزعت على المحاربين القدماء بعد أن وضعت الحرب الأهلية أوزارها عام 42 ق.م. لكنه تظلم إلى أوكتافيانوس وتمكن، من استردادها بعد أن توسط له بعض أصدقائه من ذوي النفوذ.

وقد تفتحت مواهب فرجيل الأدبية في سن الشباب، واكتمل أول عمل أدبي له حوالي عام 37 ق.م، ونشره بعنوان «المختارات» (Eclogae) التي اشتهرت باسم «الأشعار الرعوية» (Bucolica) وأهداها لثلاثة من أصدقائه الأدباء وفي هذه الأشعار الرعوية يقتفي فرجيل أثر ثيوكريتوس الشاعر الرعوي الصقلي الشهير (310 ـ 250) الذي عاش في الاسكندرية فترة من حياته (بعد 275 ـ بعد 270) في عهد بطليموس فيلادلفوس. ويظهر في قصيدة فرجيل واضحاً تأثير «مدرسة الاسكندرية الأدبية» سواء من حيث الشكل أو المضمون.

وكانت هذه المدرسة تعني بالصنعة الشعرية، وغزارة المعرفة، والأساطير الرمزية والبراعة اللغوية، والنزعة الخيالية، واللمحات المثالية. ذلك أن مسرح القصيدة الرومانية هو سهل صقلية، وإن كان فرجيل يمزج بها عنصراً واقعياً إيطاليا مستوحى من مناظر مانتوا، مسقط رأسه[2]، وكريمونا القريبة والمنطقة المحيطة بهما. ويخفي الشخصيات المعاصرة تحت ستار الرعاة أو يعرضهم بدون أسماء مستعارة أي بأسمائهم الحقيقية. كذلك يضمن قصيدته بعض أحداث معاصرة، فيشير ـ على سبيل المثال ـ إلى حادثة طرده من مزرعته في مانتوا، وتظلمه إلى أكتافيانوس. وثمة اشارة إلى تأليه يوليوس قيصر، وتحوله إلى نجم في السماء. وأهم من ذلك تنبؤه في النشيد الرابع من القصيدة بمولد غلام سيسود السلام كل الدنيا في عهده. فمن يكون هذا الغلام الذي أثارت الاشارة إليه ضجة وجدلا بين العلماء؟ لقد اعتبره البعض الطفل المنتظر لاكتافيانوس من زوجته سيكريبونيا (وان كان المولود قد جاء أنثى)، واعتبره البعض الآخر الطفل المنتظر لأنطونيوس وأكتافيا (أخت أكتافيانوس). لكن في العصور الوسطى اعتبر فرجيل وليا تنبأ بميلاد عيسى نفسه، ومبشراً بظهور المسيحية، وهو ما دعا دانتي إلى أن يتخذ منه مرشدا له في «الكوميديا الالهية». وأسرف الناس وقتئذ في إجلاله وبالغوا في تقديسه، واعتبروه عرافا وساحرا وراجما بالغيب عن طريق استحضار أرواح الموتى، ونشأت حول قبره في (نابلي) أساطير وخزعبلات.

وفي تلك الأثناء تعرّف فرجيل على ميكيناس (Maecenas) الذي كان بمثابة وزير للثقافة والدعاية، كما كان من هواة الأدب والفن. وتوطدت الصلات بينهما، وأصبح فرجيل شاعر البلاط. وعكف على نظم قصيدته الثانية بعنوان «الأشعار الريفية» Georgica وفرغ منها حوالي عام 30 ق.م. ومن المرجح أن ميكيناس نفسه هو الذي أوعز إلى الشاعر بنظم هذه القصيدة كنوع من الدعاية لسياسة أغسطس في انعاش الزراعة وتشجيع المواطنين على العودة

إلى الريف لانقاذ الزراعة المتدهورة. ذلك أن الملكيات الزراعية الصغيرة كانت قد تلاشت نتيجة اندلاع الحرب الأهلية: وعزوف الكثيرين عن مهنة الزراعة الرتيبة الشاقة وايثارهم حياة المدينة (روما) وما فيها من لهو وصخب وبطالة وإثارة. لكن القصيدة التي يمتدح الشاعر فيها ميكيناس تتضمن أيضاً مدحا في أكتافيانوس الذي قيل أن الشاعر قرأها عليه بعد عودته من حملته في الشرق عام 29 ق.م. وتنقسم قصيدة «الأشعار الريفية» إلى أربعة أناشيد أو كتب (بالمعنى القديم للكلمة). وتتناول حياة الريف ومهنة الزراعة بوجه عام: زراعة المحاصيل المختلفة، وأشجار الفواكه وعلى الأخص الكروم، والمواشي الزراعية (بما ذلك الخيول)، ثم تربية النحل. وتوصف «الأشعار الريفية» بأنها مستقاة من قصيدة «الأعمال والأيام» للشاعر اليوناني القديم هيسيود (أوائل القرن السابع ق.م.). غير أن الصلة هنا ليست وثيقة أو مباشرة كما هي بين «الأشعار الرعوية» للشاعر الروماني واشعار ثيوكريتوس الصقلي. ومع هذا فإن فرجيل إذا كان يدين لهيسيود بشيء، فذلك ينحصر في اقتباسه الفكرة الرئيسة، وهي فكرة التوجيه والإرشاد الزراعي التي تغلب على قصيدته، وفي اصطباغ القصيدة كلها بصبغة الحث على العمل الشاق. في الحق أن فرجيل مدين أكبر لشعراء اسكندريين آخرين. لكن مادة قصيدته مقتبسة من بحوث كتّاب رومان في الزراعة مثل «كاتو» و «فارو» كما ينقل فرجيل عن شعراء رومان سابقين مثل الشاعر القديم أنيوس (239 ـ 169) والشاعر الفلسفي لوكريتيوس (94 ـ 55) الذي يشيد به فرجيل إشادة ملحوظة. ومع هذا كله فإن كثيرين من النقاد يعتبرون «الأشعار الريفية» أعظم قصائد فرجيل. وفي الحق أنها تزخر بملاحظات لماحة عن الزراعة والحيوانات والطبيعة. وتتسم في بعض المواضيع بنغمة شجن مثيرة للعاطفة، ونغمة التعاطف الانساني والمشاركة الوجدانية، وهذه احدى خصائص شعره المميزة. وتضارع القصيدة في جلال فكرتها وكثير من أجزائها الآينيادة ذاتها.

وعكف فرجيل في السنوات العشر الأخيرة من عمره (29 ـ 19) التي قضاها في نابلي وأرباضها وفي صقلية، على تأليف الآينيادة (Aeneis)[3] التي مات قبل الانتهاء منها. وقد أوصى قبيل وفاته بحرقها لعدم رضائه عنها. لكن أغسطس أمر بالابقاء عليها فنشرت غير كاملة. ولا مراء في أن «الآينيادة» قد نظمت بايعاز من الامبراطور نفسه. وهي ليست قصيدة بل ملحمة اتضح أنها أعظم مؤلفات فرجيل، بل هي أعظم ملحمة عند الرومان. وهي ملحمة قومية القصد منها تمجيد روما منذ نشأتها، واستعراض سير أبطال تاريخها، والإشادة بأغسطس، وعهده الجديد الذي يبشر بالأمل والسلام والرخاء. ومن الواضح أن الشاعر الروماني يقتدي فيها بهوميروس اليوناني (القرن التاسع ق.م) ويحاكيه. ويحمل عنوان الملحمة نفسه اسم آينياس (Aeneas)، وهو أحد أبطال الحرب الطروادية، موضوع الالياذة اليونانية. ويستوحي الشاعر الكتب الستة الأولى حيث يروي قصة طواف آينياس في البحر ومخاطراته من النصف الأول من الأوديسيا، وينهي هذه الكتب بزيارة آينياس «للعالم السفلي»، وهي نهاية شبيهة بزيارة أوديسيوس لعالم الموتى. وأما الكتب الستة الأخيرة التي تروي قصة حروب آينياس في إيطاليا ضد الروتيليين فهي تسير على نهج الالياذة. وحتى في التفاصيل يردد الشاعر الروماني صدى هوميروس في التعبيرات اللغوية وعلى الأخص في التشبيهات. ولا يخفي فرجيل تأثره ببعض شعراء العصر الهللينستي كأبوللونيوس الرودسي صاحب قصيدة «ملاحي السفينة آرجو». ويضمن ملحمته طائفة كبيرة من عبارات وأفكار منقولة عن الشعراء الرومان القدامى فهو: لا ينفك يقلد لوكريتيوس وأنيوس. ولا يعتبر هذا الاقتباس ممن سبقوه من الشعراء الرومان انتحالا أو سرقة أدبية بقدر ما يعتبر تحية من الشاعر لذكراهم، وتنويها بمؤلفاتهم، واعترافا بفضلهم. ذلك أن الآينيادة تمجد الأدب اللاتيني مثلما تمجد التاريخ الروماني.

وتتفاوت ملحمة «الآينيادة» في الجودة، إذ لوحظ أن الكتب الزوجية الأرقام (ك 2، 4، 6، 12) أروع وأكثر إثارة للمشاعر من الكتب الفردية الأرقام، غير أن الملحمة تفتقر بوجه عام إلى حبكة القصة المشوقة ربما بسبب طولها وضخامة موضوعها من ناحية، وبسبب التكلف الذي لا مناص منه في ملحمة الآينيادة التي تزخر بالعلم والمعرفة بالقياس إلى الآلياذة التي تتميز بالبساطة والسذاجة. لكنها تحلق من وقت لآخر في أجواز عالية. وستظل الكتب المشار إليها دررا أدبية عسيرة المحاكاة.

ويبلغ فرجيل في الآينيادة ذروة التحكم في أسلوب الشعر اللاتيني وذروة الكمال في نظم الشعر من البحر السداسي (**hexameter**)، إذ اكتسب على يديه سلاسة لا تبعث أبداً الملل في نفس القارىء، وهو يمزج في الملحمة بمهارة بين الفن السكندري (ars) والتفنن اللاتيني (Ingenium). ومع أن الآينيادة قد تفتقر في جملتها إلى وحدة «الأشعار الريفية، إلا أن فخامة موضوعها وكمال نظمها واتقان صناعتها تجعل منها أعظم مؤلفات فرجيل.

وقد حظي فرجيل بكل تقدير من معاصريه، فأشاد بمواهبه الشاعر الغنائي والناقد الاجتماعي والأدبي هوراتيوس (65 ـ 8 ق.م) الذي اصبح من بعده شاعر البلاط، وبروبرتيوس (54 ـ 16 ق.م) الشاعر الغزلي. وأصبح ديوان فرجيل نموذجاً لكل شعراء الملاحم الرومان الذين جاؤوا من بعده. بل إن شعره أثر في أسلوب كتّاب النثر من أمثال المؤرخ الروماني الأديب تيتوس ليفيوس (69 ق.م ـ 17 م). وأقرت الأجيال التالية بإمارة فرجيل للشعر واعتبرته أعظم الشعراء الرومان على الاطلاق. وكان يوصف بالشاعر العالم (**Poeta doctuz**) نظراً لسعة معرفته بالأساطير القديمة التي تزخر بها ملحمته وحسن استخدامه لهذه الأساطير وجميع ارتباطاتها، دون أن يهبط إلى درك التقصير الأجوف أو الحذلقة الفاترة الجافة.

ولنعد إلى الآينيادة «التي ذكرت أنها سميت كذلك نسبة إلى آينياس (Aeneas)، بطل الملحمة. كان أغسطس ـ كما ذكرت ـ هو الذي أوعز إلى فرجيل بتأليفها. ورأى فرجيل كشاعر كبير أنه قد لا يكون من المستساغ من ناحية الذوق الفني أن يمدح أغسطس مدحا مباشراً أو أن يمجده وحده صراحة دون مواربة. لذلك آثر أن يستعير من الماضي السحيق شخصية آينياس ليرمز بها لمجد روما القديم ومجدها الحالي المتمثل في أغسطس. وإذا كان آينياس (أو واحد من ذريته) قد أسس روما، فان أغسطس هو المؤسس الثاني لأنه بانقاذه روما من محنة الحرب الأهلية وانتشالها من وهدتها كأنه خلقها من جديد. هذا أحد وجوه الشبه. ووجه آخر للشبه يتمثل في الصفات، إذ لا يوصف آينياس بالبطولة فقط بل ان أبرز صفاته هي الولاء لالهته وقومه وذويه ووطنه، وشعوره العميق بالواجب نحو كل هؤلاء، وهو ما يعبر عنه في اللاتينية بكلمة بيتاس (Pietas) وكذلك كان أغسطس يتحلى بهذه الصفات. هكذا يرى بعض الباحثين أن الشاعر قد استعار آينياس كستار يخفي وراءه صورة أغسطس. وقد تبرر التلميحات إلى الوقائع المعاصرة مثل هذا الرأي. ولكن هناك رأياً قديماً آخر يقول بأن الآينيادة ملحمة رمزية أي ترمز لأفكار لا لحقائق واقعة. وقد يجد هذا الرأي القديم سنداً فيما نلمسه من عمق الشاعر الشديد وتعمده الغموض والابهام. وفي رأينا أن الملحمة تجمع بين ما ينادي به أصحاب الرأيين لأن الملحمة تهدف إلى تمجيد تاريخ روما في شخص آينياس، وتهدف أيضاً إلى التعبير عن الأمل الجديد المتجسد في شخص أغسطس. وبعبارة أخرى أن الآينيادة في الواقع هي ملحمة روما، وتجسيم لتاريخها وعظمتها في الماضي، وكذلك للاحساس العام بعهد جديد افتتحه أغسطس.

نشأة أسطورة آينياس كمؤسس لروما:

وأما عن آينياس فهو ابن أنخيسيس (Anchises) أحد أمراء طروادة من افروديتي (Aphrodité)، ربة الحب والجمال والخصب. وقد ورد في

الأساطير اليونانية أن أفروديتى نفسها هامت حبا بأنخيسيس وعاشرته وحملت منه مع أنه من البشر. وكانت قد أخذت منه عهدا بكتمان ما بينهما من علاقة. لكنه تباهى بين أقرانه بهذه العلاقة، وجهر بالسر، فعاقبته الربة بصاعقة أصابته بالعمى أو بالعرج. وأيا كان الأمر فقد أنجبت منه أفروديتى ولدا هو آينياس (Aeneas) القائد الطروادي المعروف الذي اشترك في الحرب الطروادية ضد الاغريق حسبما ورد في الياذة هوميروس. ويتضح من الالياذة أن آينياس كان يحظى بمكانة لا تقل عن مكانة هكتور بطل طروادة الأول وابن ملكها برياموس، بل ان آينياس يلقى من التكريم مثلما يلقاه اله. ولقد قاتل ديوميديس البطل الاغريقي الجريء، وأدومينيوس البطل الكريتي، بل أنه قاتل أخيلليوس (أخيل) نفسه، بطل الاغريق الأول. لكنه لم يظهر في هذه المعارك أي بطولة خارقة أو باهرة، بل أنه كاد ينهزم ويلقى مصرعه، وقد تصدى لانقاذه من الموت في أكثر من مرة بعض الآلهة الذين اعتاد آينياس أن يظهر لهم قدرا كبيراً من الولاء والتقوى. وكان آينياس ينحدر من الفرع الأصغر في الأسرة المالكة في طروادة. ونخرج من الألياذة بانطباع أو احساس بأنه كان يحمل في صدره شيئاً من الغيرة أو الضغن نحو بريام ملك طروادة، سليل الفرع الأكبر في الأسرة الطروادية. ولعل ذلك يرجع إلى اعتقاده بأن بريام لم يعطه حقه كاملاً. ونخرج أيضاً بانطباع آخر وهو أن آينياس كان يتطلع إلى خلافة العرش.

ومع أن بوسيدون، إله البحر، كان في العادة خصما للطرواديين إلا أنه أنقذ آينياس مرة من خطر داهم، بل إنه تكهن بأن آينياس وذريته سيؤول إليهم حكم الطرواديين. هكذا كان آينياس هو البطل الطروادي الوحيد الذي كان ينتظره مستقبل مرسوم.

ومن هذه الاشارة نشأت أسطورة فرار آينياس من طروادة بعد سقوطها حاملاً أباه أنخيسيس، وابنه اسكانيوس (Ascanius) (المسمى أحياناً يولوس

(Iulus) وآلهة بيته المتوارثة (Penates). وكذلك أسطورة طوافه في البحر بضع سنين.

ومنذ القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد اشار بعض مؤلفي «الحلقة الملحمية»[4] ـ وهي قصص أسطورية تدور حول مقدمات الحرب الطروادية وحول ذبولها ـ أشاروا إلى زيارة آينياس لأماكن كثيرة في بلاد اليونان وخارجها، حيث زعموا أنه أسس عدة مدن تحمل أسماء مشتقة من اسمه (كما في طراقيا) أو توجد فيها معابد لأفروديتى بوصفها أمه Aplrodité Aeneas (كما في بلاد اليونان وصقلية). ومن الواضح أن خط سير رحلة آينياس في البحر كان مرتبطاً بهذه المدن أو المعابد.

ومنذ القرن الخامس ق.م بدأت قصة طواف آينياس ومغامراته في البحر تتوسع بإضافة أماكن أخرى كديلوس وكريت[5] على يد كتّاب أو مؤرخين إغريق[6]. وكان في وجود معبد لأفروديتى (الملقبة بآينياس) في صقلية ما يبرز عروج البطل في رحلته على هذه الجزيرة. وكان من السهل بعد ذلك أن تصبح صقلية بفضل موقعها المتوسط جسراً أو معبراً للانتقال إلى ساحل إيطاليا الغربي وساحل أفريقيا الشمالي أيضاً. ولعل أحد الشعراء الاغريق في أوائل القرن السادس ق.م قد ذكر أن آينياس وصل إلى هسبيريا (Hesperia) أي وصل إلى الغرب (أي ايطاليا[7]. لكن قصة وصول آينياس إلى لاتيوم وردت لأول مرة في مؤلفات المؤرخ الصقلي هيللانيكوس (القرن الخامس ق.م). وقد راجت القصة في روما بمجرد قيام علاقات مع بلاد الاغريق في أواخر القرن الثالث ق.م، وهو نفس الوقت بدأ الرومان فيه كتابة تاريخهم لأول مرة. وقد ظهرت بين الرومان وقتئذ نزعة إلى ربط تاريخ روما بتاريخ الاغريق، مدفوعين في ذلك بنعرة قومية وعزة وطنية، إذ كانوا يشعرون بأن الاغريق أقدم تاريخاً وأعرق حضارة وأرقى ثقافة. فلماذا لا يرجعون هم الآخرون بتاريخهم إلى الوراء عدة قرون ويربطونه بتاريخهم

العالم الاغريقي عن طريق الأساطير؟ فلما حاربت روما الاغريق وقهرتهم عسكرياً (في القرن الثاني ق.م) أصبح ربط تاريخ روما بالطروادين (أعداء الاغريق قديماً) أكثر ملائمة من الناحية السياسية من ربطه بالاغريق أنفسهم.

ونلتقي بأول إشارة إلى صلة آينياس بروما في الأدب اللاتيني عند الشاعر المسرحي نايغيوس Naevius (235 ـ 201) الذي نظم ملحمة قومية بعنوان «الحرب البونية» لم يصلنا منها سوى 65 بيتاً، وتناول فيها الدور الأول من تلك الحرب (264 ـ 241) مستطرداً إلى الحديث عن نشأة روما (وربما قرطاجنة أيضاً). وسرعان ما تداولها شعراء رومان آخرون مثل أنيوس Ennius (239 ـ 169)، الملقب بأبي الشعر اللاتيني، ومؤلف ملحمة «الحوليات» التي عالج فيها تاريخ روما شعرا منذ عصر روميلوس حتى عام 171 ق.م، ومثل بكتور (Pictor) عضو مجلس الشيوخ الروماني، وأول مؤرخ روماني معروف لنا إذ كتب باليونانية تاريخ روما منذ نزول آينياس بأرض إيطاليا حتى الحرب البونية الثانية التي اشترك فيها (218 ـ 202). وقد شرح في هذا التاريخ للعالم الاغريقي النظم الرومانية وسياسة السناتو، وقد تأثر فيه بكتاب «العصر الهللينستي» الاغريق الذين ربطوا بين نشأة روما الأولى وآينياس. وقد حدد بكتور تاريخ تأسيس روما بعام 748 ق.م[8].

ومن الكتّاب الرومان الذين تناولوا قصة نشأة روما كاتو الأكبر Cato Maior (232 ـ 147)، ذلك السياسي والخطيب والكاتب الذي ألف كتاباً (ضاع معظمه) باللغة اللاتينية بعنوان «الأصول»، أي تاريخ نشأة المدن، سرد فيه تاريخ روما منذ البداية الأولى، متناولاً فيه قصة آينياس وتأسيس المدينة (751 ق.م) وعهد الملوك، متابعاً السرد حتى عام 149 ق.م. كذلك اشار إلى القصة فارّو Varro (116 ـ 27)، أعلم علماء الرومان، الذي عالج الشخصيات التاريخية القديمة، ونشأة المدن الايطالية وفي مقدمتها روما، بادئاً القصة منذ

آينياس. وأخيراً ليفيوس T. Livius (59 ق.م ـ 17م)، أكبر المؤرخين الرومان، الذي كتب تاريخ روما (في شكل حوليات) منذ تأسيس المدينة (ab Urbe Condita) حتى عام) ق.م، وذلك في 142 كتاباً لم يصلنا منها كاملا سوى 35 كتاباً (من رقم 1 _ 10) التي تعالج الفترة منذ تأسيس المدينة حتى سنة 294 ق.م مع الاشارة إلى آينياس وخروجه سالماً من حرب طروادة، وطوافه في البحر ثم نزوله في لاتينوم، وسوى كتبه (من رقم 21 ـ 45) التي تعالج الفترة من سنة 219 حتى 167 ق.م، فضلاً عن بعض شذرات ومقتطفات وموجزات من الكتب الأخرى الضائعة. ويعتبر مؤلف ليفيوس (عندما لا يكون فيه فجوات) أهم مصدر لتاريخ روما في عصر الجمهورية. وفي وسعنا أن نصف تاريخه بأنه بمثابة ملحمة الرومان المنثورة التي تقابل الآينيادة ملحمتهم المنظمة.

هكذا تجمعت لدى فرجيل خيوط قصة غير مترابطة بل مهلهلة وسقيمة تتحدث عن آينياس. وبعض أجزاء القصة مقتبس من هوميروس، وبعضها الآخر من شعراء لاحقين، وخلاصتها أن آينياس أمير طروادي، ينحدر من صلب أنخيسيس والربة أفروديتي. وكان بطلاً من أبطال الحرب الطروادية، ولو أنه في الحقيقة لم يقم بأي دور بطولي أو باهر فيها، بل إنه لم يتميز بأي صفات بارزة سوى ولائه وتقواه نحو بعض الآلهة التي اصطفته من أجل ذلك وأسبغت عليه حمايتها وحفظته من السوء، لأنها كانت تدخره لشيء آخر، وقالت احدى النبوءات أن أمامه مستقبلاً، وأن ذريته سيؤول إليها الملك. وقد نجا آينياس من الهلاك أثر سقوط طروادة واندلاع النار فيها، وفر بأهله وآلهته إلى البحر حيث طاف بضع سنوات ونزل بعدة أماكن، كان آخرها اقليم لاتيوم حيث ارتبط اسمه بتأسيس روما.

ومن هذه الخيوط الواهية نسج فرجيل الآينيادة حيث وصف سقوط طروادة، وفرار آينياس وأهله. ثم ضغط بمهارة أساطير جولاته في البحر في

الكتاب الثالث من الملحمة. وأما ارتباطه بتأسيس روما فقد مطه الشاعر وتوسع فيه خالقا منه الموضوع القومي العظيم في الملحمة. لقد وجد فرجيل في قصة آينياس ونزوله في لاتيوم أكمل الأساطير عن نشأة روما وأكثرها شمولاً، لأن أسطورة روميلوس كانت محلية محدودة الأفق. لكنه لم يقصد أن تكون الآينيادة مجرد سرد لأسطورة قديمة، بل أن تكون ملحمة روما ذاتها ومجدها التليد الغابر وأملها في العهد الجديد الزاهر (عهد أغسطس). وعدل فرجيل عن التسلسل التاريخي الذي اتبعه أنيوس وجعل فيه من روميلوس حفيدا لآينياس[9]. ونبذ طريقة الحوليات وأطلق العنان لخياله، وبذلك وجد بين الاثنين (آينياس وروميلوس) متسعاً من الزمن أو فراغاً يملؤه بسلسلة ملوك ألبا لونجا. واستطاع أن يعالج نشأة روما الأولى معالجة النبوءة القديمة التي تنبأت بمستقبل للمدينة لا يزال بعيداً غير متحقق.

ويلاحظ أن الصورة التي يرسمها فرجيل لآينياس ترتكز أساساً على صفة التقوى (Pietas)، وهي صفة كان قد خلعها عليه هوميروس في الألياذة. غير أن الشاعر الروماني يضخم هذه الصفة ويمط في معناها ليتضمن أوسع مفهوم للكلمة عند الرومان فتصبح ولاء لأسرته، وتقوى لآلهته، وشعوراً عميقاً بالواجب نحو أمته، وايماناً بمصير روما العظيم. ولقد يبدو آينياس للقراء المحدثين شخصية باهتة، وتبدو «تقواه» باعثة على السأم، إن لم تكن مستغلقة على الفهم. ولربما يشعرون أيضاً بعطف تلقائي على خصمه «تورنوس» مثلما يشعرون بعطف على هكتور الطروادي في الألياذة)، وبعطف على «ديدو» التي هجرها آينياس على نحو ما سنرى. لكن تقوى آينياس للآلهة، وشعوره العميق بالواجب نحو مستقبل روما، كلاهما كان كفيلاً بأن يمحو أي مشاعر أو ميول شخصية عند القراء الرومان. ويتبين لمن يدرس الآينيادة دراسة فاحصة أو يقرأها بامعان. أن ثمة تطورا تدريجياً ـ وهو بمثابة المفتاح لفهم شخصية البطل ـ يطرأ على شخصية

آينياس في الملحمة، إذ يزداد قوة وعزما كلما تكشف له قدره المرسوم كمؤسس للدولة الرومانية. ولهذا يعتبر «الكتاب السادس في الآينيادة، حيث يبدأ آينياس في إدراك عظمة روما المستقبلة، هو محور الملحمة كلها ومنذ تلك اللحظة يكتسب ثقة جديدة وجرأة وتصميما مما يرفعه إلى مصاف الأبطال.

آينياس ومغامراته في البحر:

والقصة المتطورة ـ حسب ما يرويها فرجيل في ملحمة الآينيادة ـ تجري على النحو التالي:

خرج آينياس من الحرب سالما بعد سقوط طروادة أما لأنه قاتل بشجاعة وشق طريقه إلى الساحل أو أفلت من رقابة الجيش الاغريقي، أو عفا عنه الاغريق وسمحوا له بالرحيل لأنه كان من الذين اعترضوا على الحرب ونصحوا بإعادة «هلينى» إلى قومها أو لأنه أثار اعجاب الاغريق بتقواه وبسالته (هذا بغض النظر عن احدى الروايات التي زعمت أنه خان طروادة وسلمها للعدو). وأياً كان السبب، فقد شق آينياس طريقه وسط النيران المندلعة في طروادة حاملاً أباه انخيسيس الكسيح (أو الأعمى) فوق كتفيه، و (تماثيل) آلهة أسلافه المسماة ببناتيس (Penates)، وممسكاً في احدى يديه بابنه الصغير أسكانيوس (Ascanius) ـ الذي سيعرف فيما بعد باسم يوليوس (Iulus) ـ وبزوجته كروسا (Creusa) في اليد الأخرى. لكي لم تلبث زوجته أن اختفت وسط اللهيب والدخان والفوضى، ولم يعثر لها على أثر.

وجهز آينياس بعض سفن بناها من أخشاب غابات جبل ايدا (Ida) القريب من طروادة. وبعد رحيل الاغريق أبحر باحثاً عن أرض موعودة في هسبريا (الغرب) مع رفاقه الطرواديين الذين نجوا من الهلاك. واتجه إلى طراقيا وقضى فيها بعض الوقت. ثم تابع رحلته إلى ديلوس حيث أمرته النبوءة أن يتجه

إلى ارض أجداده. وتذكر آينياس أن دردانوس (Dardanus)، جد الأسرة الطروادية المالكة جاء اصلاً من كريت، فسار قاصداً تلك الجزيرة. لكن وباء تفشى بين رجاله. وتجلت له آلهة أسرته في رؤية وأنبأته بأن إيطاليا هي الموطن الأصلي لدردانوس، وإليها ينبغي أن يشد رحاله، فغادر كريت ووصل إلى ايبيروس (في غرب بلاد الاغريق) وهناك وجد هلينوس (أحد أبناء برياموس) يتربع على عرش البلاد بعد موت ملكها نيوبطوليموس (ابن أخيل)، ومعه زوجته (أندروماخي) التي ترملت من قبل مرتين، مرة بعد مصرع زوجها الأول هكتور، بطل طروادة، ومرة أخرى بعد موت نيوبطوليموس الذي كان قد أسرها (هي وهلينوس) بعد سقوط طروادة ثم تزوجها في ايبيروس. ولما كان هلينوس في الأصل عرّافاً (كأخته التوأم كسندرا) فقد تلقى منه آينياس توجيهات وافية عن مغامراته المقبلة: كان على آينياس أن يبحث عن مكان فيه خنزيرة بيضاء لها ثلاثين خنصا (ولدا). وكان عليه أيضاً ـ وهو في طريقه إلى هذا المكان الذي يقع على ساحل إيطاليا الغربي ـ أن يزور سيبوللا (Sibylla)، كاهنة أبوللون وعرافته التي ستزوده بتوجيهات أكثر.

وبعد مخاطرات طفيفة، وصل آينياس إلى صقلية حيث استضافه واحتفى به أحد أقربائه. وهنا مات أبوه أنخيسيس. فغادر الجزيرة ليذهب إلى ايطاليا.

آينياس و «ديدو» ملكة قرطاجنة:

لكن فرجيل يقحم هنا حادثة لا ترد في الرواية التقليدية المتداولة، وقد استقاها ـ على ما يظن ـ إما من الشاعر نايغيوس أو من «العلاّمة فارو: إذ هبت فجأة احدى الزوابع التي أرسلها إله الريح بتحريض من «جونو»[10] ـ عدوة الطرواديين ـ بقصد تحطيم سفن آينياس وإغراقها. لكن نبتونوس، إله البحر، خفف من وقع الكارثة، ووجد آينياس مرفأ أمينا في ساحل ليبيا (أي افريقيا)

الشمالي بالقرب من موقع قرطاجنة، فلجأ إليه وأرسى فيه أسطوله الصغير الذي تحطمت بعض سفنه العشرين. ولما علمت ديدو (Dido)، ملكة قرطاجنة، بوصول الغرباء، رحبت بهم، ودعتهم إلى قصرها حيث أقامت لهم وليمة فاخرة. وبلغ من كرمها أنها عرضت عليهم أي مساعدة لمتابعة رحلتهم أو البقاء في بلدها إذا طاب لهم المقام.

من هي ديدو

كانت ديدو (واسمها الأصلي اليسا Elissa) ابنة الملك صور (Tyros) الذي يسميه الشاعر بيلوس Belus (أي بيل أو بعل)، وهو اسم بمعنى «السيد»، وإله صور الذي كان «ملقرت» يلقب باسمه في بعض الأحيان[11]. وكان لديدو[12] شقيق اسمه بيجماليون (Pygmalion) الذي ارتقى عرش صور بعد موت أبيه. وقد زوجت ديدو من سيخايوس (Sychaeus) أو أكرباس (Acerbas)، وكلا الاسمين تحريف لاسمه الفينيقي Zcherbaal بمعنى «بعل يذكر». وكان زوجها هذا يحبها وتحبه كما كان كاهنا في معبد إله المدينة، وأغنى رجل فيها. لكن بيجماليون طمع في ثروته وقتله غيلة بينما كان يتعبد في المحراب، وأخفى الجريمة عن أخته فترة من الزمن. لكن شبح زوجها جاءها في النوم وأخبرها بما حدث له على يد أخيها الطاغية ونصحها بالفرار من المدينة، ودلها على مخبأ ثروته. وفرت ديدو بكنوزها من صور في رفقة بعض نبلاء المدينة من اتباعها. ولعلها عرجت على قبرص. لكنها تابعت الرحلة في البحر حتى وصلت إلى لسان أو شبه جزيرة في خليج على ساحل أفريقيا الشمالي. وهناك باعها الليبيون قطعة من الأرض سعتها كسعة جلد الثور، كما ورد في القصة. لكن أتباعها من أهل صور لم تعوزهم الحيلة والدهاء فقطعوا الجلد إلى شرائح رقيقة جداً كالفتل، ووصلوها بعضها بالبعض الآخر حتى بلغت من الطول ما يجعلها تحيط برقعة فسيحة كافية.

وسوروا هذه الرقعة من الأرض بسور وشيدوا على التل القائم عندها قلعة تحمل اسمه وهو بورسا Pyrsa[13]. ثم شرعوا في بناء مدينة حولها باسم «كرت حدث» أي «القرية» أو المدينة الجديدة، وحرف الاغريق الاسم إلى «كرخيدون» (Karehedôn)، وحرفه الرومان إلى «كرتاجو» (Karthago)[14]، وهي ما نسميها الآن قرطاجة/ أو قرطاجنة.

غير أن رخاء قرطاجنة لم يلبث أن أثار حسد يارباس (Iarbas)، ملك إحدى المناطق المجاورة، وأراد أن يشارك أهلها في هذا الرخاء مطالباً بيد ديدو للزواج منها ومهدداً بالحرب إذا قوبل طلبه بالرفض. وكانت ديدو قد آلت على نفسها أن تظل وفية لذكرى زوجها الراحل. لكنْ نزولا على رغبة شعبها الذي كان يميل إلى اتمام هذا الزواج، تظاهرت ديدو بالقبول واستمهلت شعبها فترة من الزمن. وشرعت في أثنائه تقيم كومة عالية من الحطب. وزعمت أنها تقيمها لكي تقدم القرابين استرضاء لروح زوجها الراحل. وأشعلت النار في كومة الحطب ثم ألقت فجأة بنفسها في النار منتحرة على مشهد من كل شعبها المنذهل. هكذا لقيت ديدو حتفها. وقد مجدت ديدو بعد موتها وألهت وجعلت صنوا للربة «عنت»، زوجة بعل، وربة صور وقرطاجنة.

غير أن فرجيل يحرف القصة الأصلية ويغير زمانها وكأنه يقربها إلى زمنه بمنظار مكبر. ذلك أن الحرب الطروادية نشبت وانتهت في تاريخ لا يبعد كثيراً عن عام 1200 ق.م. على حين أن قرطاجنة لم تؤسس إلا حوالي عام 814 ق.م. ويجعل الشاعر الروماني ديدو تقع في حب آينياس وتهيم به هياما بإيعاز من أمه الربة فينوس (أفروديتي). وقد وهبت ديدو نفسها لآينياس فاستجاب إليها وتمت المعاشرة بتدبير من «جونو»، ربة الزواج. وقضى الاثنان معا بضعة أشهر في متعة وهناء. ولكن جوبيتر بعث رسوله مركوريوس من السماء على وجه السرعة ليلوم آينياس على تراخيه وتقاعسه، ويستحثه على الرحيل عن قرطاجنة إذ أن أمامه

واجبا آخر ينبغي أن يؤديه ورسالة يجب أن يتمها وهي بلوغ أرض إيطاليا حيث كتب له في لوح القدر أن يؤسس دولة جديدة.

ولم يستطع آينياس الكتمان وبدت على أساريره امارات القلق. واستفسرت منه ديدو فلم يخف عنها حقيقة ما أوحي إليه به واعتزامه تلبية نداء السماء. وعندئذ جن جنون ديدو، ورمته بالغدر والخيانة، ثم هدأت من ثائرتها وحاولت ملاطفته وناشدته البقاء ليشد من أزرها ولا يتركها وحدها، فتنهار مملكتها الوليدة أو تقع هي تحت رحمة من لا يرحمون من أعدائها زعماء القبائل النوميدية أو الليبية الهمجية، أو أخيها بيجماليون غليظ القلب الذي قد يتعقبها، أو يارباس البغيض الذي قد يرغمها على الاقتران به. لكن آينياس برغم معاناته صم أذنيه عن توسلاتها، وقرر أن يمتثل للأمر الالهي. وكلف رجاله بالتأهب للرحيل. ولم يقبل حتى التريث فترة وجيزة حتى تروض ديدو نفسها على فراقه والصبر على بعاده. وتعذبت ديدو في حبه عذابا أليما. ولم تعد بقادرة على النوم أو النسيان. وحاولت أختها «أنا» (Anna) أن تواسيها. لكن هيهات، إذ لم يعد يجدي معها عزاء أو سلوان. لقد تحطم قلبها تحطيماً. ولم يعد في وسعها الاحتمال. ولقد فكرت من يأسها اللجوء إلى السحرة، وراودتها في لحظة فكرة موافقة آينياس والرحيل معه. ثم سولت لها نفسها استخدام العنف لعرقلته. لكن الأوان قد فات وأقلع آينياس بسفنه في فجر أحد الأيام.

وكانت ديدو آنئذ واقفة في القلعة، ورأت سفن آينياس وهي تبتعد عن الساحل الافريقي بسرعة، فانقلب حزنها إلى حقد دفين وناشدت آلهة القصاص أن تنتقم منه وتهلكه قبل أن يبلغ مقصده. فإذا بلغ مقصده فليتصد له هناك قوم أشداء يعلنون عليه حربا شعواء ويردونه عن سواحلهم مدحورا. فإذا حالفه حلفاء فلتنزلن بهم أيضاً هزيمة فادحة نكراء. ولئن عقد صلحا، فليكن الصلح باهظاً ومهينا. وليت آينياس لا يتمتع أبداً بملك أو سلطان، وليته يلقى حتفه

قبل الأوان. وقبل أن تلقي ديدو بنفسها في النار رفعت يديها إلى السماء مبتهلة أن تشتعل روح الإنتقام من رماد جثتها في صدور أهل صور (القرطاجيين)، لتقودهم ضد كل سلالة الطرواديين البغيضة (أي الرومان)، وأن تقابل أمتها أمة آينياس، أسطولاً ضد أسطول، وجيوشا ضد جيوش، وليت حربا مريرة تظل جاثمة على صدور ذريته في مقبل الأجيال.

آينياس في العالم السفلي:

ويعود آينياس إلى صقلية حيث يحتفل بذكرى مرور عام على وفاة أبيه أنخيسيس بإقامة مباريات رياضية جنائزية كالسباق البحري بين سفن أسطوله، والجري والملاكمة، والرماية بالنبال والسهام، وسباق الخيل، والمصارعة، ورمي القرص وغير ذلك من الألعاب. وتوزع الجوائز على الفائزين وغير الفائزين فيعطى جميع المشتركين في المباريات سهاما برؤوس حديدية، وبلطاً مزخرفة بتصاوير فضية. وأما الثلاثة الفائزون الأوائل فقد نال كل منهم اكليلا من الغار حول جبينه فضلاً عن الجائزة المناسبة: جواد مطهم بجلود موشاة للأول، وجعبة مليئة بالسهام ذات غطاء ذهبي ومشبك مرصع بالجواهر للثاني، وخوذة للثالث[15]. لكن الربة جونو عكرت صفو الاحتفال البهيج إذ كانت لا تزال حاقدة على طروادة والطرواديين وتضمر لهم الشر وتتمنى لهم الهلاك. فقد استغلت ضيق بعض النساء في معسكر آينياس ذرعا بطول الرحلة وما فيها من عناء، وسوّلت لهن ـ عن طريق ابنتها أيريس ـ أن يضرمن النار في السفن فاستجبن إلى تحريضها في لحظة من لحظات السخط أو الجنون، ولولا يقظة رجال آينياس لدمرن أكثر من أربع سفن.

وبالسفن المتبقية يرحل آينياس تاركاً وراءه في صقلية المسنين والضعفاء والعاجزين من رجاله لكي يؤسسوا مدينة في تلك الجزيرة ويولي وجهه شطر إيطاليا

وينزل بموقع مدينة كومأي (Gumae)[16]، حيث يلتقي بسيبوللا (Sibylla)، العرافة الرهيبة، وأشهر نبيات ألوللون التي كانت تعيش في كهف مسكون بالأشباح قريب من معبده ولا يبعد كثيراً عن مدخل العالم السفلي (عالم الموتى). وكانت سيبوللا بعد أن تروح فيما يشبه الغيبوبة تتكهن بالغيب بإلهام مباشر من أبوللون، إله النبوءة. وعندما التقى بها آينياس أمرته أولاً بتقديم النذور وإقامة الصلوات وترتيل الأدعية والابتهالات المناسبة لأبوللون، نصير الطرواديين. ثم تنبأت آينياس بوصوله سالماً إلى لاتيوم عن قريب. وإن كان سيشوب ابتهاجه أحزان عند ضفاف التيبر حيث سيخوض حربا رهيبة كالحرب التي ثارت بسبب «هليني» بين الاغريق والطرواديين. لكن سيبوللا أوصت آينياس بأن يمضي قدما بشجاعة ولا يستسلم لليأس أو للحظ العاثر، ولسوف يتألق صيته تألق النجوم.

زيارة إينياس لأبيه في «العالم السفلي»

وبعدئذ طلب إليها آينياس أن تدله على طريق الوصول إلى أبيه في «العالم السفلي»، إذ أن روح أبيه «أنخيسيس) كانت قد حضرت إليه من قبل وناشدته أن يزوره في عالم الموتى لكي يكشف له المزيد من حجب الغيب، وينبئه بالكثير عن مستقبله. ولقد أفهمته سيبوللا أن النزول إلى عالم الموتى ربما يكون هينا ميسورا لأن المدخل إليه كان كهفاً قريباً من كهفها عند بحيرة تقع في فوهة بركان سحيقة الغور وتنبعث منها أبخرة سامة، ولذا سميت البحيرة بأفرنوس Avernus أي «الخالية من الطيور». لكن العودة من هناك إلى عالم الأحياء دونها صعاب بل دونها خرط القتاد: فطريقها محفوف بالخطوب والمهالك، إذ تحيط بالعالم السفلي أنهار رهيبة مثل «كوكيتوس» النواح، «وستيكس» البغيض، و«أخيرون» المعتم. وقالت له سيبوللا لكن ما دمت تواقا إلى التحدث مع أبيك، ولديك الجسارة على أن تجتاز هذه المخاطر فلسوف أرشدك. لكن دعني أنبهك إلى ما ينبغي أن

تفعله أولاً: ففي أحراج «أفرنوس» المظلمة يوجد غصن محتجب وسط فروع شجرة كثيفة سامقة يتدلى مثقلاً بأوراق من الذهب. وهذا الغصن الذهبي هو شعار بروسربينا، زوجة بلوتو، إله عالم الموتى. وتحرص الغابة كلها على اخفاء هذا الغصن عن أعين البشر. فهو بمثابة جواز المرور. لكن من يقطف هذا الغصن ينفتح أمامه طريق العودة بسلام من عالم الظلام إلى عالم النور.

وصف عالم الموتى

وتم لآينياس تحقيق ما أوصت به النبية. ولم تلبث أن انفتحت أبواب قصر بلوتو. وأجال بصره في جوف الجحيم فرأى «الحزن» و «القلق» و «الأمراض الخبيثة» طريحة الأرض، ولمح «الخوف» و «الجوع» و «خطايا الشباب» قابعة في ركن هناك. كذلك رأى «النوم» راقدا، وهو الأخ الرفيق «للموت» القاسي. كذلك شاهد في ارتياع أشكال «الحرب البغيضة»، و «النزاع الأهلي المرير» و«القتل الغادر». ووراء قصر ملك الموتى لمح كثيراً من أشباح تلك المخلوقات العجيبة التي تجمع بين صفات الانسان وصفات الحيوان.

وغادر آينياس هذا المكان الرهيب مبتهجاً لمغادرته وتتبع خطوات سيبوللا على الطريق المؤدية إلى أخيرون (Acheron)، وهو ذلك النهر المعتم الذي يدور حول العالم السفلي في شكل دوامة غاصة بالرمل والطين ثم يفرغ ما بجوفه عند ملتقى نهري كوكيتوس واستيكس. وبهذه الأنهار المقدسة يحلف البشر (وأحياناً الآلهة) يحلفون اليمين المغلظة صادقين أحياناً، وكاذبين في أغلب الأحايين. ويتولى حراستها ذلك النوتي (المراكبي) الذي يسميه الناس خارون (Charon)، وهو كهل أشيب الشعر أشعثه، كث اللحية: عابس الوجه صارمه، رث الثياب زري الهيئة، يتلقى أرواح الموتى الشاحبة في قاربه الأسود، وينقلها ضاربا بمجذافه بين ضفتي استيكس، وهما ضفتان حالكتا السواد. ويتطلع هذا

الرجل البشع بعينيه الشرستين المتقدمتين بالشرر، الغائرتين تحت حاجبين كثيفين وجبين مغضن، يتطلع إلى ضفة نهر الموتى حيث تتجمع أرواح الموتى، متدافعة بالمناكب متزاحمة، في قلق ولهفة، ومهمهمة بأصوات غير مسموعة، وهي أرواح أمهات، وفتيان وفتيات بكارى لم يتزوجن، وأبطال عظام، ورجال ونساء، طاعنين في السن وطاعنات، وقد بلغوا من العمر أرذله حتى تقوست ظهورهم من عبء السنين، يتجمعون في صمت رهيب أو همس خافت كالحفيف، وكلهم متلهفون على العبور إلى الضفة الأخرى. لكن النوتي العجوز المكفهر الوجه يتفرس في وجوههم ويختار فيأخذ بعضهم، ويدفع بمجذافه الطويل بعضهم الآخر بعيداً عن قاربه العتيق المتهالك.

وتساءل آينياس عن تزاحم هذه الأرواح على ضفة نهر استيكس، فأخبرته سيبوللا بأن من بينها أرواحاً كثيرين لم تدفن جثثهم بعد الموت، فظلت بلا قبور، هؤلاء لا بد أن ينتظروا على هذه الضفة من النهر. ذلك أن خارون، النوتي العجوز، لا ينقل إلى الضفة الأخرى إلا أرواح من ووريت جثثهم في القبور لتستريح رفاتهم تحت الثرى أو من أحرقت جثثهم على أكوام من الحطب، وكان دفنهم أو حرقهم مشفوعاً بالطقوس الجنائزية اللائقة. أما أرواح الآخرين فتظل لمائة سنة أو مائتين تروح وتغدو هائمة من مكان إلى مكان، فوق هذه الضفة من النهر، على غير هدى، منبوذة حائرة شقية.

واقترب آينياس مع مرشدته من مملكة الأرواح و«الموت» و«الليل الناعس» فتصدى لهما خارون حانقا مغضبا لولا أن كشفت «سيبوللا» له عن شخصية رفيقها وصفاته والغرض من زيارته، ولوحت بالغصن الذهبي الذي كانت تخفيه بين طيات ردائها. وأركبهما خارون قاربه بعد أن أزاح الموتى التي كانت قد استقرت فيه، والتي أخذت تولول متذمرة شاكية من هذه المحاباة. وأخذ القارب البالي الذي امتلأ بالمياه من كثرة ما فيه من ثقوب يئن ويهتز وكاد

يغوص في قاع النهر تحت ثقل آينياس بن انخيسيس. ولولا خبرة خارون الطويلة لما انتقل آينياس ورفيقته إلى الضفة الأخرى بسلام.

وعلى الضفة الأخرى أبصرا بالكلب الرهيب كربيروس (Cerberus) ذي الرؤوس الثلاثة. وكان يربض باسطاً ذراعيه بالمدخل، وينبح نباحاً مدوياً بحناجره الثلاثة المضفورة بثعابين لها فحيح مخيف، ويقف كالحارس الأمين حائلاً دون دخول أي غرباء إلى قصر سيدة بلوتو، إله عالم الأموات. لكن سيبوللا ألقت بلقمة من طعام بين فكي الكلب المسعور، فابتلعها بشراهة ثم رقد متثائباً ثم راح في سبات عميق. وفي لمح البصر كانت سيبوللا وآينياس قد وثبا من فوقه مارقين كالسهم عبر المدخل ثم إلى جوف القصر البهيم. وترامت إلى مسامعهما أصوات وأنين: بكاء أرواح الأطفال الذين انتزعهم الموت من أحضان أمهاتهم ولما يجتازوا بعد عتبة الحياة، وهي أرواح بريئة لم تعرف الشقاء أو الهناء. ثم أنات أرواح الذين اتهموا زورا وأعدموا ظلما، هناك يحاكمون من جديد أمام محكمة عادلة يرأسها قاض نزيه هو مينوس، ملك كريت. وتأوهات أرواح المنتحرين تخلصاً من شقاء الدنيا وهربا من نوائب الدهر. هؤلاء أرواحهم تهيم إلى الأبد وسط مستنقعات ضفة نهر استيكس. وكم يتمنون أن يبعثوا أحياء من جديد ويعودوا ـ لو أتيح لهم ـ إلى عالم النور، راضين بما قسم لهم متحملين آلام الحياة مهما اشتدت وطأتها أو بلغت بلاويها.

وبعد خطوات وصل الاثنان إلى حقول الفجيعة أو «ساحات النحيب» حيث تهيم أرواح هؤلاء النساء اللاتي قادهن الحب الآثم إلى الهلاك. هنا كانت «فايدرا» و «بروكريس» و «اريفيلي» اللاتي لوثن شرف أزواجهن وبعن أنفسهن لعشاق بهدايا من الحلى بدت لهن مغرية ثمينة. ومعهن كانت أيضاً «باسيفائي»، زوجة مينوس ملك كريت، التي اجتاحتها نزوة شاذة فهفا قلبها لا إلى فتى فاتن وسيم بل إلى ثور ثائر بهيم. وعاشرته متقمصة شكل البقرة، فهوى بها إلى

الحضيض، إذ أنجبت منه وحشا عجيب الخلقة نصفه انسان ونصفه الآخر ثور، ومن ثم فقد سمي بالمينوتاوروس (Minnotaurus).

الالتقاء بديدو

وفجأة وقعت عينا آينياس على شبح «ديدو» المسكينة، فسرت في أوصاله رجفة شديدة. كانت روحها تنتقل بين الأشجار هائمة على وجهها متحسرة محزونة، ولم يندمل جرحها بعد. وناداها آينياس في شوق ولهفة، وناشدها الصفح عنه مقسماً بأنه لم يهجرها بمحض إرادته بل رغما عنه امتثالاً لأمر جوبيتر، وأنه لم يكن يتصور أن رحيله عنها سيدفعها إلى الجنون والانتحار. وأجهش بالبكاء محاولاً تهدئة غضبها الأهوج لكنها أشاحت بوجهها عنه، وصوبت عينيها نحو الأرض في صمت وبرود. كانت ملامحها جامدة قاسية وكأنها قدت من حجر صوان أو من رخام باروس[17]. وأخيراً تولت هاربة ـ وهي لا تزال كارهة ـ وغابت في أعماق الغابة المظلمة حيث راح سيخابوس، زوجها الأول في صور، يهدىء من أحزانها ويبادلها العناق، بينما راح آينياس ينظر إلى بعيد بعين ملؤها الحسرة والاشفاق والدموع.

وسار آينياس بعد ذلك مع صاحبته على طريق اليمين المؤدي إلى «الاليزيوم» ولكنه تلفت إلى الطريق الآخر على الشمال. فرأى تحت جرف منحدر قصرا ضخما له ثلاثة أسوار ويحيط به نهر يسمونه فليجثون (Plegethon) نسبة إلى مياهه الملتهبة التي تجري متدفقة بسرعة هائلة فوق قاعة الصخرى. وكان للقصر مدخل موصد برتاجات هائلة مشدودة بالحديد ومدلاة بين عمودين طويلين من الحجر الصلد. هنالك في برج شاهق من حديد كانت تجلس ربة القصاص تيسيفوني (Tisiphonê) التي أنيطت بها حراسة هذا الموضع من الجحيم. وكانت متدثرة برداء مخضب بالدماء، ولا تغفل لها عين بالليل أو بالنهار.

وترامى إلى سمع آينياس صليل الأغلال، وضربات السياط، وصرخات الأنين، فامتلأ قلبه رعبا وامتقع وجهه خوفاً، وتوقف عن المسير متسائلاً عن أسباب هذا العقاب الرهيب، وعن الجرائم والخطايا التي تستحق مثل هذا القصاص الأليم. فأجابته سيبوللا بأن المكان هو ترتاروس (Tartarus) أي الجحيم، وهي هوة فاغرة فاها سحيقة الغور تبعد مرتين عن سطح الأرض بعد هذا السطح عن قمة جبل أوليمبوس. وفيها كان يتولى الحساب قاض آخر هو ردمانثوس (Rhadamanthus) شقيق مينوس، وابن جوبيتر نفسه. وقد اشتهر بنزاهته وصلابته في الحق وصرامته. كان يسمع أقوال المجرمين، وينتزع الاعترافات بالتعذيب من صدرو الآثمين، ويقرر نوع العقاب. ثم تتولى تيسيفوني التنفيذ إذ تمسك في يد بالسوط وفي الأخرى بالثعابين. وكانت تعاونها أخوات لها من ربات القصاص أو «اللعنات المجمدة» اللاتي كن يضارعنها في القسوة والشراسة.

ففي هذه الهاوية السحيقة، هاوية الآلام والأحزان، كان جوبيتر قد زج بالجبابرة (Titanes)، وهم الأبناء الأوائل للأرض القديمة، بعد أن قذفهم بصاعقة. وتراهم الآن وهم يتمرغون في الطين ويتلوون من الألم. وفيها أيضاً ترى غيرهم من العمالقة (Gigantes) الذين حاولوا الاطاحة بزيوس من عرشه أو مشوا في الأرض مرحا متباهين بمقدرتهم على مجاراة زيوس في قوته وألوهيته. وكان بعضهم تتدلى من فوق رؤوسهم صخور تريد أن تنقض عليهم. فيعيشون في رعب مستمر، وبعضهم الآخر قد صفت أمامهم موائد حافلة بما لذ وطاب من الطعام الشهي لكنهم لا يستطيعون الأكل منه برغم اشتهائهم له، فكلما عضهم الجوع بنابه وهموا بمد أيديهم إلى الطعام أبعدتهم عنه تيسيفوني، ربة القصاص، أو احدى أخواتها، بلسعهم بشعل ملتهبة وافزاعهم بصراخ مرعب. وأحدهم قد مط جسمه حتى غطى تسعة أفدنة، وسلط على كبده المتجدد باستمرار صقر ينهشه إلى الأبد. وكان كثير منهم في حياتهم الدنيا قد لطخوا أيديهم بدماء ذوي الأرحام.

قتلوا أباءهم أو أخواتهم، أو ارتكبوا اثما كبيرا في حق جيرانهم أو أحبوا المال حبا جما فاكتنزوه دون أنْ يدعوا منه شيئاً لذوي قرباهم. وهذا خائن باع وطنه بالمال، وذاك سرق من آخر زوجته، وثالث أرغم ابنته على زواج بغيض أو محرم. لقد ارتكبوا جميعاً خطايا كبيرة فأعدت لهم الآلهة صنوفاً من العذاب الأليم انتقاما منهم. وترى واحداً منهم مثل سيسيفونس (Sisyphos) وهو يدفع بصخرة ضخمة إلى قمة تل شاهق. لكن ما أن يقترب من القمة حتى تنفلت الصخرة من يديه وتتدحرج نازلة إلى أسفل. وكان عليه أن يرفعها ثانية إلى أعلى. وهكذا دواليك، يحاول مرة تلو أخرى دون أن تستقر الصخرة، فيظل يشقى بها إلى الأبد. وترى مجرمين آخرين معلقين من أرجلهم في دولاب عجلة لا تكف عن الدوران. ومن بينهم واحد كان قد تواطأ مع طغمة الكفرة وأضرم النار في معبد أبوللون بدلفى ودنس حرمة المقدس.

وأخيراً بلغ آينياس مشارف الاليزيوم (Elysium) أو «دار النعيم»، وهي أرض مشرقة بهيجة تكسوها مروج خضراء، وتنبت فيها رواب فوقها زهور صفراء فاقعة تسر الناظرين، وتنساب فيها جداول مياهها رقراقة وطيبة، وتتخللها أحراش باسمة. هنا كانت أرواح المباركين تستمتع بالشمس نهاراً، وليلا بالنجوم. وكان الأثير، المصبوغ بلون الورد، يصافح وجوه حشود الأرواح إلها نئة وهي تلهو لاغية أو ترقص في مرح. هنا كان يعزف أورفيوس (Orpheus) الموسيقار الخالد، بقيثارته ذات الأوتار السبعة أعذب الألحان. هنا أيضاً كانت تسكن أرواح أبطال العصور الغابرة: تيوكروس ودردانوس، مؤسس الدولة الطروادية. وقد نظر اينياس في دهشة إلى أطياف أسلحتهم وعرباتهم الحربية، واشباح جيادهم وهي تقضم الكلأ الأخضر في المراعي النضيرة أو ترمح منتشية فوق السهول المنبسطة. وثمة أجمة كان يتثنى في وسطها نهر اريدانوس (Eridanus) الذي كان يهبط من سطح الأرض إلى دار النعيم في العالم الآخر. وبعد أن يجري فيها مسافة

قصيرة يصعد ليصب في البحر.

وعلى مسافة غير بعيدة رأى آينياس جدولاً لمائه خرير وينساب وسط أشجار الغار التي يفوح منها شذى وعبير، وعلى ضفتي هذا النهر أبصر بأطياف أخرى تمرح وتغني باصوات فرحة. وهذه كانت أرواح الذين بلغوا أسمى مراتب الفضيلة، واصبحوا أكرم الناس عند الآلهة، وأطياف الذين قتلوا في سبيل أوطانهم، والذين تعاظمت سيرتهم في الأرض بالبحث عن الحقيقة: الفلاسفة والكهنة، والشعراء الذين ألهمت قصائدهم الناس أفكارا سامية نبيلة. ثم أرواح الذين حازوا رضا الناس جميعاً بمروءتهم وإيثارهم الغير على أنفسهم. وقد تجمعت الأرواح حول الزائرين الغريبين وسألتها سيبوللا عن مكان أنخيسيس فتطوعت إحدى هذه الأرواح وأرشدتهما إلى مستقره.

وعندما التقى أنخيسيس بابنه رفع ذراعيه متهللا ودمعت عيناه من الفرح، ولهج لسانه بشكر الآلهة على تحقيق أمنيته ورؤية ابنه ثانية وسماع صوته. وروى آينياس لأبيه ما صادفه من مخاطر حتى وصل إلى كومأي (Cumae). ثم حاول أن يمسك بيد والده. لكن على الرغم من أنه حاول ثلاث مرات أن يحتضن طيف والده إلا أنه انفلت من بين ذراعيه انفلات الرؤيا أو الحلم. وقد لمح آينياس وراء أحد الأحراش المنعزلة ليثي (Lethé) أو «نهر النسيان» وهو ينساب في تراخ شديد، وعلى ضفتيه كثير من الأرواح المتزاحمة دائبة الحركة كالنحل عندما يتهافت على زهور الربيع مالئاً الجو بطنينه الوسنان. وأثار المشهد دهشة آينياس فسأل أباه عن معناه، وأجابه أنخيسيس بأن تلك الأرواح هي التي قدر لها أن تصعد إلى عالم الأحياء تتقمص أجساداً مرة ثانية. إنها تشرب الآن من «نهر النسيان» وبذلك تنسى حياتها الأولى على الأرض. وهذه الأرواح هي التي ستحل مستقبلاً في أجساد ذريتك. لقد استدعيتك لترى هذه الأشياء فتعجل بالذهاب إلى إيطاليا بحماس أشد وتؤسس مدينتك. وسإله آينياس ما إذا

كان يعني ذلك أن كل الأرواح التي تأتي إلى العالم السفلي تعود ثانية إلى سطح الأرض، واستفسر عن تلهف هذه الأرواح على الصعود إلى عالم الأحياء. ولما كان أنخيسيس قد انزاحت عن عينيه تلك الغشاوة التي تعمى بصائر البشر، فقد أخذ يشرح لآينياس تلك الأسرار الالهية قائلاً أن كل انسان فيه قبس من روح متوهجة، ويتفاوت مقدار هذا القبس بتفاوت الناس، وان كان معظم هذا القبس الروحاني يخبو ويخمد بسبب بقائه سجيناً داخل الجسد، ومن هذا القبس الالهي وحده يشع كل الخوف، وكل الحب والأمل، وكل الحزن والفرح. وعندما يحضر الموت وتتحرر الروح من براثن الجسد، فإن كثيراً من الأدران التي ابتلي بها الجسد تظل عالقة بالروح (نتيجة انغراسها فيها بطول مقامها في الأرض) فتحملها معها إلى عالم الأطياف. ولقد عذبت الأرواح التي تراها متجمعة متزاحمة في تلهف فوق ضفة «نهر النسيان»، وغسلت ذنوبها بماء فيضان جارف أو طهرت بلهيب النار. وبعد ذلك تأتي الأرواح إلى «الاليزيوم» حيث تقيم إلى أن تزول عنها آخر شائبة من شوائب الأجساد، ولا يتبقى إلا الأرواح صافية خالصة. ولا تصبح الأرواح بعد تطهرها تماما من كل دنس وخطيئة، لا تصبح مهيأة لتتقمص أجساداً أخرى إلا بعد انقضاء ألف سنة أو أكثر. وعلى الأرواح النقية أن تأتي إلى ضفاف «نهر النسيان» تلبية لنداء إلهي، وتشرب من مياهه فتنسى كل حياتها الأولى على الأرض، وتصعد عائدة إلى عالم الأحياء».

وبعدئذ شرع أنخيسيس في التنبوء لآينياس بالأمجاد التي يدخرها المستقبل لأبناء إيطاليا من ذرية دردانوس. وختم نبوءته قائلاً لابنه «فلتتجه بنظرك إلى هناك لترى «قيصر» المسمى «يوليوس» باسم ابنك «بولوس» (والملقب الآن بأسكانيوس)، وترى قيصر أغسطس بن يوليوس الذي سيبدأ عهدا ذهبياً في لاتيوم، وسيحكم شعبه بالرفق، ويأتي، بالسلام المنشود، ويشرع من القوانين ما يكفل العدالة للضعفاء من رعاياه قبل الأقوياء. ولسوف يبسط سلطانه إلى العالم

بأسره، وعلى أفريقيا نفسها والهند، وأقطار البرابرة النائية في الشمال».

وهناك بابان للخروج من عالم الموتى: أحدهما أسود داكن مصنوع من قرن الحيوان، ومن خلاله تمر الأرواح الخالصة النقية صاعدة إلى سطح الأرض لتتقمص أجساداً جديدة. والآخر أبيض ناصع لأنه مصنوع من العاج المصقول ولكنه زائف، إذ لا تمر خلاله سوى اضغاث الأحلام، وسوى الذين جاؤوا في زيارات عابرة إلى عالم الظلام. وقاد أنخيسيس ابنه والكاهنة إلى الباب العاجي، فاجتازاه بسرعة إلى عالم النور والهواء.

وتنفس آينياس الصعداء وشق طريقه مهرولاً إلى حيث كانت سفنه ورفقاؤه. وما أن وصل حتى أمر بإقلاع الأسطول نحو الشمال. وسار بمحاذاة ساحل إيطاليا الغربي ثم ألقى مراسيه في مرفأ هادىء أمين. ونزل آينياس ورجاله في مكان لا يبعد كثيراً عن مصب نهر التيبر في إقليم لاتيوم. وكان المكان قريباً جداً من بلدة تسمى لاورنتوم. وعندما نزل إلى أرض إيطاليا كان قد مضى على مغادرته طروادة سبع سنوات.

نزول آينياس في إيطاليا وحروبه:

كان يسكن اقليم لاتيوم (Latium) شعب يعرف باسم اللاتين (Latini). وكان ملكهم يدعى لاتينوس (Latinus) وعاصمته هي لاورنتوم (Laurentum) وقد بادر آينياس منذ أن حط رحاله هناك إلى انشاء علاقات ودية مع هذا الملك. فأرسل إليه الهدايا. ورحب الملك بآينياس واحتفى برجاله الطرواديين. ولما كانت النبوءة قد أوصت لاتينوس بأن يزوج ابنته لافينيا (Lavinia) من أجنبي يأتي من بلاد بعيدة، فقد رأى في آينياس الرجل المناسب، فقرر أن يصاهره ويزوجه من ابنته مع أن رجلا آخر كان قد تقدم لخطبتها. كان هذا الرجل الآخر هو تورنوس (Turnus)، امير الروتوليين (Rutuli)، وهم

شعب كان يسكن حول مدينة أرديا (Ardea) القريبة من لاورنتوم، على ساحل اقليم لايتوم. وقد ساء الربة جونو مشروع زواج آينياس من لافينيا، لأن هذا الزواج يحقق للطرواديين آمالهم. ولذا سعت إلى عرقلة الزواج وافساد العلاقة بين الطرواديين واللاتين. واثارت في قلب الملكة أماتا (Amata) أم لافينيا الحقد على آينياس والطرواديين، وصورتهم لها كقراصنة يرغبون في اختطاف ابنتها مثلما فعل من قبل باريس الطروادي مع هلينى الاغريقية. وزينت لها جونو أن من الأفضل تزويج ابنتها لتورنوس، أمير الروتوليين ولا سيما أن تورنوس نفسه يرجع نسبه في الأصل إلى جد اغريقي بعيد. وليس في هذا ما يتعارض وما قالت به النبوءة. ولم تقف جونو عند هذا الحد، بل ألهبت حماس تورنوس، واستثارت نخوته، وشجعته على التمسك بخطيبته، وحرضته على مقاتلة خصمه الطروادي الدخيل. هكذا وجد لاتينوس، ملك اللاتين، نفسه مضطراً ازاء ضغط زوجته «أماتا» والحاح تورنوس، إلى السكوت على مضض، إذ كان مسناً فآثر الاعتكاف في قصره تاركاً قومه اللاتين يحالفون الروتوليين ويشنون حرباً شعواء على آينياس وقومه الطرواديين. وقد انضم إلى الفريق الأول أمراء شعوب كثيرة جاءت من مختلف أنحاء ايطاليا.

ولم يجد آينياس هو الآخر مناصاً من البحث عن حالفاء يشدون من أزره ضد هذه القوات الايطالية المتحالفة التي احتشد معظمها على الضفة الأخرى من نهر التيبر، وأوشكت أن تعبر النهر وتنقض عليه في معسكره بالقرب من لاورنتوم. لذلك استنجد بإيفاندر (Evander)[18]، عدو اللاتين، وهو أمير أركادي الأصل، كان قد هاجر قبل الحرب الطروادية من بلاد الاغريق إلى لاتيوم حيث أسس مدينة بللانتيوم (Pallanteum) فوق تل البلاتين، نسبة إلى مدينة بهذا الاسم في موطنه الأصلي[19] وقد استحدث فيها عيدا يسمى لوبركاليا (Lupercalia)، احياء لعيد مقابل له كان يحتفل به أيضاً في موطنه

الأصلي. وذهب آينياس عن طريق النهر إلى ايفاندر في عاصمته لكي يطالب منه النجدة. وفي طريقه إليه وجد فجأة الخنزيرة البيضاء وأولادها الثلاثين فتفاءل بتحقق النبوءة، وارتفعت روحه المعنوية واشتد عزمه. وحصل آينياس عن طريق ايفاندر، الذي احتفى به وعلى مساعدة جيش اتروسكي كان ثائراً مع الشعب على مليكه الظالم ميزنتيوس (Mezentius)، حاكم مدينة أجوللا ـ المسماة كايري (Caere)ـ في اقليم اتروبا. وقد أحرقوا قصره وطردوه من المدينة، فلجأ إلى صديقه تورنوس، ملك الروتوليين. وكانوا يطالبون بشن الحرب على تورنوس ليرغموه على تسليم الملك كي يعاقبوه على جرائمه البشعة. وكان أحد العرّافين قد تنبأ بأن الجيش الاتروسكي الثائر لن يتحقق له النصر إلا إذا تولى قيادته رجل أجنبي. ومن ثم فقد تولى آينياس الطروادي قيادة الاتروسكيين والطرواديين ضد أعدائه الروتوليين واللاتين المتربصين به عبر النهر. وابتهل آينياس إلى أمه فينوس أن تشد من أزره، فألحت على زوجها فولكانوس، إله النار والحدادة، أن يصنع له درعا وأسلحة، فأمر رجاله، في مصنعه الكائن بجوار بركان آيتنا بجزيرة صقلية[20]، أن يعجلوا بصناعة الدرع والأسلحة، وهي أسلحة لا يقدر على مقاومتها تورنوس أو سواه من البشر. وكان وجه الدرع مسنّما برسوم بارزة تمثل مناظر من كل التاريخ الروماني، قديمه ومستقبله.

وصب تورنوس نيرانه على سفن العدو ثم عبر النهر مع حلفائه اللاتين. وحاصروا معسكر الطرواديين أثناء غياب آينياس في بللانتيوم. ودارت معركة عنيفة قتل فيها بعض أقطاب الفريقين. وبادر اسكانيوس بارسال رسل إلى أبيه ليبلغوه خبر هجوم الأعداء وتسلل رجلان إلى داخل معسكر الروتوليين وهم نيام مخمورون وقتلا بعض قوادهم. لكن الأعداء تنبهوا وحاصروا الرجلين وأجهزوا عليهما. ثم اقتحم تورنوس معسكر الطرواديين وحده بعد أن صرع منهم عدداً كبيراً. لكنه حوصر من كل جانب وكاد يفتك به ولم يتمكن من الافلات إلا

بصعوبة. وقفز في النهر وعبره سابحاً وعاد سالما إلى معسكره.

ولما كان هذا القتال قد نشب ضد مشيئة جوبيتر وعلى غير رغبته، فقد دعا بقية الآلهة إلى اجتماع فوق أوليمبوس ليقول لهم «أن الوقت لم يحن بعد لنشوب المعارك في إيطاليا. وسيأتي ذلك الوقت لا محالة. لكن ليس لأي إله منهم أن يعجل به. ولسوف ترسل قرطاجة في يومٍ من الأيام أسطولاً وقائداً مغواراً يقود جيشه عبر الألب ويخرب ايطاليا. ولست أريد أن ينبعث ـ قبل الأوان ـ حقد دفين أو يستل سيف ضد سيف، أو تطلق حربة ضد حربة بين فريق وآخر في ايطاليا». هكذا تكلم كبير الآلهة في اقتضاب. لكن ابنته فينوس[2] وزوجته جونو، تكلمت كل منهما في اسهاب. انبرت فينوس أولاً لتبرير مناصرتها للطرواديين الذين ـ على حد قولها ـ قاسوا الأهوال في الحرب الطروادية. وهجروا مدينتهم بعد احتراقها. وخاطروا بأنفسهم في البحر، ولم يبلغوا سواحل إيطاليا إلا بشق الأنفس لكي يجدوا لهم مأوى ويؤسسوا طروادة أخرى. وانبرت جونو للرد عليها منددة بمسلكها المشين، ومبررة ـ هي الأخرى ـ مناصرتها للايطاليين، ومناهضتها للطرواديين وملكهم آينياس الذي تخلى في نذالة عن «ديدو» بعد أن أوقعتها فينوس نفسها في حبه. إذ تواطأت ربة الحب والجمال مع ابنها الماكر «كوبيدو» على ذلك حتى لم تعد ديدو بقادرة على فراق الطروادي. لكنه غدر بها وهجرها في قسوة مما دفع بالملكة القرطاجية البائسة إلى الانتحار. ثم أليس من حق الايطاليين الدفاع عن أراضيهم ضد الغزاة الأجانب الغاصبين؟ وإذا كان آينياس قد جاء إلى لاتيوم تلبية لهاتف من السماء أو استجابة لنداء «القدر»، وتحقيقا لنبوءة المتنبئين، فهل هذا يخوله الحق في أن يأخذ خطيبة رجل آخر؟ أن لافينيا التي يطمع فيها الأمير الطروادي، كانت مخطوبة لتورنوس. فمنذ متى أصبح العريس مذنباً إذا هو أشهر السيف في وجه الوفد المتسلل الذي يريد أن يسلبه عروسه؟ وعلى أي حال فإن الآلهة لم تضن من قبل على الطرواديين بالمساعدة. ألم يخرج بهم آينياس سالمين من أتون طروادة

المشتعلة؟ ألم يتدخل بعض الآلهة لانقاذ سفن آينياس من نيران الروتوليين وبدلت أشكإلها فبدت كحوريات البحر بقصد اخفائها عن أعين أعدائه. فأي غرابة اذن في أن أقدم العون لتورنوس الايطالي؟ ومضت جونو تنهال على فينوس لوما وتقريعا. قالت «ومن التي تسببت في اندلاع الحرب بين الاغريق والطرواديين؟ ألست أنت يا فينوس التي حرضت باريس، ذلك الطروادي الآخر، سارق الزوجات، على اختطاف هليني مما أدى إلى سيلان الدم أنهاراً فوق سهل طروادة؟ كان ينبغي أن تعلمي إلى أين يقودك طيشك الآثم، ارحلي إلى بافوس أو إداليا أو كيثيرا[22]. وارفعي يديك الناعمتين عن لعبة، الحرب الخشنة. وإلا فقد تصابين مرة أخرى بخدش في ذراعك البض كالذي أصابك به في الحرب الطروادية آدميّ كافر لم يعرف قدر ألوهيتك ولم يسلب لبّه جمالك[23].

وانقسم الالهة فريقين أحدهما مؤيد لفينوس والآخر مؤيد لجونو. لكن جوبيتر حسم الحوار قائلاً أنه سوف لا يتدخل لمساعدة الايطاليين أو الطرواديين، تاركاً كل فريق لقدره ومصيره وسوف لا يحابي أحدهما على حساب الآخر. ودعا بقية الآلهة إلى الاقتداء به وعدم التفرقة في المعاملة. وحذرهم من مغبة عصيان أمره. وختم حديثه بتلك الايماءة من رأسه الذي كان يهتز له كل جبل أوليمبوس.

واستؤنف القتال من جديد بعد عودة تورنوس والايطاليين واللاتين إلى مهاجمة معسكر الطرواديين وحلفائهم الأركاديين. واتفق أن عاد أيضاً آينياس على رأس ثلاثين سفينة ومعه قوات الاتروسكيين بقيادة زعيمها تارخون (Tarchon). وجرت اشتباكات دامية، ومبارزة حامية لقى فيها الفتى الشجاع بلللاس (Pallas) ـ بن ايفاندر[24] ـ حتفه على يد تورنوس، أمير الروتوليين. وقد بكاه آينياس ورثاه، وندبته النساء، خافضات رؤوسهن منتحبات، وضاربات صدورهن بقبضات أيديهن، تاركات شعورهن الطولية تتطاير مع الهواء. وأقيمت له الطقوس الجنائزية اللائقة. وأما أبوه العجوز فقد ألقى بنفسه فوق

نعشه، واستحلف آينياس بالثأر لابنه من تورنوس. وقد خفف من وقع المصيبة أن آينياس صرع بدوره ميزنتيوس البغيض، ملك الاتروسكيين الطريد، الذي توسل إلى قاتله قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، ألا يمثل بجثته وأن يواريها التراب حتى لا تتعرض لتنكيل شعبه بها.

وفي ذلك الوقت جدت ظروف ساعدت على التقارب وعودة المياه إلى مجاريها بين الطرواديين واللاتين. وقد جاء إلى معسكر آينياس رسل من قبل لاتينوس حاملين أغصان الزيتون يلتمسون عقد هدنة لدفن الموتى. واستجاب آينياس إلى طلبهم. وانتهز المناسبة وحملهم بدوره رسالة إلى ملكهم يذكره فيها بما كان بينهما من علاقات طيبة غداة نزوله بأرض لاتيوم. وكان لهذه الرسالة تأثيرها وبخاصة أن الشعب اللاتيني كان يموج بالتذمر من كثرة قتلاه وبدأ يلعن الحرب ويلقى تبعتها على تورنوس الذي جرهم إليها. وثمة عامل آخر ساعد على جنوح اللاتين إلى السلم وسعيهم إلى التقارب من الطرواديين. إذ طلبوا المساعدة من ديوميديس، ملك مدينة أربي (Arpi) الاغريقي الأصل. لكنه اعتذر من مساعدتهم ضد الطرواديين ذاكراً بأنه ـ على الرغم من عداوته القديمة للطرواديين وقتاله ضدهم عند طروادة ـ إلا أنه لم يعد يحقد عليهم بعد أن نهبت مدينتهم واحترقت وشردوا منها. بل إن ديوميديس حذر اللاتين من مغبة مناصبة الطرواديين العداء، وذكرهم بالكوارث التي حلت بمعظم أبطال الاغريق بعد عودتهم من حرب طروادة: أجاممنون وكيف لقي مصرعه فور عودته على يد زوجته المتواطئة مع عشيقها، وأخيه منلاوس الذي ضل طريقه في البحر وعاش طريداً في مصر ثماني سنوات. ثم أوليسيس (أوديسيوس) الذي هام في البحر على وجهه عشر سنوات وفقد سفنه وكل رفاقه قبل أن يعود إلى موطنه «إثاكا» ليجد ثروته مبددة، وقصره محتلاً بشرذمة من النبلاء العشاق وزوجته محاصرة بعيونهم الوقحة، وابنه مهددا بالخطر من جانب هؤلاء الأوغاد. ثم بيروس

(نيوبطوليموس) بن أخيل، الذي قيل أنه قتل مطعوناً بخنجر أمام الهيكل[25]. وأخيراً دومينيوس الكريتي، حليف الاغريق، الذي فاجأته أثناء عودته في البحر عاصفة فنذر أن يقدم ابنه قربانا لبوسيدون، إله البحر، لو نجا من الخطر. فلما بلغ كريت انتشر فيها طاعون فنفاه أهل الجزيرة فلجأ إلى جنوب ايطاليا. وذكرهم ديوميديس بما حدث له قائلاً «وماذا عن نفسي؟» أنا الذي حرمتني السماء من رؤية وطني[26]، والالتقاء بزوجتي الحبيبة. ومسخ رفاقي سربا من الطيور التي تحلق في أجواء الفضاء أو تحط على ضفاف الأنهار القصية أو تحوّم حول الجزر الصخرية في وسط اليمّ وهي تصرخ صرخات حزينة. ذلك هو الجزاء الذي لقيته عقابا لي على الجرح الذي أصيبت به فينوس في ذراعها من سهم أطلقته عليها بسهل طروادة. كم كنت مجنونا إذ تجرأت على ذلك: أنصحكم ـ أيها اللاتين ـ بالجنوح إلى السلم وعقد الصلح مع آينياس فهو محارب عظيم. وليس هناك من هو أعلم به مني. لقد بارزته أمام أسوار طروادة وإني لأشهد بمهارته وقوته وان كان أبوللون وفينوس يقفان دائماً إلى جانبه ويشدان من أزره ويدفعان عنه السوء. لقد كان آينياس هو وهكتور كالدرع الواقي أو الحصن المنيع الذي حال دون انتصار الاغريق عشر سنوات. اذهبوا إذن ـ يا أبناء لاتيوم ـ إلى ملككم لاتينوس وبلغوه نصيحتي بضرورة انضمامكم إلى الطرواديين. وسترون كيف تزداد قوتكم وبعدئذ تذعن لكم آفاق الأرض جميعاً، وتبلغ شهرتكم عنان السماء».

ودعا الملك لاتينوس شعبه إلى اجتماع تحدث فيه محبذا التحالف مع آينياس والطرواديين، والتنازل لهم عن رقعة فسيحة من الأرض الخصبة ذات تلال منخفضة، ومليئة بالغابات الكثيفة والمراعي الغنية. هذا إذا شاؤوا أن يعيشوا هنا في سلام ويتعاونوا مع اللاتين في بناء أمة مزدوجة السلالة. أما إذا آثروا الرحيل إلى مكان آخر وراء البحر، فلا بأس من أن نمدهم بعشرين سفينة مصنوعة من خشب البلوط الايطالي المتين، ونزودهم بهدايا من الذهب والعاج، وغيرها من

الهدايا التي تليق بأصلهم العريق ونسبهم الملكي. وما أن فرغ لاتينوس من كلامه حتى وقف زعيم لاتيني والتمس من الملك أن يضيف إلى مآثره مأثرة أخرى وهي أن يهب ابنته «لافينيا» لآينياس لتكون زوجة له. وختم كلامه مناشداً تورنوس، أمير الروتوليين، أن يتنازل عن حقه، حقنا للدماء، لأن لافينيا، وان لم يكن لها ذنب، إلا أنها ـ مثل هليني الاغريقية ـ سبب كل البلاء!

لكن تورنوس استاء من ذلك أشد الاستياء وهب مغضبا وانهال على هذا الزعيم اللاتيني بالسباب، واتهمه بسلاطة اللسان على حين أنه في الحرب جبان، «وما أقسى لذعات كلامه وأهون ضربات حسامه! وأخذ يستفز القوم جميعاً إلى القتال، وذكرهم بأن لهم أيضاً حلفاء كثيرين، وفي مقدمتهم كاميللا (Camilla)، ملكة الفولسكيين البواسل وجيشها من النساء الفارسات الضاربات[27]. ثم فاجأ تورنوس الجمع المحتشد باستعداده لمنازلة آينياس في مبارزة فردية على الرغم من ادراكه بأن البطل الطروادي لا يقل ضراوة عن أخيل نفسه، ويتسلح مثله بدرع من صنع الإله فولكانوس. ثم وجه الكلام للملك لاتينوس قائلاً «لسوف أنازله من أجل ابنتك، خطيبتي التي يربطها بي عهد وميثاق». وبينما كان الجدل محتدماً بين اللاتين والاتروسكيين جاء رسول ينادي بأن آينياس يزحف على المدينة (لاورنتوم). وساد الهرج والمرج. ودار قتال عنيف أبلى فيه «تارخون» الاتروسكي بلاء حسنا، وقتل فيه اتروسكي آخر «كاميللا» ملكة الفولسكيين الشرسة. ورجحت كفة آينياس وحلفائه على تورنوس والروتوليين واللاتين.

وأخيراً تم الاتفاق على المبارزة الفردية بين آينياس وتورنوس على أن يظفر المنتصر بيد «لافينيا». ومع أن أباها حذر تورنوس من خطورة خصمه، ونصحه بالعدول عن المخاطرة، والجنوح إلى السلم، والتصالح مع الطرواديين، إلا أن الأمير الروتولي ركب رأسه. وحاولت «أماتا» نفسها أن تثنيه عن عزمه حتى لا يلقى حتفه، فيظفر خصمه آينياس بابنتها زوجة له. وهو ما لا تطيقه، لأن الموت

ـ كما قالت ـ أحب إليها من مصاهرته واعتباره ابنا لها. لكن تورنوس أصر على موقفه في عناد. وتمت مراسم تقديم القرابين قبل المبارزة بحضور الخصمين. وقام كاهن بذبح خنزير بري صغير، ونحر خروفا عمره سنتان، ووضع الأضاحي بجانب المذابح المقدسة المعمقة بالدخان. وبعدئذ قام الأميران، آينياس الطروادي وتورنوس الروتولي، برش الدقيق المملح فوق الهياكل المقدسة، واستل كل منهما مدية جز بها الشعر من جباه الذبائح وألقى به في النار المقدسة. وبعدئذ سكبا النبيذ من كؤوس ذهبية على الأرض. وعندئذ رفع آينياس سيفه، ناظراً إلى السماء وقال مبتهلاً ألا فلتشهدي أيتها الشمس والأرض، وأنت يا جوبيتر، الإله القادر على كل شيء، وأنت يا جونو يا ملكة السماء التي أدعوك أن تنزعي أخيراً من قلبك ذلك الحقد الدفين الذي تكنينه لي ولشعبي منذ سنوات طويلة. وأنت أيضاً يا «مارس» الجبار، الذي يبتهج لسماع صليل السيوف، ولتشهدي أيتها الينابيع، والأنهار والجداول، وكل قوى السماء العالية، والبحر العميق، اسمعوا جميعاً قسمي المقدس: إذا غلبني تورنوس، أمير الروتوليين، بمحض الصدفة النادرة، فإن الطرواديين متفقون على الرحيل عن هذا البلد، والذهاب تحت قيادة اسكانيوس، ابني الصغير، إلى مدينة ايغاندر (بللانتيوم). لكن إذا كسبت المبارزة التي لا يساورني سوى شك ضئيل في أنني سأكسبها ـ فإنني لن أعامل الايطاليين كمنهزمين فأتعسف معهم أو أكبلهم كالعادة بالأغلال أو أخضعهم لشتى القيود. لسوف أدعهم يعبدون الهتهم ويمارسون عاداتهم القديمة. وسنفعل نحن الطرواديين نفس الشيء. ولسوف يندمج ـ إن شاءت السماء ـ الشعب اللاتيني في الشعب الطروادي على قدم المساواة ويصيران أمة واحدة، ويعقدان لهذا الغرض معاهدة أبدية. إنني لا أطمع في حكم هذه المملكة. ليبقَ لاتينوس ملكا كما هو. سيكون مولأي لأن «لافينيا» ستكون زوجتي. وسوف تسمى مدينة لاورنتوم منذ الآن لافينيوم (Lavinium) نسبة إليها. وأمن لاتينوس على كلام آينياس

مؤكداً بأن المعاهدة أبدية، وأنه ليس في الوجود قوة ستجعله يعدل عن موقفه أو تثنيه عن عزمه، وأنه بانتصار آينياس على غريمه سيبقى الميثاق كرباط متين بين شعبه اللاتيني والشعب الطروادي.

لكن القلق بدأ يساور الروتوليين. من أن أميرهم تورنوس قد لا يكون ندا لآينياس، بل أن بعضهم كان يعتقد أنه لا محالة هنالك في المبارزة. وقلقت «جونو» أيضاً ادراكها بأنها لن تستطيع انقاذ تورنوس من مصيره المحتوم لو التقى بالأمير الطروادي. لذلك سعت جاهدة إلى تعكير الجو بخرق الاتفاقية ونقض الميثاق بين الطرفين حتى لا تتم المبارزة. فزينت لبعض الروتوليين الغدر بآينياس وقتله أو قتل أي زعيم آخر من حلفائه الآركاديين أو الاتروسكيين. وتم لجونو ما ارادت فأطلق تورنوس سهما اصاب به زعيما أركاديا فسقط يتضرج في دمائه. واثار انتهاك الاتفاقية على هذا النحو غضب الطرواديين وحلفائهم الاتروسكيين والأركاديين وحتى بعض اللاتين، فنادوا جميعاً ببطلان المعاهدة، واعتبارها ملغاة، وخربوا الهياكل، وطوحوا بما فيها من مقدسات وأضرموا فيها النيران. وأسقط في يد لاتينوس فلاذ بالفرار حاملا معه آلهة أسرته. ونظر آينياس في رعب إلى ما حدث من تدنيس للمعابد. وتقدم وحده نحو الأمام عاري الراس، مجردا من السلاح، محاولا رتق الخرق الذي مزق الهدنة ورأب الصدع الذي اصاب المعاهدة. وبينما كان يسعى لإصلاح ما فسد أطلق أحد الروتوليين سهما أصابه بجرح بالغ فسقط على الأرض مغشيا عليه يتأوه من الألم. وبادر رفاقه بنقله على عجل من ساحة القتال قبل أن يقع أسيراً في يد الايطاليين. وتمت معالجته بأعشاب طبية ورحيق بعض أزهار نادرة (أحضرتها فينوس من كريت). وسرعان ما تماثل للشفاء ثم عاد سليما إلى المعركة.

ولم يجد آينياس ـ بعد ما حدث ـ مناصاً من مقاتلة أعدائه حتى النهاية واتهم لاتينوس بالخيانة. وقرر مهاجمته في مدينته لاورنتوم التي انقسم أهلها على

أنفسهم: فريق ينادي بهدم أسوار المدينة وفتح أبوابها لآينياس الطروادي، وفريق ينادي بمقاومته وصده. وعم الاضطراب في المدينة وسادها الهلع. وأطلت الملكة «أماتا» من شرفة القصر فهالها أن ترى ألسنة النار متصاعدة من كل ركن، بينما الجيش الطروادي يطبق على المدينة من كل جانب. ولم تجد أثراً لتورنوس فظنت أنه قد لقي مصرعه، وتملكها الذعر فمزقت رداءها الملكي وتعالى صراخها واجتاحها شعور بالاثم والندم إذ اعتبرت نفسها سبب المصائب التي نزلت بقومها، فشنقت نفسها. وعندئذ دعا تورنوس جنوده إلى وقف القتال. لقد استقر عزمه أخيراً على تنفيذ الاتفاقية وحسم النزاع بمبارزة آينياس وحده. رحب آينياس بالتحدي ونزل لملاقاته.

وأطل جوبيتر على المساحة وقد أمسك بميزان كان في احدى كفتيه قدر آينياس وفي الأخرى قدر تورنوس. وكان وحده يعلم أي الكفتين ستثقل بالموت، وأيهما ستخف بالحياة. واستدار إلى زوجته جونو وأمرها بالكف عن مكائدها والتخلص من أحقادها. وحذرها من التدخل وإلا صب عليها جام غضبه. لكنها سالته شيئاً واحداً قائله «عندما يرتبط آينياس بلافينيا برباط الزواج المقدس، وتتحد الأمتان تبعاً لذلك وتعيشان في سلام، فرجائي إليك أن لا يغير اللاتين اسمهم القديم، أو لغتهم، ولا زيهم أو عاداتهم. ولا تدع الجنس اللاتيني يفنى في الجنس الطروادي فيندثر ويصبح صيته أثراً بعد عين. ولتدع أمة اللاتين العظيمة تحيا إلى الأبد. ولتمح لغة وثقافة، الآخرين. ولنعمل على تلقيح الأغصان اللاتينية بالجذع الطروادي القديم، على أن تحجب الأغصان الجذع. ومن ثم ينبت غرس ليعرفه الناس جميعاً باسم «الرومان». وابتسم زيوس لزوجته، وهي إمرأة قوية الشكيمة، واعداً بتحقيق رغبتها في أن يذوب الجنس الطروادي في الجنس الايطالي الأكثر عدداً، وأن تنمحي لغة الطرواديين، ويطوي النسيان حتى اسمهم وصيتهم، ولن يتردد ذكرهم إلا في قصائد الشعراء وأغاني المنشدين. غير أن الدم

الايطالي سيثرى من امتزاجه بدم الجنس الآخر. ولن يكون هناك شعب أكثر ورعا وتقى نحو الآلهة من السلالة المتولدة: الشعب الروماني.

واشتبك البطلان آينياس الطروادي وتورنوس الروتولي في مبارزة عنيفة انتهت بانتصار آينياس الذي أصاب خصمه بحربته فترنح ثم هوى على الأرض. ولم يطلب تورنوس الرحمة بل طلب أن تسلم جثته ـ بعد موته ـ إلى ذويه لكي يواروها التراب. وكاد قلب آينياس الكبير يلين ويعفو عنه لولا أنه تذكر أن تورنوس لم يرحم الفتى بللاس بن إيفاندر، فتقدم نحوه وطعنه بالسيف الطعنة القاتلة. وهنا تنتهي الآينيادة

ويمدنا المؤرخون والشعراء وغيرهم من الكتاب بتكملة لقصة آينياس فيقولون:

تزوج آينياس ـ بعد انتصاره ـ لافينيا، بنت لاتينوس. وعقد مع اللاتين معاهدة سخية الشروط تنص على أن يحتفظوا باسمهم وعاداتهم، مع التزامهم بعبارة «البيناتيس» وهي آلهة بيت آينياس المتوارثة، وممارسة الشعائر المقدسة التي أحضرها معه. وأعاد آينياس تأسيس مدينة لاورنتوم وسماها «لافينيوم» نسبة إلى زوجته. وحدث بعد ثلاث سنوات أن نشبت معركة بينه وبين خصومه. وفي أثناء المعركة اختفى آينياس بطريقة غامضة. ومن ثم فقد رفعه قومه إلى مصاف الآلهة وعبدوه باسم «جوبيتر انديجيس» (Jupiter Indiges)[28].

مغزى الأساطير في قصة آينياس:

وهنا نتوقف لحظة لنستعرض مغزى بعض الأساطير التي اقتضى سرد القصة عدم التوقف لتفسير دلالتها التاريخية.

لقد ذكرت أن آينياس نزل أول منزل بموقع متاخم لمدينة لاورنتوم

(Laurentum) وفي أكبر الظن أنه لم توجد أبداً ـ على عكس ما يعتقد بعض الباحثين ـ مدينة بهذا الاسم. وذكرت أيضاً أنه أسس بالقرب من المكان الذي نزل فيه مدينة باسم لافينيوم (Lavinium). وترتبط قصة التأسيس هذه ببعض حقائق ونظريات متصلة بالعبادة الرومانية. ذلك أن مدينة لافينيوم[29]، التي يسمى سكانها باللاورنتين (Laurentes)[30]، كانت منذ اقدم العصور مركزاً دينياً هاماً في لاتيوم إذ نشأ فيها معبد لفينوس (Venus) كان يحج إليه كل اللاتين. كذلك نشأت فيها عبادة للآلهة المسماة بيناتيس (Penates). وقد اعتاد الحكام الرومان ـ في العصر التاريخي ـ القيام ببعض شعائر تقليدية قديمة تمجيداً لفستا والبيناتيس في هذه المدينة. وليس هناك شك في أن فستا كانت في الأصل تمثل روح الموقد في قصر الملك، وأن البيناتيس كانت هي الأرواح الحارسة لغرفة خزن المؤونة في البيت. لكن بمرور الزمن اكتسبت هذه الآلهة المنزلية أو العائلية الصغيرة أهمية أكبر وأصبحت ـ على المستوى الرسمي العام ـ تجسيداً لحظ الدولة الرومانية ورمزاً لتوفيقها. وبالاضافة إلى ذلك فإن خيال كتّاب الأساطير قد ربط بين البيناتيس كآلهة رسمية في روما بعبادات لافينيوم من ناحية، ومن ناحية أخرى بالكابيري (Cabiri) وهي آلهة طراقية أو بالأحرى من جزيرة «سامو طراقيا». ومن المعروف أنه كانت هناك علاقة تقليدية بين طروادة وساموطراقيا. ولذلك كان من الطبيعي أن يجعل أحد كتاب الأساطير المتأخرين، بطلا طروادياً كآينياس يمر في رحلته بطراقيا ويُدخل إلى إيطاليا عبادة «الكابيري» أي عبادة «البيناتيس».

ولعل معجزة الخنزيرة البيضاء قصة محلية صحيحة على الأقل في الأصل. ومن العسير الآن أن نتقصى منشآها. غير أن عدد أولادها الثلاثين يتفق تقريباً مع العدد المتواتر عن عدد مدن «العصبة اللاتينية». وأما الملك لاتينوس فهو شخصية قديمة قدم الشاعر الاغريقي هيسيود (حوالي 700 ق.م. أو قبله). ويختلق له فرجيل شجرة نسب غريبة تبدأ بالإله «ساتورنوس» ثم «بيكوس» ثم «فاونوس»،

وكلها آلهة ايطالية صغيرة، وأهمها ساتورنوس. وأما بيكوس (Picus) فهو «ناقر الخشب»، الحيوان المقدس للإله مارس. وكان فاونوس ـ على نحو ما ذكرنا ـ نوعاً من الجن الذين نشأت حولهم عبادة ضئيلة الشأن وبعض خزعبلات شائقة. ومن الواضح أن الرومان تأثروا بالنظرية اليونانية القائلة بأن الالهة كانوا في الأصل بشرا[31]، ملوكا أو أبطالا قاموا بأعمال مجيدة أو أدوا خدمات جليلة ومن ثم عبدهم الناس ـ اعترافا بفضلهم ورفعوهم إلى مصاف الألوهية. ولذلك نجدهم يجعلون من معظم هؤلاء الآلهة الصغار ملوكا قدامى للقبائل الايطالية. وأما عن بقية قصة حروب آينياس في إيطاليا فليس لها أي أساس تاريخي أو غير تاريخي. ومن ثم فإنها تروى بطرق مختلفة، ويكيّفها كل كاتب حسب هواه. هكذا يظهر الملك «لاتينوس» أحياناً كحليف لآينياس، وأحياناً أخرى كعدو لدود له. وينسب تأسيس روما تارة إلى أحفاد «لاتينوس» وتارة أخرى إلى أحفاد آينياس (وإن كان زواج البطل الطروادي من لافينيا، ابنة هذا الملك يزيل التناقض).

ولعل فرجيل اختلق أيضاً قصة طرد ميزنتيوس، ملك «كايري»، الاتروسكي، من مملكته بسبب طغيانه وقسوته مع شعبه. أم هي اشارة إلى الرواية التاريخية التي تتحدث عن طرد تاركوينيوس «المتغطرس»، لأتروسكي، آخر ملوك روما السبعة (عام 510)؟ كذلك نسج خيإله شخصية البطلة «كاميللا» ملكة الفولسكيين، التي خاضت ـ على رأس فرقتها المحاربة المؤلفة من زميلاتها الفارسات ضد آينياس والطرواديين. وفي الحق أن فرجيل قد تأثر في هذه القصة بما يرويه هوميروس في الالياذة عن «الأمازونات» هؤلاء النسوة المسترجلات الشرسات وملكتهن «بنثيسيليا» التي صرعها أخيل في الحرب الطروادية.

ومع أن «ايفاندروس» أو «ايفاندر» شخصية مصطنعة كأي شخصية أخرى في قصة آينياس، إلا أنها على جانب من الأهمية توضح لنا تطور هذا النوع من القصص البطولية الزائفة أو المنتحلة. كان «ايفاندر ـ على ما نحو روينا ـ

أميرا أركادي الأصل هاجر قبل الحرب الطروادية إلى إيطاليا على رأس جماعة من بني قومه الاغريق وأسس مستعمرة في الموضع الذي نشأت فيه روما بعد ذلك. ونستطيع أن نتبين بسهولة سبب اختلاف هذه الحادثة. ففي المقام الأول، كان يوجد في روما (اثناء عصرها التاريخي) عيد اسمه «لوبركاليا» (Lupercalia). وقد بحث الرومان ـ كعادتهم ـ عن تفسير لأصل هذا العيد في طقوس العبادة الاغريقية. وكان العيد الوحيد المناظر له ـ كما خطر في أذهان الكتاب الرومان والمفكرين اليونان ـ هو عيد «ليكايا» (Lycaea) الأركادي، وهو عيد يرجح أن اسمه مشتق (أو شبيه) من كلمة ليكوس (Lukus) اليونانية بمعنى «الذئب» أي مثل «لوبركاليا» المشتقة (أو الشبيهة) بدورها من كلمة «لوبوس» (Lupus) اللاتينية بمعنى «الذئب». وكان العيد الأول (اليوناني) مرتبطاً بالإله «بان»، وهو جان في الغابات، وعلى ذلك فقد ربط الرومان عيدهم بالإله «فاونوس»، وهو أيضاً جان في الغابات، كان من المعتقد أنه مناظر للإله «بان» اليوناني[32]. إذا أضفنا إلى ذلك الاعتقاد الذي كان سائداً بوجود عنصر اغريقي قوي في روما، فإن الاستنتاج يصبح واضحاً وهو: مجيء بعض مهاجرين من بلاد الاغريق (كأركاديا) إلى روما في وقت ما. ولو كانت هناك حاجة إلى دليل آخر، فإليك هذا الدليل: أن اسم تل البلاتين، أحد تلال روما السبعة، قد أوحى إلى أذهان اللغويين القدامى باسم البطل الاركادي بللاس، ومدينة بللانتيوم (Pallanteum) الأركادية. ولعل اسم «ايفاندروس» نفسه قد اخترع لكي يتفق وبقية النظرية. ذلك أن هذا الاسم يؤدي في اليونانية معنى «الرجل القوي»، وهو اسم وجد أنه ملائم لأقدم مستوطن في روما التي تصادف أن اسمها «رومه» (Rômé) يؤدي في اليونانية معنى «القوة».

هكذا نجد المتشابهات الكثيرة بين اللغتين اللاتينية واليونانية التي لاحظها بحق علماء اللغة القدماء، وغيرها من المتشابهات التي تصورها خيالهم، قد فسرت

بأنها نتيجة لمجيء جماعة من الأركاديين الاغريق إلى إيطاليا حاملين معهم شعائر الإله «بان»، والأبجدية اليونانية (الخالكيديكية)[33] التي اقتبسها الرومان، ثم نقلها عنهم الأوربيون واستعملوها لكتابة لغاتهم الحديثة. وأما قصة آينياس وأتباعه فقد اختلقت لكي تعلل تعليلاً وجيهاً كيف أن الرومان لم يكونوا يونانيين تماماً في اللغة أو في أساليب المعيشة، وكيف أنهم أخذوا بعبادة «البيناتيس» التي يزعم أنها آلهة طروادية. ولم يبق سوى تلفيق شجرة من النسب بحيث تجمع بين العناصر اليونانية وغير اليونانية. ولم يكن ذلك بالأمر العسير. فمثلما أسس كورنثة ـ وفقا لكتاب الأساطير اليونان ـ رجل يدعى «كورنثوس»، وأسس طروادة ملك يدعى «طروس» وإيطاليا نفسها جد قديم يدعى «ايطالوس»، فلا بد أن روما نفسها قد أسسها أما آينياس نفسه أو بالأحرى ابن له يدعى «روموس» أو سميت كذلك نسبة إلى فتاة تدعى «رومه» (زعم أنها بنت لاتينوس)، ثم أضاف الكتاب الرومان إضافة من عندهم فنسبوا تأسيس روما إلى روميلوس (Romulus)، سليل آينياس، وهو لفظ معناه «روماني»، وهو متفرع من لفظ رومانوس (Romanus) المشتق بدوره من إسم «روما» نفسه[34]. ولم تنشأ الصعوبة إلا عندما بدأ القدماء يحاولون إيجاد تاريخ لتأسيس المدينة.

إن آينياس نفسه شخصية يمكن تأريخ زمانها. فقد كانت هناك نظرية أو رأي خرج به علماء مدرسة الاسكندرية اليونان (في عصر البطالمة) الذين توفروا على دراسة علم الأنساب، رأي يقول أن طروادة سقطت ـ وفقا للحساب الحديث ـ حوالى عام 1184 ق.م. (أي في أوائل القرن الثاني عشر ق.م) على حين أن علماء التقويم الرومان جعلوا تاريخ تأسيس روما يقع عند حوالي 753 ق.م وهو تاريخ لم يكن ثابتاً أو محدداً في البداية ولو أنه كان يتراوح بين تواريخ كلها تقريباً في القرن الثامن قبل الميلاد. وعلى ذلك فإن آينياس لا يمكن بأي حال أن يكون قد أسس روما لأن زمنه يسبق زمن تأسيس روما بحوالي أربعة أو خمسة قرون. وكان لا بد

من ملء الثغرة الزمنية بطريقة ما. ولم يكن هذا ايضاً بالأمر العسير. وسرعان ما ابتدعت سلسلة من الملوك بين آينياس ورروميلوس. وقد حقق ذلك مطلباً آخر أو حل مشكلة أخرى. ذلك أن ألبا لونجا (Alba Longa) (التي تقع عند جبل ألبا في لاتيوم على بعد نحو 12 ميلاً في الجنوب الشرقي من موقع روما) كانت مدينة قديمة جداً نشأت حوالي منتصف القرن الثاني عشر ق.م. وكانت ـ وفقاً لرواية قديمة راسخة ـ زعيمة «للعصبة اللاتينية» (وهو الاتحاد القديم الذي تزعمته روما فيما بعد)[35]. وعلى ذلك فقد كان من المعقول (وربما كان صحيحاً أيضاً من الناحية التاريخية) أن يفترض بأن روما كانت احدى مستعمرات «ألبالونجا»، أو احدى مخافرها الأمامية في الشمال على نهر التيبر. ومن ثم فقد اختلقت ـ على نحو ما ذكرت ـ سلسلة من ملوك ألبا لونجا لسد الفجوة الزمنية ما بين آينياس وروميلوس.

هوامش ومراجع الفصل الخامس

1 ـ كان حوض البو (سهل لومبارديا) يسمى باسم غالة التي هي على الجانب القريب من الألب (Gallia Cisalpina)، أي «غالة القريبة»، تمييزاً لها عن «غالة التي هي على الجانب الآخر من الألب»، أي «غالة عبر الألب»، أو «غالة البعيدة»، والتي سماها الرومان أيضاً «غالة الناربونية»، نسبة إلى مدينة ناربو قرب البرانس.

2 ـ في الحق أن فرجيل ولد ببلدة قريبة من مانتوا اسمها أنديس (Andes).

3 ـ هذا هو اسم الملحمة في اللاتينية (آينيس). لكنها تعرف عادة «بالآينيادة»

4 ـ مثل أركتينوس (Arctinus) الذي تنسب إليه قصة الآيثيوبيس (Aethiopis) وبرسيس Persis (أي تدمير طروادة). ومعنى الحلقة الملحمية، أنها قصص تدور كلها في فلك ملحمة الألياذة، والحرب الطروادية.

5 ـ كانت ديلوس هي جزيرة أبوللون المقدسة حيث ولد هذا الإله وأخته التوأم أرتميس، ربة الصيد. وكان أبوللون يقف إلى جانب الطرواديين ضد الاغريق في الحرب الطروادية. وأما عن كريت فإن بعض الروايات تنسب إليها دردانوس (Dardanus)، أحد الأجداد الأول للطرواديين حتى

أنهم يسمون «أحياناً» ببني دردانوس.

6 ـ من أمثال هللانيكوس الملطى Hellanicus (القرن الخامس ق.م)، وتيمايوس الصقلي Timaeus (القرن الرابع ق.م)، وديونيسيوس إلها ليكرناسي Dionysius Halicarnassius (30 ق.م ـ 8 ق.م).

7 ـ وهو ستيسيخوروس (Stesichorus) الشاعر الغنائي الصقلي.

8 ـ لم يكن هناك اتفاق قديماً على تاريخ ثابت لتأسيس روما إذ كان يتأرجح بين 753، 729 ق.م. ولم يتفق على تاريخ ثابت وهو 753 ق.م إلا منذ القرن الثالث ق.م.

9 ـ لاحظ أنيوس وغيره من الكتاب أن آينياس الذي عاصر الحرب الطروادية (حوالي 1200 ق.م). لا يمكن أن يكون مؤسساً لروما (في القرن الثامن ق.م). ولذلك وجدوا أن المنطق والتسلسل الزمني يحتم أن يكون واحد من ذريته، مثل روميلوس (Romulus)، هو مؤسس المدينة.

10 ـ وجونو ـ كما سبق (ص 49) هي هيرا، زوجة زيوس، التي حقدت على الطرواديين لأن باريس (Paris) ابن ملك طروادة، كان قد حكم باعطاء التفاحة الذهبية لأفروديتى (= فينوس)، بمعنى أن افروديتى هي الأجمل.

11 ـ اسم ملكارت هو اختصار «ملك كرت» أي ملك القرية أو المدينة.

12ـ لا يستبعد أن «ديدو» أيضاً كانت الهة. وكذلك كانت اختها التي يسميها الرومان «أنا» (Anna)، وربما هذا تعريف لاسم الربة «عنت» الرقية.

13 ـ لاحظ أن كلمة bursa في اليونانية معناها «جلد الثور».

14 ـ أو Carthago. وتقع قرطاجنة على بعد حوالي 12 ميلاً إلى الشرق من مدينة تونس الحالية.

15 ـ هذا الاحتفال الرياضي الجنائزي مقتبس من نظيره في ألياذة هوميروس.

16 ـ كرماي هي أقدم مستعمرة أسسها الاغريق في جنوب غرب إيطاليا على ساحل كمبانيا (750 ـ 725). وكان أهلها هم الذين أسسوا مدينة نيابوليس (نابلي) بالقرب منها. كذلك أسسوا (حوالي 520 ق.م) مدينة ديكايارحيا (Dicnaerchiaia) التي اشتهرت باسم بوتيولي Putaali (على بعد ستة أميال غرب نابلي) واشتهرت كميناء تحاري في القرن الأخير من عصر الجمهورية وخلال عصر الامبراطورية.

17 ـ باروس (Paros) جزيرة في البحر الايجي اشتهرت بوفرة الرخام.

18 ـ الاسم في اليونانية (Euandros) وينطق «براندروس» وفي اللاتينية (Euander) وينطق «يواندر» ولكنه ينطق في اللغات الحديثة «ايفاندر».

19 ـ وكلتا المدينتين (في لاتروم وأركاديا) منسوبة إلى جده بلاس (Pallas)، ملك أركاديا القديم.

20 ـ يقع جبل آيتنا (Aetna) ـ المسمى حالياً إتنا Etna ـ في شمال شرق صقلية، يبلغ ارتفاعه حوالى 100760 قدماً

21 ـ كانت فينوس (أفروديتي) ابنة لجوبيتر (زيوس) من زوجة سابقة على جونو (هيرا) وفقاً لرواية هوميروس (راجع ما تقدم)

22 ـ هذه هي المدن التي كانت تقترن دائماً باسم أفروديتى (فينوس) وفيها كانت لها معابد هامة.

23 ـ الاشارة إلى البطل الاغريقي ديوميديس (Diomedes) الذي جرح أفروديتي في الحرب الطروادية

24 ـ سمى ايفاندر ابنه بللاس باسم جده.

25 ـ راجع فيما تقدم. وتروى عن مصرع نيوبطوليموس عدة رويات من بينها أن أورستيس (بن اجاممنون هو الذي صرعه).

26 ـ كانت أرجوس في البلوبونيز هي وطن ديوميديس الذي كان البطل الثاني تقريباً في الألياذة (بعد أحيل). وكانت أرجوس قريبة جداً من ميكيناي.

27 ـ صورة هؤلاء الفارسات الضاريات مقتبسة من صورة «الأمازونات» اللائي اشتركن في الحرب الطروادية ضد الاغريق. وقتل أخيل الاغريقي بطلتهم بنثيسيليا (Penthesilea)، راجع ص 68 فيما تقدم.

28 ـ لا يزال هناك خلاف حول تفسير معنى كلمة «أنديجيس» (indiges)، وهناك، ثلاثة آراء فهي إما بمعنى «إله محدود الاختصاص» أو «إله أهلي (وطني)». أو «إله الأجداد». وتجمع في اللاتينية على (indigetes) أو (indigites).

29 ـ تقع مدينة لافينيوم (Lavinium) في اقليم لاتيوم (Latium) على طريق أبيوس المشهور (Via Appıa) على بعد حوالي 20 ميلاً جنوب روما.

ـ وكثيراً ما يخلط بينها وبين اسم مدينة لانوفيوم (Lanuium) التي تقع في تلال «ألبا» باقليم لاتيوم على بعد حوالي 19 ميلاً جنوب شرق روما. وكانت فيها عبادة رسمية لجونو المنقذة أو المخلصة Iuno Sospita وقد ظلت على عكس المدينة السابقة ومعظم المدن اللاتينية الأخرى، مزدهرة حتى عصر الامبراطورية. وكان حاكمها يلقب بلقب «دكتاتور» (ومجلسها يسمى «بالسناتو» حتى في عصر الامبراطورية.

30 ـ ولذلك عرفت لافينيوم في العصور المتأخرة باسم لاورلافينيوم (Laurolavinium).

31 ـ تنسب هذه النظرية إلى كاتب يدعى يوهيميروس (Euhomurus) عاش في أواخر القرن الثالث ق.م. في مدينة مسينا بصقلية. وألف رواية بعنوان «الرواية المقدسة» وفيها يتحدث عن رحلة خيالية قام بها حتى وصل إلى بلدة على المحيط الهندي. وهناك رأى معبداً للإله زيوس وقد دونت على أعمدته الأعمال الخارقة التي قام بها الآلهة أورانوس وكرونوس وزيوس. ومن ثم خرج بنظريته المسماة «بنظرية يوهيميروس»، ولا شك أنه قد تأثر فيه بالعقائد الشرقية وعلى الأخص المصرية وفكرة «تجسد الآلهة في صور البشر»، والتي لا تضع حداً فاصلاً بين الآلهة

وعظماء البشر، أي تنحو إلى إزالة الفارق بينهما. وهي فترة لم تجد رواجاً عند الاغريق الذي رسخ هوميروس في أذهانهم أن الآلهة خالدون والبشر فانون. ولا يمكن إزالة الحد الفاصل بين أولئك وهؤلاء. ولكنها وجدت رواجاً أكبر عند الرومان.

ولا شك أيضاً في أن يوهيميروس قد تأثر بسيرة الاسكندر الأكبر، وما أحرزه من انتصارات ضخمة، وما نسب إليه من أعمال خارقة على الأخص بعد موته.

32 ـ راجع فيما تقدم.

33 ـ نسبة إلى شبه جزيرة خالكيديكي المطلة على شمال البحر الأيجي، والتي استعمرها الاغريق في وقت مبكر.

34 ـ وبالتالي لا يمكن أن يكون روميلوس مؤسساً لروما.

35 ـ دمّر الرومان مدينة «ألبالونجا» حوالى عام 600 ق.م. ونقلوا منها سكانها إلى روما نفسها حيث استقروا بصفة دائمة.

الفصل السادس

تأسيس روما

2 ـ روميلوس

مات آينياس أو بالأحرى اختفى بطريقة غامضة. وقد خلفه ابنه أسكانيوس (Ascanius) الذي هجر مملكة أبيه الصغيرة في لافينيوم بعد حوالي ثلاثين عاماً إلى مكان جديد حيث أسس مدينة «ألبالونجا» التي أشرنا إليها. ولعله تسمى عندئذ باسم يوليوس (Iulus). وبعد موته توالت على حكم «ألبا لونجا» سلسلة من أبنائه وأحفاده، وهي سلسلة من الملوك غير موثوق بصحتها. ولا يعنينا منهم سوى واحد هو نوميتور (Numitor) الذي ورث العرش عن أبيه بوصفه أكبر أبنائه. وكان ملكاً عادلاً خيراً. لكن أخاه الأصغر أموليس (Amulius) الذي كان رجلاً ظالماً شريراً، طمع في الحكم فدبر مؤامرة وعزل أخاه عن عرشه. وكان للأول ابنة وحيدة تدعى ريا سيلفيا **Rea Silvia** وتلقب أحياناً بلقب إيليا (Ilia). ورأى عمها أموليوس مغتصب العرش، أن يقطع دابر ذرية أخيه حتى لا يؤول العرش أبداً إلى أحد منهم. ولذلك حرص ألا تتزوج «ريا سيلفيا» مطلقاً ولا تنجب أي أبناء. ففرض عليها أن تعيش كاهنة عذراء في معبد الربة فستا **Virgo Vestalis**. وعلى الرغم من ذلك فقد أنجبت ريا سيلفيا لا ولدا واحداً بل توأمين. ونسبتهما إلى الإله «مارس» أما لايمانها بصحة ذلك أو لأن إلقاء التبعية على إله قد يعفيها من العقاب بل قد يزيدها شرفاً. وسمي أحد التوأمين روميلوس (Romulus)، والآخر ريموس (Remus)، وانتقم العم من الأم

فقيدها بالأغلال وزج بها في غياهب السجن. وقرر أن يتخلص من التوأمين روميلوس وريموس فوضعهما في قارب صغير (أو بالأحرى رمث أو طوف) وألقى به في التيبر. وكان الوقت وقت الفيضان فحملتهما مياه النهر إلى البر سالمين عند بقعة تقوم عندها شجرة تين مقدسة تعرف باسم فيكوس روميناليس **Ficus Ruminalis** عند أسفل تل البلاتين. وسمعت صراخ الطفلين ذئبة (Lupa) فخرجت من عرينها أو كهفها «لوبركال» (**Lupercal**) واتجهت إليهما وتولّت ارضاعهما. كذلك قام بيكوس (Picus)، «ناقر الخشب»، وهو طائر مقدس للإله «مارس» بالمعاونة في نقل الطعام بمنقاره إلى الطفلين. ثم اتفق أن عثر عليهما بعد فترة راع لأغنام الملك يدعى فاوستولوس (**Faustulus**) فحملهما إلى بيته وعهد إلى زوجته أكا لارنتيا Acca (Larentia برعايتهما وتربيتهما.

وشب التوأمان روميلوس وريموس عن الطوق وبلغا أشدهما وأصبحا شابين على قدر كبير من الشجاعة والبسالة وتبدو على سيماهما امارات العراقة والنبل. وسرعان ما ذاع صيتهما فالتف حولهما شباب المنطقة، وصاروا لهما بمثابة الأتباع أو البطانة. وحدث في ذات يوم أن نشبت مشاجرة بين هؤلاء الشبان وبين رعاة أغنام نوميتور. وقبض على ريموس، متهما زورا أو عدلا بالنهب والسلب، وسيق إلى ألبا لونجا حيث سلم لنوميتور (الذي كان أخوه قد نصبه قاضيا) لمحاكمته على جريمته. وعلم فاوستولوس الراعي بما حدث فانتابه الأسى وأفضى إلى روميلوس بكل ما كان يعرفه أو يحدسه عن نشأته. فأسرع روميلوس بالذهاب إلى «ألبا» لإنقاذ أخيه التوأم. وفي تلك الأثناء كانت سيمات ريموس النبيلة قد استرعت نظر نوميتور فبدأ يسأل ويستفسر. فلما وصل روميلوس وظهر في قاعة المحاكمة، تعرف نوميتور من فوره على التوأمين، وعرف أنهما ابنا «ريا سيلفيا». ودبر الجد مع حفيديه خطة للاطاحة بالعم المغتصب فهاجموا أموليوس وقتلوه، وأطلقوا سراح أمهما، واسترد نوميتور عرشه.

ولم يلبث التوأمان روميلوس وريموس أن قررا الرحيل عن ألبا لونجا، وتأسيس مدينة جديدة في المكان الذي كان الراعي قد عثر عليهما فيه وأنقذهما من الموت. وثار عندئذ نقاش حامي الوطيس حول من يكون منهما هو ملك المدينة الجديدة. وكان لا بد من استطلاع إرادة الآلهة لتشير اما بروميلوس أو ريموس، وبالتالي بالاسم الذي ينبغي أن تسمى به المدينة الجديدة: «روما» نسبة إلى روميلوس أم «ريمورا» نسبة إلى ريموس. ووقف روميلوس فوق تل البلاتين ليرقب مسار الطيور علّه يرى فيها فألا يتعرف منه على مشيئة الآلهة، وهي صورة أو طريقة من أشيع طرق العرافة في ايطاليا. وأما ريموس فقد اتخذ مكانه فوق تل الأفنتين. وطال انتظار الأخوين التوأمين. وفجأة شاهد ريموس ستة صقور، وهي من أهم الطيور التي يستعان بها في علم العرافة (العيافة) أو الرجم بالغيب أو الطيرة. لكن لم يلبث روميلوس أن شاهد اثني عشر صقرا. فاعتبر هو الظافر، وأعلن ملكاً.

وشرع روميلوس في بناء مدينة فوق تل البلاتين (Collis Palatinus) وأحاطها بسور. وأراد ريموس أن يمزح أو يسخر فقفز فوق السور الجديد، فقتله أخوه على الفور أو قتله أحد أتباع أخيه. وانفرد روميلوس بالسلطة وأصبح حاكماً بغير منازع لفترة من الزمن. وأخذ روميلوس يبحث عن مزيد من الأتباع، فشيد معبداً أو حرماً مقدساً (Rsylum)[1]، فوق تل الكابيتول. وسرعان ما تقاطر عليه من شتى أنحاء إيطاليا كثير من المشردين والمنبوذين لاجئين إلى ساحته المقدسة أو لائذين بحرمه الأمين. ثم واجهت روميلوس مشكلة. ذلك أن أتباعه كلهم كانوا من الرجال. وكان لا بد من النساء للتكاثر وتعمير المدينة. وقد رفضت كل المدن المجاورة كل عروض الرومان للزواج من بناتها. كان لا بد لروميلوس من الحصول على زوجات لرجاله، فدبر خطة لتحقيق ذلك: دعا عدداً كبيراً من أهالي المدن المجاورة وعلى الأخص السابين (Sabini) مع عائلاتهم لمشاهدة مهرجان

رياضي بالملعب الكبير في روما. وحضر المدعوون إلى روما تلبية للدعوة. وأثناء الاحتفال قام رجاله فجأة باختطاف بنات الضيوف. وأثار هذا العمل الغادر حرباً بين روما وجيرانها. وقد تغلب الرومان بسهولة على سكان المدن المجاورة ما عدا السابين الذين استعصى على الرومان قهرهم، بل إنهم هاجموا روما نفسها تحت قيادة ملكهم تيتوس تاتيوس (Titus Tatius) وحاصروا تل الكابيتول الذي كان من المدينة بمثابة نقطة حراسة أمامية. وكان لقائد حامية الكابيتول الرومانية ابنة تدعى تاربيا (Tarpeia). ويروى أنها أحبت ملك السابين أو أنه أغراها على خيانة الحامية الرومانية. وقد اشترطت تاربيا أن تأخذ في مقابل التواطؤ ما يضعه الجنود السابين على أذرعهم اليسرى، قاصدة بذلك الأساور الذهبية التي حول معاصمهم. هكذا سقط الكابيتول في يد السابيين نتيجة خيانة تاربيا. لكن تاربيا لم تظفر من السابيين بعد انتصارهم إلا بالاحتقار بل أنها سحقت تحت وطأة دروع جنودهم الثقيلة.

واتخذ السابين من الكابيتول قاعدة لمهاجمة تل البلاتين. واشتبك معهم الرومان في موضع السوق العامة (Forum) الذي كان وقتذاك لا يزال قطعة من الأرض مليئة بالأوحال والمستنقعات. وفي أول الأمر بدأ الرومان في التقهقر تحت ضغط العدو الزاحف إلى أن نذر روميلوس، قائد الرومان، معبداً للإله جوبيتر. واستجاب الاله، وثبّت أقدام الرومان، وبدأ السابين بدورهم في التقهقر. وبينما كان كل من الطرفين يستعد للقيام بهجمة أخيرة حاسمة، حدث ما لم يكن في الحسبان. إذ اندفعت النساء السابينيات اللاتي كن قد اختطفن يوم المهرجان، ورضين بالمعيشة مع أزواجهن الرومان، بل أنجبن منهم أولاداً، إذا بهن يندفعن بين الجيشين المتحاربين، ويقفن حاملات أطفالهن، مناشدات الفريقين، أزواجهن الرومان من ناحية، وآبائهن السابين من ناحية أخرى، وقف القتال حقنا للدماء. ويكلل مسعاهن بالنجاح ويبرم الصلح بين الرومان والسابين. وقد ترتب على

ذلك انتقال السابين إلى روما وسكناهم في تل الكابيتول، واشتراك تيتوس مع روميلوس في الحكم. وظل الأمر كذلك إلى أن قتل الأول أثناء نزاع شخصي مع بعض أهالي لافينيوم. وأخيراً حدث في ذات يوم بينما كان روميلوس نفسه يستعرض جيشه، أن هبت عاصفة رعدية فجأة واختفى روميلوس، على أثرها ـ مثلما اختفى آينياس ـ بطريقة غامضة. لكن روميلوس ظهر بعد ذلك لأحد المواطنين في مكان مهجور وأبلغه بأنه قد أصبح إلها وتنبغي عبادته تحت اسم كويرينوس (Quirinus)[(2)].

المغزى التاريخي لأسطورة روميلوس وريموس:

ولم يكن من المتوقع أن يترك الكتّاب القدماء قصة كهذه حافلة بالعجائب والمعجزات دون أن يحاولوا أن يسوغوها تسويغاً معقولاً أو يعللوها تعليلاً منطقياً: قالوا أن روميلوس وريموس لم يكونا ابني الإله مارس، بل كانا ابني أموليوس الذي تنكر في صورة أخرى واغتصب ابنة أخيه (ريا سيلفيا). وأضاف المفكرون القدامى قائلين أنه لم يلق بالتوأمين في النهر، إنما كفلهما جدهما نوميتور ورباهما تربية حسنة في بلدة جابي (Gabii) حيث اكتسب روميلوس معرفة واسعة بالعرافة والرجم بالغيب، أو أن التوأمين لم يلق بهما في النهر، بل عثر عليهما فاوستولوس الذي كانت زوجته امرأة فاجرة، فاشتهرت باسم «لوبا» أي «العاهرة»، ومن هنا نشأت أسطورة تقول بأن ذئبة هي التي أرضعت التوأمين، حيث أن لوبا (Lupa) كلمة تؤدي أيضاً في اللاتينية معنى «الذئبة». ولم يختف روميلوس في عاصفة رعدية، لكنه قتل غيلة بيد أعضاء مجلس الشيوخ الذين حقدوا عليه لطغيانه فتآمروا عليه واستغلوا هبوب العاصفة المفاجئة فمزقوه إربا وأخفوا رفاته. على أن مثل هذا الهراء على طرافته ينبغي ألا نتوقف عنده طويلاً.

لكن إذا أخضعنا القصة، قصة روميلوس وريموس، لمعايير النقد

السليمة، يتضح لنا على الفور أنها أسطورة «تعليلية» القصد منها تفسير أصل أشياء معينة مجهولة النشأة أو طواها النسيان. ثم تناول شخص أو عدة أشخاص من الذين يعرفون الكثير عن روما وطبوغرافيتها (خططها) وطقوسها الدينية القديمة، هذه الأسطورة بالتعديل وكسوها بثوبها الحالي، ولا بد أن هذا الشخص أو الأشخاص كانوا من الاغريق، لأن قصة مولد التوأمين ومحاولة التخلص منهما، وانقاذهما بمعجزة هي ذات طابع اغريقي بحت وتتفق مع تصور الاغريق بأن آلهتهم تنجب أولادا من إلها ت أو نساء عاديات، ولكنه يختلف عن تصور الرومان الذين كانوا لا يعتقدون بمثل ذلك. ورب معترض يقول أن الأسطورة كلها عالمية أي ذات طابع عالمي ونجد لها نظائر في شتى الأقطار، وليس من المستبعد إذاً أن تكون الأسطورة محلية أي ايطالية مصطبغة بصبغة اغريقية. لكن ما يثير الريبة حقاً في أصلها الروماني هو أن يكون الولدان توأمين، حيث أن التوائم كثيراً ما يظهرون كمؤسسين للمدن اليونانية في الأساطير الاغريقية. إن الجانب الأكبر من هذه القصة الشهيرة هي اختلاق من نسج خيال الاغريق، ومن ثم فإنها متأخرة زمنيا، ولو أن جزءاً منها ـ على الأقل ـ قديم. ففي عام 295 ق.م جمع حاكمان رومانيان (هما الآيديلان أي المحتسبان) مبلغا كبيراً من المال من حاصل الغرامات المفروضة على المرابين. وبهذا المبلغ أقام هذان الحاكمان في روما عدة منشآت عامة. وكان من بين هذه المنشآت تمثال جماعي للذئبة مع التوأمين أو تمثالين فقط للتوأمين أضيفا إلى تمثال للذئبة وحدها كان موجودا من قبل. كانت هناك إذا عند بداية القرن الثالث ق.م قصة رائجة في روما عن طفلين وذئبة حاضنة تولت وقايتهما من الأذى. ومن الطبيعي أن نفترض أنها كانت قصة روميلوس وريموس. ولم يكن التأثير اليوناني وقتئذ بالشيء الجديد على روما؛ إذ كانت كتب النبوءات السيبوللية (التي تدور حول عبادة أبوللون) قد أصبحت في حوزة الحكومة الرومانية منذ مدة طويلة. وكان عرض تماثيل الآلهة وهي متكئة

على آرائك وأمامها مآدب الطعام (Lactisternium)، وسجود الناس لها ـ على طريقة الاغريق في العبادة ـ قد عرف لأول مرة في روما قبل ذلك (أي قبل 295 ق.م) بقرن على الأقل. وعلى ذلك فليس بغريب أن يصدق الحاكمان الرومانيان قصة اغريقية كهذه.

ولنعد إلى التفسير العقلي للأسطورة: أن الموقع الذي جرفت إليه مياه النهر التوأمين ثم عثر عليهما فيه كان يتميز بوجود مغارة أو كهف عند تل البلاتين يسمى «لوبركال» وكان يرتبط بعيد «لوبركاليا»، وبشجرة تين كانت تعرف باسم «فيكوس روميناليس» أي «تين الرضاع»، ففي إيطاليا ـ كما في مناطق أخرى ـ كانت العصارة اللبنية التي تنساب من غصون التين ذات قيمة كبيرة لتأثيرها السحري فكانت تستعمل كرقية للإخصاب نظراً للاعتقاد السائد بأنها تساعد النساء على الحمل. وكانت غصون التين تستعمل أيضاً في طقوس بعض الأعياد الدينية القديمة.

وأما «فاوستولوس» الراعي الخيّر وزوجته أكا الرؤوم «أكا لارنتيا» فهما إلها ن معروفان لأن فاوستولوس هو إسم آخر للإله فاونوس، وأكا لارنتيا اسم ربة صغيرة والذئبة هي الحيوان المقدس للإله مارس، ومثلها «ناقر الخشب»، الذي كان طائراً مقدساً لهذا الاله. وأما حكاية مصرع ريموس على يد روميلوس أو أحد أتباعه، فالقصد منها تفسير سبب قدسية سور المدينة في العصر التاريخي. ذلك أن سور روما الشهير بالبرميريوم (Pomerium) كان يعتبر ـ فيما عدا أبوابه ـ مقدسا ولا يجوز تدنيسه. وكان بمثابة الحد الفاصل بين النطاق المدني (داخل المدينة) والنطاق العسكري خارجها. ومغزى الأسطورة واضح وهو أنه لا يجوز لأحد أن يغفر حتى لأخيه جريمة انتهاك حرمة هذا السور.

وأما قصة البنات السابينيات واختطاف الرجال الرومان لهن ليتخذوا منهن زوجات، فقد اختلقت لتفسير بعض حقائق أو عادات قديمة نسي الرومان

اصلها. فمن بين الروايات القديمة التي تؤيدها الدراسات اللغوية وغيرها من الأدلة التاريخية، أن الشعب الروماني كان في الأصل خليطاً من عنصرين: اللاتين والسابين أو كان على الأقل يتضمن عنصراً سابينيا قويا[3]. وكانت هناك بين طقوس الزواج عند الرومان ـ عادة ـ (كانت موجودة عند شعوب كثيرة غيرهم)، وهي انفصال العروس عن بيت أهلها بطريقة مقرونة بالعنف الصوري، إذ كان العريس يتظاهر بانتزاع عروسه من أحضان أمها، وهو ما كان يسمى في هذه الحالة «بزواج الاختطاف». وأما عن أسطورة «تاربيّا». التي خانت الحامية الرومانية فوق الكابيتول، فقد ابتدعت لتفسير عبادة ربة قديمة بهذا الاسم نسي الرومان أصلها. وكانت طقوسها الجنائزية تمارس فوق الكابيتول أو على مقربة منه حيث كان يوجد قبر تحول بمرور الزمن إلى مزار أو معبد لربة قديمة صغيرة اسمها تاربيا، وهو اسم يرتبط بلا شك باسم صخرة تاربيا، التي كانت أكثر أجزاء ذلك التل انحدارا.

ولعل القارىء قد لاحظ أن روميلوس ـ في الأسطورة ـ كان له غالبا ـ إن لم يكن دائماً ـ شريك في الحكم: أولا أخوه ريموس، وبعدئذ تيتوس تاتيوس السابيني ومن الواضح أن القصد من تلفيق هذه التفاصيل هو محاولة تعليل نشأة نظام الزمالة في المناصب الرومانية، ابتداء من منصب القنصلية إلى ما هو أدنى منه، إذ كان المنصب الواحد عند الرومان طوال تاريخهم يشغله دائماً حاكمان اثنان أو اضعاف ذلك العدد. وأما عن ابتهال روميلوس إلى جوبيتر واستجابته له في ساعة المحنة، فهي حكاية اختلقت لتفسير عبادة كانت قد نشأت لهذا الإله فوق الكابيتول تحت اسم جوبيتر ستاتور (Iupiter Stator) أي «جوبيتر مثبت الاقدام». ويذكر القارىء كيف ابتهل روميلوس إلى هذا الإله، ونذر له معبدا، عندما رجحت كفة السابين، أن يثبت أقدام جنوده الرومان (Stare)، فلا يتقهقرون أو يولون الأدبار، فاستجيب دعاؤه. وبهذا: تكون الأسطورة قد عللت

أصل عبادته ونشأة لقبه (ستاتور). وأخيراً فإن أسطورة تأليه روميلوس بعد موته أو اختفائه في ظروف غامضة إنما أريد بها تعليل وجود إله آخر للحرب باسم «كويرينوس»[4] بجانب «مارس» إله الحرب، وازالة ما قد يثيره ذلك من لبس في الأذهان.

وكما أصبحت «تاربيا» في الأسطورة السالفة امرأة بعد أن كانت إلهة، كذلك حدث في حالة عدة شخصيات أسطورية أخرى. ومن المؤكد أن ذلك يرجع ـ على نحو ما أشرنا من قبل[5] ـ إلى تلك النظرية التي تسبغ على الآلهة صفات الانسان وتصورهم في صورة البشر، وهي نظرية تنسب إلى يوهيميروس (Euhemerus) أحد مواطني مسينا بجزيرة صقلية (311 ـ 298 ق.م) الذي كتب رواية خيالية (تسمى بالرواية المقدسة) وضمنها نظرية أو مذهبا يقول أن الآلهة كانت في الأصل شخصيات انسانية بارزة على الأرض كملوك أو ملكات أو ابطال أو قادة مظفرين في الغالب، ثم أسبغ عليهم الناس ألقاب التأليه عرفانا بفضلهم أو تزلفا اليهم. وقد تأثر يوهيميروس في نظريته ببعض المعتقدات الشرقية، وكذلك بسيرة الاسكندر الأكبر الذي أحرز انتصارات باهرة، وأنجز أعمالا بطولية، ونسبت إليه بعد موته معجزات كثيرة. ولم تترك هذه النظرية انطباعاً قوياً في نفوس الاغريق لأنها كانت تتجه إلى إزالة الفارق وترفع الحاجز الفاصل بين الآلهة الخالدين والبشر الفانين. لكنها حظيت برواج كبير من الرومان وعلى الأخص بعد زمن الشاعر انبوس (239 ـ 169 ق.م) الذي كتب فيها بحثا زاد من معرفة الرومان بها. ومن ثم نجد الإله «ماتورنوس» والإله «بانوس» يتحولان إلى ملكين قديمين، وإن الثاني رحب بالأول عندما جاء لاجئاً إلى ايطاليا. وأسس ساتورنوس بعد مجيئه إلى إيطاليا مدينة باسم «ساتورنيا» عند الموقع الذي أنشئت عليه روما فيما بعد. وكان كلا الملكين رائدا عظيما من رواد الحضارة، إذ علم شعبه (الرومان) حرفة مفيدة، فعلمهم يانوس الملاحة، وعلمهم ساتورنوس

الفلاحة. وكان عهد ساتورنوس ـ وفقاً لاحدى الروايات ـ هو «العصر الذهبي» في إيطاليا مثلما كان عهد «كرونوس» بالنسبة لبلاد الاغريق[6]. وقد أُلّه «يانوس» بعد مماته، فأظهر قوته الخارقة وكراماته، إذ يروى أنه فجّر من الأرض ينابيع حارة شوت جلود الأعداء (السابين) بمياهها الساخنة عندما تدفقوا على الكابيتول نتيجة لخيانة «تاربيا» للحامية الرومانية. وكان يانوس هو إله كل البدايات وكل الأبواب على اختلاف أشكإلها . وكان يتجسد في قوس النصر المزدوج (Ianus geminus) القائم عند الفوروم (Forum) وهي «السوق العامة» الشهيرة في العاصمة الرومانية. ذلك هو السبب الذي من أجله كان قوس النصر هذا يترك مفتوحاً على الدوام في حالة الحرب حتى لا يقف أي شيء حائلاً دون حضور الإله على وجه السرعة لنصرة قومه (الرومان) في ساعة الشدة.

هوامش ومراجع الفصل السادس

1 ـ ليس لهذه الكلمة اليونانية مرادف في اللغة اللاتينية. ومعناها حرم مقدس يلوذ به كل من يطلب الأمان، أو قد يستجير به المدينون أو العبيد الآبقون أو إلها ربون من العقاب. ويبقون كذلك في رحى الاله.

2 ـ وقرنت معه في العبادة زوجته هرسيليا بعد وفاتها تحت اسم هورا (Hora) التي لا نعرف عنها شيئاً يذكر وعن الإله كويرينوس.

3 ـ ويسمى أيضاً بالعنصر الأوسكي ـ السابيللي في بعض الأحيان.

4 ـ عن هدا الإله كويرينوس (Quirinus). حيث ذكرنا أنه كان يقترن دائماً بالالهين جوبيتر ومارس (فيما يشبه الثالوث) وكان له مثلهما كاهن كبير (maior) بلقب Flamen. لكنه كان أدنى منهما مرتبة إذ كان يؤول إليه النصيب الثالث من الأسلحة التي يغنمها قائد من آخر في الحرب (Opima spolia). ويبدو أنه كان إلها سابيني الأصل. وكان يعبد منذ وقت مبكر فوق «الكويرينال»، أحد تلال روما السبعة. وكان يحتفل بعيده في يوم 17 فبراير من كل عام. وكانت قرينته في العبادة هي الربة هورا (Hora). ويبدو أن اسمه «كويرينوس» مشتق من كلمة

Covirium التي تعني «مجتمع الرجال». ومن ثم فقد أصبحت كلمة كويريتيس Quirites تدل على «المواطنين الرومان» وعلى الأخص «المدنيين».

5 ـ راجع فيما تقدم.

6 ـ كان هيسيود (Hesiod) الشاطر اليوناني (أوائل القرن السابع ق.م). ومؤلف كتاب «أنساب الآلهة» قد قسم العصور إلى خمسة): 1) الذهبي 2) الفضي 3) البرونزي 4) عصر الأبطال، 5) عصر الحديد. وكل عصر كان أسوأ من الذي قبله.

الفصل السابع

صفات الرومان وميزات روما

النزعة العملية في التفكير الروماني:

لو أن شخصاً عادياً غير متخصص في التاريخ اليوناني ـ الروماني» أتيحت له الفرصة لمشاهدة مجموعة من الآثار الرومانية معروضة في أحد المتاحف، ففي أكبر الظن أنه لن يقف طويلاً أمام هذه المجموعة، بل سينصرف عنها إلى شيء آخر كفيل بأن يسترعي اهتمامه. وسرعان ما يجد أن معظم ما يشاهده ليس مثيراً أو جميلاً. وهذه الآثار هي في الغالب أشياء نافعة: أدوات وأوان من جميع الأنواع، وأجزاء من أسلحة ودروع حربية. ولن يستمتع بمشاهدة قطع العملة الرومانية، لأنه ليس فيها من جمال التصميم أو الصنعة ما يثير اعجابه، هذا فضلاً عن قصورها عن أن تروي له قصة متصلة إذا لم يفسر له معنى ما عليها من صور. وقد يجد عند زيارة متحف من متاحف روما طائفة كبيرة من التحف البديعة، ولكن هذه التحف هي من صنع فنانين يونانيين، استوردها الرومان أو عشاق الفن منهم في العصور الأخيرة من التاريخ الروماني. هذا هو الأثر الذي تتركه أي مجموعة من الآثار الرومانية في نفس من يراها، فهي لا تتسم بطابع الجمال بل بطابع المنفعة، لأن المنفعة كانت فيما يبدو هي القصد الذي توخاه من صنعوها.

ونلمس القصد نفسه إذا شاهدنا أي أثر من الآثار الرومانية الضخمة سواء في انجلترا أم في القارة الأوروبية. فكثير منا لديهم فكرة عن الطرق الرومانية

(Viae) وكيف تجرى مستقيمة عبر التلال والوديان، إذ كان المقصود منها أن تخدم أغراضا عسكرية بأن تيسر للقوات الحربية سرعة التحرك واستكشاف المناطق الواقعة على جانبيها أثناء الزحف ونجد عادة في المدن التي أجريت فيها حفائر أثرية أن أفسح المباني وأروعها هي الأبهاء الواسعة المعروفة باسم (Basilicae) حيث كان الناس يلتقون لتصريف مختلف الشؤون ولا سيما ما يتصل منها بالقضاء والادارة. وكثيراً جداً ما ترتبط ظاهرة «المنفعة» بظاهرة أخرى وهي «المتانة والضخامة» وإن لم يكن في ولاية بريطانيا الفقيرة نسبياً حيث لم تنشأ الحاجة إلى بناء قنوات معلقة على جسور(aquae ductus) لجلب المياه إلى المدن باستمرار نظراً لوفرة المياه بالجزيرة، ولكننا نجد في إيطاليا وفرنسا أن هذه المنشآت العامة ضخمة بل أضخم مما تقتضيه الحاجة أحياناً. وقد تشبث الرومان بنظرية المتانة والضخامة حتى في الأحوال التي تخلوا فيها عن مبدأ المنفعة البحتة كما هو الحال في أقواس النصر أو البوابات (Portae) التي تتوافر في «ترير» بألمانيا أو «أورانج» بجنوب فرنسا أو في إيطاليا ذاتها. ويحدثنا كاتب خبير بفنهم المعماري ـ وهو فيتروفيوس ـ أن أسمى الأشياء في نظرهم لم يكن ما هو جميل بل ما هو «قوي» وأنهم كانوا يعتقدون أن هذه الفكرة هبطت على قومهم من السماء.

ومن الخطأ أن يقال إن الفن الروماني مجرد من الجمال. لكن يتفق وما ذكرناه أنه يوجد أروع ما ابتكروه من فن نزعة قوية إلى «الواقعية». ففي فن النحت برع الرومان في تصوير الأشخاص، ولم يجنحوا أبداً أو قلما جنحوا إلى المثالية. ونجد المنظر الذي يمثل معركة أو طرفا من حياة المدينة مزدحماً بالصور لا لشيء إلا لأنه يمثل الواقع، ونجده خلوا من ذلك الهدوء المريح للبصر الذي يتولد عن كمال التنسيق وهو ما برع فيه الفنان الاغريقي.

والأمر كذلك في الأدب. فجميع شعرهم الرائع يستهدف غرضا عمليا، ويتصل بالحياة الانسانية اتصالا مباشرا. وقد نظم لوكريتيوس، قصيدته الفلسفية

الطويلة «في طبيعة الأشياء» لتحرير الرومان من الخزعبلات الدينية، ونظم فرجيل «الآينيادة» التي تحدثنا عنها باسهاب في فصل سابق لاثارة الشعور بالواجب نحو الأسرة والدولة في نفس الرومان الذين أصابهم الانحلال في عصره. وكان ابتكارهم الوحيد في الأدب هو فن «الهجاء» الذي قصدوا به نقد الحياة من حولهم نقداً هينا أو لاذعا. وكانت خرافاتهم وأساطيرهم، التي لم يتوافر لهم منها ما توافر للاغريق، تدور ـ على نحو ما رأينا ـ غالباً حول تأسيس المدن أو أعمال البطولة على يد البشر[1].

وليس في أصالة الهجاء عند الرومان أي غرابة لأنه اقرب الفنون الأدبية إلى الحياة الواقعية. لقد اقتبس الرومان الفنون الأدبية من اليونان ما عدا فن الهجاء المسمى عندهم ساتيرا[2](Satura). ويقول كوينتيليان، وهو أحد النقاد الرومان ما معناه أن الهجاء كله من ابتكارنا (أي من ابتكار الرومان)، أو لعله يعني أن الرومان كان لهم القدح الأعلى في فن الهجاء. وكان إنيوس (Ennius) (239 ـ 169 ق.م) الذي يوصف بأنه «أبو الأدب اللاتيني»، والذي كتب في مختلف الفنون الأدبية، من أوائل من كتبوا في الهجاء . وتقع هجائياته في شتى كتب. وقد ابتدع في هذا الفن صورة جديدة كانت تحتفظ بشيء من الخصائص الجوهرية في النوع القديم من الهجاء. وبذلك أصبحت بمثابة همزة الوصل بين القديم وبين الهجاء المستحدث الذي يتمثل في شعراء مثل لوكيليوس وهوراتيوس. ولم يتقيد انيوس في هجائياته بوزن أو بحر واحد. واحتفظ فيه بالحوار الذي يتميز به النوع القديم من الهجاء، كما ضمنها حكايات خرافية من طراز حكايات آيسوب. وهو مثل لوكيليوس وهوراتيوس لا ينقد فيها الحياة وعيوب المجتمع الروماني نقداً هيناً أو يسخر منها سخرية لاذعة فحسب، بل يعبر كذلك عن مشاعره وإحساساته. ولما كان فن الهجاء هو أساس دعوى الرومان في نصيبهم من الأصالة والابداع الفني، فإن ابتكار أنيوس في هذا

الفن يؤكد حقه ثانية في أن يلقب «بأبي الأدب اللاتيني».

وأما لوكيليوس Lucilius (180 ـ 102) فكان على خلاف معظم الكتاب الرومان، سليل أسرة مرموقة المكانة، ولد في سويسا (Suessa)، احدى مدن كمبانيا. ووفد إلى روما حوالي عام 160 ق.م. وعاش على دخل مزارعه الواسعة. ولم يلبث أن انضم إلى «حلقة اسكيبيو» الأدبية، وعقد أواصر الصداقة مع بعض الأقطاب الرومان كما خلق لنفسه أعداء. وكان غزير الثقافة ملماً بالأدب اليوناني والفلسفة اليونانية ولم يقتصر انتاجه الأدبي على الهجاء بل كتب في فنون الأدب الأخرى كالنقد والتراجيديا. ولم يصل إلينا من هجائياته الكثيرة سوى 1300 بيت. ومعظمها مكتوب في البحر السداسي الوحدات الذي أصبح البحر الغالب في الشعر الهجائي عند الرومان. وتكشف الشذرات الباقية عن شاعر لا يبالي بالصياغة الفنية بقدر ما يبالي بالفكرة، وعن انسان فطن، قوي الملاحظة، بعيد عن التعصب، ملم بالحياة الريفية. ولكنه يعيش في المدينة حيث يرقب عن كثب الحياة الاجتماعية والسياسية، وينقدها مبتغيا صلاحها نقدا صريحاً لاذعاً بفضح عيوبها وكشف نقائصها والسخرية من رذائلها، وكأنه ينزع من وجوه الناس أقنعة الوقار الزائفة التي تخفي تحتها الدناءة والخسة، فلم يسلم من لسانه سوى الفضيلة وأنصار الفضيلة. ويعتبر ضياع معظم قصائد لوكيليوس من أجسم الخسائر التي مني بها الأدب اللاتيني، ولا سيما أنه عاصر فترة حافلة بالأحداث التاريخية إلها مة كتوسع سلطان روما في الغرب والشرق، وقيام الثورة الاجتماعية في روما، وتعرض حدودها الشمالية لغزوات الكيمبري والنيوتون. لكن برغم قلة ما وصلنا من قصائد، فهي ترجّع «أصداء هذه الأحداث المشيرة ترجيعاً خافتاً. ولقد تاثر به شعراء الهجاء اللاحقون كهوراتيوس وبرسيوس وجوفينال.

ليس غريباً إذاً أن يكون الرومان مبتكرين في فن الهجاء حيث أن هذا

الفن كان يتفق ونزعتهم الواقعية في التفكير، ويهدف إلى تحقيق هدف عملي وهو اصلاح المجتمع. لكن الغريب أن يظهر بينهم شاعر مثل لوكريتيوس (Lucretius) (94 ـ 55 ق.م) الذي وصفنا قصيدته «في طبيعة الأشياء» (De Rerum Natura) بأنها قصيدة فلسفية طويلة، وتعتبر فريدة من نوعها في كل الأدب اللاتيني. ولم يكن الرومان شعباً متفلسفاً كاليونان، ولا كان له فيها باع طويل مثلهم. كان الرومان في الفلسفة ناقلين مثلما كانوا في الأدب والفن ناقلين عن اليونان أو مقتبسين منهم أو مقلدين لهم. ولقد عرفت روما معظم المذاهب الفلسفية اليونانية كالأفلاطونية والمشائية والأبيقورية والكلبية والرواقية. وكان أكثر المذاهب استهواء لنفوس الرومان هي الفلسفة الرواقية على نحو ما سنرى بعد قليل. لكن شاعرنا لوكريتيوس اعتنق مذهب الفلسفة الأبيقورية.

ولا يستطيع أحد أن يغفل شخصية لوكريتيوس في تاريخ الفلسفة الرومانية إن كان لهذه الفلسفة تاريخ، بل لا يستطيع أن يغفله في تاريخ الفكر الأوروبي. وفي الحق أن بعض النقاد يضعونه في مرتبة فرجيل أمير الشعراء الرومان. ومن الغريب أننا نكاد لا نعرف شيئاً معرفة اليقين عن تاريخ مولده أو وفاته أو حتى مسقط رأسه. ولا نعرف أكان من أسرة متواضعة أم من أسرة نبيلة، حر الأصل أم عبدا معتقاً. وثمة أدلة طفيفة تشير إلى أنه ربما ولد في كمبانيا، واقتنى أرضا على مقربة من مدينة بومبي، وتعلم الفلسفة الأبيقورية في نابلي. ولعل الحقيقة الوحيدة المؤكدة في سيرته أنه كان صديقاً أو تابعاً لجايوس مهيوس حاكم روما القضائي (بريتور) في عام 58 الذي أهدى إليه الشاعر قصيدته الوحيدة «في طبيعة الأشياء». وأغرب من ذلك أن شيشرون (Ciceron) الذي عاصره، لا يشير إليه إلا إشارات عابرة. وفي أكبر الظن أنه تعمد تجاهله لأن شيشرون كان ينتمي إلى طبقة سياسية تنظر بعين الريبة إلى «المذهب الأبيقوري» الذي اعتنقه لوكريتيوس، وترى فيه مذهباً هداما وخطرا على النظام القائم لأنه يشكك الناس

في المعتقدات الدينية والآلهة والحياة الأخرى، على حين أن الديانة الرسمية في روما كانت دائما أداة فعالة من أدوات السيطرة السياسية في يد طبقة النبلاء.

وكان لوكريتيوس يعتبر نفسه فيلسوفاً قبل أن يكون شاعرا، ولكن الأجيال التالية هي التي قدمت الشاعر فيه على الفيلسوف. وكان أبيقوريا لا يحيد في تفكيره عن النهج الذي رسمه أبيقور **Epicurus** (342 ـ 270 ق.م[3]، ومبشراً برسالة آلى على نفسه أن يحرر الناس من الأوهام ومن الخوف من الآلهة ومن الموت وما بعد الموت، فالكون ـ في نظره ـ مادي وكل ما فيه مادي. ويفسر حدوثه تفسيراً ذرياً بمعنى أن الذرات تشابكت تشابكاً تلقائياً دون أي تدبير، بل أن الآلهة نفسها ـ في رأيه ـ هي أشياء مادية لا تحفل بالبشر ولا يعنيها ما يصيب البشر من خير أو شر. فليس الانسان في حاجة إلى أن يضرع إلى الآلهة أو أن يخر أمامها ساجداً أو أن ترتعد فراصه من بطشها أو من المصير بعد الموت حيث لا يوجد جحيم أو نعيم. والانسان حر يستطيع أن يقف منتصب التامة، رافعا هامته، وأن يزيح عن عينيه غشاوة الخرافات، وأن يشكل حياته بما يحقق له أقصى السعادة واللذة، وأن لا يقضي عمره في خوف مستمر من نزوات أي قوى خارجية أو خارقة.

ويحاول لوكريتيوس دعم رسالته ببناء نظرية في الطبيعة أو الفلسفة الطبيعية تفسر نشأة الكون ووظيفته دون وساطة الهية. وهو يفسر الظواهر الاجتماعية بل النفسية كذلك بتفاعلات مادية ارتقائية تجري في الطبيعة ولا تتطلب افتراض خالق الهي. فهو لا ينظر إذن إلى الأشياء نظرة شاعرية فقط بل نظرة علمية فاحصة أيضاً. ولا تعنيه نظرية الذرات الطبيعية بقدر ما يعنيه اقناع القارىء. ومن ثم فهو يتكلم بحرارة وايمان وحماس شديد.

وكان فلاسفة المذهب الذري في القرن الخامس قبل الميلاد، وفي طليعتهم

الفيلسوف ديمقريطوس (Democritus) ثم أبيقور الذي اعتنق نظرياته، معنيين بتحرير الناس تحريراً فكرياً. وأما لوكريتيوس فكان على شاكلة الرومان ذا نزعة واقعية، فنظم قصيدته مستهدفاً غرضا عمليا ومنفعة مباشرة لبني قومه، وهو تخليصهم من الأوهام والترهات والخرافات الدينية، ومن الاعتقاد بتحكم الآلهة في مصائرهم. ولم يبتغ فقط أن يعلمهم نظرية في الطبيعة أو أن يعرفهم بالتفكير الفلسفي، ولا مجرد تخليصهم من كابوس الخزعبلات الذي يجثم على حياتهم ويزيد من شقائهم، بل حضهم كذلك على نبذ المعتقدات الدينية التي ابتدعتها طبقة النبلاء الحاكمة. واستغلتها كأداة للسيطرة السياسية. استمع إليه وهو يقول «ما أكثر الآثام التي ارتكبت باسم الورع الديني أو الخوف من الآلهة». لقد كان لوكريتيوس نبيا فريداً في أمة اعتادت على الكهّان.

لقد ذكرت من قبل أن «الرواقية» كانت أكثر المذاهب استهواء لنفوس الرومان وأكثر رواجا بينهم. وفي الحق أنها المذهب الذي أسهم الرومان فيه بنصيب حتى ليمكن التحدث عن «الرواقية الرومانية». وعلى ذلك يجدر التعرف على هذا المذهب الفلسفي الذي كان له تأثيره في الرومان أقوى من تأثير أي مذهب آخر.

كان زينون **Zenon** (332 ـ 262 ق.م) أحد مواطني مدينة كيتيوم في قبرص هو الذي أسس (حوالي عام 30 ق.م) مدرسة الفلسفة الرواقية. وقد سميت كذلك نسبة إلى الرواق المصور (Stoa Poikilé) برسوم الافرسك الحائطية في أثينا حيث اعتاد (منذ 312 ق.م) وخلفاؤه من بعده التدريس. ومع أن هذه المدرسة كانت أقل تنظيماً من الأكاديمية (مدرسة أفلاطون) والليقيون (مدرسة أرسطو المسماة أيضاً بمدرسة «المشائين» نسبة إلى الممشى المسقوف Peripatos الذي كان يدرس فيه) إلا أن الرواقية ظلت قائمة كمدرسة فلسفية

نشطة حتى القرن الثالث بعد الميلاد. وبعدئذ تدهورت حتى أغلق الامبراطور جستنيان كل المدارس الفلسفية في أثينا عام 529م.

وينقسم تاريخ المدرسة الرواقية إلى ثلاث مراحل:

(1) المرحلة الأولى أو المبكرة وتتمثل في زينون نفسه مؤسس المدرسة، وواضع كل النظريات الأساسية في تلك المرحلة. كذلك تتمثل في خليفتيه الشهيرين اللذين ترأسا المدرسة من بعده وهما كليانتيس (Cleantres)، وهو من مواطني بلدة آسوس باقليم طروادة (263 ـ 232)، وخريسيبوس (Chrysippus) وهو من مواطني بلدة سولى في كيليكيا (232 ـ 207).

وقد شملت مباحث المدرسة الأولى ثلاثة جوانب: أ) نظرية المعرفة والمنطق والبلاغة. ب) الوجود والطبيعة واللاهوت، جـ) الأخلاق.

ويتضمن المذهب الرواقي في تلك المرحلة النقاط الآتية:

أ) إن الفضيلة تقوم على المعرفة. والرجل العاقل (أو الحكيم) وحده هو الذي يعرف الحق، بل يعرف عين يقين أن الحق هو الذي يمكن أن يكون في الحقيقة شيئاً فاضلاً.

ب) إن غاية الفيلسوف أن يعيش وفقاً أو في وفاق تام مع الطبيعة والعقل أو اللوغوس (Legos) هو الجوهر المنشىء والموجه في الطبيعة. وبعبارة أخرى أن الطبيعة تنبثق من هذا العقل. وهذا العقل هو «الله» الذي يتجلى في صورة القدر (heımarmenê)، والقضاء المحتوم (Anankê) وفي العناية الالهية (Pronoia). كذلك يتجلى بطريقة خاصة في عقل الانسان. وأشد العناصر ارتباطاً باللوغوس (العقل) هي النار. ويتعرض الكون للفناء بالنار في احتراق عام يحدث دوريا من وقت لآخر (كل 10,800 مضروبة في 365). ثم ينشأ الكون بعد ذلك من جديد، وهكذا دواليك.

جـ) والفضيلة (أي الحياة وفقاً أو في وفاق مع العقل) هي الخير الوحيد، ونقيض ذلك هوالشر الوحيد. وعلى الرجل العاقل ألا ينساق وراء حواسه أو يستسلم لنزواته الفجائية أو انفصالاته العاطفية. فالرجل العاقل هو سيد نفسه ولا يأتي إلا بأعمال فاضلة تماماً. وما عدا ذلك لا أهمية له.

(2) المرحلة الثانية أو الوسطى للمدرسة الرواقية فتتمثل في شخص بنايتيوس (Panaetius) الرودسي (185 ـ 109 ق.م) وتلميذه بوسيدونيوس. وقد رفض بنايتيوس نظرية فناء الكون فناء دوريا بالنار متأثراً بالنظريات الأفلاطونية وعلى الأخص النظرية الأرسطالية عن خلود الكون وأبديته. كذلك أعاد النظر في المذهب الرواقي برمته مدخلاً عليه تعديلات كثيرة. وقد رأس المدرسة من عام 129 ـ 109 ق.م.

ففي «الأخلاق» ـ على سبيل المثال ـ رفض بنايتيوس النظرية القديمة القائلة بأن الرجل العاقل (عقلاً خالصاً) هو وحده الذي يمكن أن يكون فاضلاً. وكان يرى أن واجب الفيلسوف أن يساعد هؤلاء الذين يتقدمون في الحكمة والفضيلة دون أن يتطلعوا لبلوغ مرتبة العقل الخالص.

وأجدر من ذلك بالتنويه هو أن بنايتيوس قام بالتوفيق أو المواءمة بين المبادىء الأخلاقية الرواقية والاحتياجات العملية للحكام والساسة والجنود. وخفف من حدة المثالية كالقدرة إلى التجلد على المكاره ومجابهة الخطوب (Fortitudo) بالدعوة إلى الشهامة والنخوة، والاحسان، والتسامح وسعة الأفق. وكان بفضله أن أصبحت «الرواقية» عنصراً هاماً في حياة أقطاب الطبقة الأرستقراطية الرومانية. وكان لنظرياته في «الأخلاق» تأثير كبير على اسكيبيو أيميليانوس الذي أمضى بنايتيوس في صحبته بضع سنوات من حياته (144 ـ 141 ق.م). كذلك أثر عن طريق كتاباته على كاتو وبروتوس وشيشرون. والأخير ولو أنه كان يجاهر بأنه من أتباع الأكاديمية أي المدرسة الأفلاطونية إلا

أن أثر الرواقية واضح في بعض مؤلفاته مثل «العناية الالهية» و «طبيعة الآلهة» و «هدوء النفس».

وقد ابتدع أحد تلاميذ بنايتيوس مذهبا متكاملاً للفتوى في المسائل الأخلاقية أو لحل مثل هذه المشكلات، أو بالأحرى قام بدراسة وافية لمشكلات الضمير، مناقشاً فيها بالتفصيل كيف يكون سلوك الرجل العاقل في ظروف معينة، وعلىالأخص عندما يكون هناك تعارض أو صراع حقيقي أو يتوهم بين واجباته (أيطيع مثلاً القانون السماوي أو القانون الوضعي؟).

وكان بوسيدونيوس (135 ـ 50 ق.م) ـ من مدينة أفامية على نهر العاصي ـ هو الذي نقح مذهب المدرسة الأولى تنقيحاً شاملاً، ووضع فلسفة رواقية جديدة شاملة البحث في كل العلوم. وكان بفضله أن أثرت «الرواقية» في كثير من العلماء والفلكيين والجغرافيين (مثل استرابون). وقد تتلمذ عليه شيشرون في مدرسته بجزيرة رودس.

3) وفي المرحلة الثالثة من مراحل «المدرسة الرواقية» اقتصر البحث على المسائل الأخلاقية البحتة.

وكان من أبرز الفلاسفة الرواقيين في القرن الأول الميلادي الفيلسوف الروماني سينيكا (Seneca) وكرنوتوس (Cornutus) وموسونيوس روفوس (Musonius Rufus) ثم أبيكتيتوس (Epictetus) في نهاية ذلك القرن.

وفضلاً عن ذلك فإن «الرواقية» هي التي زودت أو أمدت الأرستقراطية الرومانية بمذهب فلسفي أو مبدأ خلقي ترتكز عليه لمناوءة الأباطرة المستبدين الذين حاولوا أن ينفردوا بالسلطة من دون السناتو أو يحكموا ضد مشيئة ذلك المجلس. فقاوم هلفيديوس بريسكوس وثراسيا بايتوس وغيرهما طغيان الامبراطور نيرون، وواجهوا الموت بشجاعة منقطعة النظير. كذلك لاقى الموت دون خوف أو وجل جونيوس بريسكوس الذي

ناوأ الامبراطور دوميتيان فأمر باعدامه. وجميع هؤلاء كانوا يجهرون باعتناقهم مذهب الفلسفة الرواقية.

وكان أهم ممثل للرواقية في القرن الثاني الميلادي هو ماركوس أوريليوس الامبراطور الفيلسوف (161 ـ 180م) الذي كتب باليونانية بحثاً بعنوان «مناجاة النفس» أو «التأملات».

وقد بدأ نجم المدرسة الرواقية في الأفوال في القرن الثالث الميلادي وإن كان المذهب الرواقي الفلسفي قد أثر تأثيراً هاماً في «الأفلاطونية المحدثة»، وفي أفكار بعض آباء الكنيسة المسيحية.

ونتابع الحديث عن صفات الرومان. هناك صفة أخرى تتفق تماماً وسائر صفاتهم وغالباً ما تخفى ملاحظتها. فمن اليسير أن ندرك أن الرومان لم يتمتعوا بملكة التخيل في الحياة العملية نظراً لأنهم كانوا في الأعمال اليدوية والعقلية شعبا غير خيالي. ويتمثل الخيال في الحياة العملية في روح المخاطرة، كما يلمسه الانجليز مثلاً في تاريخهم، فالقصص الخيالية التي شاعت بانجلترا في عصر اليزابت كانت صدى للمغامرات البحرية التي قام بها ملاحو ذلك العصر. ولم يكن الرومان شعبا مخاطراً لأنهم يفتقرون إلى ملكة الخيال اللازمة لاثارة روح المخاطرة. صحيح أنهم توغلوا في بلاد مجهولة، فبلغ يوليوس قيصر بريطانيا وعبر الراين، ولكن ذلك القائد العظيم، وهو روماني صميم، كان ذا نزعة علمية لا تخيلية. وقد فعل ما فعله جميع الغزاة من قبله، وما فعلوه من بعده: إذ كان يتقدم في ثباته، مؤمناً الطريق خلفه، متحسساً في حذر الطريق أمامه. وقد ألف كتاباً عن حروبه في بلاد الغال عاريا من أي مسحة من الخيال، لتحقيق أغراض عملية بحتة. غير أنه يوجد في الجيل السابق لقيصر استثناء صارخ في وسعنا أن نقول أنه يثبت القاعدة: فمن يقرأ في تراجم بلوتارخوس سيرة سرتوريوس (Sertorius) الشائقة، وهو إيطالي من المنطقة الجبالية وسط

شبه الجزيرة، يجد قصة زاخرة بالخيال والمغامرة[4].

من الواضح إذن أن الرومان لم يكونوا شعباً خيالياً بل شعباً عملياً يحس احساساً قوياً بمقتضيات الحياة الانسانية ومصاعبها. وفي الحق أنهم كانوا في طليعة الشعوب العملية، فأتاح ذلك لهم أن يمدوا حضارة البحر المتوسط بما كان ينقصها بعد أن قام اليونان بدورهم فيها. وكانوا يحسون تماماً بهذه الصفة في أنفسهم ويفخرون بها ونجد كاتو الأكبر Cato[5]، ينوه بها في مستهل العصر الذهبي للأدب اللاتيني فيقول أن الروماني المثالي في نظره هو الرجل المقدام الفعال (Vir Fortis et Strenuus). ويقول مؤرخ روماني كبير في عصر لاحق من عصور هذا الأدب، أن جميع المشروعات والأعمال ينبغي أن توجه لتحقيق الغايات المفيدة في الحياة (Ad Utilitatem Vitae). وفي الفترة المتوسطة بين هذين الكاتبين نجد الشعراء اللاتين يشيدون دون انقطاع بروح الاقدام والفضائل الأخرى التي جعلت روما مدينة عظيمة وجعلت إيطاليا أمة عظيمة تحت زعامة روما: «نحن شعب شديد المراس، نحمل أطفالنا إلى الأنهار ونعودهم قوة الاحتمال في المياه الثلجية القارصة. وهم في الصبا يقضون الليالي ساهرين على الصيد، ويرهقون الغابات، ورياضتهم هي كبح جماح الجياد وقذف النبال بالقوس فإذا بلغوا سن الشباب، يزداد جلدهم على المشاق، واحتمالهم للضنك، فيسخرون الأرض بمعاولهم أو يهزون المدائن في الحرب[6]. هذه الأبيات وان كان الشاعر يخاطب فيها السلالة الايطالية، إلا أنه قصد بها تذكير الرومان بحياة أسلافهم. وجميع الألفاظ التي كانت تروق الرومان لأنها تعبر عن خصائصهم القومية تتضمن نفس المعنى، مثال ذلك كلمة Pietas (الولاء والشعور بالواجب نحو الالهة والوطن والأسرة والأصدقاء)، **Gravitas** (الرزانة مع الشعور بالمسئولية) Eontientia (ضبط النفس)، **Industria** (الجد والاجتهاد)، و **Constantia** (الثبات والمثابرة)

ـ ومعظمها كلمات ورثتها اللغات الأوروبية عن اللاتينية ولا تحتاج إلى تفسير، وفي مقدمتها كلها كلمة Virtus (الرجولة)، التي كانت تعني في الأصل النشاط والشجاعة ثم اكتسبت بنضوج الحضارة معنى أخلاقياً أوسع. وفي وسعنا أن نسوق شواهد لا حصر لها على اعجاب هذا الشعب اعجاباً صادقاً بصفاته الحميدة. ولعل سيرة كاتو «الأكبر» التي يرويها بلوتارخوس ويمكن قراءتها في الأصل اليوناني أو في أي ترجمة تعطي القارىء فكرة عن هذه الصفات ممثلة في رجل واحد وهو كاتو.

لكن ينبغي أن نذكر أن هذه النزعة العملية في العقلية الرومانية كانت محدودة من بعض الوجوه بصورة تبعث على الدهشة. فمن المعروف أن الرومان لم يبرعوا في الصناعة أو التجارة. وكانت الزراعة مهنتهم الأصلية، ونشأت النقابات المهنية بروما في فجر تاريخها، ومع ذلك فإن قصة الزراعة لديهم قصة محزنة، ولم تصبح روما في يوم من الأيام مدينة صناعية كبيرة، ولكي يزاول الرومان الزراعة بطريقة علمية التجأوا إلى الترجمة عن لغة قرطاجة البونية، وتعلموا من الاغريق معظم الأساليب التجارية إذ أن موهبتهم في الشؤون العملية، جعلتهم يتجهون إلى فنون أخرى هي: الحرب والقانون والحكم.

ونستطيع أن نتبين هذه الموهبة الفريدة في جميع مراحل تطورهم: في الأسرة الزراعية التي كانت نواة جميع نهضتهم التالية، وفي «دولة المدينة» التي نبتت من تلك النواة، وفي الامبراطورية التي أنشأها قواد دولة المدينة ثم نظمها أغسطس وخلفاؤه. ونتبينها أيضاً في نظامهم العسكري الذي أحرزوا الامبراطورية بفضله. فلم يقاتل الرومان لكسب المغانم أو المجد فحسب بل لتحقيق أهداف عملية واضحة. ويقول المؤرخ تاكيتوس Tacitus (55 ـ 115م) في معرض حديثه عن قبيلة ألمانية واحدة تتمتع بقدر من هذه الموهبة أن الرومان لم يكن يعنيهم الانتصار

في المعارك بقدر ما يعنيهم كسب الحرب. ولا مراء في أنهم ارتكبوا أخطاء كثيرة ومنوا بهزائم عديدة. وطالما وفقوا في حل مشاكلهم اعتباطا أو ارتجالا ولكنهم كانوا لا يذعنون أمام الهزائم ويستفيدون من المصائب. ولنصغ مرة أخرى إلى كلمات كاتو الأكبر في كتابه «نشأة المدن» Origines الذي وضعه لابنه: «إن الملمات تروضنا وتعلمنا السلوك الرشيد، بينما تضللنا الانتصارات عن سبيل الرشاد». وهكذا سار الرومان من الهزيمة إلى النصر والفتح والحكم. وإنه لمن المجدي ألا يعرف المرء فقط بل أن يحفظ أيضاً عن ظهر قلب الأبيات المشهورة التي يجمل فيها فرجيل فكرة الرومان عن رسالتهم في العالم:

قوم آخرون (كالاغريق) قد يصوغون من البرونز تماثيل ناطقة تفيض بالرقة وينحتون من المرمر وجوها حية، ويبزونك في الخطابة القضائية، ويرصدون حركات الكواكب ويتنبأون بظهور النجوم. لكن أنت، أيها الروماني، ضع نصب عينيك أن تسود الشعوب بسلطانك، فتلك هي رسالتك: أن تفرض سنّة السلام وتصفح عن المقهورين وتقهر المتجبرين»[7].

وكانت هذه المقدرة على الحكم ـ وهي نفسها دليل التعود على النظام والطاعة ـ هي التي أتاحت لروما أن تصبح وريثة بلاد اليونان في حمل لواء الحضارة الأوروبية. وقد نشأت هذه المقدرة عن النزعة العملية البحتة لدى الرومان الأوائل الذين لم يعق نشاطهم المستمر شيء من الخيال أو التأمل أو الثقافة. ولولا ما توافر للرومان من مقدرة على الحكم لساورنا الشك في أن حضارة اليونان كان يكتب لها النجاة عندما هبت العواصف من الشمال: وانقضت جحافل المتبريرين في آخر الأمر على الأراضي الجنوبية الساطعة بنور الفكر اليوناني والمزدانة بتحف الفن اليوناني. فنحن لسنا مدينين للنظام والقانون والحكم الروماني ببعض ما نتمتع به حتى اليوم من فوائد ملموسة في حياتنا اليومية فحسب بل مدينون كذلك بحماية ما في حوزتنا الآن من كنوز العبقرية اليونانية.

ميزات موقع روما:

تكلمنا من قبل عن الشعوب الايطالية التي كتب لها أن تحل محل الاغريق في تاريخ العالم. ولنعد لحظة إلى نهر التيبر ونركز النظر على الخمسة وعشرين ميلاً الأخيرة من مجراه حيث يفصل المجرى سهل لاتيوم عن الشعب الأتروسكي القاطن إلى الشمال. كان الخطر الذي يتهدد اللاتين من ناحية الأتروسكيين أشد على اللاتين منه على الأومبريين أو السابلّين، فلم يكن هناك سوى النهر يفصل بينهم وبين أعدائهم. ومن المؤكد أن الأتروسكيين كانوا يناصبونهم العداء وقد عقدوا العزم على التوغل جنوباً مثلما فعل الدنمركيون في انكلترا في القرن التاسع الميلادي. وكان لدى اللاتين قلعة طبيعية رائعة قائمة في وسط السهل اللاتيني عند البركان الخامد على جبل ألبا الذي يرتفع حوالي 3000م فوق مستوى البحر. وقد نشأت عند هذا المكان، وفقاً لرواية محققة، مدينتهم الرئيسية الأولى ألبا لونجا (Abla Longa). ولكن هذه القلعة كانت عديمة الجدوى ضد الغزاة الزاحفين من الشمال. فالنهر هو الذي أصبح ذا أهمية حيوية لاقليم لاتيوم بعد أن وطد الأتروسكيون مركزهم شماله وتوجد على الضفة اليسرى أو الشرقية لنهر التيبر عند مكان يبعد حوالي عشرين ميلاً من مصبه مجموعة من التلال الصغيرة يبلغ ارتفاعها حوالي 160 قدما، ثلاثة منها تكاد تكون منعزلة عن الأراضي الواقعة وراءها، وتتاخم مجرى النهر. وفي شرقيها تقع أربع تلال أخرى في نفس السهل تنحدر سفوحها الشمالية انحداراً شديداً في اتجاه التيبر[8]. وتقوم أيضاً في هذا المكان جزيرة في النهر كان في وسع العدو أن يعبر النهر عندها بسهولة. وعلى هذه الجزيرة نشأت في تاريخ غير مؤكد (اتفق فيما بعد على أنه سنة 753 ق.م)[9] مدينة تسمى روما (Roma) لتكون في أكبر الظن بمثابة قلعة دفاعية ضد العدوان الأتروسكي، ومنذ ذلك الحين كانت هناك دائماً مدينة تحمل هذا الاسم. ومن المرجح أنها كانت في الأصل نقطة حراسة أمامية أنشأتها مدينة

ألبالونجا التي اندثرت على مر الزمن، وهذه هي الرواية التي كانت متداولة في العصور التالية. وإذا سلمنا بأن الباعث الحقيقي على تأسيس المدينة كان هو الدفاع عن لاتيوم ففي وسعنا أن نطرح جانباً الأساطير الكثيرة التي حيكت حول هذا الموضوع.

لقد بدأت روما تاريخها الرائع كمركز دفاعي أمامي لشعب تربطها به أواصر القرابة في مواجهة عدو لا تربطها به أي أواصر. فلو استطاعت أن تحتفظ بموقعها هذا لما كان هناك شك في أنها مقدمة على مستقبل باهر. والحق أن موقعها على التيبر كان أفضل مكان في إيطاليا من الناحية الاستراتيجية. فهو يقع ـ كما يقول المؤرخ الروماني الكبير ـ في قلب شبه الجزيرة، وكان اتصالها بالبحر ميسوراً سواء عن طريق البر أم عن طريق النهر، كما كان السبيل مفتوحاً أمامها إلى وسط إيطاليا عن طريق وادي التيبر، وهو المدخل الطبيعي الوحيد من البحر. وهي تبعد عن البحر مسافة تجعلها في مأمن من اغارات القراصنة، ومع هذا فهي قريبة منه قرباً يتيح لها الاتصال بشعوب أخرى بواسطة السفن. وكان في وسعها عندما تتعرض للهجوم البري من جهات مختلفة أن تضرب الأعداء من خطوطها الداخلية وأن تشن عليهم الهجوم من قاعدة واحدة في نفس الوقت. ولم يجرؤ أحد على مهاجمتها من البحر إلا بعد أن اضمحلت قوتها فاستطاع جيسرك Gaisericus الوندالي أن ينزل قواته في ميناء أوستيا Ostia عام 455م. ونستطيع أن نقول بوجه عام أن ميزة الموقع التي تمتعت بها روما لم تتح لأي مدنية أخرى في إيطاليا للسيطرة على جميع شبه الجزيرة، وان الاتروسكيين علموها عن غير قصد كيف تستغل هذه الميزة الكبيرة في فجر تاريخها. وهكذا آلت الزعامة في إيطاليا إلى الشعب الروماني لاضطراره إلى مقاومة الاتروسكيين مثلما أقام سكسون الغرب مملكتهم ووطدوا سيادتهم في انجلترا لاضطرارهم إلى مقاومة الدنمركيين.

هوامش ومراجع

1 ـ وأوسع هذه الأساطير انتشاراً، وربما أجملها جميعاً، هي أسطوورة كريولانوس (Coriolanus)، التي اقتبسها شكسبير من بلوتارخوس (Plutarchus) (وهو الكاتب الفلسفي اليوناني المشهور صاحب مؤلف «سير العظماء اليونان والرومان في القرن الأول الميلادي)، وبذلك قدر لها الخلود. وأما عن كريولانوس فكان في الأصل جندياً رومانياً بسيطاً ارتفع إلى مصاف الأبطال بانتصاراته الحربية على الفولسكيين (Volsci) واستيلائه عى بلدتهم كوريولي (Corioli) التي اشتق منها لقبه. ولما رفض الرومان انتخابه قنصلاً اشتد به الغضب وأخذ يتصرف تصرفاً استبدادياً واعترض على توزيع القمح على العامة بالمجان فثاروا عليه وكادوا يفتكون به. ولكن السناتو توسط فقدم للمحاكمة وقضى عليه بالنفي فالتجأ إلى الفولسكي أعدائه القدامى وحرضهم على مهاجمة روما وتولى قيادة جيشهم ضد المدينة. وعبثاً حاول الرومان استرضاءه. واقناعه بالانسحاب. وأخيراً خرجت إليه أمه وروحته (في عام 491 ق.م)، وتوسلتا إليه بعد لقاء مؤثر أن يرتد عن المدينة فلان قلبه وأحس بالندم فأمر قواته بالانسحاب مما أثار عليه حنق الفولسكي فأعدموه.

2 ـ Quintilianus, Inst, Orat, X. I 43: Satura tota nostra est.

3 ـ أبيقور فيلسوف أثيني عاش فترة في جزيرة ساموس وفي آسيا الصغرى. افتتح مدسة فلسفية في حديقة (Kêpos) اشتهرت فيما بعد في أثينا عام 311/310 ق.م كان مذهبه الأخلاقي في الفلسفة يدعو إلى تحرير الانسان من الخوف من الموت والآلهة والقوى الخارقة والطبيعية التي تحيط به. وكان ينادي بالابتعاد عن كل ما من شأنه أن يسبب القلق والاضطراب، وينصح بالتالي بعدم الاشتغال بالسياسة أو شغل المناصب العامة، وكذلك بعدم الرواج وعدم انجاب أطفال. ويحض الناس على الانزواء والانطواء والاختفاء عن الأعين. وفي مذهبه أن الهدف الطبيعي للانسان وخيره الأسمى هو الابتهاج أو اللذة. ولا يقصد بذلك اللذة الحسية الناجمة عن الانغماس في الشهوات، إنما يقصد اللذة السلبية في جوهرها وهي التحرر من الخوف والألم والاضطراب، واطمئنان النفس، وراحة الجسم والبال (Ataraxia).

4 ـ عن سرتوريوس، أنظر كتابنا «التاريخ الروماني» عصر الثورة.

5 ـ كان كاتو L.Porcius Gato قطبا من أقطاب الرومان، عاش بين (234 ـ 149) ق.م. وشهد في شبابه الحرب البونية الثانية، وتولى عدة مناصب عسكرية ومدنية كان من بينها القنصلية في عام

195 ق.م ثم انتخب كنسورا (Censor) أي رقيبا في عام 184 ق.م. فقام بتطهير مجلس السناتو وهيئة الفرسان من العناصر الفاسدة وقد أخذ على عاتقه إصلاح الأحوال الأخلاقية والاجتماعية المتدهورة في عصره، فحارب البذخ في المدينة والابتزاز في الولايات والمؤثرات اليونانية التي

وقد زار قرطاجة في 157 (أو 153؟) ونادى بتدميرها مخافة أن تنهض ثانية فتناوىء روما من جديد، وقد تم تدميرها في 146 ق.م. بعد وفاته بسنوات قليلة. وكان كاتو خطيباً مفوهاً وكاتباً قديراً فألف لابنه موسوعة تشتمل على علوم كثيرة منها التاريخ والبلاغة والزراعة والقانون والحرب. وقد اشتهر برجعيته وصلابته وصرامته ونزاهته. وسمي بالأكبر Maior للتفرقة بينه وبين ابن حفيده الذي كان يحمل اسمه وورث عنه صفات كثيرة وحمل لواء المعارضة ضد يوليوس قيصر (95 ـ 46 ق.م). ورفض الاستسلام له وانتحر في أوتيكا (Utica) قرب قرطاجة ومن ثم فقد لقب «بالأوتيكي» وعنه أنظر كتابنا «التاريخ الروماني» عصر الثورة ص 278 وما بعدها.

6 ـ فرجيل، الأينيادة، الكتاب 9، أبيات 103 ـ 608:

Durum a stirpe genus natos an flunina primum

Deferımus saevoque gelu duranus et undis;

Uenatu ınvigilant pueri silvasque Iatigant,

Flectere ludus equos et spicula tendere cornu;

At patıens operum parvoque adsueta iuventis

7 ـ الآيسيادة، الكتاب 6، أبيات 847 ـ 853:

Excudent alıı spırantia mollius aera,

(Credo equıdem), vivos ducent de marmore voltus;

Orabunt causas melius, caelique meatus

Descrıbent radıo et surgentia sidentia dicent:

Tu regere ımperio populos, Romane, memento

(Hae tıbi erunt artes) pacisque imponere morem,

Parcere subiectıs et debellare superbos.

8 ـ والتلال الثلاثة الأولى المتاخمة للنهر هي الكابيتول Capitolium والبلاتين Palatıum والأفنتين Aventinus. وفي شرقيها تقع التلال الأربعة الأخرى وهي الكايليوس Caelius والاسكويل Esquiliae والفيمينال Vıminalis والكورينيال Quirinalis. ومن هذه

التلال نشأت تسمية روما «بالمدينة ذات التلال السبعة» في القرن الأخير من عصر الجمهورية. وقد امتدت رقعة المدينة فيما بعد حتى شملت أيضاً تل يانيكولم **Ianiculum** وهو التل الوحيد الواقع على الضفة اليمنى أو الغربية لنهر التيبر.

وقد تبين من الكشوف الأثرية الحديثة أن أقدم التلال التي سكنت هي البلاتيوم والاسكويل والأراضي المنخفضة الواقعة بينهما. وكانت الجماعات الأولى التي نشأت في هذه المنطقة تشترك في الاحتفال بعيد ديني في شهر ديسمبر يعرف باسم «عيد التلال السبعة» **Septimontium** وليس ثمة علاقة بين اسم هذا العيد والتلال السبعة المذكورة أعلاه.

9 ـ وكانت الأحداث تؤرخ بالقياس إلى هذه السنة فيقال حدث الحادث الفلاني بعد مرور كذا من السنين على تأسيس المدينة (**ab urbe condita**).

الفصل الثامن

روما سيدة ايطاليا

طرد الأتروسكيين وقيام الجمهورية:

لا نعرف كم من الوقت ظلت روما محتفظة بخط وادي التيبر الأدنى ولكن ليس هناك شك في أنها فقدت سيطرتها عليه في غضون القرن السادس ق.م.،[1] بل وقعت هي نفسها في يد الأتروسكيين (Etrusci). ومع أنه لم يرد لهذه الرواية ذكر في حولياتها الأسطورية إلا أنه لدينا من الأدلة القاطعة ما يؤكد صحتها. فالملوك الثلاثة الأواخر الذين حكموا روما كانوا فيما يبدو أتروسكيين، كما كان معبد جوبيتر (Jupiter) الكبير على تل الكابيتول، الذي أنشيء في ذلك الوقت ذا طراز اتروسكي وكانت زخارف سقفه متمشية مع أصول الفن الاتروسكي، ولا تزال بعض أحجار أساسه قائمة حتى اليوم.

وكان يوجد جنوبي هذا المعبد في اتجاه النهر طريق يحمل اسم الاتروسكيين ولدينا قرائن أخرى على الغزو لا يتسع المقام لذكرها تفصيلاً. وعلى أي حال فهناك ما يحمل على الاعتقاد أن هذا العدو العنيد اجتاز التيبر وزحف على المدينة وطوقها واستولى عليها.

ولم يكن من عادة الاتروسكيين لحسن الحظ تدمير المدن التي يستولون عليها بل كانوا يحتلونها ويستفيدون منها. ويبدو أنهم اتخذوا من روما مركزاً لنشر نفوذهم في لاتيوم، فبنوا معبداً لجوبيتر اللاتيني (Jupiter Latiaris) على جبل ألبا وقد أصبح هذا المعبد مركزاً لعصبة دينية تألفت من المدن اللاتينية تحت زعامة

ألبالونجا (Alba longa). وقد نشأت بعد ذلك في القرن السادس عصبة لاتينية أخرى تسمى عصبة فيرنتينا (Ferentina) ذات طابع سياسي أكثر منه ديني وكان مركزها في معبد الربة ديانا (Diana) وغابتها (nemus) الشهيرة في بلدة أريكيا (Aricia) الواقعة على بعد حوالى 16 ميلاً من روما. وقد استمرت حتى القرن الرابع. ومن المحتمل أن تأسيس معبد للربة ديانا على تل الأفنتين المطل على التيبر كان محاولة من جانب أحد الملوك الأتروسكيين لنقل مركز عبادة ديانا والعصبة اللاتينية إلى روما. ومع ما يكتنف جميع أحداث الفترة الاتروسكية من غموض وشك إلا أنه يلوح كما لو كان ضياع خط الدفاع قد بعث في المدينة المقهورة أملاً جديداً في الحياة وفتح عينيها على آفاق واسعة، وهيأ لها فرصا جديدة. لكن هل كانت روما لتبقى مدينة اتروسكية؟ هذا السؤال يذكرنا بآخر في التاريخ الانجليزي: هل كانت انجلترا لتصبح بلداً نورمنديا ـ فرنسياً بعد «الغزو»؟

ويبدو أن الاتروسكيين تعرضوا حينئذ لاغارات قبائل الغال (Galli) الزاحفة من الشمال. وكانت هذه القبائل قد اجتاحت شمال أوروبا الغربي وعبرت جبال الألب وانقضت على حوض البو ثم توغلت جنوبا. ولعل هذا يفسر الحقيقة المؤكدة وهو أن روما استطاعت أن تتخلص من الحكم الأتروسكي قرب نهاية القرن السادس، وأن العشائر الرومانية الشريفة (gentes patriciae) اتحدت وطردت الملك الدخيل تاركوينيوس «المتغطرس» (L. Tarquinius Superbuts)[2]. وأقامت جمهورية (Res Poblica) أرستقراطية الطابع في عام 509. وأصبحت كلمة ملك (Rex) منذ ذلك الحين تثير امتعاض الرومان، وانتقل الحكم إلى أيدي حاكمين كانا ينتخبان سنويا ويتمتعان بسلطة مطلقة في ميدان الحرب وسلطة محدودة داخل المدينة. وسنعالج في الفصل التالي نظام الحكومة الجديد بشيء من التفصيل. وحسبنا أن نقول هنا أن هذين الحاكمين كانا يسميان بالقنصلين (Consules)، وأنه كان يوجد إلى جانبهما ـ مثلما كان للملوك

من قبلهما ـ على ما يرجح ـ هيئة استشارية مؤلفة من رؤساء الأسر الشريفة تعرف بالسناتو (Senatus) أي مجلس الشيوخ. ولنتابع الآن قصة التوسع الروماني في ايطاليا.

المعاهدة بين روما والعصبة اللاتينية:

تحدثنا الأسطورة أن الأتروسكيين قاموا بمحاولة يائسة لاسترداد روما. وهي قصة مثيرة شيقة سردها ماكولي سرداً رائعاً في «أغاني روما القديمة»[3]. بيد أنه لا مناص من أن نغفل هنا هذه القصة لأننا لا نستطيع التحقق منها[4].

وسرعان ما نلتقي بعد ذلك بحدث يبدو أنه حقيقة تاريخية، وهو المعاهدة التي عقدتها روما مع المدن اللاتينية الأخرى في عام 493، وظل نصها محفوظاً قرونا عدة. ويتضح من هذه المعاهدة المعروفة باسم «معاهدة كاسيوس» (**Foedus Cassium**) أن روما ولاتيوم أصبحتا منذ ذلك الحين قوة متحدة. وكانت هذه هي أول خطوة عملية خطتها روما نحو التوسع في ايطاليا. وقد نصت هذه المعاهدة على أن يتبادل الطرفان المساعدة في حالة الحرب، إذ كانت روما محتاجة إلى المساعدة ضد الأتروسكيين وكانت المدن اللاتينية التي تقع في الطرف الجنوبي من السهل معرضة لهجوم القبائل الساكنة بالتلال في الشرق والجنوب.

وأهم من ذلك كدليل على التقدم الحضاري أن المعاهدة نصت على تبادل حقوق المواطنة الخاصة أي أقرت مبدأ توحيد نظام القانون الخاص فأصبح في وسع أي مواطن من مدينة لاتينية (بما في ذلك روما بداهة) أن يبيع ويشتري ويمتلك في أي مدينة أخرى (أي التمتع بما يعرف بحق التعامل Commercium)، وهو مطمئن تماماً إلى حماية قانون تلك المدينة لما يبرمه من عقود. وإذا تزوج امرأة من مدينة أخرى فزواجه شرعي ويرث أبناؤه أملاكه وفقا للقانون (وهو ما يعرف

بحق الزواج Conubium) وبذلك قطعت روما شوطا بعيداً في طريق ادماج جميع لاتيوم في دولة واحدة. وقد تساوت كل المدن في الحقوق وارتبطت فيما بينها بعلاقات قائمة على أساس قانوني. وهذان مظهران رئيسيان من مظاهر الاتحاد الحقيقي. وكانت الاتحادات بأنواعها جميعاً أفضل من عزلة المدينة ـ الدولة أو المدينة الحرة التي أصبحت وقتئذ عاجزة بمفردها عن اخماد الثورات أو الوقوف في وجه الغزاة. ويبدو أن المعاهدة المشار إليها كانت ثمرة جهد أحد الساسة ولو صح أنه كان سبوريوس كاسيوس (Spurius Cassius)، السياسي الروماني، كما تروى القصة، فإن روما تكون قد أحرزت أول انتصار لها في فن الحكومة السياسية، ذلك الفن الذي سيطرت به على العالم فيما بعد.

ولنتوقف هنا لحظة لنشرح معنى بعض مصطلحات أشرنا إليها إشارة عابرة لكنها بالغة الأهمية: مصطلحات «كحقوق المواطنة الرومانية» و «حق التعامل»، و «حق الزواج» مما يساعدنا على تتبع الخطوات التي خطتها روما وإيطاليا وانتهت بالاتحاد تحت زعامتها:

يعبّر عن حقوق المواطنة (الجنسية) بلفظ كيفيتاس Civitas. وكانت حقوق المواطنة أو الجنسية الرومانية (Civitas Romana) تتضمن الآتي:

1) الحقوق المدنية أو الخاصة (Iura privata) وهي «حق الزواج كامل الأهلية» المسمى كنوبيوم Conubium، وحق التعامل المسمى كومركيوم Commercium. ومعنى «كنوبيوم» أصلاً هو الزواج كامل الأهلية بين طرفين كل منهما روماني. والأبناء من هذا الزواج شرعيون ويرثون من أبويهم وبالعكس وفقاً للقانون الروماني. وللآباء حق الأبوة، وللأبناء حق البنوة. وأما حق التعامل فمعناه حق الروماني في أن يبيع ويشتري ويبرم العقود وفقاً للقانون الروماني مع حماية هذا القانون لتصرفاته ما دامت سليمة، وحقه في التقاضي أمام محكمة بريتور المدينة (Praetor Urbanus).

2) الحقوق السياسية أو العامة (Iura publica) وتشمل حق الاقتراع على المشروعات وانتخاب الحكام في الجمعيات الدستورية المختلفة، وهو ما يسمى بحق الـ Suffragium أي حق الانتخاب. وكذلك حق المواطن في ترشيح نفسه للمناصب العامة المسماة honores.

ولقد سميت كذلك (honores) لأنها كانت في واقع الأمر شرفا وامتيازا لا يحصل عليه إلا القلة. ذلك أنه كان يحد من الحقوق السياسية في روما اشتراط امتلاك نصاب معين من الثروة (وان كان هذا الشرط الأخير قد ألغي فيما بعد بالنسبة للجمعية القبلية). وضرورة وجود الشخص في روما نفسها لممارسة أي من الحقين.

3) حق التظلم من أحكام الاعدام أمام «الجمعية المئوية» ومن الغرامات الفادحة أمام «الجمعية القبلية»، وهو أشبه ما يكون بحق الاستئناف. ويسمى بروفوكاتيو (Provicatio ad populum)، أي حق التظلم إلى الشعب.

ـ وأما عن واجبات المواطن الروماني (Munera) فكان أهمها واجب تأدية الخدمة العسكرية (Munus Militare). فلما ألغي مبدأ الخدمة الالزامية فيما بعد انحصرت واجبات المواطن فيما كان يفرض على الرومان من ضرائب معينة كضريبة الميراث (التركات) وضريبة المبيعات.

كانت الجنسية الرومانية تكتسب بطريقين:

أ ـ بالمولد أي أن يكون الوالدان رومانيين، ولو أنه كان يجوز أن يكون أحدهما أجنبيا (Peregrinus) حاصلاً على الكنوبيوم (Conubium) الذي أشرنا إليه من قبل.

ب ـ بمنحةٍ وفقا لقرار من الجمعية الشعبية (القبلية).

وقد منحت روما اللاتين (وبعدئذ الحلفاء الايطاليين) حق التعامل معها بمعنى أن يصبح من حق اللاتيني أو الايطالي أن يبرم مع الروماني عقودا وفقا

لقواعد القانون الروماني. وتصبح العقود واجبة النفاذ وملزمة أمام المحاكم الرومانية دون اللجوء إلى تحكيم القانون المسمى «بقانون الشعوب» (Ius gentium)، وهو قانون الدويلات أو الأمم الأخرى، والذي تأثر به القانون الروماني بالتدريج. وبدون «حق التعامل» لا يستطيع اللاتيني أو الايطالي أن يحصل على حقوقه إلا باللجوء إلى بريتور الأجانب (Praetor peregrinus)، وهو الحاكم القضائي الروماني الأعلى الذي كان مختصا بالنظر في المنازعات القضائية التي تثور بين الرومان والأجانب، أو تثور فيما بين الأجانب.

ومنح «الكنوبيوم» معناه اعطاء الحق في أن يعقد طرف زواجا شرعيا مع طرف من دولة أخرى دون أن يسقط حق أي من الطرفين في الوراثة أو التوريث أو الأبوة (أي شرعية الأبناء).

وبمقتضى «قانون مينوكيوس» الصادر قبل عام 90 ق.م كان أبناء الأبوين غير المتمتعين «بالكنوبيوم» يتبعون جنسية الطرف الأدنى وضعا (أي غير الرومان) فكان الروماني الذي يتزوج بامرأة لاتينية أو ايطالية دون الحصول على «الكنوبيوم» يكتسب أولاده جنسية الأم (الأجنبية).

لكن نشأ مبدأ عام عند الرومان وهو أن المرأة الرومانية إذا تزوجت بأجنبي يتبع أبناؤها جنسيتها أي يصبحون مواطنين رومانيين. مع بقاء الزواج غير متكافىء. فلا يرث الأبناء من أبيهم غير الروماني.

وفي الواقع أن منح «حق التعامل» (Commercium) أو حق الزواج كامل الأهلية (Conubium) للأجانب (Peregrini) ظلّ أمراً استثنائياً.

كانت الخدمة في الفرق الرومانية المسماة لجيونيس (Legiones) مقصورة على المواطنين الرومان. لكن فيما بعد وعلى الأخص في عصر الامبراطورية سمح للأجانب بالخدمة في القوات المساعدة (auxilia) وفي وحدات الأسطول الروماني (Classia) وكانت الخدمة العسكرية فيها طويلة تستمر 25 أو 26

عاماً. وكان الزواج محرماً على الجنود (جميعاً) أثناء الخدمة. ولا تعترف الحكومة بشرعية الزواج الذي يعقده أي من الجنود أثناء الخدمة العسكرية. ولا تعترف بأن من يتزوجها الجندي زوجة شرعية (Uxor)، وإنما تعتبرها امرأة عادية (Mulier) أو محظية (Concubina) أو رفيقة (amica). ويعتبر الأبناء من هذا الزواج غير شرعيين، أي طبيعيين (Naturales) لا أب لهم أو من أب مجهول أي غير شرعي. لكن هؤلاء الأبناء كانوا ـ من حيث الجنسية ـ يتبعون حالة الأم فيكونون رومانيين إذا كانت رومانية، وأجانب إذا كانت أجنبية[5].

ـ لكن في عصر الامبراطورية كانت الحكومة تمنح جنود القوات المساعدة ووحدات الأسطول (ومعظمهم من الأجانب) عند تسريحهم من الخدمة تسريحاً مشرفاً أولاً الجنسية الرومانية مكافأة لهم على خدمتهم الطويلة، وثانياً «الكنوبيوم» أي حق الزواج الروماني حتى يتمكنوا ـ إذا شاؤوا ـ أن يتزوجوا من أجنبيات فتصبح الزوجة كأنها رومانية من الناحية الواقعية لا من الناحية القانونية، ويصبح الزواج كأنه كامل الأهلية، ويكون الأبناء من هذا الزواج مواطنين رومانيين مع بقاء الأم الأجنبية على وضعها دون تغيير، فلا تكتسب الجنسية الرومانية، وتظل أجنبية. ولا يستطيع زوجها (الروماني) ولا أبناؤها (الرومان) أن يرثوا منها، ولا العكس، حيث أن القاعدة العامة أن لا يجوز أن يرث الروماني إلا روماني مثله.

ـ كذلك كانت الحكومة الرومانية (في عصر الامبراطورية) تمنح الجنود المسرحين من كتائب الحرس البريتوري (في روما) وكتائب المدينة (روما) تمنحهم ـ مع أنهم رومانيون ـ حق الكنوبيوم وحده لكي يتمكنوا من الزواج (بعد التسريح) من أجنبيات، ولا يعرف أحد حتى الآن معرفة اليقين السبب في ذلك، حيث أن الحكومة الرومانية لم تكن تشجع زواج الرومان من أجنبيات، وتحرم على الجنود أثناء الخدمة الزواج لاعتبارات خاصة بالأمن ولا سيما على الحدود. وإذا كانت قد منحتهم الكنوبيوم، فذلك بعد التسريح حتى يصبح أبناؤهم رومانيين مثلهم

مراعاة للعدالة وأما أن تمنح المسرحين من كتائب الحرس البريتوري وكتائب المدينة حق الكنوبيوم لتمكينهم من انجاب أبناء رومان من أجنبيات، فهو أمر غير مفهوم. لكن من المرجح أن الحكومة فعلت ذلك لأن أحد الأباطرة منح هؤلاء الجنود (من الحرس البريتوري وكتائب المدينة) هذا الامتياز فظلوا متمسكين به ولم يحاول خلفاؤه سحبه منهم نظراً لازدياد قوتهم وأهميتهم. ولعل وجودهم في روما (خارج السور) لم يجعل من زواجهم بأجنبيات (بعد التسريح ما يشكل خطراً على أمن الامبراطورية وسلامة حدودها.

وقد رفع حظر الزواج عن الجنود في عهد الامبراطور سبتميرس سفيروس (197 م).

وعلينا قبل المضي في سرد القصة أن نلقي نظرة على موقع لاتيوم وكيف كان هذا الاقليم من الناحية الجغرافية أكثر ملاءمة من المناطق الجبلية لكي يقوم فيه اتحاد كان اقليم لاتيوم، كما يتبين من اسمه، سهلاً ملائماً بطبيعته، كاقليم بويوتيا (Boeotia) في بلاد اليونان، لقيام اتحاد فيدرالي، بينما كان من العسير دائماً على القبائل القاطنة بالجبال أن تتحد. وفضلاً عن ذلك فإن اللاتين كانوا مكتظين في مساحة ضيقة نسبياً بين التلال والبحر، وكان ذلك مدعاة لتركيز قوتهم، على حين أن الأتروسكين والشعوب الايطالية المختلفة كانوا يتنقلون باستمرار بحثاً عن مواطن أفضل مما كان يبدد قوتهم ويضعف تكتلهم.

وفي تلك الاتحادات القديمة كانت المدينة القوية بين أعضائها تتملكها دائماً الرغبة في أن تحتل مركز الزعامة، على نحو ما نراه في الاتحادات الحديثة، كالاتحاد السويسري مثلاً، حيث تنزع السلطة المركزية دائماً إلى بسط نفوذها على سائر المقاطعات. ولا ريب في أن روما سرعان ما أحرزت نوعا من الزعامة في لاتيوم. فموقعها الممتاز على التيبر، والجهد المتصل الذي بذلته في مقاومة الأتروسكيين، هذان العاملان رجحا كفتها على المدن اللاتينية الأخرى التي لم

تتعرض إلا لاغارات متقطعة من أعداء أقل تحضراً من الأتروسكيين. وقد اضطر الشعب الروماني إلى الكفاح وأعمال الفكر باستمرار مما أكسبه الشجاعة في القتال وأكسبه أيضاً قوة الاحتمال والحنكة السياسية والتبصر في الأمور.

فبعد طرد الملوك في عام 510 وجد الرومان أنفسهم مشتبكين في صراع مستمر زهاء قرن من الزمان مع فيي (Veii)، المدينة الأتروسكية العظيمة التي تقع فوق ربوة مرتفعة على مسيرة أميال من روما شمالي النهر، وكذلك مع فيدنأي (Fidenae) وهي بلدة سابينيه تقع شمال روما على التيبر، وقد استخدمها مواطنو «فيي» قاعدة للهجوم على الرومان من تلك الناحية. فلا عجب أن دمر الرومان فيي تدميراً تاما عندما سقطت في أيديهم في عام 392 ق.م بعد حصار زعموا أنه استغرق كحصار الاغريق لطروادة عشر سنوات. ويقال أنهم فكروا في ترك مدينتهم على التيبر والهجرة إلى ذلك المكان المرتفع. ولكن الحكمة تغلبت فنبذوا الفكرة. وقد نهبت «فيي» ونقلت ربتها جونو (Iuno) إلى روما، وما يزال مكانها قفرا إلى اليوم.

وكان هذا الصراع الطويل الذي استنجدت فيه روما بداهة باللاتين هو ما هيأ لها الفرصة لتتولى زعامة العصبة اللاتينية. وما أن انتهى الصراع حتى غيرت روما سياستها ازاء اللاتين. ومن المرجح أنها بدأت تعامل المدن الأخرى معاملة مشوبة بالصلف مما اثار عليها سخط هذه المدن. بيد أننا لا نعرف شيئاً مؤكداً عن هذا الموضوع. وما نعرفه على وجه التحقيق هو أن اللاتين تخلوا عن روما عندما حلت بها كارثة في أوائل القرن الرابع ق.م.

غزو الغال روما وانسحابهم:

كانت هذه الكارثة هي نهب روما بعد أن سقطت في يد الغال (Galli) في عام 390 ق.م[6]. وكانت احدى قبائلهم قد زحفت من حوض البو على

وادي التيبر وأخذت الرومان على غرة وهزمتهم شر هزيمة عند نهر أليا (Allia) الصغير، أحد فروع التيبر، على مسيرة اثني عشر ميلاً من المدينة. وكان الغال متبربرين شديدي البأس في القتال، فأثاروا الرهبة في قلوب الرومان ولكنهم كانوا كالشعوب الكلتية الأخرى عاجزين عن تكوين دولة موحدة مستقرة، أو الانتفاع بانتصاراتهم. ولذلك انسحبوا من روما بنفس السرعة التي جاءوا بها. ولم يتركوا وراءهم سوى ذكرى لم تنمح أبداً عن الرعب الذي نشروه وقصص كثيرة عن أهوال تلك المحنة. وأكثرها دلالة على الروح الرومانية هي القصة التي تبين مدى ما كان يكنّه الرومان من إجلال للسناتو، وهو أعظم هيئة سياسية لديهم. فقد فر المواطنون أمام الغال إلى الكابيتول حيث اعتصموا بالقلعة وظلوا صامدين إلى أن وصلتهم النجدة. لكن الشيوخ ممن تخطوا سن الجندية عقدوا العزم في تلك الأثناء على مجابهة الموت ناذرين أنفسهم لآلهة العالم السفلي (Di Manes)[7] وفقاً لعادة نذر النفس (devotio) وهي عادة دينية قديمة كانت تتبع في ساعة بلوغ الخطر اقصاه[8]. فجلس كل منهم على مقعد أمام داره متشحا بزيه الرسمي. ووجدهم الغال في أماكنهم على هذا الحال فاستولت عليهم الدهشة حتى خيل إليهم أنهم ليسوا من البشر. وأخيراً اجترأ أحد الغال فضرب لحية شيخ منهم يدعى بابيريوس (Papirius)، فضربه بابيريوس على الفور بعصاه العاجية ولكنه قتل في الحال، ولم يبق على قيد الحياة أحد من الشيوخ. وليس ثمة ما يدعونا إلى مناقشة صحة هذه القصة لأنه من المستحيل التحقق منها ولكنها قصة متسمة بالطابع الروماني، متمشية، من الناحية الدينية، مع القصص الأخرى التي تواترت عن تضحية الفرد بنفسه في سبيل الدولة.

حل العصبة اللاتينية:

وكانت المحنة درسا قاسياً للرومان فبدأوا يستفيدون منه بعد رحيل

الغال. وقد أدركوا أنه لا مناص من أن يشددوا قبضتهم على المنطقة الواقعة في شمال روما. وتحقق لهم ذلك بإدماج جانب كبير منها في الأراضي الرومانية وانشاء مستعمرتين (Coloniae) هناك. وكانت المستعمرات الرومانية في إيطاليا في الواقع حصوناً ترابط بها حاميات على الطرق العسكرية.

وبعدئذ شرع الرومان يصفّون حسابهم مع زملائهم أعضاء العصبة اللاتينية الذين استشعروا شيئاً من الغبطة في اذلال زعيمتهم على يد الغال لأنهم كانوا يغارون منها ويرتابون في نواياها. وقد بدأت حينئذ بعض المدن اللاتينية، وبخاصة مدينتا تيبور (Tibur) وبرينستي (Praeneste) الكبيرتان واللتان تتاخمان روما، تشق عصا الطاعة وتثور عليها. وفي وسعنا أن نقول، استناداً إلى ما حدث فيما بعد، أن هذه المدن اللاتينية وقفت عقبة لفترة في وجه الاتحاد الايطالي وأن ما دفعها إلى ذلك هو حب الاستقلال الذي كان بمثابة عصب الحياة لدولة المدينة الحرة القديمة.

ومن المرجح أن جميع السجلات والوثائق التاريخية. ما عدا النقوش الحجرية، أبيدت عندما استولى الغال على روما وأضرموا فيها النيران. ولم يكن «التاريخ الروماني» حتى تلك اللحظة جديراً بهذا الاسم في حقيقة الأمر. ولكن الرومان بدأوا يحتفظون منذ ذلك الحين ببعض السجلات الرسمية، مما ينتقل بنا تدريجياً إلى عصر في وسعنا أن نسميه بحق «العصر التاريخي». غير أن تفاصيل أحداث ذلك العصر ستظل مثاراً للشك من جراء ما تملك الأسر الرومانية الكبيرة من نزعة إلى تمجيد أعمال أسلافها على حساب الحقيقة. وقد أدى ذلك إلى انتقال قصص زائفة إلى العصر الذي بدأ فيه تدوين التاريخ. لكن معالم هذا التاريخ تصبح واضحة في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد. وقد ذكرت في الفصل السابق أن الرومان كانت تعوزهم ملكة الخيال بدرجة تبعث على الدهشة. بيد أنه لا يوجد شعب مجرد من الخيال كل التجريد. ومن الطريف أن نجد الرومان

يستعملون نصيبهم الضئيل منه في اختلاق أعمال مجيدة وخدمات مشرفة أدوها للدولة. ومع ما تثيره هذه النزعة من استياء أحس به المؤرخ الروماني ليفيوس Livius)[9] نفسه، الذي كان على تمام العلم بها، فإن لها قيمتها كمظهر من مظاهر الحياة والأخلاق الرومانية القديمة.

لكن ينبغي أن نعود إلى قصة التوسع الروماني في ايطاليا. من الواضح أن تذمر اللاتين أخذ يزداد، بعد غزو الغال، من السياسة الرومانية التي كانت ترمي إلى استغلال جميع موارد العصبة والسيطرة التامة على علاقاتها مع الدول الأجنبية وقد وصلنا عن طريق المؤرخ بوليبيوس (Polybius)[10] النص اليوناني لمعاهدة مع قرطاجة، أقوى دولة بحرية وقتئذ، يتبين منها هذا الاتجاه بوضوح. ويرجع تاريخ هذه المعاهدة التي تفاوضت فيها روما باسم لاتيوم إلى سنة 348. وقد تعهدت قرطاجة بمقتضاها ألا تتعرض للمدن اللاتينية طالما بقيت على ولائها لروما، بل أنها ذهبت إلى أبعد من ذلك فتعهدت بأن تعيد إلى سيطرة روما أي مدينة لاتينية متمردة إذا سقطت في يدها. ويتضح من ذلك أن الثورة كانت متوقعة، وما لبثت أن أصبحت بعد سنوات ثورة عامة (340). لكن على الرغم من استعانة اللاتين بمدن كمبانيا، السهل الخصب الواقع في جنوب لاتيوم وقبول هذه المدن التحالف معهم لأنها كانت هي الأخرى مهددة من جانب قبائل «السمنيين»، وبرغم استفحال الخطر استفحالاً أدى إلى رواج قصة أخرى من قصص التضحية (Devotio) التي ينذر فيها قنصل روماني نفسه لآلهة العالم السفلي في سبيل الدولة، فقد انهزم اللاتين بعد ثلاث سنوات هزيمة ساحقة. وحل الرومان العصبة اللاتينية وجردوها من كل خصائص الاتحاد الفيدرالي في عام 338.

وقد رأينا كيف أن أي مواطن في مدينة لاتينية كان في وسعه أن يبيع ويمتلك ويتزوج وينجب أولاداً شرعيين في أي مدينة لاتينية أخرى وهو واثق من حماية القانون له عندما يزاول هذه الحقوق. ولكن هذا كله تغير بعد الثورة. إذ

أصبح اللاتين يتمتع فيها بالحقوق في مدينته أو في روما، وليس في أي مدينة أخرى بينما اصبح الروماني يتمتع بها في كل مدينة. فكان مواطن برينستي مثلاً يتمتع بهذه الحقوق في برينستي أو في روما ولا يتمتع بها في المدن المجاورة مثل تيبور وتسكولوم بينما كان الروماني يتعامل في جميع هذه المدن وهو على يقين من حماية القانون الروماني، ذلك القانون الذي بدأ يتغلغل تدريجياً في جميع أنحاء لاتيوم. وهكذا احتكرت روما حق التعامل مع المدن اللاتينية التي عزلت إحداها عن الأخرى عزلاً تاماً. ومع أن هذه السياسة تنطوي على القسوة والأثرة إلا أنه ينبغي ألا يغيب عن البال أن روما كانت على وشك أن تنمحي من الوجود بينما لم يحرك اللاتين ساكناً ـ فيما نعلم ـ لمد يد المعونة لها. وتحتم على روما أن تسيطر على موارد لاتيوم العسكرية كافة كي تستطيع أن تصد هجوما عنيفا كهجوم الغال. وهذا ما لم يكن في مقدورها أن تفعله في ظل اتحاد مفكك أعضاؤه على قدم المساواة معها. ولم تتعرض روما للهجوم من جانب الغال فحسب بل من جانب الأتروسكيين ـ وكما سنرى بعد لحظة ـ من جانب السمنيين أيضاً. فإذا لمسنا في مسلكها ما يجافي أحياناً روح العدالة أثناء نضالها من أجل البقاء، فلعلنا لا ننسى أنه ما من أمة مظفرة إلا وقد يوجه إليها نفس النقد. لقد أدركت روما أنه لا بد من أن تصبح لاتيوم رومانية لكي تبقى هي واللاتين على قيد الحياة، فابتدعت سياسة عزل المدن اللاتينية الواحدة عن الأخرى تحقيقاً لهذا الغرض.

ومنذ ذلك الحين أصبح جميع اللاتين يخدمون في القوات المساعدة (auxilia) بوصفهم حلفاء من الناحية النظرية، ورعايا خاضعين من الناحية الفعلية. وكان من يحصلون منهم على حقوق المواطنة الرومانية (Civitas) يخدمون في الفرق الأصلية (Iaegienes). وكانت المستعمرات (Coloniae) التي تؤسسها روما إما رومانية[11] أو لاتينية[12]. غير أن المستعمرة اللاتينية لم تتألف بالضرورة من اللاتين، فقد يسكنها رومان أو لاتين أو غيرهم ممن

ينضمون إلى المستعمرة الجديدة ويقنعون بحقي التعامل والزواج اللذين سبق الكلام عنهما[13]. وهكذا أصبحت صفة «لاتيني»، لا تدل على شعب بالذات بقدر ما تدل على وضع قانوني معين، واستمرت تدل على هذا المعنى قرونا عدة، بينما أصبحت الدولة الجديدة التي كان نجمها يصعد في الأفق العالي، تعرف لا بالدولة اللاتينية بل بالدولة الرومانية.

استسلام كمبانيا:

كانت روما كدولة آخذة في القوة خليقة أن تستنجد بها المدن الضعيفة في ساعة المحنة. وقد استنجد بها أهل كمبانيا عندما تعرضوا للهجوم من جانب سكان المنطقة الجبلية الوسطى من اقليم سمنيوم. قلبت روما نداءهم ولكنها وجدت أن الظروف تحتم عليها عقد الصلح مع السمنيين، فتخلت عن نصرة أهل كمبانيا مما حمل هؤلاء على الانحياز إلى جانب اللاتين. لكن روما استطاعت أن تقنع أهل كمبانيا بإلغاء تحالفهم مع اللاتين وعقد صلح منفرد معها قبل انتهاء الحرب اللاتينية. وقد شجعهم على ذلك احتياجهم إلى حماية روما لهم من عدوان السمنيين. وقد منحتهم حقي التعامل والزواج معها بل ذهبت إلى أبعد من ذلك فمنحت بعض مدنهم العامة مثل كابوا (Capua) وكومأي (Cumae) وغيرهما حقوق المواطنة المدنية (Iura Privata) فأصبحت هذه المدن في الواقع جزءاً من الدولة الرومانية. وبالرغم من أن سكان هذه المدن لم يمنحوا حقوق المواطنة السياسية إلا أنهم كانوا كالمواطنين المتمتعين بكامل الحقوق يخدمون في الفرق الرومانية الأصلية (Iegiones)، كما تمتعت هذه المدن بالحكم الذاتي فاحتفظت بدساتيرها وقوانينها الخاصة إلا في الأحوال التي كانت تقبل فيها طواعية الأخذ بالنظم الرومانية. وقد سميت بالبلديات (Municipia) وان كانت هناك أيضاً بلديات يتمتع سكانها بكامل حقوق المواطنة الرومانية.

هكذا وجدت روما نفسها مسيطرة بقوة لا سبيل إلى مقاومتها على منطقة فسيحة تشمل السهلين الواقعين في غرب إيطاليا (لاتيوم وكمبانيا) وجميع أراضيهما الخصبة، (حتى خليج نابلي في الجنوب)، وعلى اتحاد تستأثر فيه بكل المزايا وتتحكم في موارد مدنه كلها.

الحروب السمنية:

ولم يكن معنى السيطرة على هذين السهلين أن روما أصبحت سيدة ايطاليا. إذ كان عليها أن تدافع عنهما وخاصة عن السهل الجنوبي الأكثر خصوبة ضد عدوان سكان المرتفعات الوسطى من شبه الجزيرة، وهي منطقة ينبغي عند هذه المرحلة من القصة دراستها بعناية على الخريطة. كان سكان هذه المرتفعات الذين عرفهم الرومان باسم السمنيين (Samnites) قد كفوا عن الاغارة على سهل كمبانيا عندما وجدوا أنفسهم مضطرين إلى الدفاع عن جنوب إيطاليا ضد عدو لم يكن في الحسبان. كان هذا العدو هو تارنتوم (Tarentum)، المدينة الاغريقية التجارية التي تقع في داخل الكعب الايطالي واشتهرت بالقوة والثراء، وقدر لها أن تقوم بدور هام في التاريخ الروماني خلال القرن التالي. وكانت أراضي تارنتوم قد تعرضت أخيراً لإغارات السمنيين (وإغارات بني جلدتهم سكان إقليم لوكانيا الواقع إلى الجنوب) مما أرغمها على الاستغاثة بملوك بلاد اليونان نفسها. وهنا نتصل بالتاريخ اليوناني في الوقت الذي كان فيه الاسكندر الأكبر هو أبرز شخصية في العالم الهلّيني.

وقد حضر ملك اسبرطي وهو أرخيداموس (Archidamus) لمساعدة تارنتوم وقضى نحبه في الحملة (338 ق.م.) ثم حضر من بعده الاسكندر، ملك ابيروس، وهو خال الفاتح الأكبر، ولكنه لقى حتفه هو الآخر بعد فترة انتصر على السمنيين (330 ق.م) وقد روي أن روما عقدت اتفاقاً معه، وليس هذا بالأمر

المستبعد. فقد كان هناك بين أعضاء مجلس الشيوخ الروماني من تعودوا النظر بعيداً والاحاطة بما يجري في اقاصي إيطاليا بل وما يجري عبر البحار الايطالية. ولما كان الصراع الطويل الذي خاضته روما من أجل البقاء قد علّم ساستها الموقرين أصول الدبلوماسية، فقد شرعت روما، بعد موت الاسكندر المذكور، تعقد المحالفات مع شعوب تلك المنطقة النائية التي تقع بين سمنيوم وتارنتوم، وهي منطقة كانت معظم أراضيها غنية خصبة، حتى إذا ما نشب الصراع المحتوم مع سكان التلال، استطاعت أن تحصرهم بين عدوين: هي ولايتوم في الشمال والغرب وسكان أبوليا والاغريق في الجنوب والشرق. وكان على روما أن تختار أحد أمرين فأما أن تستمر في تقوية نفوذها أو أن ينهار هذا النفوذ انهياراً تاماً.

وقد نشب الصراع المحتوم مع السمنيين واستمرت الحرب المعروفة بالحرب السمنية الأولى حوالي عشرين عاماً (326 ـ 304). ولا يتسع المجال هنا لسرده بالتفصيل لأن معظم حوادثه في الواقع غير موثوق بصحتها كما وصلت إلينا. لكن هناك حادثة واحدة رويت بالتفصيل وأصابت من الشهرة ما يجعلها تستحق أن نفسح لها مكانا في عجالتنا لأنها توضح مدى صلابة الرومان فيما يمس المصلحة القومية، وهي صلابة مجردة من كل معاني الشهامة، سوف تتميز بها سياسة روما وهي تشق طريقها نحو السيادة العالمية.

حدث في عام 321 أن كان جيش روماني يزحف جنوبا تحت قيادة القنصلين عبر الجبال فوقع في كمين عند فاوكيس كاوديناأي (Fauces Caudinae)، وهو ممر جبلي لم يغب اسمه أبداً عن ذاكرة الرومان[14]. وقد باءت جميع محاولات الفرار بالفشل وأرغم الجيش الروماني على الاستسلام. وأملى بنطيوس (Pontius)، قائد السمنيين، الشروط التالية: أن يتعهد القنصلان نيابة عن السناتو بقبول الجلاء عن سمنيوم وكمبانيا والمستعمرات الحصينة المنشأة هناك وإبرام الصلح مع السمنيين باعتبارهم أنداداً للرومان. وتم تعهد القنصلين

في احتفال أجريت فيه الطقوس الدينية الرسمية فأخلي سبيل الجيش الروماني بعد أن أرغم جنوده على الانحناء والمرور تحت النير: أي تحت قنطرة تتألف من حربة مرتكزة على حربتين قائمتين، وهي عادة قديمة كان الايطاليون يتبعونها مع العدو المنهزم ويحتمل أنها كانت في الأصل ذات مغزى ديني. فلما عادت الفرق المنكسرة إلى روما ودعا القنصلان السناتو لاقرار الاتفاق، رفض «الآباء» (Patres)... كما كان يسمى أعضاء مجلس الشيوخ الروماني ـ رفضوا رفضاً باتاً أن يقروه وأعيد القنصلان وجميع من تعهدوا بقبول الشروط إلى بنطيوس كأسرى حرب يفعل بهم ما يشاء، ولكن الجيش نفسه لم يؤمر بالعودة. وعندئذ ثارت ثائرة بنطيوس لأنه أدرك أن سمنيوم قد أغلقت منها الفرصة التي لن تسنح مرة أخرى. وكان القنصلان بداهة لا يملكان سلطة إلزام السناتو الذي لم يستطع أن يقبل شروط السمنيين جزاء هزيمة واحدة نشأت من غلطة قائد القواد. فلم تكن تلك هي سنّة الرومان في الحرب. بيد أنه كان ينبغي أيضاً إعادة الجيش المنكسر إلى السمنيين، وكان مجلس الشيوخ والشعب يعلمان ذلك. ويتبين من خطاب وضعه مؤرخ روماني في عصر متأخر على لسان بنطيوس يعبر فيه عن غضبه أن شعورا بالخزي لهذا المسلك غير المشرف ظل يخالج الرومان في الأجيال التالية.

وفي غضون السنوات القليلة التالية سعت روما إلى توطيد مركزها في إقليم أبوليا (بالجنوب الشرقي)، وزادت من حجم جيشها، وأعادت تنظيمه، وعدلت تشكيله العسكري بحيث أصبح ملائماً للحركة والمناورة في الأراضي الجبلية الوعرة. ومن الجائز أنها أعادت وقتئذ تسليح بعض وحداته بالحربة الطويلة (Pilum) بدلاً من الحربة القصيرة (hasta) وتجددت الاشتباكات مع السمنيين. ومنيت روما في البداية بهزيمة في معركة كبيرة عند «لاوتولاي» (Lautulae) (قرب تراكينا) بجنوب لاتيوم في عام 315 ق.م وتزعزع ولاء كمبانيا نحو روما لفترة من الزمن. لكن لم يلبث الرومان أن أحرزوا انتصاراً

استردوا به ما فقدوه، بل استطاعوا إرغام السمنيين على اتخاذ موقف الدفاع. وأنشأ الرومان في الوادي الأعلى لنهر لبريس، وفي كمبانيا، وفي أبوليا، بعض مستعمرات لاستخدامها كحاميات حصينة لحصر العدو في سمنيوم وكقواعد لشن الهجمات على هذا الاقليم. وفي نفس الوقت شق الرومان طريقاً معبداً رائعاً، وهو «طريق أبيوس» (Via Appia) الذي كان يمتد من روما إلى كابوا ـ وبذلك ضمن الرومان سهولة المواصلات دون عائق مع كمبانيا حتى في فصل الأمطار.

وأدرك السمنيون أن امتداد النفوذ الروماني إلى وسط إيطاليا سيعزلهم عن الشمال، ويعوق اتصالهم به. لذلك حرضوا المدن الاتروسكية التي كانت معاهدتها مع روما على وشك الانتهاء، على مهاجمة الأراضي الرومانية في جنوب اتروريا. وكان القصد هو فتح جبهة أخرى للقتال يتحول إليها الرومان فيخف الضغط على السمنيين في الجنوب. وبالفعل اضطر الرومان إزاء الهجوم الاتروسكي إلى تقسيم قواتهم فخف الضغط مؤقتاً على السمنيين. ونجح السمنيون في حمل بعض القبائل كالهرنيكيين (Hernici) والآيكويين (Aequi) على نقض محالفتهم مع روما مما أطال أمد الأعمال العدوانية في جبال الأبنين الوسطى.

لكن قوة روما كانت مع هذا في ازدياد نتيجة لعوامل كثيرة كان من بينها تمكنها من إرغام المدن الاتروسكية على قبول صلح جديد، وسيطرتها على أبوليا وجنوب كمبانيا، وتحالفها مع بعض شعوب مقاتلة شديدة البأس مثل المارسيين والمارّوكينيين والفرنتانيين، وبعض مدن الأومبريين. هذا فضلاً عن مبادرتها إلى معاقبة الشعوب التي تثور مثل الهرنيكيين والآيكويين بمصادرة أراضيهم وادماج كثير من مدنهم في حيز الدولة الرومانية ومنح سكانها حقوق المواطنة الرومانية. وثمة عامل آخر ساعد على توطيد نفوذ روما هو تأسيسها مستعمرات في بعض الأراضي المصادرة، وتوزيع البعض الآخر منها على أفراد من المواطنين الرومان. وقد صاحب هذا التوسع في الأراضي الرومانية إنشاء مناطق قبلية جديدة، أي

زيادة عدد قبائل المواطنين الرومان (Tribus).

وكان آخر ما بذله السمنيون من جهد في هذا الصراع الطويل هو المحاولة اليائسة التي قاموا بها هم والأتروسكيون والغال والسابين لتوحيد قواتهم ضد روما فيما يعرف «بالحرب السمنية الثانية» (298 ـ 290) وكانت خطتهم ترمي إلى فصل جيوشها ثم سحق كل جيش منها على حدة. ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل وانتصرت روما على السمنيين والغال انتصاراً حاسماً في موقعة سنتينوم (Sentinum) باقليم أومبريا عام 295 وكان هذا الانتصار بمثابة نقطة التحول في الحرب. وتحولت روما إلى الاتروسكيين وهزمتهم في عقر دارهم. وأصبحت سمنيوم نفسها معرضة للهجوم من جانب الرومان الذين لم يكفوا عن الاغارات على أراضيها حتى سعت سمنيوم إلى طلب الصلح. وصادر الرومان جزءاً من أراضي السمنيين وأرغمتهم على قبول وضع كوضع «حلفاء» روما (عام 290 ق.م). ثم ولت روما وجهها شطر السابين الذين لم يبدوا سوى مقاومة طفيفة. وضمت روما أراضيهم إلى الدولة الرومانية، واعتبر السابين أنفسهم مواطنين رومانيين دون تخويلهم حق الانتخاب (في روما). ولم يعد هناك شك في أن روما قد أصبحت القوة المسيطرة في شبه الجزيرة الايطالية (290 ق.م).

ولم يبق سوى تأمين حدود شبه الجزيرة من ناحية الشمال. ذلك أنه على الرغم من انهزام السمنيين إلا أن حلفاءهم الغال كانوا لا يزالون متمردين، ويشكلون خطراً جسيماً على الحدود الشمالية للدولة الرومانية. ولم تلبث إحدى قبائل الغال ـ وهي قبيلة السينونيس (Senones) ـ القاطنة بالساحل الأدرياتي (شمالي بيكينوم) أن هاجمت مدينة أريتيوم (Arretium) في أتروريا. وخف الرومان إلى نجدتها لكنهم أصيبوا بهزيمة فادحة أثناء محاولتهم نجدة هذه المدينة الحليفة (عام 284) وأثارت هذه الكارثة سخط الرومان، فغزوا أرض هذه القبيلة الغاليّة، وأنزلوا بها الهزيمة، وطردوها من شبه الجزيرة فاتجهت إلى سهل

البو في الشمال. وأدمجت أراضي السنونيين في ممتلكات الدولة الرومانية، ولو أنها ظلت تعرف بأراضي الغال (Ager Gallicus). ثم فوجىء الرومان بزحف قبيلة أخرى من قبائل الغال، وهي قبيلة البويين (Boii). الذين تدفقوا من وادي البو متوغلين في اتروريا. وزاد الموقف سوءاً أن انضمت اليهم بعض المدن الاتروسكية التي نقضت محالفتها مع روما غداة اندحار الأخيرة في أريتيوم. لكن الرومان تمكنوا من سحق القوات المتحالفة في معركة فولسينيي (Volsinii) باقليم اتروريا عام 283. ولقيت غارة أخرى شنتها عين القبيلة في العام التالي نفس المصير ولم تجد قبيلة البويين مناصا من الجنوح إلى السلم وبذلك تخلصت روما من المتاعب في الشمال عند حوالي عام 280. لكنها لم تسترح طويلاً إذ لم تلبث أن واجهت متاعب أخرى بدأ شبحها يطل ثانية من الجنوب.

اخضاع الاغريق في الجنوب:

كانت المدن اليونانية ـ وهي في الأصل مستعمرات أسسها الاغريق ـ متركزة في الجنوب والجنوب الغربي لشبه الجزيرة الايطالية. وقد سبق أن تحدثنا عما وصلت إليه هذه المدن من رخاء وازدهار، وما قامت به من دور في نشر الثقافة اليونانية في ايطاليا. لكن هذه المدن ـ على نحو ما شرحنا من قبل ـ عجزت عن انشاء حلف أو اتحاد يضم شملها ويجعلها اقدر على مواجهة الأخطار التي كانت تكتنفها من كل جانب إذ كانت مهددة باستمرار تارة من جانب الاتروسكيين، وتارة أخرى من جانب القبائل الايطالية التي تقطن في الأقاليم المتاخمة لها مثل لوكانيا وبروتيوم، وفي تلال الابنين القريبة مثل سمنيوم. هذا فضلاً عن أنها كانت مطمعاً لملوك سيراكيوز (سراقوصة) الأقوياء أو بالأحرى طغاتها الطموحين الذين استطاع بعضهم كديونيسوس الأول (406 ـ 367)، أن ينشىء امبراطورية يونانية في الغرب[15]. لكن ديونيسيوس كغيره من ملوك

سراقوصة كان يعتبر هللينيا، وأن من واجبه حماية اغريق جنوب إيطاليا أو فرض حمايته عليهم. وفي الحق أن المدن الاغريقية في جنوب إيطاليا كانت في حاجة إليه لمساعدتها على صد عدوان جيرانها من الايطاليين. لكن امبراطورية ديونيسيوس الأول انهارت بموته عام 367، ووجدت المدن الاغريقية أنها اصبحت بغير نصير. وتعرضت بالفعل لهجمات من جانب الشعوب الايطالية كاللوكانيين (سكان اقليم لوكانيا) والبروتيين (سكان بروتيوم) والمسّابيين (في كلابريا)[16]. ولم يستطع أن يحتفظ باستقلاله سوى عدد قليل من هذه المدن الاغريقية. وكانت تارنتوم (Tarentum) ـ الواقعة على الخليج الذي يحمل اسمها في أقصى الجنوب ـ هي احدى هذه المدن التي استطاعت أن تحمي استقلالها ، بل إنها كانت أكبر هذه المدن الاغريقية وأقواها، وأكثرها رخاء بفضل ازدهار صناعتها وتجارتها[17]. وكانت فوق ذلك تملك أقوى أسطول في كل ايطاليا، ولم تلبث أن قامت تارنتوم بدور حامية حمى المدن الاغريقية في الجنوب. غير أن قواتها البرية لم تكن ندا لقوات الشعوب الايطالية المجاورة لها. ولهذا كانت تارنتوم تضطر من وقت لآخر إلى الاستنجاد ببعض ملوك بلاد اليونان المغامرين. وقد ألمعنا من قبل إلى مجيء بعض ملوك من اسبرطة أو من ابيروس (وهو الاقليم الذي يقع عبر البحر الأدرياتي في غرب بلاد اليونان) وذلك بهدف مساعدة المدن الاغريقية في إيطاليا ضد أعدائها[18]. لكن حملات هؤلاء الملوك الاغريق، برغم ما أحرزته من انتصارات أولية في الأراضي الايطالية، كانت تبوء في النهاية بالفشل، بل ان بعض هؤلاء الملوك لقوا مصرعهم هناك. ولعل كليونيموس (Cleonymus) ملك اسبرطة الذي جاء إلى إيطاليا في عام 303 ق.م لنجدة الاغريق كان أكثر توفيقا من سابقيه إذ أنزل الهزيمة باللوكانيين، حلفاء روما وقتئذ، وأرغمهم على قبول صلح لا بد أن روما علمت به بل لعلها قد وافقت عليه. ولم تمض سنوات حتى جاء أجاثوكليس (Agathocles) طاغية سراقوصة منذ 317، وملكها

منذ 304، جاء هو الآخر لنجدة الاغريق ضد البروتيين في عام 298. ولكنه قضى نحبه في عام 289 وتفككت أواصر مملكته، ووجد اغريق إيطاليا أنفسهم من بعده بدون نصير يحميهم من عدوان جيرانهم الايطاليين.

ووقع ما كانت تخشاه المدن الاغريقية، إذ هاجم اللوكانيون مدينة ثوريي (Thurii) فاستنجد أهل ثوريي بروما التي بدأ الاغريق يؤمنون بأنها صارت اقوى دولة في ايطاليا، وأن الاعتماد عليها أجدى من الاعتماد على ملوك بلاد اليونان المغامرين. حدث ذلك في وقت كان اللوكانيون قد نقضوا فيه محالفتهم مع روما على أثر هزيمتها الفادحة على يد الغال (السينونيس) في معركة أريتيوم عام 284/ 283. ولذلك استجابت روما إلى طلب مدينة ثوريي الاغريقية، وقبلتها كحليف لها، وارسلت قوات لاغاثتها في عام 282. ودحر الجيش الروماني اللوكانيين وحلفاءهم البروتيين، وأنقذ مدينة ثوريي، وغادرها تاركاً فيها حامية رومانية للدفاع عنها. كذلك دخلت لوكري (Locri) وريجيوم (Rgehium)، وكلتاهما مدينة يونانية في الجنوب، في زمرة «حلفاء» روما، ووافقتا على أن ترابط فيهما حاميات رومانية لتدفع عنهما عدوان الايطاليين.

غير أن هذا التدخل الروماني في شؤون الجنوب الاغريقي، ولو أنه تم برضا المدن المعنية، لكان من شأنه أن يثير مخاوف تارنتوم التي ارتابت في مسلك الرومان واعتبرته تحدياً لمركزها بوصفها أقوى دويلة اغريقية في ايطاليا. وعلى ذلك فعندما ظهرت بعض وحدات الأسطول الروماني في خليج تارنتوم، انتهاكا لشروط معاهدة (في عام 334 أو 304؟) كانت تنص على عدم دخول السفن الحربية الرومانية خليخ تارنتوم، استشاطت حكومة تارنتوم غضبا، وكانت حكومة ديمقراطية غير مستقرة، وأمرت بمهاجمة الأسطول الروماني دون إبطاء. وأغرقت بعض سفن هذا الأسطول. وسار جيش تارنتوم إلى ثوريي وطرد الحامية الرومانية منها واحتل المدينة وطالب الرومان بالتعويضات. ورفضت تارنتوم

الطلب، وأهانت السفراء الذين أرسلتهم روما للتباحث. وعندئذ لم يجد الرومان بدا من انفاذ جيش ليغزو أراضي تارنتوم وينفذ مطالب روما بالقوة. فعلت روما ذلك مع ادراكها بأن تارنتوم سوف تستنجد بأي دويلة في بلاد الاغريق الأصلية.

وكان على عرش إبيروس، التي تقع عبر البحر الأدرياتي مباشرة، ملك من أصل اغريقي يدعى بيرّوس (Pyrrhus). وكان هذا الملك يترقب الفرصة لاحراز المجد متشبهاً بالاسكندر الأكبر الذي أثارت سيرته المدهشة روح المغامرة في نفوس مرتزقة الجيل الذي أعقبه ـ ويبدو أن بيروس تصور أن في وسعه أن يقوم بدور الفارس الجوّال وذلك بتحرير اغريق الغرب من سيطرة المتبربرين أي من سيطرة الرومان وسيطرة القرطاجيين الذين كانوا وقتئذ متحالفين معهم. فلما نشب النزاع المتوقع مع روما استغاثت به تارنتوم فعبر البحر على رأس قوة صغيرة محنكة تتألف من 20000 رجل أي من فيلق يوناني كامل (Phalanx) و 3000 فارس من ثيساليا و 2000 من رماة السهام، عاقداً العزم على تدمير تلك الدولة الناشئة التي كانت تهدد بالتهام المدن الاغريقية في ايطاليا. لكنه كان عليه أن يعلم ـ وأن يعلم عن طريقة العالم الهلليني كافة ـ أن الدولة الناشئة كانت أصلب عودا من أي دولة قامت في حوض البحر المتوسط حتى ذلك الحين.

وبدأ بيرّوس حملته بانتصار عند هراقليا (Heraclea) في عام 280، وهي بلدة لا تبعد كثيراً عن تارنتوم. وقد انتصر بفضل الفيلة التي أحضرها معه لتثير الذعر في صفوف الفرسان الرومان الذين لم يألفوا رؤيتها من قبل في ميادين القتال. والواقع أن انتصاره الذي كلفه ثمنا غاليا، زعزع ولاء كثير من المدن الايطالية، ولكن السناتو ظل رابط الجأش حتى أن خطاب السفير القدير الذي أوفده بيروس لم يترك أي اثر في نفوس أعضاء ذلك المجلس المؤلف من رجال أقوياء العزم علمتهم الخبرة الطويلة أن ينظروا إلى الهزيمة الواحدة على أنها مجرد «حادث مؤسف» في حرب طويلة لأن، «روما لا تتفاوض أبداً مع العدو

طالما تطأ أقدامه أرض ايطاليا» ـ وكان هذا ـ كما يروي ـ هو ردّ أبيوس كلوديوس (Appius Claudius) السياسي المخضرم، على السفير الاغريقي في مجلس الشيوخ. وعندئذ حاول بيروس الذي بلغ حدود لاتيوم أن يزحف على روما. لكنه سرعان ما أدرك، كما سيدرك فاتح آخر من بعده، أنه كلما اقترب من أسوار المدينة، ازدادت مهمته صعوبة ولذلك قفل راجعاً إلى الجنوب. وأحرز بيروس في عام 279 عند أسكولوم (Asculum) في أبوليا انتصاراً آخر غير حاسم يكاد يكون عديم الجدوى باهظ التكاليف كسابقه[19].

عندئذ قرر بيروس دون ترو أن يترك إيطاليا وعبر البحر إلى صقلية لتحرير اغريقها من سيطرة قرطاجة (278 ـ 275). وأنجز مهمته بنجاح باهر ولكن الاغريق القلب سرعان ما ضاقوا به ذرعا. فعاد الملك إلى إيطاليا حيث التحم مع الرومان الذين تحالفوا مع القرطاجيين عليه في معركة ثالثة عند بنفنتوم (Beneventum) في سينيوم عام 275، ولكنه خرج منها مدحورا. ولما ضيق الرومان عليه الخناق في كل مكان غادر إيطاليا ورجع إلى بلاده تاركاً روما أوطد مركزا مما كانت عليه في أي وقت مضى وسيدة على كل شبه الجزيرة تقريباً. وأما تارنتوم فلم تلبث أن سقطت هي وميناؤها البديع وقلعتها المنيعة وأسطولها الضخم غنيمة باردة في يد الرومان.

عوامل رجحان كفة روما:

أولاً: أنها عرفت كيف تستفيد من موقعها الجغرافي، فكان في استطاعتها أن تبعث بجيوشها شمالا وجنوبا وشرقا للضرب في اتجاهات مختلفة في آن واحد ولا بد أنها ابتكرت وسيلة (وأن كنا لا نعرفها) لتيسير الاتصال بين هذه الجيوش. ويتبين من الروايات التي وصلتنا أن قواد تلك الفترة كانوا ينتمون إلى عدد ضئيل جداً من الأسر الشريفة التي قضى أفرادها كل حياتهم في القتال ـ لا في خوض

المعارك فحسب بل في إدارة الحروب ايضاً. وقد اشتهرت بالذات في هذا الصدد أسرتا فابيوس (Fabius) وبابيريوس (Papirius) ولم يلبث هؤلاء المحاربون المحنكون أن ألموا بفن القتال إلماما تاما على النحو الذي أمكن تطبيقه في إيطاليا وقتئذ، كما ألموا بتضاريس المناطق التي كان عليهم أن يخوضوا المعارك فيها.

ثانياً: أن جهود هؤلاء القادة القدامى شديدي المراس كانت تلقى تعضيداً قوياً من الحكومة أي من السناتو لأن هذا المجلس كان يتألف من رجال لهم نفس الخبرة العسكرية وكان زعماؤه أنفسهم قوادا سبق أن تولوا القنصلية وقادوا الجيوش. ومع أنه ظهرت في الوقت ذاته - كما سنرى - حركة قوية تدعو إلى اشراك العامة في شؤون الحكم، إلا أننا لا نجد ما يشير إلى أن احتكار الأسر الشريفة إدارة شؤون الحرب كان مثاراً للنزاع لأن هذه الأسر كان في وسعها نظراً لاتحاد مصالحها وتجاربها أن تعمل سوياً بنوع من التضامن التام لم يكن، فيما يرجح، مألوفا بين خصومها. ويتبين من تمسك روما دائماً في ذلك الوقت، بل في كل الأوقات، بمبدأ التفاوض واقامة العلاقات مع العناصر الأرستقراطية في المدن الايطالية، مدى سيطرة أسر الاشراف على ميداني السياسة والحرب.

ثالثاً: أن روما بدأت حينئذ تتعلم كيف تؤمن المناطق المفتوحة بانشاء الطرق العسكرية والمستعمرات الحصينة (Coloniae)، وهي سياسة لم تتخل عنها طوال تاريخها، وتشهد على ذلك أراضي ولاية بعيدة كبريطانيا الرومانية. ويحسن الدارس صنعا لو ركز انتباهه لحظة على ثلاث من هذه المستعمرات التي أنشأتها روما أثناء الحرب الطويلة. وهذه المستعمرات ليست الوحيدة من نوعها، ولكنها أدل من غيرها على مدى تغلغل النفوذ الروماني في إيطاليا إذ ذاك، وعلى الوسائل التي اتبعت لتوطيده. وأولها في مستعمرة نارنيا (Narnia) التي أسست عام 299 ق.م في وادي التيبر الأعلى على طريق عسكري عرف فيما بعد باسم «طريق فلامينيوس» (Via Flaminia)، وكانت بمثابة نقطة حراسة أمامية

تربطها بروما مواصلات سريعة لصد عدوان الأتروسكيين والغال. والمستعمرة الثانية هي فريجلأي (Fregellae) التي أسست في عام 328 ق.م. في مكان يقع على بعد سبعين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من روما على طريق يسمى «الطريق اللاتيني» (Via Latina) فيما وراء حدود لاتيوم نفسها، وكانت تسيطر على الممرات الواصلة بين لاتيوم وكمبانيا وتحتل بقعة جميلة على مقربة من التقاء نهرين. وقد تمتعت على مر الزمن برخاء واسع ولكنها انتهت نهاية محزنة عندما ثارت في وجه روما فدمرتها في عام 125 ق.م. وأما المستعمرة الثالثة فنوسيا (Venusia) فكانت تقع عند الجنوب الشرقي لمجموعة التلال السمنية، ويسكنها 20,000 مستعمر. وقد قصدت بها روما عندما أسستها في عام 290 ق.م أن تفصل السمنيين عن الاغريق وغيرهم من سكان اقصى جنوب ايطاليا. وفضلاً على ذلك فإنها كانت تقع على طريق أبيوس (Via Appia)، أشهر الطرق الكبيرة، والذي كان بعد تفرعه من روما يجري على مسافة أقرب إلى الساحل من الطريق اللاتيني ولكنه كان يلتقي به في كمبانيا وبعدئذ يسير عبر المنطقة الجبلية إلى فنوسيا ثم إلى برنديزي (Brundisium) التي أصبحت هي الأخرى مستعمرة بعد خمسين عاماً.

هذه الميزات الثلاث قد تعين القارىء بعد دراستها بعناية على أن يفهم كيف آلت زعامة إيطاليا إلى روما وليس إلى أي مدينة أخرى، وقد تعينه أيضاً على أن يفهم لماذا خرجت روما سالمة من الخطر الذي هدد كيانها وقتئذ بل خرجت أقوى مما كانت عليه قبله.

روما زعيمة الاتحاد الايطالي:

وأصبح شبه الجزيرة الايطالية كله أو معظمه رومانيا أو لعله من الأصوب أن نقول إن روما أصبحت حينئذ دولة ايطالية. وكان ذلك عملاً رائعاً ولعله كان أروع ما قامت به روما خلال تاريخها. وكان الجانب العسكري من هذا العمل

ثمرة من ثمار المثابرة وعدم الاستسلام للهزيمة. وأما الجانب السياسي فكان ثمرة من ثمار سلامة التقدير وضبط النفس المقرونين بإرادة لا تلين، والادراك، العميق لمصالح روما الحقيقية الدائمة. وفي وسعنا أن نصف إيطاليا في القرن الثالث ق.م. ـ الذي بلغناه الآن ـ بأنها كانت بمثابة اتحاد فيدرالي ترتبط كل مدينة فيه بمعاهدة (Foedus) مع روما، ولا ترتبط أي من هذه المدن بمعاهدة مع مدينة أخرى. وكان لكل منها حكومتها وقوانينها الخاصة، ولكنها كانت تضع جميع مواردها العسكرية تحت تصرف روما. ومنذ ذلك الحين اصبحت إيطاليا بأسرها هي القوى المحاربة تحت قيادة روما التي استأثرت بحق البت في كل ما يتصل بالسياسة الخارجية. ولم يكن هناك مجلس فيدرالي لجميع الاتحاد بل كان السناتو الروماني يصرّف طائفة متزايدة من الشؤون المتنوعة التي تتعلق باللاتين والايطاليين والشعوب القديمة كالأتروسكين والاغريق والغال. ولا نعرف كيف كان السناتو يصرف هذه الشؤون إذ لم يصلنا أي سجل معاصر عنها. وأن نظرة واحدة إلى هذا المجلس العجيب اثناء انهماكه في العمل لتعدل كل ما وصلنا من أخبار عن معارك ذلك العصر.

وتوضيحاً لما سبق نقول أن الاتحاد الروماني ـ وهو اتحاد فريد ذو طابع عسكري ـ كان يتألف على النحو التالي:

1 ـ المواطنون الرومان (Cives Romani).

2 ـ الحلفاء وهم غير الرومان (Peregrini) وينقسمون إلى:

(أ) الحلفاء اللاتين (Socii Latini).

(ب) الحلفاء الايطاليون (Socii Italici).

ـ وكان المواطنون الرومان ينقسمون فريقين:

(أ) المواطنون المتمتعون بكامل الحقوق المدنية والسياسة (Cives optime iure). وكانوا يقيمون في 1 ـ روما 2 ـ البلاد التي ادمجت في الدولة

الرومانية (Oppida C.R.) بعد حل العصبة اللاتينية مثل تسكولوم وأريكيا. وكانت تتمتع بالحكم الذاتي الكامل ولذلك عرفت بالبلديات الرومانية (Municipia civium Romanorum) تشبُهاً بالبلديات الأصيلة المؤلفة من المواطنين غير المتمتعين بالحقوق السياسية (انظر (ب) أدناه)، وأما ما كان منها يتمتع بالحكم الذاتي غير الكامل فقد أطلق عليه اسم (Praefecturae)، 3 ـ المركز والقرى (Fora, Conciliabula, etc). وكانت تتمتع بالحكم الذاتي غير الكامل ولهذا عرفت أحياناً باسم (Praefecturae)، وقد تحولت بمرور الزمن إلى بلديات رومانية. 4 ـ المستعمرات الرومانية أي التي كان يتألف سكانها من المواطنين الرومان (Civium Coloniae Romanorum). وكانوا وحدهم معفيين من الخدمة العسكرية بالجيش الروماني لأنهم كانوا مكلفين أصلاً بالقيام بأعباء الدفاع في المستعمرات التي كانت كلها في أول الأمر تقع على مقربة من السواحل، مثل أوستيا وأنتيوم وترّاكينا.

وكان جميع المواطنين الرومان المتمتعين بكامل الحقوق يتميزون بالانتماء إلى القبائل (Tribus) التي بلغ أقصى عدد لها 35 قبيلة.

(ب) المواطنون غير المتمتعين بالحقوق السياسية (Cives sine suffragio) أي من كانوا لا يتمتعون بحق الاقتراع أو الانتخاب (ius suffragii) ومن باب أولى بحق الترشيح للمناصب العامة (ius honorum). فكانت حقوقهم التي قبلوها بمحض اختيارهم مقصورة على الحقوق المدنية وهي حق الزواج (ius conubii) وحق التعامل (ius commercii) وحق التظلم (ius provocationis) من أحكام الحكام المتمتعين «بالامبريوم» إما أمام «الجمعية المئوية» في حالة أحكام الاعدام أو أمام الجمعية القبلية في حالة أحكام الغرامات. وكان في استطاعتهم ـ إذا شاؤوا ـ على الأقل من الناحية النظرية ـ أن يستقروا في روما ويحصلوا بذلك على حقوق المواطنة الكاملة. ويشبه وضعهم إلى

حد كبير وضع الحلفاء المعروفين «بأصحاب الاسم اللاتيني» (Socii Latini nominis) الذين تمتعوا بالحقوق اللاتينية (ius Latii)، انظر (أ) فيما يلي.

وكان هؤلاء المواطنون يسكنون مدنا تقع في جنوب اتروريا ولاتيوم وشمال كمبانيا (مثل كايري وفوندي وكوماي)، وقد عرفت باسم البلديات (Municipia) وهي كلمة تعني في الأصل تحمّل (Capere) العبء (Munus) ولا سيما عبء الخدمة العسكرية إلى جانب الرومان دون التمتع بكامل حقوقهم. وكانت هذه البلديات تتمتع بالحكم الذاتي الكامل ولكنها تخضع لروما في سياستها الخارجية. وكان سكانها (Municipes) يخدمون في الفرق الرومانية (Legiones) برغم عدم تمتعهم بكامل حقوق المواطنة.

ـ وأما الحلفاء غير الرومان في الاتحاد فكانوا ـ كما ذكرنا ـ ينقسمون فريقين:

(أ) الحلفاء اللاتين وهم أشد سكان إيطاليا صلة بالرومان وأكثرهم ولاء لهم. وكانوا يقيمون في 1 ـ المدن اللاتينية القديمة مثل تيبور وبرينستي 2 ـ المستعمرات اللاتينية (Coloniae Latinae) التي أنشأتها العصبة اللاتينية قبل انحلالها في 338 (مثل نوربا وأرديا وسوتريوم) 3 ـ المستعمرات اللاتينية التي أسست بين 338 و 268. 4 ـ المستعمرات التي أسست بعد عام 268. وقيد حق سكانها في النزوح إلى روما لاكتساب الجنسية الرومانية بشرط ترك أبناء وراءهم في سن الجندية، ومن أمثلة هذه المستعمرات مستعمرة برنديزي. وكان معظم سكان المستعمرات الأخيرة (3 ـ 4) يتألفون من اللاتين أو حتى من فقراء الرومان وأحياناً من الحلفاء الايطاليين. وكانت هذه المستعمرات بمثابة حصون تقع في الغالب على الطرق العسكرية التي تربط أنحاء إيطاليا وتقوم بحراسة جنوب اتروريا وساحل البحر الأدرياتيكي وتضييق الخناق على السمنيين. ولم يكن اللاتين يخدمون في الفرقة الرومانية (Legiones) بل كانوا يؤلفون وحدات

مساعدة تعرف باسم كتائب المشاة (Cohortes) وفصائل الخيالة (alae) وكانت المستعمرات اللاتينية تتمتع بالاستقلال المحلي. وأياً كان اصل سكانها فإنهم كانوا جميعاً يعتبرون لاتين، ويعرفون بحاملي الاسم اللاتيني (nomen Latinum) ويتمتعون بنوع فريد من الحقوق يعرف بالحقوق اللاتينية (ius Latii) وتشمل:

(1) حق التعامل وحق الزواج مع الرومان وحدهم في أول الأمر وبعدئذ مع الرومان ومع بعضهم بعضاً.

(2) حق تبادل الجنسية مع روما (ius mutandae civitatis) أو (ius migrationis) بمعنى أن الأفراد اللاتين الذين ينزحون إلى روما ويقيمون فيها بصفة دائمة يكتسبون الجنسية الرومانية (وان اشترط في حالة بعض المستعمرات التي أنشئت بعد عام 268 أن يترك المهاجرون منها وراءهم أبناء في سن الجندية ـ قارن فيما تقدم.

وفضلاً على ذلك فإن اللاتين الذين كانوا يقيمون في روما بصفة مؤقتة منحوا منذ تاريخ غير معروف حق الاقتراع في مجلس العامة (Concilium Plebis) وبعدئذ في الجمعية القبلية (Comitia Tributa) على أن تدرج أسماؤهم في قبيلة واحدة.

وعندما تبين لروما فيما بعد أن منح الجنسية لمن يهاجرون إليها من اللاتين ويستقرون بها قد أدى إلى اقفار كثير من البلاد والمستعمرات اللاتينية من السكان، استبدلت بهذا الحق حقاً آخر حوالي عام 150 يقضي بحصول اللاتين على الجنسية الرومانية إذا تولوا مناصب بلدية في أوطانهم وقد عرف هذا الحق باسم (ius civitatis per honcrem adipiscendae).

(ب) الحلفاء الايطاليون: وكانوا يشملون بقية سكان شبه الجزيرة من الأومبريين والسابليين والأتروسكيين والاغريق وغيرهم. وكانت كل مدينة أو جماعة قبلية منهم مرتبطة مع روما بمعاهدة (Foedus)، سواء على أساس التكافؤ

(Foedus aequum) أو على أساس عدم التكافؤ (Foedus iniquum) تحدد نوع العلاقة بينهما. ومن ثم فقد أطلق عليها جميعاً اسم البلاد المرتبطة مع روما بمعاهدات (civitates foederataa). وقد تميزت هذه المعاهدات على اختلاف نصوصها بظاهرتين وهما التزام هذه المدن أو الجماعات الحليفة بمد روما بالمساعدات العسكرية وسيطرة روما على علاقاتها الخارجية. وكانت معظم هذه المدن حرة مستقلة في شئونها الداخلية (liberae)، ولها قوانينها ودساتيرها ونظمها الخاصة، ولم تكن تدفع لروما أي نوع من الضرائب (immunes). وقد تمتع سكانها ـ فيما يبدو ـ بحقي التعامل والزواج أو بأحدهما فقط مع الرومان. وكانوا يخدمون في وحدات عسكرية مستقلة عن الفرق الرومانية مؤلفة من فصائل من الفرسان (alae) أو كتائب من المشاة (cohortes) يتولى قيادتها ضباط منهم يتلقون الأوامر من القواد الرومان.

ولكن المدن الاغريقية في جنوب إيطاليا كانت معفاة وحدها من الخدمة العسكرية في الجيش لأنها كانت ملزمة بأن تمد الأسطول الروماني بالسفن والملاحين. ولهذا عرف سكانها باسم «الحلفاء البحريين»، (Socii navales).

هوامش ومراجع

1 ـ التواريخ كلها قبل الميلاد إلا إذا وصفت بما يفيد غير ذلك.

2 ـ يقال إن روما حكمها سبعة ملوك أولهم روميلوس (عام 753) وآخرهم لوكيوس تاركوينيوس الملقب بالمتغطرس الذي طرد في عام 510 فكأن الملكية استمرت في روما حوالي 250 عاماً.

3 ـ Iord Mecaulay, Lays of Ancient Rome,

4 ـ يبدو أن روما وقعت في أيدي الأتروسكيين نتيجة ضعفها بعد الغاء الملكية مباشرة. وكان قائد الأتروسكيين هو الأمير لارس بورسينا (Lars Porsenna). ولكن

5 ـ لم يكن الأب يكتسب سلطة أبوية (Patria potestas) على أبنائه وأسرته إلا إذا كان الزواج شرعياً كامل الأهلية. ويسمى هذا الزواج عند الرومان «كنوبيوم» أو Nuptiae iustae أو Matrımonium iustum أو Matrimonium Légıtımum وكان القانون يحتم الزواج بواحدة فقط في وقت واحد.

6 ـ التاريخ الأرجح الآن هو 387 ق.م.

7 ـ كلمة مانيس Manes (وهي مشتقة من صفة لاتينية بمعنى «طيب») معناها «الأرواح الطيبة». لكنها صارت تقرن بكلمة الآلهة (Di) وتؤدي المعاني الآتية:

أ ـ «الالهة الطيبة» Di hanes التي كانت المقابر توهب وتنذر لها ومن هذا المعنى اشتق معنى «مملكة أو عالم الموتى» (ولا سيما عند الشعراء) أو «آلهة العالم السفلى (الآخر)». وأصبحت الكلمة مرادفة لإله الموتى بلوتو المسمى أيضاً ديس أو أوركوس.

ب ـ «أرواح الموتى» من الأفراد. وقد شاع هذا المعنى في عصر الامبراطورية، فكانت قبور الأفراد يكتب عليها أسماؤهم مقرونة بعبارة Dis Manibus Sacrum أي مقدس أو مكرس لروحه. وقد تكتب هذه العبارة اللاتينية مختصرة D.M.S.

8 ـ كلمة ديفوتيو (Devotıo) معناها الحرفي «التضحية بالنفس» أو «نذر النفس». وجرت العادة عند الرومان أنه عندما يجد القائد الروماني أن المعركة لا تسير في مصلحته أن ينذر نفسه وجيش العدو لربة الأرض المسماة تيللوس (Tellus) ولآلهة العالم السفلي المسماة مانيس (Manes) فكان القائد يرتدي زيه الرسمي (Toga praetoxta)، ويغطى رأسه بغطاء، ويضع قدميه فوق حربة (تيلوم Tolum أو ما شابه ذلك)، ربما ليربط نفسه بمارس، إله الحرب، برباط وثيق. ويضع احدى يديه على ذقنه. ثم يردد دعاء وراء الكاهن سائلاً فيه الآلهة النصر له والدمار للعدو. ويختتم الدعاء منذراً نفسه وجيش العدو كله لآلهة العالم السفلي وربة الأرض. ثم يقتحم بذلك نيابة عنه، مع تغيير في صيغة الدعاء. فإذا قتل القائد أو بديله كان معنى ذلك أن الآلهة قد قبلت الدعاء وعليها أن تستجيب لبقيته وتدمر جيش العدو. فإذا لم يقتل البديل وكسبت المعركة، فلا بد من أن يدفن في الأرض تمثال طوله سبعة أقدام عوضاً عنه. وإذا لم يقتل القائد فلن يستطيع أن يقدم بعد ذلك قرباناً مقبولاً عند الآلهة. ولا بد من الحرص على ألا يستولي العدو على الحربة التي كان القائد الروماني قد وضع قدميه عليها.

9 ـ ولد في بادوا (Padua) في شمال إيطاليا وعاش بين 59 ق.م و 17م. ويعد أشهر المؤرخين الرومان. كتب تاريخ روما من أقدم العصور حتى 9 ق.م. ويعرف تاريخه باسم «منذ تأسيس المدنية Ab Urbe Condita وهو يقع في 142 كتاباً لم يصلنا منها إلا الكتب من 1 ـ 10 (وتتناول الفترة من البداية إلى عام 293 ق.م) ومن 21 ـ 45 (وتتناول الفترة من عام 218 إلى عام 167 ق.م.) وعدة شذرات وملخصات من الكتب الضائعة. وليفيوس مؤرخ أديب يتميز

أسلوبه بالفخامة والطابع الروائي ولكنه يفتقر إلى ملكة النقد. فهو لا يقارن مثلاً بثوكيديديس أو بوليبيوس في هذا المضمار. ومع هذا فهو أفضل مصادرنا عن فترات كثيرة من عصر الجمهورية.

10 ـ مؤرخ عاش بين 200 ق.م. و 120 ق.م. وأصله من ميجالوبوليس (Megalopolis) بجنوب بلاد الاغريق. ويعتبر تاريخه المكتوب باليونانية أوثق مصدر عن تاريخ الجمهورية الرومانية منذ أوائل الحرب البونية الثانية حتى منتصف القرن الثاني ق.م. ويقع في 40 كتاباً تشمل أحداث الفترة من 220 ق.م إلى 146 ق.م. وكتابين آخرين كمقدمة يتناول فيهما الأحداث السابقة. واشتغل المؤرخ بالسياسة أثناء احتدام النزاع بين العصبة الآخية (Achaea) وبين الرومان. ونقل إلى روما كرهينة مع كثيرين من بني وطنه في عام 166 ق.م وهناك قضى عشر سنوات درس أثناءها أخلاق الرومان ونظمهم السياسية وتعرف على أقطابهم. ويمتاز بتحليله التاريخ تحليلاً علمياً دقيقاً يدل على نظرته الواقعية وخبرته العسكرية ومعرفته بالجغرافيا واعتقاده بوحدة التاريخ. وفي رأيه أن حصول روما على السيادة العالمية بعد فترة من الكفاح استغرقت حوالي نصف قرن (220 ـ 168 ق.م) أمر لا نظير له في التاريخ.

11 ـ Coloniae civium Romanorum.

12 ـ Coloniae Latınae.

13 ـ أنظر ص 137 فيما تقدم.

14 ـ الكلمة اللاتينية Feuces معناها «الحلق» ويعبر بها أيضاً عن الممر الضيق.

15 ـ راجع فيما تقدم. كان ديونيسوس الأول يلقب نفسه القائد المنفرد بالسلطة (Strategos autokrator)، وبعدئذ لقب نسبه حاكم صقلية (Archon).

16 ـ وهي كعب الحذاء الايطالي. كان هذا قديماً، أما الآن فان اسم كلابريا يطلق على ما كان يسمى بروتيوم (مقدمة الحذاء الايطالي) راجع ما تقدم .

17 ـ راجع ما تقدم .

18 ـ ومن هنا جاءت عبارة Pyrrhic victory في اللغة الإنجليزية ومعناها ، أي انتصار غالي الثمن فادح الخسائر كالهزيمة تقريباً.

الفصل التاسع

الأسرة والدولة والمجتمع

ذكرت في الفصل السابق بعض العوامل الظاهرية التي اكسبت روما في وقت مبكر خبرة في الحرب والسياسة وبخاصة موقعها الجغرافي الذي عرضها للهجوم المستمر وأتاح لها في الوقت نفسه فرصة صد الهجوم والتقدم. غير أنه كان لا بد من توافر عوامل أخرى لكي تحقق روما ما حققته. لا بد أن يكون الشعب الروماني قد تحلى، افراداً وجماعة، بصفة خلقية أعانته على الصمود لما تعرض له من خطوب وشدائد، والنهوض من النكبات بقوة متجددة ليستأنف أعمال الغزو ويضطلع بشؤون الحكم. وليس ثمة ما يدعو إلى الظن بأن شعب هذه المدينة كان بالفطرة أقوى خلقا من الشعوب الأخرى، أي من سكان المدن اللاتينية الذين تربطهم به أواصر الدم أو من الشعوب الايطالية التي تنحدر من نفس الأصل. فقد كانت جميع هذه الشعوب التي وفدت إلى إيطاليا وطغت، قبل بداية التاريخ بحقبة طويلة، على السكان الأصليين الذين لا نعلم عنهم إلا النزر اليسير، كانت جميعها فيما يرجع تحمل نفس الخصائص البدنية والعقلية. وتلك حقيقة قد تعيننا على أن نفهم كيف استطاعوا جميعاً أن يتحدوا سوياً بمرور الزمن ويؤلفوا نواة لامبراطورية عظيمة. ولكن الخاصة أو الصفة الخلقية التي سوف نتناولها بالشرح في هذا الفصل كانت أبرز في مواطني روما منها في غيرهم من سكان المدن الأخرى نظراً لاضطرارهم باستمرار إلى ابرازها، لأن جميع الصفات والعادات تزداد تأصلاً بالمران المستمر.

الأسرة والتربية الخلقية:

النظام والواجب هما الكلمتان اللتان تفسران خير تفسير، إن لم يعبرا أصدق التعبير عن الصفة التي نعنيها: إطاعة السلطات وهي شرط ضروري من شروط المقدرة على الحكم، ثم الشعور بالواجب وهو دعامة هذه المقدرة وتلك الطاعة. وفي وسعنا أن نتتبع هذا الميل إلى النظام وهذا الشعور بالواجب في الحياة الخاصة والعامة في روما القديمة أي في حياة الأسرة وحياة الدولة. لكن ينبغي أن نوضح أولاً أن الفرد بنفسه لم يكن قد أصبح بعد عنصراً هاماً في المجتمع. وكان هذا المجتمع يستند إلى نظام الجماعات ولم يقم الفرد فيه بأي دور في ذلك الوقت المبكر إلا بوصفه عضواً في جماعة، سواء أكانت هذه عشيرة (gens) أم حيا (Curia) أم مقاطعة (Pagus). ولكن الجماعة الوحيدة التي تعنينا هي الأسرة (Familia)، أصغر الجماعات كلها، وأحد تلك الألفاظ الخالدة التي ورثتها كثير من اللغات الأوروبية عن اللاتينية. وسنبدأ بوصف الأسرة متتبعين صفتي النظام والواجب في حياتها. وبعدئذ نتناول الدولة ونتتبع نفس الصفتين وكيف يتكرر ظهورهما في وحدة اجتماعية سياسية أكثر تعقيداً من الأسرة.

لم تكن كلمة Familia تعني تماماً ما نعنيه بالأسرة ولربما تكون عبارة «جماعة أسرية» أقرب إلى المعنى، إذ كان المفهوم منها هو جماعة من الأفراد الذين يكسبون قوتهم من زراعة الأرض. فلم يكن معناها فقط الأب والأم والأولاد بل اتباعهم أيضاً من المستعبدين والأحرار. فإذا كانوا مسعبدين فهم رقيق (Servi) أصلهم أسرى حرب وأبناء أسرى أو أشخاص استرقوا لعجزهم عن الوفاء بالديون أو اشتروا من أسواق النخاسة. وإذا كانوا أحراراً فهم أتباع (Clientes) ربطوا مصيرهم لسبب أو لآخر بالجماعة الأسرية وشغلوا فيها مركزاً أدنى معتمدين عليها لاعالتهم وحمايتهم. ولن تكون الصورة كاملة لو

أغفلنا آلهة الجماعة الأسرية الذين كانوا يعيشون في البيت أو في الأرض، وعليهم كان يتكل أفراد الجماعة لرعايتهم ورفاهيتهم في جميع مسالك الحياة. وكان أهم هؤلاء الآلهة هي فستا (Vesta)، روح نار الموقد، والبناتيس (Penates)، أرواح غرفة التموين ومحتوياتها؛ واللاريس (Lares)، أرواح الأرض المنزرعة، أو كما يعتقد البعض الآخر، أرواح الأسلاف الراحلين؛ ثم الروح الحارسة (Genius) لرب الأسرة التي تمكنه من انجاب الأولاد حتى تستمر الحياة الجماعية للأسرة. ومع أن هذه الأرواح ـ التي لم تكن قد أصبحت بعد آلهة تبدو لنا بداهة مجرد خيالات توهمها العقل الروماني البدائي، إلا أنها بدت لهذا العقل أنها حقائق لها من التأثير في حياة الجماعة ما لأفرادها من البشر. ولا مناص من أن نعتبره كذلك لأنها قامت بدور هام جداً في ارتقاء الصفة الخلقية التي نود أن نتفهمها.

وكانت هذه الجماعة الأسرية ـ أو بالأحرى أفرادها من البشر ـ تعيش تحت ظل نوع من الحكومة البسيطة الحازمة، وهي السلطة المطلقة في يد رب الأسرة. وكان هو الأب والزوج أو أكبر الآباء والأزواج سنا عندما كانت تعيش عدة أسر تحت سقف واحد. فكان يمارس على الزوجة والأولاد سلطة الأب (Patria Potestas) وعلى العبيد سلطة السيد (Dominatio) وأما على الأتباع فكان يزاول حق الحماية والرعاية (Patronatus)[1]. وكانت سلطته على الزوجة والأولاد مطلقة، غير أنه كان يحول دون استبدادها عرف رشيد ترتبت عليه نتائج كلها بالغة الأهمية طوال التاريخ الروماني[2]. وكان هذا العرف يقضي باستشارة مجلس من الأقرباء قبل اتخاذ أية خطوة نهائية في تأديب من يقترفون جرائم خطيرة. وكان هذا بمثابة إلتزام أو واجب لا يفرضه قانون إنما يفرضه سيد أقوى من القانون ألا وهو «العرف المتوارث» أو سنّة السلف (Mos maiorum). وكان يحد من سلطة رب الأسرة على أتباعه أو عتقائه (Liberti)، عندما يكون في حوزته أحد منهم، نظام الالتزام المتبادل الذي أخذ طريقه بمرور الزمن إلى

كتب القانون. بيد أن سلطته على عبيده لم تكن مطلقة فحسب بل استبدادية أيضاً، واستمرت كذلك حتى آخر فترة في التاريخ الروماني. ومع هذا فينبغي ألا ننسى أن العبد كان في حقيقة الأمر عضواً في الجماعة الأسرية مما يرجع أنه كان يعامل كإنسان لا غناء عنه لحياة الجماعة بل كان يشترك أحياناً في طقوسها الدينية[3].

ولننظر الآن كيف طبقت مبادىء هذا النظام الأسري في الحياة العملية لدى الجماعات المستقرة التي عاشت على زراعة الأرض خلال شطر كبير من هذه الفترة. فلم تكن المدينة نفسها سوى مكان حصين في الغالب تلتجىء إليه الأسر المزارعة في ساعة الخطر، ثم تقتضي فيه بمضي الزمن مسكنا ومزرعة مثلما فعلت الأسر الكبيرة في المقاطعات الانجليزية خلال العصور الوسطى. وكان رب الأسرة (Paterfamilias) يدير جميع أعمال المزرعة لا ينازعه أحد سلطته، ويفصل في كل المنازعات التي تنشأ بين الأفراد، ويعاقب كل مرتكبي الجرائم. وأما الأعمال المنزلية الضرورية كالطهو وغزل الصوف لصنع ملابس الأسرة (وكلها كانت من الصوف في ذلك الوقت) فكان يدعها لزوجته وبناته، وبذلك استأثرت الزوجة بقسط من السلطة رفعها إلى مستوى أرقى من مستوى الزوجة عند الهنود الحمر، وأتاح لها بالتدريج نفوذاً كبيراً وان كان غير مباشر في الحياة الاجتماعية.

ولم يكن كل فرد في الجماعة الأسرية مطالباً تحت هذا الاشراف الدقيق بأداء عمل معين فيما يخص المأكل والملبس فحسب، بل عليهم أيضاً واجبات نحو الآلهة الذين اعتقدوا أن سلامتهم ورخاءهم متوقفان على رضائها. وكانوا يؤدون في كل يوم صلوات بسيطة عند كل وجبة، ويشركون الأولاد معهم. فكان رب الأسرة بمثابة الكاهن في معبد والأولاد سدنته. وفي أيام معينة كان يحددها في الأزمنة القديمة مجلس من أرباب الأسر ويحددها التقويم في الأزمان التالية، كانت أسر المقاطعة الواحدة (Pagus) تشترك في أعياد دينية يحتفل بها في وقت الحصاد

مثلاً أو بعد بذر الحبوب في الخريف لتمجيد واسترضاء روح الثمر المحصود أو الحب المبذور. وكانت تصحب هذه الأعياد في معظم الأحيان حفلات رياضية ومباريات سباق مما كان يخفف بعض الشيء من سأم الحياة الرتيبة. ومع أن النظام لم يبلغ من الصرامة حداً يهدر معه حرية الفرد ويقضي على هنائه إلا أن الحياة كانت تسير بوجه عام على وتيرة واحدة من الأمر والطاعة والنظام والواجب.

وما هو أسلوب التربية الذي أخذ به الرومان لغرس هذه الصفات في نفوس أبنائهم؟

من المؤسف أنه لم تصلنا وثائق معاصرة من تلك الفترة للاجابة عن هذا السؤال، ولا مناص من أن نستخلصه حدسا مما نعرفه عن التربية التي هيأها كاتو «الأكبر» لابنه في القرن الثاني ق.م[4]. كان كاتو أحد الذين يؤمنون ايماناً شديداً بالأساليب العتيقة. ويبدو أن هذه التربية اقتصرت ـ كما هو متوقع ـ على تعليم الزراعة والاحترام والطاعة والتواضع. ولم يعلم كاتو ابنه الفلاحة والفروسية والملاكمة والسباحة فحسب بل علمه أيضاً اجتناب كل ما هو مخل بالآداب، وكان هو نفسه «حريصاً على ألا يتفوه بأي لفظ بذيء أمام ابنه كما لو كان في حضرة عذارى فستا»[5]. وقد وضع لابنه كتباً في التاريخ مدونة بحروف كبيرة حتى يلم بطرف من أمجاد أسلافه الرومان وعاداتهم. وكان التثقيف الفكري إلى جانب التربية النفسية ـ ولا سيما تقوية الإرادة ـ قد بدأ يشيع في عصره. غير أن هذا التثقيف كان لا يزال ضعيف الأثر في الفترة التي نحن بصددها، وليس من المستبعد أن تكون الجهود قد ضوعفت لإحياء فكرة الواجب نحو الدولة وآلهتها ونحو الأسرة وأربابها الراعية للتعويض عن نقص الثقافة. وعندما ألف الناس المعيشة بالمدينة توافرت الفرص لأبناء الأسر العريقة ليتعلموا ما كان مقصودا بالواجب نحو الدولة، فكانوا يصحبون آراءهم إلى المنتديات لسماع خطب تأبين مشاهير المواطنين بل كان يسمح لهم بحضور جلسات السناتو. وبذلك اكتسبوا حصافة وفطنة عادتا عليهم بالنفع الكبير في مستقبل حياتهم.

وسنروي هنا قصة ـ بغض النظر عن مدى صحتها ـ نقلاً عن كاتو «الأكبر» توضح هذا المظهر وغيره من مظاهر الحياة الرومانية القديمة. ذاك أن ولدا رافق أباه إلى مجلس الشيوخ. فلما عاد سألته الأم بدافع الفضول عما كان الآباء (أي الشيوخ) يتناقشون فيه. فأجابها الولد بأنه محظور عليه أن يتكلم بتاتاً، مما ألهب فضولها وجعلها تلح عليه أن يتكلم. وعندئذ اختلق الغلام أكذوبة يصفها كاتو بالفطنة واللباقة. قال لها الغلام أن السناتو كان يتناقش فيما إذا كان من الأفضل للدولة أن يتزوج الرجل امرأتين أو المرأة رجلين. واستولى الذعر على الأم فانطلقت إلى ربات البيوت الأخريات لتقص عليهن الخبر. ولم يأت الصباح حتى كن قد احتشدن أمام دار السناتو وهن يبكين ملتمسات أن يكون من حق المرأة أن تتزوج رجلين لا أن يتزوج الرجل امرأتين. واستولت الدهشة على الشيوخ إلى أن بددها الغلام الذي وقف وسط القاعة وروى قصته. ومنذ ذلك الحين لم يسمح لأي صبي بحضور مناقشات مجلس الشيوخ سوى هذا الصبي الذي كوفىء على أمانته ولباقته.

الدولة والتربية السياسية:

ومن هذه القصة القديمة الطريفة ننتقل إلى الشطر الثاني من موضوع هذا الفصل، ألا وهو تدريب المواطنين على خدمة الدولة. ولنتوقف هنا لحظة نبحث فيها فكرة الرومان عن الدولة ووظيفتها.

اتخذت الدولة في إيطاليا ـ كما كان الحال في بلاد الاغريق ـ شكل مدينة تلحق بها مساحة من الأرض تقتات منها. وقد تركزت حياة الدولة في قلب المدينة ولا مراء في أن انتقال الحياة من المزرعة أو القرية إلى المدينة ـ في بلاد الاغريق وإيطاليا على السواء ـ كان له اثر بالغ الأهمية بالنسبة للانسانية، إذ أتاح للانسان فرصة الارتقاء من مرحلة مجرد كسب القوت إلى مرحلة التقدم الأدبي والفكري.

وهذا هو الارتقاء إلى ما يسميه أرسطو «بالحياة الفاضلة» تمييزاً لها عن الحياة الفطرية. وكان يعني بذلك أن الانسان لم يكن لديه في المرحلة الدنيا من تطوره الوقت أو الحافز للارتقاء بالفن والأدب والقانون والفلسفة لأنه كان ينفق كل جهده في الصراع والسعي وراء الرزق: الصراع مع الطبيعة تارة، ومع أعدائه الذين لم يكن لهم ندا تارة أخرى. ولكن دولة المدينة (Polis) لم تهيىء له فقط الفرصة ليحيا حياة أرقى، بل كفلت له ايضاً الغذاء اللازم لاستمرار هذه الحياة.

بيد أن الرومان لم يستمدوا أبداً من الحياة الاجتماعية الجديدة نفس القدر أو نفس النوع من الغذاء الذي استمده منها اليونان. لقد استمدت روما ما يكفي لتنمية أقوم جانب في أخلاقها والتأهب للرسالة العملية التي قدر لها أن تؤديها في العالم. لكن ما أن نفرغ من قراءة تاريخ روما حتى يتبين لنا أنها اضطرت ـ على نقيض معظم دول المدن اليونانية أن تقضي معظم حياتها بسبب الظروف التي واجهتها في صراع وكفاح مستمرين. فقد كان من العسير على روما دائماً أن تحتفظ بكيانها وحريتها. ولم تمض عليها فترة ـ كما سنرى ـ دون أن تتهددها الأخطار الداخلية أو الخارجية. وكانت دويلات كثيرة في بلاد اليونان تجد متسعاً من الوقت للراحة والاستمتاع بتنمية مواهبها العقلية، وهو ما أدى إلى انتاج التحف الفنية والروائع الأدبية، كما وجدت أيضاً الفراغ للتفكير والبحث في الطبيعة سواء في نفس الانسان أو في الكون المحيط به، مما أدى إلى ارتقاء الفلسفة والعلم لخير الانسانية جمعاء.

ولكن روما أنفقت كل جهدها في الصراع من أجل البقاء مما دفعها تدريجياً إلى الغزو والسيطرة. وكان من الممكن بعد أن آلت إليها زعامة إيطاليا ـ على النحو الذي فصلناه في الفصل السابق ـ أن تجد متسعاً من الوقت يتيح لها فرصة للتفكير والبحث والانتفاع بمواهب شعوب إيطاليا المختلفة من أتروسكيين وغال واغريق وشعبها نفسه. ولكن الصراع الطويل المرير الذي خاضته ضد قرطاجة،

وهو موضوع الفصل التالي، قضى على هذه الفرصة قضاء مبرما. وقد خرجت روما من هذا الصراع منهكة القوى، فلما ـ تهيأت لها الفرصة للراحة استعصى عليها التفكير. ومع هذا فقد أثمر مرانها الطويل على الكفاح العملي ثمرته، وظلت مبادىء الواجب والطاعة والقانون والنظام التي اجتازت بها شتى الأخطار ماثلة في أذهان الرومان فلم يتخلوا عنها تخلياً تاماً في يوم من الأيام. ولنتتبع الآن تطور تلك المبادىء في حياة روما بوصفها مدينة حرة أو مدينة ـ دولة.

الدستور في عصر الملكية:

إن أول ما يسترعي الانتباه عند دراسة الدستور الروماني هي السلطة المطلقة التي يتمتع بها الحاكم في جميع مرافق الدولة. فكلما كان رب الأسرة يتمتع بسلطة مطلقة على أفرادها، كان الملك يتمتع بمثلها على المواطنين. وقد عرفت هذه السلطة في الأسرة ـ كما ذكرنا ـ باسم بوتستاس (Potestas)، وأما في الدولة فعرفت باسم امبريوم (Imperium) وهي كلمة من أعظم الكلمات التي صيغت وما تزال موجودة حتى اليوم في كثير من الاشتقاقات اللغوية. وكانت هذه الكلمة أصدق تعبيراً في نظر الروماني من أي كلمة أخرى عن فكرة اطاعة النظام في الدولة، إذ كانت تؤكد في ذهنه اعتقاده المتوارث بوجوب اطاعة السلطة الشرعية طاعة عمياء. وليس المقصود السلطة غير الشرعية المأخوذة غدراً أو غصباً لأن كلمة «أمبريوم» لا تدل أبداً على مثل تلك السلطة إنما تدل على السلطة التي تمنح لمواطن من مواطني الدولة وتعتمدها آلهة الدولة. ولم تكن «الامبريوم» تمنح لمواطن إلا بقرار من الشعب. وكان لا بد من أن تقرها الآلهة باظهار فأل ميمون. وكان من الضروري أن تتم هاتان الخطوتان وهما إصدار القانون واستطلاع مشيئة الآلهة. (Auspicia) وفقاً بمراسم تقليدية معينة كان أي خطأ فيها يجعل اختيار الحاكم باطلا. فإذا منحت سلطة «الامبريوم» للحاكم بالطريق الشرعي فليس

هناك سبيل إلى مقاومتها. وكانت تصحبه شاراتها الرمزية وأهمها الـ fasces وهي عبارة عن عصى محزومة بشريط أحمر (داخل المدينة) أو حول بلطة (خارج المدينة) كانت تحملها أمامه في أيديهم وفوق أكتافهم اليسرى ثلة من اثني عشر حارسا يسمون lictores ويرافقونه أينما ذهب تذكيرا للمواطنين الرومان بأن واجبهم الأول هو اطاعة السلطة الدستورية[6].

وكانت كلمة «أمبريوم» تدل على ثلاثة أنواع من السلطة:

أولاً: كان الملك هو صاحب السلطة العليا في الشؤون الدينية لأنه كان مسئولا عن تحسين الصلات بين سكان المدينة من البشر وسكانها من الالهة، أي كان مسئولاً ـ على حد تعبير الرومان ـ عن «سلام الآلهة» (Pax Deorum) أي عن رضائهم. وكان من المعتقد أنه إذا لم يحتفظ بهذا «السلام» أو هذا العهد (Fus Divinum) بين الناس والآلهة، فلن يتحقق الرخاء للدولة التي تتوقف حياتها عليه. لكن ينبغي الآن أن يتنبه القارىء إلى نقطة بالغة الأهمية في تطور الحياة الرومانية العامة. ذلك أن الملك لم يكن في وسعه أن ينهض وحده بواجبه الديني، إذ لم يوجد بين الناس من يستطيع أن يلم وحده إلماما كافيا بجميع دقائق العرف الديني القديم. ولذا كان يقوم بمساعدته مجلس صغير من المتفقهين في الدين يسمون بالكهنة (Pontifices)، وربما أيضاً مجلس آخر من العرافين (Augures) الخبيرين بتفسير الطوالع والتنبؤ بمشيئة الآلهة. وبذلك قيدت سلطة «الأمبريوم» في الشؤون الدينية وان كانت مطلقة من الناحية القانونية، وحيل دون أن تكون استبدادية أو متعارضة مع العرف المتوارث. فالملك يتمتع بسلطة دينية يزاولها طبقاً لمشورة فقهاء الدين.

ثانياً: أن كلمة «أمبريوم» كانت تدل على السلطة المدنية أي الإدارية والقضائية العليا وذلك لكي يستتب السلام بين الأفراد من المواطنين[2]. وكان الملك يتمتع بسلطة غير محدودة لا في الفصل في المنازعات فقط، بل في توقيع

العقوبات كذلك ومن بينها عقوبة الموت. ولكن سلطته هنا أيضاً لم تكن استبدادية برغم أنها كانت مطلقة قانوناً لأن سلطان العرف على الدولة كان أقوى من سلطانه عليها، وكان واجبه يحتم عليه أن يعمل على أن يظل العرف مرعيا. وكان يعاون الملك في النهوض بهذا الواجب على خير وجه مجلس «السناتو» (Senatus) المؤلف من الشيوخ، وهم آباء الأسر الذين كان العرف يلزمه باستشارتهم وان لم يلزمه بقبول مشورتهم، ونلحظ هنا كذلك أن ممارسة النظام اقترنت بالشعور بالواجب والالتزام كما هو الحال في حياة الأسرة، إذ كان السناتو في الدولة يقابل من حيث المبدأ مجلس الأقرباء في الأسرة.

وكان الرومان ينقسمون منذ اقدم العصور إلى ثلاثين وحدة تسمى بالكوريأي (Curiae) أو «الأحياء»، لأنها كانت فيما يبدو تقابل في وقت من الأوقات أقسام روما المحلية. ويحتمل أن العضوية كانت في الحي وراثية، وأن كلا منها كان له عبادته الخاصة. وكانت كلها مندمجة في ثلاث وحدات أكبر تعرف بالقبائل (Tribus)[8] تشتمل كل واحدة منها على عشرة «أحياء» (بالمعنى السلالي أو العرفي). فإذا اجتمع أعضاء الأحياء تألفت منهم «جمعية الأحياء» (Comitia Curiata) وهي جمعية في وسعنا أن نعتبرها مجلساً أو جمعية شعبية لأنها كانت تضم الشعب بفئتيه من اشراف وعامة. وكانت تنعقد بدعوة من الملك عندما يشاء ابلاغها مسائل تهم المجتمع كالتبني والوصاية ومنح الجنسية. ولم تتمتع هذه الجمعية القديمة باختصاصات تشريعية، غير أن المسائل إلها مة كاعلان الحرب وتعيين ملك جديد كانت تقتضي موافقتها الرسمية[9].

ثالثـاً: أن كلمـة «أمبريـوم» كانـت تـدل عـلى السـلطة العسـكرية المطلقـة التـي يزاولهـا القائـد في الحـرب. وهنـا ـ كـما هـو متوقـع ـ لا يتدخـل العـرف لتقييدهـا فقـد كان الملـك الرومـاني، وهـو في ميـدان الحـرب، يعتـبر خـارج نطـاق العـرف السـائد في دولتـه وفي منـأى عـن رعايـة آلهتـه، واقعـاً تحـت رحمـة آلهـة مجهولـة. وكان الجيـش قبـل

خروجه في حملة وقبل دخوله المدينة بعد عودته يقوم بطقوس دينية معينة تدل على ما كان يساور الرومان أنفسهم من مخاوف عندما كانوا يفارقون بلادهم وآلهتهم. فلم يكن للعرف سلطان في ميدان الحرب. ولهذا ظلت سلطة القائد فيه مطلقة إن لم تكن استبدادية طوال التاريخ الروماني. ولا ريب في أنه كان في وسع القائد أن يستشير ـ وكثيراً ما كان يستشير ـ غيره ويعمل بمشورتهم، بيد أنه لم يكن ملزماً حتى من الناحية الأدبية أن يفعل ذلك. لقد رأى الرومان أن الحكمة تقتضي أن يدعوا سلطة «الامبريوم» في هذا الميدان العسكري (Militiae) مطلقة دون قيد[10].

تلك إذن هي سلطة «الامبريوم»، في يد الحاكم الأعلى، والتي كانت بمثابة حجر الزاوية في بناء الحكومة في جميع فترات تاريخها. لكن ينبغي هنا أن نتساءل عن الشعب الذي أطاع تلك السلطة. من المؤسف أننا نكاد لا نعرف شيئاً عن الشعب الروماني حتى قرب نهاية العصر الملكي. نحن نعرف حقاً أنه كان ينقسم ـ كما كان الحال في كثير من الدويلات الاغريقية ـ إلى طبقتين احداهما متميزة عن الأخرى مما سنتعرض له بعد لحظة. ويكفي هنا أن نبين كيف استجاب هؤلاء السكان لنداء الواجب والنظام.

ترجع أقدم معلومات لدينا عن هذا الموضوع إلى عهد سرفيوس توللیوس وهو الملك قبل الأخير في قائمة ملوك روما السبعة[11]. كان جميع المواطنين الأحرار المنتمين إلى الطبقتين الممتازة وغير الممتازة يخدمون في الجيش كواجب عليهم أن يؤدوه نحو المدينة، ويدفعوا من الضرائب ما يلزم لمواجهة الأعباء العسكرية قبل أي شيء آخر، ولم تكن الخدمة مأجورة بل كان المشاة، وهو الجانب الأكبر من الجيش، يجهزون أنفسهم بالسلاح والعتاد. وأما الفرسان فكانت الدولة هي التي تزودهم بالخيل نظراً لغلائها. ولما كان كبار الملاك من المواطنين هم أصحاب المصالح العليا في الدولة، فقد ألقيت على عاتقهم أثقل أعبائها. ويتضح ذلك من

نظام الجيش عند خوض المعركة، إذ كان القادرون على تجهيز أنفسهم بالسلاح الكامل يقفون في المقدمة بينما كان المجهزون بالسلاح الضعيف أو الخفيف يقفون في المؤخرة. وكان ذلك هو المبدأ السليم الذي طبق في الجيش خلال فترة التوسع والغزو في ايطاليا. كان الجيش اذن جيش المواطنين الذين يتألف منهم الشعب (Populus)[12]. وكانت الخدمة فيه واجبة على جميع الذين كانوا مطالبين بدفع الضرائب كل على قدر دخله. وأما القيادة فكان يتولاها حامل سلطة «الامبريوم» ومن يعيّنهم من الضباط لتنفيذ أوامره.

هكذا كان الشعب الروماني بعد القضاء على الملكية في عام 510 ق.م مدرباً تدريباً كاملاً على الاضطلاع بالواجب واطاعة النظام. وكانت النتائج العملية التي تمخضت عن هذا التدريب هي تأصل الطاعة في نفسه واحترامه السلطة الشرعية وذوي الخبرة والمعرفة، وتعوده على الثبات والهدوء في ساعة الخطر. ولم ينزع الشعب إلى الشغب سواء في الأزمات الداخلية أو الهزائم العسكرية. وكما أطاع حكامه فقد وثق بهم أيضاً. ولم ينشأ على حب الكلام فأنفق نشاطه في العمل. ولما كان الكلام أدعى إلى اثارة النزاع من العمل فلم يجد النزاع سبيلاً إلى صفوف الشعب. ومع أن روما مرت بأخطار سياسية وعسكرية كثيرة في الأجيال التالية إلا أن الدماء لم تسفك في شوارع المدينة إلا بعد انقضاء حوالى أربعة قرون من بدء تاريخها.

الدستور في عصر الجمهورية:

وينبغي أن نختتم هذا الفصل بعرض سريع موجز لتاريخ النظام السياسي في فترة التوسع الروماني في إيطاليا لنبين كيف اكتسب المواطنون صفة الرزانة والاتزان في معالجة الشؤون الداخلية بالتدريب على الاضطلاع بالواجب واطاعة النظام.

تحولت الدولة الرومانية بعد طرد الملك الأخير إلى «ريس بوبليكا» Res Publica وهي عبارة ترجمتها الحرفية «شيء عام» أو «مصلحة عامة» أي تحولت إلى ما يجوز لنا أن نسميه «دولة حرة» أو «جمهورية»[13]، وهذه العبارة الخالدة ورثتها اللغات الأوروبية الحديثة عن اللاتينية وما تزال تؤدي نفس المعنى الذي فهمه الرومان. وعندما كتب شيشرون في أواخر حياة الدولة الرومانية الحرة إلى صديق له قائلاً «لقد فقدنا آل Respublica تماماً» فإنه كان يعني أنها انتقلت من «الحكم الجماعي» إلى «الحكم الفردي» أي انتقلت إلى أيدي حفنة من الأفراد غير المسؤولين أمام أحد فما هي الخصائص الجوهرية التي تميزت بها هذه الدولة الحرة أو الجمهورية؟ هذه الخصائص نجدها كامنة في سلطة «الامبريوم» وهي حجر الزاوية في الدستور كما وضعه الذين أسسوا الجمهورية:

1 ـ كان إلغاء سلطة «الامبريوم» أمراً مستبعداً، فلم يخطر أبداً مثل هذا الشيء على بال الرومان، لأنه كان بمثابة تقويض أساس في بناء تم جانب منه. ولكن «الامبريوم» لم تعد تمنح لا لمدى الحياة ولا لفرد واحد وانما أصبحت تمنح في عصر الجمهورية لحاكمين بدلاً من حاكم، ولمدة سنة واحدة فقط يتخلى في نهايتها الحاكمان اللذان عرفا بعد فترة قصيرة من قيام الجمهورية في 509 باسم القنصلين Consules عن شارات الحكم ويتنحيان عن السلطة ويعودان ثانية مواطنين عاديين، وينتخب بعدهما قنصلان جديدان وفي الحق أنهما كانا بمثابة رئيسي الجمهورية». وكان الشعب يشترك في انتخابهما باعتباره جيش المواطنين. وكان هذا الانتخاب يتم في جمعية تعرف بالجمعية المئوية (Comitia Centuriata) مرتبة في طبقات حسب اختلاف الثروة كما كان الحال في الخدمة العسكرية. فكان

لكل مواطن مطالب بإطاعة سلطة الامبريوم صوت في انتخاب صاحب هذه السلطة. غير أن أصحاب المصالح العليا في الدولة ممن كانوا يقفون في مقدمة الجيش في الحرب كان لهم بحكم كثرة وحداتهم المئوية Centuriae أصوات راجحة الكفة عند الاقتراع.

«الجمعية المئوية»

كان جميع المواطنين القادرين على تجهيز أنفسهم بالسلاح والعتاد مقسمين إلى خمس طبقات (Classés) حسب الثروة أي على أساس «تيموقراطي». وقد أصبحت هذه الطبقات نواة المجلس المئيني. أو الجمعية المئوية (Comitia Centuriata) التي يرجح أنها نشأت بعد عام 450 ق.م. وكانت كل طبقة تشتمل على عدد معين من الوحدات المئوية (Centuria) تحسب كل منها بصوت واحد عند الاقتراع. ولما كان أصحاب الثروات الكبيرة في الطبقة الأولى المؤلفة من 80 وحدة مئوية هم والفرسان المؤلفون من 18 وحدة يملكون وحدات مئوية أزود من وحدات أصحاب الثروات الصغيرة في الطبقات التالية، فكثيراً ما كانت ترجح كفتهم لأن عملية التصويت كانت تتوقف بمجرد الحصول على الأغلبية بين عدد الوحدات المئوية البالغ عددها كلها 193 وحدة. وقد آلت إلى «الجمعية المئوية» معظم اختصاصات الجمعية القديمة المعروفة باسم «جمعية الأحياء» (Comitia Curiata). فكانت هي التي تصدر القوانين وتنتخب الحكام المتمتعين بسلطة «الامبريوم» وكذلك الكنسوريس (Censores)[14] وتعلن الحرب وتبرم السلم. وكانت تجتمع خارج حدود المدينة Extra pomerium، في ساحة الإله مارس (Campus Martius) في تنظيم عسكري وسنتكلم بعد قليل عن علاقة هذه الجمعية «بالجمعية القبلية» التي نشأت فيما بعد.

2 ـ ولم تحدد فقط مدة مزاولة سلطة «الامبريوم» بل حيل كذلك بينها وبين أن تكون استبدادية بطريقتين، الأولى هي أن كلا من القنصلين كان يملك حق الاعتراض (Intercessia) على قرارات زميله[15]. وكانا يتناوبان في المدينة وفي ميدان الحرب ممارسة الامبريوم، والثانية هي أنه لم يكن في وسعهما إعدام مواطن في المدينة (Domi) دون اعتماد الجمعية الشعبية (المئوية). وأما في ميدان الحرب فقد رأى الرومان أن الحكمة تقتضي جعل سلطة «الامبريوم» مطلقة من غير قيد لادراكهم ـ كما ندرك نحن اليوم ـ أن النظام العسكري يتطلب عقوبة أردع مما يتطلبها النظام المدني[16].

«السناتو»

وفضلاً عن هذين القيدين اللذين وضعا على «الامبريوم»، فقد ظل السناتو البالغ عدده 300 عضو يعمل كهيئة استشارية للقنصلين اللذين كانا مع هذا يتمتعان بسلطة ملء المقاعد الشاغرة فيه من وقت لآخر ولو أن هذا الحق آل فيما بعد إلى حكام آخرين يعرفون «بالكنسوريس» أي المشرفين على التعداد أو الرقباء. ولا نعرف على وجه الدقة شيئاً عن طريقة تكوينه في ذلك الوقت، بيد أنه من المؤكد أن جميع من سبق لهم مزاولة سلطة «الامبريوم» كانوا يعينون أعضاء فيه نظراً لأنهم اكتسبوا من الخبرة أثناء خدمتهم ما يؤهلهم تماما لاسداء النصيحة ونقد تصرفات من يخلفونهم في المناصب. وقد ظل هذا المبدأ الخاص بتعيين الحكام السابقين أعضاء في السناتو معمولاً به في كل العصور حتى صار هذا المجلس العظيم مع مرور الزمن أقدر مجلس عرفه العالم، مؤلفاً من أعضاء ذوي كفاية وخبرة بالحياة العملية. وهم الأشراف.

3 ـ يجب أن ننوه بحقيقة هامة وهي أن الرومان لم يترددوا في رفع هذه القيود عن سلطة الحاكم لفترة محدودة والرجوع إلى الحكم المطلق إذا رأوا أن سلامة الدولة تحتم ذلك. ففي ساعات الخطر الداهم في الداخل أو في الخارج كان القنصلان أحدهما أو كلاهما يعينان بناء على اقتراح من السناتو رجلاً واحداً مزوداً بسلطة الامبريوم المطلقة ليتولى الحكم بدلاً منهما لمدة محدودة (أقصاها ستة أشهر). وليس معنى هذا أن القنصلين (أو غيرهما من الحكام) كانا يتخليان عن منصبهما بل كانا يبقيان في المنصب واضعين نفسيهما تحت تصرف «الدكتاتور» خاضعين لأوامره. ولم تكن «الجمعية الشعبية» تدعى للانعقاد في هذه الحالة لإقرار هذا التعيين مما ينهض دليلاً على الثقة الكبيرة التي وضعها الرومان في شيوخ الدولة. وإنما كانت تدعى «جمعية الأحياء» للمصادقة على قرار تعيينه على نحو ما كانت تدعى للمصادقة على تخويل الامبريوم للحكام المنتخبين، وبقرار انتخابهم قبل تقلدهم مناصبهم رسمياً. ولم يعرف هذا الحاكم المفرد بلقب «ملك» (Rex)، ذلك اللقب الذي أصبح بغيضا إلى قلوب الرومان، بل عرف بلقب شائع في لاتيوم وهو دكتاتور (Dictator)[17]. وينهض هذا النظام الذي عاد بأعظم النفع على شعب كان في حالة صراع وجهاد مستمرين دليلا على ما اكتسبه الرومان من خبرة عملية بالمران الطويل على النهوض بالواجب واطاعة النظام.

4 ـ وثمة ملاحظة هامة عن «الامبريوم». فبينما كان اليونان لا يفصلون ابداً منصب الحاكم عن السلطة التي يخولها له المنصب، كان الرومان يعتبرون الحاكم والمنصب والسلطة كعناصر متميزة أو كيانات ذاتية يمكن أن يوجد كل منها مستقلاً عن الاخر. فكانت كلمة «امبريوم» بوجه خاص تعني منذ البداية السلطة العليا المستقلة أي غير المرتبطة بالحاكم أو الحكام الذين يمارسونها. وكانت

تعتبر سلطة متصلة غير قابلة للتجزئية أو الانقسام، ايا كان عدد حامليها من الحكام ذوي المرتبة المتساوية، إذ أن كلا منهم كان يمارسها كاملة. وعندما تخلصت روما من الملكية وقسم المنصب الأعلى بين لقنصلين» وعندما أنشيء بعد ذلك (حوالي منتصف القرن الرابع ق.م) منصب «البريتور» (لتصريف شئون القضاء) الذي قسم بدوره بين حاكمين، فإن كلا من هؤلاء القناصل والحكام القضائيين كان يمارس سلطة «الامبريوم» كاملة.

وأما الحكام الأدنى مرتبة كالأيديليس (المحتسبين) والكويستوريس (القائمين على الخزانة) وترابنة العامة (نقباء العامة) وحتى الكنسوريس (الرقباء) فكانوا لا يتمتعون «بالامبريوم»، بل يتمتعون بسلطة مختلفة أدنى منها تسمى «بوتستاس» (Potestas).

وعندما كانت «الامبريوم» العليا «أو المطلقة» (**Imperium Maius**) تركز في يد حاكم واحد يسمى دكتاتور (Dictator) في حالة الطوارىء والأزمات الخطيرة، فإن القيد الزمني ـ وهو ستة شهور ـ الذي كان يفرض عليه، لم يكن بأي حال ليحد من ممارسة «الدكتاتور» لسلطته دون قيد أثناء توليه هذا المنصب. وفي الأحوال العادية عند الرومان لم يكن الضمان ضد الطغيان يكفله ـ كما في بلاد اليونان ـ تقسيم السلطة، بل يكفله ما يتوقع من إبطإلها الناجم عن تضارب أو تعارض سلطات الامبريوم المتكافئة، إذ كان كل حاكم يملك امبريوم معادلا لامبريوم زميله في المنصب، وكل منهما يملك حق الاعتراض على الآخر، وإبطال سلطته. وجدير بالذكر أن «أمبريوم» الدكتاتور لم يكن يسري عليه «اعتراض» نقباء العامة. ولم يسمح «بالتظلم منه إلى الشعب» إلا منذ عام 300 ق.م.

5 ـ وكان «الامبريوم» يتضمن أصلاً صلاحيات عسكرية ومدنية (أي إدارية قضائية) كاملة في الداخل وفي الخارخ. فلما أنشيء منصب البريتور آلت

إلى هذا الحاكم المتمتع «بالامبريوم» السلطة القضائية أي أصبح، على الرغم من لقبه[18]، حاكماً قضائياً في الواقع. وقد أفضى هذا التقسيم في الاختصاص إلى الفصل بين صلاحيات الامبريوم المدنية في الداخل (Domi) وصلاحياته العسكرية في الخارج أي في ميدان القتال (Militiae). فأصبح البريتور يمارس الصلاحيات الأولى[19]، بينما كان القنصل (بالتناوب مع زميله) يمارس الصلاحيات الثانية.

وعندما أدت كثرة الحروب إلى ابتداع نظام التفويض أو «المناصب البديلة» حل هؤلاء المفوضون بالمناصب أو الحكام البدلاء[20]، محل الحكام الفعليين في النطاق العسكري أي في ميادين القتال. ومع هذا فإن الحكام الفعليين المتمتعين بالامبريوم (القناصل والبريتوريس) كان في وسعهم أن يمارسوا الصلاحيات بنوعيها، بل انهم كثيراً ما مارسوها، على الأقل حتى أيام الدكتاتور سلا (82 ـ 79 ق.م). وعندما كانت الظروف تقتضي وجود القنصلين معاً في ميدان القتال على رأس جيش واحد، كان الاثنان يتناوبان القيادة يوماً بعد يوم.

الترابنة العسكريين

وجدير بالذكر أنه في الفترة الواقعة بين 444 ق.م. و 367 ق.م كان يحدث أحياناً أن يعين بدل القنصلين مجلس من ثلاثة أو ستة حكام مزودين بالسلطة العليا يعرفون باسم «الترابنة العسكريين ذوي السلطة القنصلية»[21]. ولعل ذلك يرجع إلى أن الموقف الحربي كثيراً ما تطلب وجوداً أكثر من حاكمين مزودين بالسلطة العسكرية والمدنية العليا أو إلى الرغبة في إرضاء العامة المحرومين من تولي القنصلية وإشراكهم في منصب يتمتع أصحابه بسلطة «الامبريوم». ولكن هذا النظام ألغي فيما بعد وأعيدت القنصلية بصورة منتظمة في عام 366 ق.م.

«سلك المناصب العامة»

وفي السنة نفسها (366) أنشىء منصب جديد وهو منصب البريتور (Praetor) أو الحاكم القضائي وذلك لتخفيف الأعباء عن كاهل القنصلين ومعاونتهما في تصريف الشؤون المدنية ولا سيما ما يتصل بالقضاء وكان البريتور (وهو بمثابة وزير العدل) يتمتع كالقنصلين بسلطة «الامبريوم» وقد رأينا كيف أدى التقسيم في الاختصاص إلى الفصل بين صلاحيات الامبريوم المدنية في الداخل وصلاحياته العسكرية في الخارج، وكيف آلت إلى البريتور في الواقع بحيث لم يعد للقنصل في العاصمة سوى مهام إدارية شكلية، وبعض اختصاصات شرفية غير محددة. لكن الامبريوم كان يؤهل البريتور أيضاً لقيادة الجيوس عند الضرورة، وتولي حكم الولايات بعد انتهاء مدة خدمته السنوية. وكان البريتور يتولى منصبه لمدة عام واحد عن طريق الانتخاب في «الجمعية المئوية». وفي عام 242 أصبح يتولى هذا المنصب اثنان أحدهما هو البريتور المدني (Praetor Urbanus) الذي كان يفصل في القضايا التي تنشب بين المواطنين والآخر هو بريتور الأجانب (Praetor Peregrinus) الذي اختص بالقضايا بين الأجانب أو بين هؤلاء والمواطنين. وقد زيد عدد الحكام القضائيين حتى أصبحوا ثمانية في عهد الدكتاتور سلا (82 ـ 79 ق.م). وكان يرافق البريتور ستة حراس (Lictores).

وفضلاً عن ذلك فقد أنشىء منصب الكويستور (Quaestor) الذي كان في أول الأمر بالتعيين ثم اصبح منذ 449 وظيفة عامة (Magistratus) تشغل بالانتخاب في «الجمعية القبلية». وكان يتولاها اثنان بالمدينة (Quaestores urbani) لمساعدة القنصلين في بعض الشؤون القضائية، لكن لم يلبث أن انحصر الاختصاص في الاشراف على الخزانة العامة (Aerarium) التي كان يودع بها الاحتياطي من الأموال وكذلك بعض السجلات الرسمية ودفاتر الحسابات.

وقد أضيف إليهما في عام 431 ـ بعد فتح باب المنصب للعامة ـ اثنان آخران لمعاونة القنصل في ميدان الحرب فكانا يقومان بالاشراف على التموين ومرتبات الجند وبيع أسلاب الحرب وما إلى ذلك. وقد زيد عدد من يشغلون هذا المنصب إلى عشرين على أيام سلا. وكان منصب الكويستور (وهو بمثابة وزير الخزانة)، برغم أنه قديم، أدنى منصب في سلك المناصب العامة (Cursus Jonorum).

ومنذ عام 367 أصبح أيضاً منصب الآيديل (Aedilis) ـ الذي كان في الأصل مساعداً «لتربيون العامة» ـ أصبح وظيفة سنوية عامة عن طريق الانتخاب في مجلس العامة أو في «الجمعية القبلية». و«يشغلها أربعة»، اثنان من العامة (Aediles Plebeii). وآخران من الأشراف (Aediles curules أو ـ كما حدث فيما بعد ـ من العامة أو الأشراف بالتناوب سنة بعد أخرى. وكان هؤلاء الحكام مختصين بالشؤون البلدية في روما فكانوا ـ إلى جانب حفظ قرارات مجلس العامة ـ يشرفون على المنشآت العامة والأمن العام والأعياد والمهرجانات ومرافق المياه وتموين الغلال وأهم من ذلك مراقبة الأسواق والأسعار والموازين. في الحق أن الأيديل يشبه في اختصاصاته «المحتسب» أو «وزير الشؤون البلدية».

المجتمع والنضال بين طبقتي العامة والأشراف:

وقد تعرضت الخبرة العملية التي اكتسبها الرومان لأكثر من امتحان عسير في الفترة التي أجملنا تاريخها في الفصل السابق. فلم تكد تقوم الجمهورية حتى نشأت مشكلة تطلبت حلا عاجلا. وكانت هذه المشكلة تنحصر في تنظيم العلاقة بين الطبقة المتمتعة بالامتيازات والطبقة المحرومة منها. ولا نعرف حتى الآن ـ وربما لا نعرف إلى الأبد ـ منشأ هذه التفرقة بين الطبقتين ويتجه الرأي الآن إلى أنه لم تكن هناك فروق جنسية أو عنصرية بين العامة والأشراف، وأن التفرقة التي نشأت بينهما وانقسامهما إلى طبقتين متميزتين احداهما عن الأخرى إنما نشأت

نتيجة ظروف وعوامل اقتصادية في بلاد تعيش على الزراعة، إذ استطاع فريق أن يقتني بسرعة ثروات كبيرة بينما تخلف الفريق الآخر عن ذلك. ومع أن العشائر القديمة (Gentes) لم تقم بدور كبير في تاريخ روما الدستوري والسياسي إلا أنها أثرت تأثيراً كبيراً في تطور القانون والدين حتى بعد أن ألغي، بمقتضى «قانون كانوليوس» (Lex Canuleia)، حظر التزاوج بين العامة والأشراف[1]، ذلك الحظر الذي أدى في وقت مبكر إلى انهيار كثير من عشائر الأشراف القديمة. فلما تحققت المساواة الاجتماعية بين الطبقتين، أنشأت أسر العامة الثرية عشائر على غرار الأشراف، التي يرجح أن بعض أسر العامة كانت قد اندمجت فيها. ولعل هذا يفسر وجود أسر من العامة وأسر من الاشراف في عشيرة واحدة، ووجود عشائر (أشراف) قديمة (gentes maiores) وعشائر (عامة) جديدة (gentes minores).

ويكفي هنا أن نقول أن أصحاب الامتيازات ـ وهم الذين كانوا يعرفون باسم الأشراف (Patricii) ويمثلون الأسر المنتمية إلى العشائر القديمة (gentes Maiores) ـ كانوا يعتبرون وحدهم القادرين على حفظ «السلام» بين المواطنين والآلهة أو بين المواطنين أنفسهم، ومن ثم كان في استطاعتهم وحدهم مزاولة سلطة «الامبريوم» واستطلاع مشيئة الآلهة. وكانت الطبقتان تخدمان في الجيش وتصوتان في الانتخابات ولكن العامة (Plebs) كانوا عديمي الحيلة حيث لم تتح لهم فرصة مزاولة «الامبريوم». وعلى أي حال فقد كان هناك من الأسباب القوية ما يحملهم على التذمر والسخط، إذ كان معظمهم من صغار الملاك الذين ليس لديهم رؤوس أموال أو لديهم منها قدر ضئيل، فكانوا يضطرون دائماً إلى الاقتراض حتى صاروا مدينين للأثرياء الذين كانوا عادة من الأشراف. وكان قانون الدين المألوف من قديم الزمن يتسم بطابع القسوة والهمجية.

وترتب على ذلك ـ وفقاً للقصة المتداولة ـ أن اعتصب العامة مرة أو

مرتين، فأضربوا عن العمل وانسحبوا جميعاً مهددين بالانشقاق وتأسيس مدينة جديدة على مسيرة بضعة أميال في شمال التيبر. وكانوا يعلمون تماما مدى احتياج الدولة إليهم في الحرب، وهي حقيقة كان يعلمها الأشراف كذلك. ومن حسن الحظ أن العامة أدركوا أيضاً أنه ليس في وسعهم الاستغناء عن الدولة، مركز تقليد الدين والحكم والواجب والنظام. فلم يكن لديهم أي دراية بالصيغ أو الطقوس الدينية التي يجب اتباعها لحفظ السلام بين الآلهة والبشر. ولم يكن في مقدورهم أن يحملوا معهم آلهة المدينة الذين عاشوا هم وأجدادهم مشمولين برعايتها. فكان مثلهم كمن ركبوا قاربا بغير دفة أو مجذاف فتقاذفته الأمواج، وهو وضع كان من المستحيل احتماله. ولهذا عادوا إلى المدينة ـ كما تروي القصة ـ حيث توصل الفريقان، العامة والأشراف، إلى تسوية كانت الأولى في سلسلة طويلة من التسويات التي جعلت من روما في النهاية دولة متماسكة متحدة، وأتاحت لها أن تخرج ظافرة من صراع استمر ثلاثة قرون، وقصة هذه المنازعات والتسويات بين الطبقتين طويلة معقدة ولا يتسع المجال لسردها تفصيلاً ولكننا نستطيع أن نستعرض أدوارها بإيجاز.

«نقباء العامة»

بعد الاعتصاب أو الانسحاب الأول (Secessio) في عام 494 ق.م.[22] حصل العامة على حق انتخاب حكام من طبقتهم ليتولوا حماية أرواحهم وممتلكاتهم من تعسف سلطة «الامبريوم». وكان هؤلاء «النقباء» يعرفون باسم ترابنة العامة (Tribuni Plebis) لأن انتخابهم كان يتم في أول القرن الخامس ق.م. عن طريق مجلس منظم حسب القبائل المدنية (Tribus urbanae) المقصورة على العامة ويعرف بمجلس العامة (Concilium plebis).

ثم أصبح هذا الانتخاب منذ عام 471 ق.م يتم عن طريق الجمعية القبلية (Comitia Tributa) ـ وهي التي اندمج فيها مجلس العامة وكانت القبائل تؤلف فيها وحدات انتخابية. ولا ريب في أن الحركة التي قام بها العامة لاكتساب حق تعيين حكام للدفاع عن مصالحهم كانت حركة ثورية أقسموا فيها اليمين على تحدي الأشراف وحماية الترابنة بأرواحهم ولذلك اعتبر ترابنة العامة تحت حماية الآلهة أي اصبحت أشخاصهم مصونة لا يجوز المساس بها (Sacrosancti)، فكان من يعتدي عليهم أو يلحق بهم أي أذى يتعرض لغضب السماء ويستباح دمه. وكان أهم حقوق تضمنتها السلطة التريبونية (Tribunicia potestas). والتي تمتع بها كل نقيب من هؤلاء النقباء ـ الذين ارتفع عددهم من أربعة إلى عشرة قبل عام 449 ق.م ـ هي: ـ

1 ـ حق الاعتراض (Intereessio) على أي اجراءات يقوم بها الحكام (ما عدا الدكتاتور وربما الـ (Interrex) أو على أي مشروعات قوانين لا تروق له، أو على الانتخابات والقوانين، وتوصيات السناتو.

2 ـ حق حماية أرواح وممتلكات العامة (auxilium).

3 ـ حق اقتراح القوانين (Rogatio).

4 ـ حصانة الذات (Sacrosanctitas)، بمعنى عدم جواز المساس بشخص نقيب العامة أو الاعتداء عليه أو عرقلته أثناء تأديته لوظيفته.

5 ـ حق دعوة «مجلس العامة» و «الجمعية القبلية» (التي اندمج فيها هذا المجلس) إلى الانعقاد، واصدار قرارات من هذا المجلس أو تلك الجمعية (Plebiseita)، وهي قرارات أصبحت قوانين نافذة سارية على كل الشعب في عام 287 ق.م. ثم حق تنفيذ قرارات العامة، وحقوق النقيب الخاصة به، عن طريق القسر (Coereilio) أي الاعتقال والعقاب الذي قد يصل ـ على ما يرجح ـ إلى فرض عقوبة الموت.

6 ـ حق الاستماع فقط إلى مداولات مجلس السناتو (حتى آخر القرن الرابع ق.م). لكن بعدئذ (منذ القرن الثالث ق.م). تمتع كل نقيب بحق دعوة ذلك المجلس إلى الانعقاد.

7 ـ أصبح منصب «نقيب العامة» منذ القرن الثاني ق.م. مؤهلاً كافياً للعضوية في مجلس السناتو.

8 ـ لم تكن «تريبونية العامة» في أول الأمر منصبا عاماً (Magistratus) حيث أنها أنشئت أصلاً لحماية العامة من تعسف أصحاب المناصب العامة ولا سيما القناصل والبريتوريين المتمتعين بسلطة الامبريوم. كانت تمثل ما نسميه اليوم «بالمعارضة» لكن «تريبونية العامة» لم تلبث أن دخلت في كادر المناصب العامة. ولم يكن نقيب العامة يتمتع «بالامبريوم» وإنما بالسلطة الأدنى المسماة بوتستاس (Potestas)، وتوصف بالسلطة التريبونية (Tribunicia potestas). ولم يكن له شارات أو علامات شرف أخرى. لكنَّ سلطته كانت تتضمن حقوقاً كثيرة بل ضخمة كما رأينا.

9 ـ لا يجوز الترشيح لمنصب نقيب العامة إلا لمن ينتمي اصلاً إلى عشيرة من عشائر العامة (Plebs). فكان المنصب محرماً على كل من ينتمي إلى إحدى عشائر الاشراف (Gentes patriciae).

10 ـ كان كل نقيب من نقباء العامة العشرة يملك حق الاعتراض (Intereessio) ـ أي الفيتو ـ على زميله. حيث أن الجميع يتمتعون بسلطة متكافئة. وكان هذا من شأنه أن يعرقل جهودهم المشتركة من أجل مصلحة طبقة العامة، وكان من السهل أن يستخدم أحد نقباء العامة لمناوأة وميل له أو كل زملائه، إذ يكفي أن يشهر في وجههم سلاح الاعتراض فيبطل كل اجراء أو مشروع فردي أو جماعي يهدف إلى تحقيق مصلحة للعامة. كان من السهل على السناتو أو طبقة الاشراف أن تشتري ذمة واحد من نقباء العامة، وتستعمله لعرقلة

واحباط أي مشروع قانون لا يروق في نظر طبقة الأشراف أو السناتو أو أحد كبار الحكام. لقد كانت «تربيونية العامة» إذا سلاحاً ذا حدين، يستغل لمصلحة العامة، وضد مصلحتهم، وسلاحاً من السهل ابطال فاعليته.

«الجمعية القبلية»

وعند هذا الموضع ينبغي التحدث عن «الجمعية القبلية» التي قامت إلى جانب «الجمعية المئوية»، وكانت ترتبط في نشأتها الأولى بالعامة ومجلسهم ونقبائهم. وكانت أكثر ديمقراطية في تكوينها من «الجمعية المئوية» التي ذكرنا أنها كانت تقوم على أساس «تيموقراطي» أي على أساس الثروة، بمعنى أن حق العضو فيها عند الاقتراع أو الانتخاب يرتهن بما يملكه من نصاب مالي، ومن ثم فإنه لم يكن للعامة فيها تأثير يذكر. وأما «الجمعية القبلية» فكانت نواتها الأولى هو «مجلس العامة» الذي كان مقصورا عليهم وحدهم. لكنه لم يلبث أن اكتسب، مع ازدياد قوة العامة، صبغة جديدة فتطور واتسعت دائرته وأصبح بمثابة جمعية عمومية تمثل المواطنين جميعاً عامة واشرافا. ويقوم على أساس القبائل التي كان الشعب الروماني ينقسم إليها، ومن ثم فقد عرف «بالجمعية القبلية». ولكي نفهم ذلك لا بد أن نتعرف أولاً على هذه القبائل ونشأتها، وتطور عددها، ومعناها عند الرومان، وبالتالي نفهم طريقة تشكيل الجمعية الجديدة، ودورها، والفرق بينها وبين «الجمعية المئوية» التي ظلت قائمة بجانبها وتقتسم معها الاختصاصات.

بدأت هذه القبائل بثلاث قبائل عرقية سلالية (بالمعنى المألوف عند العرب) ثم ألغيت تقريباً وأنشىء بدلاً منها أربع قبائل «مدنية» نسبة إلى روما (Tribus Urbanae)، وعدد متزايد من القبائل «الريفية» (Tribus Rusticae) وكانت هذه القبائل الجديدة تقوم على أساس توزيع السكان الاقليمي، أي أنها كانت

بمثابة أقسام إقليمية أو إدارية بحتة للدولة الرومانية، وكان الغرض منها تسهيل عمليات التعداد (Census)، وجباية الضريبة (Tributum) وتعبئة المواطنين للخدمة العسكرية (Dilectus)، وتقسيم المواطنين إلى مجموعات انتخابية أو «دوائر انتخابية». وكانت أقدم القبائل الريفية التي أنشئت، وعددها 16 قبيلة، تتألف من عشائر الأشراف. لكن رويدا رويدا زيد عدد القبائل حتى بلغ 35 قبيلة تضم الأشراف والعامة وذلك في عام 241 ق.م. وتجمد عدد القبائل عند هذا الرقم برغم تزايد عدد المواطنين وعدد من اكتسبوا الجنسية الرومانية سواء في إيطاليا أو في الولايات. لكن عدد القبائل الرومانية ظل دون تغيير حتى في عصر الامبراطورية. وقد درجت العادة منذ القرن الأول ق.م. أن يقرن الروماني باسمه اسم القبيلة التي ينتمي إليها كدليل على أنه مواطن متمتع بكامل الحقوق. وعلى أساس هذه القبائل كان يقوم المجلس الدستوري أو الجمعية القبلية (Comitia Tributa) التي كان لكل قبيلة فيها صوت واحد. كانت القبيلة الرومانية إذن ـ من الناحية السياسية، أشبه ما تكون بما نسميه اليوم «الدائرة الانتخابية».

وكان العامة في المراحل الأولى من نضالهم ضد الأشراف يجتمعون في مجلس مقصور عليهم وحيث أنه لم يكن يمثل جميع المواطنين ولم يعترف به الأشراف فإنه لم يعتبر جمعية عمومية نظامية (Comitia) بل اعتبر مجلس عامة (Concilium plebis).

وكان هذا المجلس يعقد بدعوة من ترابنة العامة في السوق ويقوم بانتخاب هؤلاء الترابنة ومساعديهم. ولم تكن القرارات التي يصدرها مجلس العامة والمعروفة باسم (Plebiscita) تسري على جميع المواطنين. ولكن بمرور الزمن اكتسب هذا المجلس صبغة جديدة ولم يعد يمثل العامة بل الأشراف كذلك، لقد أصبح في واقع الأمر جمعية عمومية تمثل جميع المواطنين وتؤلف القبائل فيها وحدات انتخابية ولذلك عرفت باسم الجمعية القبلية (Comitia Tributa).

وسرعان ما تبين للقناصل ـ وخاصة بعد حصول العامة على حق تولي منصب القنصلية في عام 366 ـ أن دعوة هذه الجمعية أيسر من دعوة الجمعية المئوية ذات الاجراءات المعقدة، فبدأوا يستعينون بها لاصدار القوانين. وأصبح من حقهم كنقباء العامة دعوتها للاجتماع. وازدادت أهمية هذه الجمعية عندما صدر قانون هورتنسيوس (**Lex Hortensia**) في عام 287 ق.م. على أثر تهديد «العامة» بالانسحاب أي الانفصال عن الدولة الرومانية. وقد نص هذا القانون الشهير على أن تكون قرارات الجمعية القبلية نافذة بدون موافقة سابقة أو لاحقة من السناتو (**Patrum Auctoritas**) كما كان الحال من قبل، وأن تأخذ صفة القوانين وتصبح ملزمة للدولة بجميع طبقاتها. وبذلك أصبحت الجمعية القبلية هي الجمعية التشريعية الأولى. وانتقلت إليها كثير من اختصاصات الجمعية المئوية التي ظلت هي الجمعية الانتخابية الأولى. على أن كلتا الجمعيتين كانت لها اختصاصات انتخابية وتشريعية وقضائية.

فكانت الجمعية القبلية تقوم بجانب الترابنة وال **Aediles Plebis** (بدعوة من التريبون أي في مجلس العامة) والـ **Quaestores** والـ **Aediles curules** (بدعوة من القنصل أو أي حاكم متمتع بالامبريوم) وكذلك ضباط الفرق المعروفين باسم الترابنة العسكريين (**Tribuni Militum a populo**)، وتصدر القوانين وتصدق على المعاهدات، وتنظر في أحكام الغرامات المستأنفة.

وأما الجمعية المئوية ـ التي سبق الكلام عن تشكيلها واختصاصها قبل قيام القبلية[1] ـ فقد أصبحت هي التي تقوم بانتخاب القناصل والبريتوريس والكنسوريس (الرقباء) وهي التي تصدر القرارات الخاصة باعلان الحرب أو عقد الصلح، وتخوّل «السلطة الكنسورية» بمقتضى قانون يعرف باسم «قانون الجمعية المئوية الخاص بالسلسلة الكنسوية»[2]، وتنظر في التظلمات من أحكام الاعدام. وكانت لا تنعقد إلا بدعوة من حاكم متمتع «بالامبريوم» (كالقنصل أو

البريتور)، ولا تنعقد أيضاً إلا في «ساحة مارس» أي خارج سور المدينة.

وجدير بالذكر أن الجمعية القديمة، وهي «جمعية الأحياء (Comitia Curiata) فقدت أهميتها فيما عدا انفرادها بالمصادقة على منح سلطة الامبريوم للفائزين في الانتخابات من القناصل أو البريتوريس أو غيرهم وذلك بمقتضى قانون يعرف باسم «قانون جمعية الأحياء الخاص بالامبريوم» (Lex Curiata de imperio) لتشهد أو تقر مراسيم معظمها ذات صبغة دينية. وقرب نهاية عصر الجمهورية أصبحت جمعية شكلية ولم يعد يحضر جلساتها سوى ثلاثين مندوبا (Lictores) يمثلون الأحياء القديمة (Curiae).

«قوانين الألواح الاثني عشر»

وكان العامة قد وجدوا علاجاً لجهلهم بالقانون العرفي وطرق اجراءاته. فدونت القوانين في اثني عشر لوحا (Leges XII Tabularum) في 451 ـ 449 ق.م، متضمنة قواعد عرفية بعضها كتب لأول مرة وبعضها الآخر جديد كان جانب منه ـ فيما يبدو ـ منقولاً عن أثينا. ولدينا اليوم من هذه القانونية المشهورة شذرات كثيرة يتضح منها أنها وضعت للمواطنين كافة على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية «فلا نلمس في المدونة فكرة التشريع لطبقة معينة. وهي ذات طابع روماني أصيل بما تتسم به من روح الحذر والحكمة واحترام الماضي الذي لا تتغافل عنه إلا عندما يتعارض العرف القديم مع قواعد المنطق، وبما يظهر فيها من اهمال للتناسق الشكلي لا يخلو من الحكمة». وكانت المدونة ـ على حد تعبير المؤرخ تاكيتوس بعد ذلك بفترة طويلة ـ هي «اكتمال المساواة في الحقوق» كما أصبحت منبعاً لنهر القانون الروماني الفياض الذي ازداد ضخامة بمرور الزمن وما يزال يروي حقل الحضارة الأوروبية الحديثة.

وكان على العامة أن يكافحوا كفاحاً مريراً طويلاً قبل أن يشقوا طريقهم إلى معقل الأشراف ويحصلوا على حق مزاولة «الامبريوم»، ولكن ذلك تحقق لهم دون نشوب حرب أهلية أو اراقة دماء[23]. وقد قام الاشراف ـ فيما وصلنا ـ بعدة مناورات لمراوغة العامة لاعتقادهم بأن الأمور لن تكون على ما يرام لو أسندت مهمة حفظ «سلام الآلهة» إلى قوم كان من المعتقد أن الآلهة لا يقيمون لهم وزنا. ولكن هؤلاء القناصل وأعضاء مجلس الشيوخ من طبقة الأشراف كانوا مسؤولين عن كيان الدولة التي لم يكن في الامكان أن تبقى بغير تعاون العامة. ولذلك صدر في عام 445 قانون كانوليوس (Lex Canuleia) الذي أباح التزاوج بين الطبقتين. ومما يثير الدهشة أن القانون نفسه كان يحرمه حتى ذلك التزاوج بين الطبقتين. ومما يثير الدهشة أن القانون نفسه كان يحرمه حتى ذلك الحين. وقد ترتب على ذلك أن ماتت بالتدريج روح التعصب الطبقي القديمة، وهي روح كانت أعنف بكثير مما هو مألوف بيننا.

وحوالي منتصف القرن الرابع وفي عام 356 ق.م. على وجه التحديد لم يعد من الجائز فقط بمقتضى قوانين ليكينيوس وسكستيوس (Leges Liciniae Sextiae) أن يكون أحد القنصلين من العامة بل من المحتم أن يكون أحدهما من تلك الطبقة[24]. ولم ينته القرن الرابع ق.م. حتى كانت طبقة الأشراف القديمة قد بدأت تختفي وحلت محلها طبقة جديدة تقوم على نظرية «أداء خدمة جليلة للدولة»، إذ كان من يتولى القنصلية بغض النظر عن كونه من الأشراف أو العامة، يصبح نبيلاً (Nobilis) ـ وهي صفة معناها الحرفي لامع أو «مرموق» ـ وبالتالي تصبح أسرته «نبيلة». وكانت الطبقة الأرستقراطية الرومانية تتألف في الأجيال التالية من أحفاد الذين صاروا نبلاء بحكم تقلدهم المناصب العامة السامية

كالدكتاتورية والقنصلية.

ومعنى هذا أن الأرستقراطية الرومانية (Nobilitas) لم تعد تستند إلى شرف الأصل بل إلى شرف المنصب. وكان أعضاء السناتو هم دعامة هذه الأرستقراطية وكان العرف قد جرى على أن من يتولى القنصلية أو البريتورية يدرج اسمه في السناتو فلما حصل العامة على حق تولي هذه المناصب أصبح من حقهم دخول السناتو. وبذلك أصبحت الأرستقراطية الرومانية تشتمل على أعضاء من طبقة الأشراف وطبقة العامة. وكان أعضاء المجلس من العامة يعرفون باسم (Conscripti) أي المدرجة أسماؤهم) تمييزاً لهم من الأعضاء من الأشراف المعروفين باسم (Patres) وكان المتكلمون يخاطبون أعضاء المجلس في العصور التالية بالعبارة الآتية: Patres (et) Conscripti.

لقد حصل العامة على حق تولي الكنسورية التي سأتحدث عنها بعد لحظة في عام 351. ولم يكن يشغل هذا المنصب عادة إلا من سبق لهم تقلد منصب القنصلية، فهي في ذلك مثل الدكتاتورية كما لم يكن أي منهما منصبا سنوياً كسائر المناصب، ولذلك لم يعتبرها هذا المنصب ضمن سلك المناصب العامة (Cursus honorum) الذي يحدده شيشرون (Certus ordo magistratum)، بثلاثة مناصب مرتبة ترتيباً تصاعدياً على النحو التالي: الكويستورية فالبريتورية فالقنصلية. ولم تكن الأيدلية شرطاً ضرورياً للصعود في درج الوظائف العامة ولكنها كانت تشغل ـ إذا شغلت ـ بعد الكويستورية ولم تكن تربيونية العامة وظيفة رسمية (Magistratus) ولكنها بمرور الزمن اكتسبت هذه الصفة وصارت تشغل قبل الأيدلية فاصبح سلك الوظائف على النحو التالي: الكويستورية فالتربيونية فالأيديلة فالبريتورية فالقنصلية.

وكانت جميع هذه المناصب تشغل لمدة عام واحد عن طريق الانتخاب مع زميل أو أكثر، ولا يجوز الجمع بين اثنين منهما في وقت واحد، ولا بد من

مرور مدة معينة بين الواحد والآخر. كما اشترط لتولي كل منها سن معينة. وكانت الكويستورية لا تشغل عادة قبل سن الـ 28 والقنصلية قبل حوالي سن الـ 43. ولم يكن يتمتع بالامبريوم (Imperium) سوى القنصل والبريتور وأما الباقون فكانوا يتمتعون بسلطة البوتستاس (Potestas) التي توصف بأنها أعلى Maior في حالة علو منصب حاملها. وكان كل صاحب منصب يتمتع بسلطة الاعتراض (Intercessio) على قرارات زميله.

«البروقنصل والبروبريتور»

وجدير بالذكر أن تحديد مدة الوظيفة بعام واحد كان له مساوئه. إذ كان يحدث أحياناً أن تنتهي مثلاً مدة القنصل وهو ما يزال منشغلاً ـ وحده أو مع زميله ـ بمقاتلة الأعداء في ميدان الحرب فيضطر إلى التخلي عن قيادة الجيش لمن يخلفه في المنصب مما كان يؤدي إلى الاضطراب العسكري واضعاف مركز القوات» المحاربة. ولذلك ابتكر الرومان في 327 ق.م. علاجاً لهذا العيب وذلك بابقاء القنصل الذي تنتهي مدة خدمته وهو في الميدان على أن يمنح لقب بروقنصل (Proconsul – Pro consule) ـ أي «بمثابة قنصل» أو «قنصل مفوض، أو «قنصل بديل»، وقد طبق ذلك في بعض مناصب الحكم الأخرى، فنسمع أيضاً عن بروبريتور (Propraetor) أي «بريتور مفوض» أو «بريتور بديل»[25].

«الكنسور»

وسأختتم هذا الفصل بكلمة موجزة عن نظام واحد غريب يوضح بجلاء نزعة الرومان بالواجب واطاعتهم للنظام. فقد انشئت خلال تلك الفترة في عام

443 ـ وفقا للتاريخ المتواتر ـ وظيفة عامة جديدة لم يقصد بها في أول الأمر سوى تخفيف الأعباء الثقيلة الملقاة على عاتق القنصلين اللذين لم يتسع وقتهما للنهوض بها في ذلك العصر الحافل بالحروب، ولكنها ستصبح بمرور الزمن مطمحاً أعلى من القنصلية نفسها. فقد تطلب تعلق الرومان بالنظام التأكد من أن كل مواطن قد اكتسب حقوقه عن الطريق المشروع، وأنه يؤدي الخدمة العسكرية، ويدفع الضرائب وفقاً لتقدير صحيح لثروته. ولهذا تقرر اجراء «تفتيش» لتحقيق هذا الهدف في كل خمسة أعوام واختيار كنسورين (Censores) يتوليان منصبهما لمدة عام ونصف عام لكي يضطلعا بهذه المهمة. ومع أن هذين الكنسورين لم يزودا «بالامبريوم» إلا أن سلطتهما كانت مطلقة وقراراتهما لا معقب عليها. ولم يكن هناك سبيل إلى محاسبتهما على ما يتخذان من إجراءات رسمية. وكانا يختاران غالبا، وفي العصور التالية دائماً، من بين الشيوخ الموقرين الذين تقلدوا منصب القنصلية أي من بين أفراد كان الشعب يستطيع أن يثق بعدالتهم وحكمتهم ثقة تامة. وكم كانت الحاجة شديدة إلى مثل هذه الثقة لأن سلطة الكنسورين التفتيشية سرعان ما تجاوزت الاحصاء والتعداد إلى مراقبة السلوك الشخصي للمواطنين في كافة مرافق الحياة تقريباً. فقد يستجوبان جميع أرباب الأسر عن قيامهم بواجباتهم العائلية، ويعاقبان من يقسو على عبده قسوة صارخة أو يظلم تابعه أو يهمل أطفإله بإزالة اسمه من قائمة أفراد القبيلة، وكان ذلك يؤدي بإلحاق الوصمة به (Infamia) ـ وهي كلمة منكرة كان الرومان يخشاها خشية شديدة.

وكان الكنسوران يتوليان تأجير أملاك الحكومة ويحصلان الدخل الناتج من ذلك، وبمرور الزمن وقعت تحت طائلتهما شئون أخرى كاهمال الأرض أو غيرها من العقار والبذخ المفرط وسوء النية في التعاقد أو في الوصاية القانونية. ويراجعان قائمة السناتو وقد يرفعان منها اسم عضو من الشيوخ أو يستبعدان اسم شخص من قائمة الفرسان إن لم يعن بجواده الذي أمدته به الدولة أو إذا

ارتكب من الأفعال ما يجعله غير جدير بمركزه.

وقد يكون من العسير علينا أن نفهم كيف يرضخ المواطنون في دولة حرة لمثل هذه السلطة التفتيشية. لكن إلى جانب تقدم سن من شغلوا هذا المنصب ومكانتهم ونزعة الرومان إلى اطاعة السلطة الشرعية، هنالك حقيقتان نستعين بهما على فهم هذا الوضع. واحداهما حقيقة بسيطة وهي أن الكنسورين أو «الرقيبين» كانا زميلين (Conlegae) كالقنصلين يتمتع كل منهما بحق الاعتراض على قرارات زميله. فإذا لم يستعمل أحدهما هذا الحق ضد الآخر واتفق الاثنان على إدانة أحد المواطنين فمن البديهي أنه لم يكن من المستطاع مقاومة قرارهما. وأما الحقيقة الأخرى فأعسر فهما علينا نحن المحدثين: إذا كان هناك جانب ديني في عمل «الرقيبين» اللذين كانا يختتمان مدتهما باجراء تطهير ديني (lustrum) لمجموعة المواطنين، مصحوب بتقديم القرابين وإقامة الصلوات في «ساحة مارس» خارج أسوار المدينة. ولا سبيل لنا إلى معرفة حقيقة اعتقاد الروماني أو بالأحرى حقيقة شعوره ازاء هذه الطقوس الدينية وما يترتب عليها. لكتنا على يقين من أنه كان يعتقد أن حياة الدولة قد تتعرض للخطر بدون اجرائها وأن هذا الاعتقاد كان قوياً إلى حد جعله يرضخ لجميع هذه الاجراءات التي كان «التطهير الديني» تتويجاً لها.

هوامش ومراجع

---

1 ـ فهو رب أسرة (Paterfamilias) بالنسبة للزوجة والأولاد وهو سيد **domirus** بالنسبة للعبيد وهو راع أو نصير Patronus بالنسبة للاتباع.

2 ـ وتعرف سلطته أيضاً، بالنسبة للزوجة باسم (Manus) (أي سيد) وذلك في حالة الزواج مع السيادة.

3 ـ وكان عبيد المنازل يعرفون باسم (Vernae) تمييزاً لهم عن عبيد المحاجر والضياع الواسعة (Servi).

4 ـ عن كاتو الأكبر أو «الرقيب» (Cato censor) أنظر فيما تقدم.

5 ـ كانت هذه العذارى بنات صغيرات يختزن من بين الأسر الكريمة ليقمن على خدمة «فستا» ربة النار المقدسة في المعبد الخاص بها. وقد بلغ عددهن ستة في العصر التاريخي وكانت مدة خدمتهن ثلاثين سنة يبقين أثناءها عذارى. وقد وكل أمرهن إلى «الكاهن الأعظم» الذي كان يوقع عليهن الجزاء في حالة اهمالهن النار أو ارتكابهن أي جريمة، وأما من تفرط في عفتها فكانت تدفن حية، راجع ما تقدم.

6 ـ كانت العصى «ترمز إلى حق الحاكم ـ بمقتضى الأمبريوم ـ في جلد المواطنين وترمز البلطة إلى حقه في اعدامهم. وكلمة فاشيزمو Fascismo الايطالية فاشيزم Fascism الانجليزية كل منهما مشتقة من فاسكيس Fasces اللاتينية لتدل على نظام حكم دكتاتوري استبدادي «فاشي»، كالذي أقامه موسوليني في إيطاليا في 1922 وانتهى في 1943.

7 ـ كانت سلطة الامبريوم المدينة أي التي تمارس في مدينة (روما) تسمى Imperium Domi.

8 ـ أسماء القبائل الثلاث الأولى هي Tities, Ramnes, Luceres وعن القبائل الرومانية وتطور معناها وعددها

9 ـ وقد تضاءل شأن هذه الجمعية في عصر الجمهورية عندما حلت مكانها مجالس أو جمعيات دستورية تقوم على أسس جديدة.

10 ـ كانت سلطة الأمبريوم تعرف في ميدان الحرب باسم «Imperium Militiae» وفي رأي بعض الباحثين (لاكلهم) أن «الامبريوم العسكري» نفسه لم يعد (بمقتضى العرف لا بمقتضى القانون)، سلطة مطلقة فاصبح يجوز للمواطنين في ميدان الحرب وفي الولايات التظلم منه.

11 ـ لا تزال معلوماتنا الوثيقة طفيفة عن العصر الملكي في روما الذي استمر حوالي قرنين ونصف القرن (753 ـ 510 ق.م) وإليك قائمة ملوك روما السبعة التقليدية:

ـ روميلوس Romulus

ـ نوما بومبيليوس Numa Pompilius

ـ توللوس هوستيليوس Tullus Hostilius

ـ أنكوس ماركيوس Ancus Mareius

ـ لوكيوس تاركوينيوس «بريسكوس» L. Tarquinius Priscus

ـ سرفيوس تولليوس Servius Tullius

ـ لوكيوس تاركوييوس «سوبربوس» (المتغطرس أو المتعالي): L. Tarquinius Superbus.

12 ـ كانت كلمة «Populus» أي «الشعب» تعني مجموعة المواطنين الرومان بغض النطر عن الطبقات والفوارق الاجتماعية. فكانت تشمل الأشراف Patricii والعامة Plebs غير أنها كانت تعني في الأصل المواطنين بوصفهم هيئة محاربة كما يتضح من اللقب Magister populi

(أي رئيس الجيش ولا سيما المشاة) الذي كان يطلق على الدكتاتور Dictator وكان يعاون الأخير مساعد يعرف باسم رئيس الفرسان (Magister equitum). وقد تغير مفهوم الكلمة في العصور التالية.

13 ـ كانت المدينة الحرة أو «المدينة ـ الدولة» بمعنى مجموعة المواطنين والحقوق التي يتمتعون بها تعرف في اللاتينية باسم civitas (وفي اليونانية Polis أو Politeia)، وأما الدولة نفسها أي نظام الحكم فيها ـ دستورها) فكانت تعرف في العصر الملكي باسم Regaum وفي عصر الجمهورية باسم Res Publica (في اليونانية Politeia أو Polis). لكن بمرور الزمن أصبحت كلمة Civitas ترادف كلمة Res Publica فجمهورية أفلاطون مثلاً تعرف في اليونانية باسم Politeia، وفي اللاتينية بكلمتي Respublic أو Civitas على أن كلمة Civitas قد تدل أيضاً على أي مدينة أو حتى جماعة قبلية.

14 ـ عن هؤلاء «الكنسوريس» أي المشرفين على التعداد وكذلك مراقبة الأخلاق العامة، ومراجعة قائمة السناتو، انظر الصفحات التالية.

15 ـ وهو ما يعرف اليوم في لغة السياسة بالفيتو (Veto) وهذه الكلمة أيضاً لاتينية معناها «أمنع أو أعترض».

16 ـ ومع هذا فقد أصبح الامبريوم سلطة غير مطلقة حتى في ميدان الحرب وفي الولايات بمقتضى العرف لا القانون، على نحو ما يعتقد فريق من المؤرخين، راجع ما ذكرناه في ص 171، هامش 1.

17 ـ أول دكتاتور معروف هو تيتوس لاكريوس (T. Lacrius)، وليس من المحقق متى تولى منصبه وان كان يرجح أحدhW في عام 501 أو 489 ق.م. ويلاحظ أن «الدكتاتور» كان بمجرد تعيينه يقوم باختيار مساعد له يسمى «رئيس الفرسان» Magister Equitum وكان يتمتع بالامبريوم. وكانت ظروف معركة كنأي (216) في الحرب البونية الثانية هي آخر مرة استخدم فيها منصب الدكتاتور للغرض الذي أنشئت من أجله في الأصل. وكان يرافق الدكتاتور 24 حارساً Lictores.

18 ـ بريتور معناها اللغوي «رئيس» وفي الحق أن هذا اللقب قد خلع على رئيس الجمهورية عقب الغاء الملكية. لكن لم يلبث أن حل لقب «قنصل» بدلاً منه.

19 ـ كان البريتور يسمى بالبريتور المدني (Praotor Urbanus) أي المختص بقضايا المواطنين الرومان. وبعدئذ أنشىء منصب «بريتور الأجانب» وكان «المدني له» الأولوية على الآخر.

20 ـ يسمى القنصل Consul ويسمى البريتور Praetor. وأما بروقنصل Proconsul فمعناها بمثابة قنصل أي كالقنصل أو القنصل البديل، وهكذا في لقب «بروبريتور» فمعناه «البريتور المفوض» أو «البريتور البديل».

21 ـ Tribuni Militum consulari potestate.

وكلمة Tribunus تعني في الأصل قائد قوات القبيلة.

22 ـ تحدثنا المصادر القديمة عن عدة «انسحابات» (Secessiones) قام بها العامة كان أولها الانسحاب المذكور أعلاه والثاني في عام 449 ق.م، والثالث ـ هو الموثوق بصحته ـ حدث في عام 287 ق.م.

23 ـ حصل العامة على حق تولي منصب «التريبيون العسكري ذي السلطة القنصلية» في عام 400 إن لم يكن قبل ذلك بمدة طويلة (في 444).

وحصلوا على حق تولي منصب القنصل في 366.

وعلى حق تولي منصب الدكتاتور في 356.

وعلى حق تولي منصب البريتور في 337.

24 ـ لم يراع هذا القانون بصفة مطردة إلا منذ عام 342 ق.م الذي يعتقد أن قانونا صدر فيه يجيز أن يكون أحد القنصلين من العامة. ومع أن هذا أمر غير مستبعد إلا أنه لم يحدث أن تولى القنصلية اثنان من العامة إلا منذ عام 272 ق.م.

25 ـ راجع فيما تقدم.

الفصل العاشر

روما وغرب البحر المتوسط

الصراع مع قرطاجة وهنيبال[1]

في أيامنا هذه يرى المؤرخون المتزنون أن الحكمة تقتضي اغفال قصص الحروب والمعارك المعروفة، وتركيز الاهتمام في المسائل المتصلة بالحياة الاجتماعية والاقتصاد القومي والفردي، وتاريخ تطور الديانة والأخلاق والبحث العلمي لكن هناك من الحروب القليلة ما هو صراع هائل بين أمتين سيظل يستوعب دائماً اهتمامنا البالغ، لأنه ذو طابع مثير من جهة وذو نتائج بعيدة المدى من جهة أخرى. ولا مراء في أن الصراع الطويل بين روما وقرطاجة كان نوعاً من هذه الحروب. فقد أبرز من ناحية قرطاجة رجلين من أفذاذها، كان أحدهما ابنا للآخر ولا يفتأ التاريخ يتحدث بذكرهما. وأما من ناحية روما فهو يطلعنا على صورة حية من صور الصمود الرائع سنوات طويلة في وجه أخطار مدلهمة، مما لا نظير له في تاريخ أمة من الأمم. ولم يترتب على حرب مثل ما ترتب على تلك الحرب من نتائج حسنة وسيئة في وقت واحد. فهي من ناحية قد أدمجت جميع أنحاء إيطاليا الواقعة جنوبي الألب في دولة متحدة تحت حكم روما، مما جعلها تنساق في تيار الفتح والغزو فيما وراء البحر المتوسط. كما وضعت أسس الامبراطورية كما نتصورها اليوم بنظامها الرائع. لكنها تركت إيطاليا من ناحية أخرى في حالة من التردي الاقتصادي الذي لا نجانب الصواب إذا قلنا أنها لم تنهض منه أبداً نهوضاً تاماً، وغيرت أخلاق الشعب الروماني، أغنيائه وفقرائه على السواء وغيرتها لا إلى

أحسن بل إلى أسوأ مما كانت عليه.

الموقف قبل نشوب الحرب:

ولكن نتبين بوضوح كيف نشبت هذه الحرب، ينبغي أن نلقي نظرة على خريطة لايطاليا، ولا بأس من أن تكون خريطة حديثة، ولعل القارىء يذكر أن روما لم تكن قد سيطرت إلا على المنطقتين الوسطى والجنوبية من مجموعة الأراضي التي تتألف منها الآن الجمهورية الايطالية، وأن منطقتين أخريين من تلك الجمهورية كانتا في أيد أجنبية على الرغم من أنهما في نظر كل ايطالي معاصر جزء لا يتجزأ من بلاده. هاتان المنطقتان هما سهل البو (Padus) الغريني الفسيح وجزيرة صقلية (Sicilia)، وكلاهما يقع من الناحية الاستراتيجية على طرفي الأملاك الرومانية الشمالي والجنوبي على التوالي. فالدولة التي تسيطر على وسط إيطاليا يتحتم عليها لكي تأمن الغزو أن تسيطر أيضاً على هاتين المنطقتين كما ثبت من سلسلة طويلة من الحروب بدأت بالحربين اللتين سنستعرضهما بعد لحظة. كان سهل البو الكبير الذي يمتد من جبال الألب إلى جبال الأبنين المطلة على خليج جنوا، ويعتبر أخصب الأراضي الايطالية كلها، واقعاً تحت سيطرة قبائل من الغال المحبين للقتال استقرت هناك قبل انحدار فريق منها إلى الجنوب واستيلائه على روما نفسها على النحو الذي شرحناه آنفاً. وقد فطنت روما إلى احتمال تهديد الغال لها مرة أخرى وتحققت مخاوفها فعلاً في هذه الحرب. وأما صقلية فكانت مثار نزاع مستمر بين السكان الاغريق الذين شيدوا مدنا كثيرة في مواقع ملائمة على ساحل الجزيرة منذ زمن سحيق، وبين تجار قرطاجة المدينة الفينيقية الأصل التي تقع مواجهة صقلية على الساحل الافريقي. وكانت صقلية غنية بالمواني وغنية أيضاً كسهل البو بالقمح والزيتون والكرم. وقد تشبث الاغريق بممتلكاتهم فيها حتى سيطروا فترة من الزمن على كل الجزيرة تقريباً بفضل مساعدة بيروس الأخيرة،

ولكنهم تخلوا بحماقة عن بيروس في اللحظة الحرجة، فاسترد القرطاجيون الجزيرة كلها ما عدا سيراكيوز (Syracusae)، المسماة «بسراقوصة» وهي مملكة هيرون (Hieron) التي امتدت على طول الساحل الشرقي في جنوب جبل آيتنا. وأخذت الأساطيل القرطاجية تطوف حول الجزيرة، وكثيراً ما شوهدت من سواحل إيطاليا ذاتها. والواقع أن قرطاجة كانت سيدة كل الجانب الغربي من البحر الأبيض المتوسط.

وكانت قرطاجة (Carthago) في الأصل مستعمرة أسستها في أواخر القرن التاسع ق.م. مدينة صور الكنعانية، احدى مدن الشعب البحري المعروف في التاريخ باسم الفينيقيين (Punici) والذين دفعهم بنو اسرائيل أمامهم نحو الجنوب إلى ساحل فلسطين دون أن يخضعوهم. وقد نبغ الفينيقيون في التجارة وساعد موقع قرطاجة الممتاز ـ وهو قريب من تونس الحديثة ـ والمنطقة الغنية بالقمح وراءها، ساعد أمراءها التجار ورجال حكومتها الأرستقراطية على أن يقيموا بالتدريج شبه امبراطورية تستند إلى عدة مراكز تجارية ممتدة لا على طول الساحل الافريقي وحده بل على ساحل سردينيا وجنوب اسبانيا وشرقها وساحل صقلية كما رأينا. وكان على قرطاجة لكي تحمى هذه الامبراطورية أن تحتفظ بأساطيل ضخمة وأحواض كبيرة للسفن في مينائها. ولكن لما كان معظم سكانها الفينيقيين يشتغلون بالتجارة، فقد اعتمدت في تعبئة أساطيلها وجيوشها على الأهالي الافريقيين الذين أخضعتهم أو على المرتزقة الذين استأجرتهم من بين الشعوب الأخرى المتصلة بها. ومع أن ذلك كان نقطة ضعف في جهازها الحربي، فإنها كانت أقوى دولة في البحار الغربية. وكان على أي شعب آخر يطمع في السيطرة على هذه المنطقة أن يسوي حسابه معها. وكانت قرطاجة حتى ذلك الحين على علاقات ودية مع روما. ولدينا نصوص ثلاث معاهدات بين الدولتين تظهر في الأخيرة منها بوادر عدم الثقة بينهما[2]. فلم يكن في وسع شعب يحكم في

إيطاليا أن يسمح بوجود منافس له في صقلية يسيطر في نفس الوقت على البحر سيطرة تامة.

أسباب قيام الحرب:

قد حدث الاصطدام في عام 264 ق.م. نتيجة مباشرة لتقدير خاطىء ونية سيئة من جانب الرومان. وما كنا بحاجة إلى الخوض في ذلك لولا أنه يلقى ضوءاً على صفة في أخلاق الرومان أخذت تزداد وضوحاً بازدياد توسع روما في علاقاتها السياسية مع الدول الأجنبية. ذلك أن نزعة النظام والطاعة في الداخل لم تولد في نفوس الرومان روح العدالة والشرف عند تعاملهم مع الأجانب لأن نظرتهم العملية إلى الحياة، وهي نظرة لا تتضمن تثقيف العقل أو تهذيب الشعوب، لم تساعد على تنمية السلوك النبيل إلا مع بني جلدتهم، وليس في معنى كلمة (Virtus)، التي تعبر عن واجبات المواطن العملية، ما يوحي بشرف التعامل خارج دائرة المواطنين، فالمثل العليا تحتاج إلى شيء من الخيال لتجد لها مكاناً في الحياة العامة. وكان الطابع الغالب على الدبلوماسية الرومانية هو «الالتواء»، وسنلمس دائماً روح الشدة: التي كثيراً ما تبلغ حد القسوة، في سلوك الرومان ازاء العدو المغلوب.

اضطربت الأحوال السياسية فجأة في جزيرة صقلية، فقد التحق بجيش سيراكيوز جماعة من المرتزقة يعرفون باسم المامرتيني (Mamertini) أصلهم من كمبانيا ولكنهم ما لبثوا أن تخلوا عن سيراكيوز وهاجموا مدينة مسينا، (في الطرف الشمالي الشرقي لجزيرة صقلية) واستولوا عليها عام 284 ق.م. واستأنفوا أعمال السلب والنهب وأصبحوا خطراً يهدد سلامة سيراكيوز التي تولى حكمها الملك الشاب هيرون في عام 265 ق.م فحاصر مسينا حتى أوشكت أن تسقط في يده. واستبد اليأس بالمامرتيني فاستنجدوا في أول الأمر بقائد الأسطول القرطاجي

المرابط في المياه الصقلية وتمكن من انزال قوة من جنوده في مسينا لأن قرطاجة كانت تنظر بعين الحسد إلى أي توسع تقوم به سيراكيوز في صقلية، ولكن برغم المساعدة التي تلقاها المامرتيني من قرطاجة فلم يكن لديهم أية رغبة في أن يربطوا مصيرهم بقرطاجة أو يصبحوا خاضعين لها، وأرسلوا إلى روما وفداً يطلب دخولهم في زمرة حلفائها. وأدرك السناتو من ناحية أن الاستجابة إلى هذا المطلب قد يؤدي إلى الاحتكاك بقرطاجة، وأدرك من ناحية أخرى أن احتلال قرطاجة لمسينا يتيح لها السيطرة على مضيق مسينا ويجعلها خطراً يهدد جنوب إيطاليا والسفن الرومانية والايطالية المارة بالمضيق فوطد العزم على أن يحول بينها وبين تحقيق ذلك.

على أن أعضاء السناتو المحافظين كانوا يخشون أن تؤدي الحرب مع قرطاجة إلى ظهور بعض الكفايات الممتازة بين العامة فيرشح أصحابها أنفسهم للمناصب العليا التي تفتح لهم باب الدخول في السناتو وهكذا يزيد عدد أعضاء العامة في المجلس ولعل السبب نفسه جعل زعماء العامة يحبذون سياسة التدخل في شؤون صقلية مهما كانت العواقب. لهذا كله تردد السناتو في اتخاذ قرار نهائي وأحال الأمر إلى الجمعية المئوية فيما يرجح. وبرغم أن الشعب كان لا يزال مجهداً من اثر الحروب الماضية ولم يكن متحمساً للاشتباك في صراع جديد، إلا أن زعماءه أقنعوه بعقد محالفة مع المامرتيني المرتزقة بحجة استخدام هؤلاء كخط دفاع أول ضد أي هجوم على جنوب إيطاليا في المستقبل ـ ولعل الشعب الذي كان أقصر نظراً من السناتو وأكثر ثقة بنفسه لما أحرزه من انتصارات في ايطاليا، لم يقدّر جسامة الأخطار أو الصعوبات التي قد تنجم عن الاصطدام بقرطاجة، فقد كلف هذا القرار الذي ينطوي على سوء النية وسوء السياسة ثمناً كلف الرومان غالياً فخسروا حليفا نافعاً واشتبكوا مع قرطاجة في حروب استغرقت الأولى منها ثلاثة وعشرين عاماً دون انقطاع.

حشدت روما جيشاً مؤلفاً من فرقتين لنجدة مسينا فاقتحمت طلائع هذا الجيش ميناء المدينة برغم مرابطة سفن قرطاجة في مضيق مسينا، واستطاع المامرتيني أن يرغموا الحامية القرطاجية على الجلاء عن مسينا، مما أثار غضب قرطاجة التي عقدت النية على استرداد المدينة عندما تتاح لها الفرصة، وأرسلت جيشاً إلى صقلية عهدت إليه تحقيق هذه المهمة. وسرعان ما انحاز هيرون، ملك سيراكيوز، إلى قرطاجة وعقد معها محالفة بقصد التعاون على محاصرة مسينا. لكن القوات الرئيسية للجيش الروماني تمكنت من عبور البحر من رجيوم إلى مسينا وأوقعت الهزيمة بعد مفاوضات قصيرة غير مجدية بهيرون ملك سيراكيوز، وبعدئذ بالقرطاجيين أيضاً. وهكذا أنقذت مسينا، لكن روما وجدت نفسها في حرب مع قرطاجة وسيراكيوز (سراقوصة).

مقدمات الحرب (263 ـ 256):

في عام 263، أرسلت روما إلى صقلية جيشاً كبيراً يضم 40000 من المواطنين والحلفاء لمتابعة الحرب ضد هيرون، وقد ذعر الملك من الانتصارات الأولية للرومان الذين منحوه فرصة ليعقد معهم الصلح بشرط أن يدفع لهم تعويضاً حربياً قدره 100 تالنت فضية، فنقض اتفاقه مع قرطاجة وعقد محالفة مع الرومان لمدة خمسة عشر عاماً. وبفضل مساعداته ضرب الرومان الحصار على أجريجنتوم **Agrigentum**، وهي مدينة اغريقية[3]. حصينة واقعة على الساحل الجنوبي للجزيرة كانت قد انحازت إلى قرطاجة وقبلت أن تحتلها حامية قرطاجية. ولما سقطت هذه المدينة في يد الرومان عام 262 ق.م. وطدوا العزم على طرد القرطاجيين نهائياً من صقلية.

ولكن الرومان أدركوا أن انتصاراتهم لا قيمة لها طالما أن قرطاجة تتمتع بالسيادة في البحر وتهدد بأسطولها سواحل إيطاليا نفسها. ولهذا قرروا بناء أسطول

ضخم يستطيعون بواسطته القضاء على سيادة قرطاجة البحرية والمحافظة على سواحل ايطاليا، ولم يكن لهم عند نشوب هذه الحرب أسطول: وهنا ظهرت مزايا الاتحاد الايطالي الذي مكن روما من التغلب على هذه المشكلة الكبيرة، فأمدوها الحلفاء بالملاحين وبناة السفن الاغريق والاتروسكيين فتمكنت روما من بناء أسطول يتألف من 130 سفينة من النوع المسمى (Quinqueremes)[4]. وكان بكل سفينة 120 مقاتلاً و 300 مجذف، إلى جانب أسطول الحلفاء. وقد استفادت روما من سفينة قرطاجية جنحت بالساحل الايطالي ووقعت في يدها فاقتبست طرازها عند بناء أسطولها الكبير.

الحرب البونية الأولى (264 ـ 241 ق.م)

ولا يتسع المجال لسرد تفاصيل هذه الحرب المضنية وحسبنا أن نقول أن الحرب البونية الأولى كانت بداهة حربا بحرية بوجه عام. ولم يكن الرومان قد بنوا عند نشوبها أسطولاً قوياً. لكنهم استغلوا حلفاءهم في الاتحاد الايطالي لتذليل هذه الصعوبة بأن استعانوا بالملاحين وبنائي السفن الاغريق والاتروسكيين. وحدث أن ارتطمت بالساحل الايطالي سفينة حربية قرطاجية، فاتخذها الرومان نموذجاً بنوا على نسقه أسطولاً ضخماً سرعان ما نزل إلى البحر. ومما يثير الدهشة أن القواد الرومان استطاعوا بواسطته أن يطهروا البحار الايطالية والصقلية من العدو في غضون سنوات قليلة إذ انتصروا بقيادة القنصل دوبليوس في معركة بحرية عند ميلاي Mylae (260)، وفي معركة بحرية كبيرة أخرى بقيادة رجولوس عند اكنوموس Ecnomus (256م). واستطاعوا أن ينقلوا أيضاً أحد الجيوش عبر البحر لغزو قرطاجة في عقر دارها (256). وقد تمت هذه الانتصارات البحرية بفضل ابتكار حيلة آلية (عبارة عن خطّافات corvi) من شأنها أن تشل حركة ملاحي العدو وتسهل نزول الجنود الرومان على ظهر سفنه لمقاتلته بالسلاح

الأبيض، كما جدد الرومان خلال الدور الأول من هذه الحرب محالفتهم مع هيرون، وفتحوا كل صقلية ما عدا مدينة ليليبايوم (Lelybaeum) الحصينة (وهي مرسالا الحالية).

غير أن السناتو الروماني ارتكب حماقة أضاعت جميع هذه المكاسب. وكأن عبور البحر ودخول ميدان حربي جديد قد أفقد أعضاء هذا المجلس ما عرف عنهم من تبصر وترو وحكمة ـ تلك الصفات التي أحرزوا بها في الماضي زعامة ايطاليا. فقد حدث أن وصل إلى شمال افريقيا جيشان تحت قيادة القنصلين مانليوس ورجولوس اللذين استطاعا أن يضيقا الخناق على قرطاجة حتى طلبت الصلح. لكن السناتو عرض عليها شروطا قاسية يستحيل قبولها، واستدعى في الوقت نفسه أحد القنصلين مع جيشه إلى ايطاليا. وعندئذ انبعثت الروح الفينيقية القديمة في قلوب القرطاجيين فاستماتوا في الدفاع عن الوطن، بعد أن أعاد تنظيم جيشهم اغريقي مرتزق يدعى اكسانثيبوس (Xanthippus). ولم ينقض وقت طويل حتى كان الجيش الروماني المتخلف في أفريقيا قد أبيد عن آخره، ووقع قائده القنصل رجولوس (M. Atilius Regulus) أسيراً في يد القرطاجيين (255). وقد اصبح هذا الرجل محوراً لقصة من أشهر القصص الرومانية وأنشودة من أجمل أناشيد الشاعر هوراتيوس[5]. فقد روى أنه أعيد إلى روما على رأس وفد من بني قومه (عام 249؟) بعد أن وعد بالعودة إذا هو أخفق في حمل السناتو على قبول شروط القرطاجيين. فلما أخفق في مهمته ـ وكان هو الذي أقنع السناتو برفض الشروط ـ عاد كأسير إلى قرطاجة حيث قتل شر قتله. وينكر كثير من النقاد هذه القصة باعتبارها أسطورة دون أن يسوقوا أسباباً وجيهة. ومع هذا فليس من المستبعد أن تكون القصة صحيحة في جملتها. ومن المؤكد أنها استولت على لب الرومان. وهي تنهض دليلاً على شعور الرومان العميق بما للقسم من قوة ملزمة حتى لو كان هذا القسم للأعداء، لأن رجولوس كان قد أقسم بشرفه أن

يعود إذا أخفق في مهمته.

القضاء على سيادة قرطاجة البحرية:

وانقضت سنوات عديدة بذلت روما خلإلها جهوداً هائلة قبل أن تفيق من هذه الهزيمة، ومن كارثة تدمير أساطيلها بفعل العواصف التي هبت من سوء الحظ عقب الهزيمة مباشرة (254 ـ 253) مما أتاح لقرطاجة فرصة السيادة على البحر مرة أخرى. كما وجدت قرطاجة قائداً نابغاً في شخص هميلكار برقة (Hamilcar Barca) الذي كان يحقد على روما حقداً دفينا زاده اشتغالاً رجحان كفتها بالتدريج، مما أثار في قومه روح مواصلة القتال في البحر (247) وأثار في قواته روح المقاومة المستميتة في قلعة عند جبل أريكس Eryx (244 ـ 241)، وهي قلعة منيعة تقع في شمال غرب صقلية على الجبل المعروف الآن بجبل سان جوليانو المطل على دريبانا (Drepana) وهي «تراباني» الحديثة. وقد أنهك القتال الفريقين وكبدهما خسائر فادحة.

لكن روما صمدت مدة أطول واستطاعت بفضل تبرعات المواطنين أن تجهز مائتي سفينة جديدة ضربت بها الحصار على المدن الحصينة في غرب صقلية، التي كانت لا تزال في يد القرطاجيين مثل دريبانا وليليبايوم. وأخيراً دمّر القنصل الروماني لوتاتيوس كاتولوس أسطولاً قرطاجياً كبيراً عام 242 عند جزر أيجاتيس (Aegates) كان في طريقه إلى صقلية لنجدة القوات المحاصرة بالجزيرة وعندئذ قبل هميلكار المفاوضة لعقد الصلح في 241. ونصت شروط الصلح على أن تتنازل قرطاجة لروما عن صقلية والجزر الصغيرة المتاخمة لها، وأن تدفع تعويضات حربية قدرها 3200 تالنت تقسط على عشر سنوات[6].

وبعد ذلك بفترة قصيرة انتهزت روما فرصة حرب مريرة بين قرطاجة وجنودها المرتزقة فاستولت بنفس سياسة «الالتواء» التي أشرنا إليها على سردينيا

عام 248. ولما احتجت قرطاجة ردت روما عليها برفض التحكيم واعلان الحرب فرضخت قرطاجة، وسلمت لها كورسيكا أيضاً، ودفعت لها تعويضات اضافية قدرها 1200 تالنت. ويتضح من ذلك أن السناتو أدرك أهمية هاتين الجزيرتين لأي دولة تريد السيطرة على البحار الغربية. غير أن هذا التصرف الجائر ترتبت عليه عاقبة وخيمة. وكان من الجائز أن يغفر هميلكار العظيم لروما اساءاتها لبلده لولا هذه الاساءة الأخيرة التي أججت في صدره حقده عليها وجعلته يغرس بدوره هذا الحقد في صدر ابنه هنيبال (Hannibal) الذي كاد يمحو عدوه محواً بحقده الموروث. وذهب هميلكار إلى اسبانيا في عام 237 لكي ينظم ممتلكات قرطاجة هناك حيث أخذ يتصرف كأنه ملك متوج، ولكي يتخذ منها قاعدة لتحركاته العسكرية ضد الرومان في أي حرب مقبلة وقبل أن يغادر قرطاجة ألزم ابنه الصغير هنيبال ـ الذي رافقه إلى اسبانيا ـ ألزمه بيمين مؤكدة على أن يمقت أعداء وطنه ما دام حيا[7]. وقد قام هميلكار بعمل جليل إذ فتح جنوب اسبانيا وشرقها، وحصل على ثروة معدنية وثروة بشرية، عوضتاه عن ضياع صقلية وسردينيا.

الحرب البونية الثانية (218 ـ 201 ق.م)

والواقع أن سيطرة روما على البحر بعد انتصارها في الحرب البونية الأولى هي التي فرضت على هميلكار خطة غزو إيطاليا من اسبانيا، لأن قرطاجة لم يعد في وسعها أن تغزوها من أفريقيا دون أن تبذل مجهوداً ضخماً لاسترداد تلك السيطرة، وهو ما لم يكن أمراء قرطاجة التجار مستعدين لبذله. وإذا كان هنيبال قد استطاع فعلاً أن يغزو إيطاليا عن طريق البر، فإن ذلك يعزى إلى عبقرية أبيه ونفوذه الشخصي الذي مكنه من بناء مملكة قوية في جنوب اسبانيا عاصمتها قرطاجة الجديدة (Carthaga Nova)، وهي قرطاجنة الحالية (Cartagena). وفي

رأي بعض المؤرخين أن الأب كان أعظم من الابن، ولا مراء في أن البناء الذي اقامه هميلكار في اسبانيا كان عملا مجيدا على أقل التقديرات، في حين أن مواهب هنيبال المتألقة ضاعت سدى في محاولته تحطيم الصرح الشامخ الذي شيدته روما في ايطاليا. وكانت المحاولة غير مجدية لأن الاتحاد الروماني الوطيد صمد في وجه جميع الهجمات التي شنها عليه أعظم قائد في العالم القديم. ولا ينبغي أن تعمى أبصارنا انتصارات هنيبال الباهرة عن هذه الحقيقة وهي أنه ارتكب خطأين جسيمين: فقد اعتقد أن الايطاليين يمقتون روما مقته لها وأنهم سينضمون إليه لسحقها. وتوقع، إن لم يكن قد اعتقد فعلاً، أن قرطاجة سترسل له امدادات كبيرة. ولو صح تقديره في الأمر الأول لقضي على روما قضاء مبرما، لكن الايطاليين لم يفتر ولاؤهم أبداً نحو روما التي ربطتهم بها صلات القرابة ورأوا فيها زعيمة طبيعية لهم[8]. ولم ترسل له قرطاجة سوى إمدادات ضئيلة بلغته بعد فوات الفرصة. هكذا نرى في هذه الحرب الضروس مشهداً غريباً يظهر فيه رجل عبقري وهو يكافح بمفرده جميع إيطاليا المتحدة بمواردها العسكرية التي بلغت ـ وفقاً للمؤرخ اليوناني الدقيق بوليبيوس ـ حوالي 777,000 رجل قادر على حمل السلاح.

ولا مراء في أن هنيبال كان من أعظم القواد الذين عرفهم التاريخ. وقد ظلت خططه العسكرية مثار إعجاب القواد في الأجيال التالية. وكانت قيادته البارعة، واستراتيجيته الجريئة، ومقدرته على كسب ولاء جنوده والمرتزقة، وصلابة أخلاقه، كانت كلها صفات نادرة وبرغم محاولة الرومان الانتقاص من قدره، وتشويه سمعته، واتهامه بالغدر، فقد أصبحت سيرته حتى بين الرومان الذين ظلوا حتى بعد موته يفزعون من ذكر اسمه، أصبحت أشبه ما تكون بالأسطورة أو الملحمة الرائعة. ولا ينبغي أن ننسى أنه أثبت جدارته أيضاً كرجل من رجال الحكم والسياسة، إذ أدى لقرطاجة خدمات جليلة بعد الحرب، فحد

من شوكة الحكم الأوليجركي، وأجرى فيها اصلاحات دستورية، وعالج شؤونها المالية، وشجع التجارة والزراعة فيها.

لكن برغم اعجابنا بسيرة هنيبال، وانبهارنا بانتصاراته المتلاحقة، وافتتاننا بشخصيته فإن الرأي المتزن لا بد أن ينتهي إلى أن ما فعله هنيبال كان أقل مما فعله عظماء غيره من أجل خير الانسانية. ففي خلال الخمسة عشر عاما التي قضاها في إيطاليا أنزل بشبه الجزيرة الايطالية خسائر فادحة، وزاد قلوب الرومان قساوة في جميع معاملاتهم المقبلة مع الأعداء. وعندما غادر إيطاليا في النهاية لم يكن في استطاعته أن ينقذ بلاده، وقضى سنواته الأخيرة في المنفى لا ينفك يتآمر على العدو الروماني الذي أفلت من يديه. ولم يكن يحركه طوال حياته سوى دافع الكراهية لهذا العدو والرغبة في الانتقام منه. ومن ثم فإنه لم يفرغ أبداً للتفكير فيما قد يكون أجدى من البغضاء أو للقيام بما هو أنفع للبشر.

وبينما كان هنيبال ـ الذي آلت إليه القيادة في عام 221 (وهو في سن السادسة والعشرين) بينما كان يعمل على كسب ولاء سكان جنوب اسبانيا وينظم قواته كانت روما منهمكة في بسط سيطرتها على الغال القاطنين بسهل البو (225 ـ 219) حتى تؤمن حدودها الشمالية مثلما فعلت بتأمين صقلية في الجنوب. بيد أنه لم يكن هناك سبيل في شمال إيطاليا إلى كسب ولاء قبائل الغال (البويين والانسوبريين) الذين كانوا، فوق ميلهم إلى الشغب، يضمرون العداوة للرومان. وقد قاموا أخيراً ـ بعد مجيء أفواج جديدة منهم عبر الألب ـ بمحاولة جدية أخرى للزحف على روما وبلغوا مكانا على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة ولكنهم منوا بالهزيمة في معركة كبيرة عند «تلامون» في سنة 225 وكانت الجيوش الرومانية ما تزال منهمكة في شق الطرق الموصلة إلى الشمال وفي تأسيس مستعمرتي بلاكنتيا (Placentia) وكريمونا (Cremona) في أراضي الغال وسهل البو عندما أنقض عليها هنيبال من الألب في عام 218.

غزو هنيبال ايطاليا:

وكان القائد القرطاجي قد رد على مؤامرات الرومان في اسبانيا بتعجيل القتال، فضرب الحصار في عام 219 على ميناء ساجونتوم (Saguntum)، حليفة الرومان، واستولى عليها بعد ثمانية أشهر غير عابئ بالانذار الذي وجهته إليه روما عن طريق السفراء لاعتقاده أنها تتلمس الأعذار لطرد القرطاجيين من اسبانيا كلها. وسرعان ما أعلنت روما الحرب على قرطاجة، فعبر هنيبال البرانس (في ابريل عام 218) على رأس جيش قوامه حوالي 40،000 رجل، وبلغ الرون قبل أن يفطن السناتو إلى حقيقة مرماه، وأفلت من جيش يقوده قنصل أرسله السناتو لوقف زحفه. وعندئذ أصدر هذا القنصل وهو سكيبيو (P. Cornelins Scipio) مدفوعاً بسليقته العسكرية الصادقة، الأمر لجيشه بمواصلة السير إلى اسبانيا حتى يقطع على هنيبال خط مواصلاته مع القاعدة الاسبانية التي أنفق في إعدادها زمناً طويلاً. ولم يسترد هنيبال هذا الخط إلا بعد عشر سنوات مما اضطره إلى تموين جيشه وملء صفوفه من إيطاليا نفسها.

ولا ريب في أن هذا الجيش كان من الناحية العسكرية البحتة من أعظم الجيوش التي عرفها التاريخ. وكان أغلبه يتألف من مشاة اسبان مدربين خير تدريب يقودهم ضباط قرطاجيون، ويعاونهم فرسان من أمهر فرسان العالم جندوا من نوميديا (Numidia)، وهي المنطقة الغربية من شمال افريقيا (الجزائر على وجه التقريب). وكان الجيش القرطاجي أحد هذه الجيوش التي تستطيع أن تذهب إلى أي مكان وتفعل أي شيء باشارة من قائدها لأن حافزها الوحيد على العمل هو ثقتها التامة فيه. كما كان جيشا محترفا وأداة كاملة للحرب وسلاحا ماضيا للتدمير. ولكنه كانت تعوزه الروح الانشائية ولا يفهم معنى القيم الحضارية التي تكسب النشاط والحيوية الدائمة. ومن حسن حظ روما أن هذا

الجيش كان عدده عند بلوغه «تورينو» قد هبط إلى حد كبير. ذلك أن طول المسافة، واضطرار هنيبال إلى ترك جانب من القوات في اسبانيا، ومحاولاته الرهيبة لعبور الألب حيث تضافرت القبائل الوطنية مع الصخور والثلوج على ارهاقه[9]، هذه العوامل مجتمعة أنقصت عدد الجيش إلى أقل من 30,000 جندي.

معركة تريبيا:

ولم يسترح هنيبال بعد الرحلة الطويلة سوى يوم واحد استأنف بعده الهجوم على أقرب جيش روماني. وكان هذا الجيش يرابط على الضفة الشمالية لنهر البو تحت قيادة سكيبيو الذي عاد إلى إيطاليا من منطقة الرون. وأرغم هنيبال هذا الجيش على الانسحاب إلى مستعمرة بلاكنتيا الجديدة حيث انضم إليه جيش القنصل الآخر لونجوس (Ti. Sempronins Longus)، ولكن القائد القرطاجي هزم الجيشين الرومانيين المتضافرين هزيمة ساحقة في ديسمبر عام 218 عند نهر تريبيا (Trebia) الصغير الذي ينحدر من الأبنين إلى تلك المستعمرة المعروفة اليوم باسم مدينة بياشنزا. وسرعان ما قوضت هذه الهزيمة النفوذ الروماني في سهل البو، فشرع القائد الظافر في الحال يعقد المحالفات مع قبائل الغال، بينما كان جيشه يستجم من وعثاء الطريق وكانت الجهود تبذل لسد الثغرات في صفوف قواته المرهقة. ولكنه لم يتلق امدادات كبيرة من الغال الذين لم يجدوا باعتبارهم شعباً متقلب الأهواء، من الأسباب القوية ما يدعوهم إلى الترحيب بالفاتح بعد أن دخل أراضيهم. ولعل ذلك كان من حسن حظ هنيبال لأنه لو زحف على إيطاليا بوصفه قائداً لجيش من الغال لقوى بذلك روح المقاومة بين جميع مدن الاتحاد الايطالي، ذلك الاتحاد الذي وطدت روما دعائمه، ولم تكن لدى القائد القرطاجي سوى فكرة مشوهة عن أسباب تضامن أعضائه.

معركة تراسيمينوس:

وفي ربيع عام 217 عبر هنيبال الأبنين واجتاز المنطقة المتاخمة لنهر الأرنو الأدنى، وهي منطقة مليئة بالمستنقعات وموبؤة بالملاريا، حتى قيل أنه فقد احدى عينيه بعد رمد أصابه ـ اجتازها لملاقاة القنصل جايوس فلامينيوس (Flaminius)[10] الذي أرسل مع جيش ضخم ليسد الطريق المؤدية إلى روما في وجه الغزاة. واستطاع هنيبال أن يروغ منه ثم أخفى جيشه وسط التلال والغابات الواقعة على الشاطىء الشمالي لبحيرة تراسيمينوس (Trasimenus) في اقليم أتروريا، والتي تجري السكة الحديدية الآن على ضفتها الغربية في طريقها من فلورنسه إلى روما. وهناك كمن هنيبال في مخبئه مترقبا فريسته. وفي صباح يوم كثيف الضباب من عام 217 وقع فلامينيوس في الشرك المنصوب له فأبيد جيشه عن آخره وخر قائده صريعا. ولم يعد ثمة ما يعوق الفاتح عن الزحف إلى روما مباشرة إذا شاء. لكن هنيبال لم يكن قد أدخل حصار روما في خطته ولذلك لم يحضر معه معدات للحصار ولم يستطع في أي وقت أثناء الحرب أن يحصل عليها من قرطاجة أو أن يجهزها في ايطاليا. وكان هدفه الحقيقي هو استمالة الايطاليين إلى جانبه وعزل روما وتحرير إيطاليا ـ حسب زعمه ـ من السيطرة الرومانية. ولهذا تحول عن روما وسار متمهلاً نحو الجنوب بمحاذاة الساحل الشرقي لوسط إيطاليا متجهاً صوب حقول القمح في اقليم أبوليا الذي استخدمه منذ ذلك الحين قاعدة رئيسية لعملياته الحربية. وأصبح في وسعه أن يبلغ من ذلك المكان مينائي تارنتوم وكروتون الكبيرين، وأن يتصل مرة أخرى بقرطاجة، وربما أيضاً بدولة أخرى كان يأمل في أن يتلقى منها النجدات، وهي مقدونيا التي ارتقى عرشها فيليب الخامس في عام 221. لكن هنيبال أدرك لأول مرة فيما يبدو أثناء زحفه نحو الجنوب أن إيطاليا مزدحمة بالمستعمرات الرومانية واللاتينية، وأن

كلا منها كانت بمثابة حصن منيع مزود بالمئونة متأهب لمقاومته، وتكاد تكون صورة مصغرة من روما تعمل على بث معاني الفخر والاعتزاز بالجنسية الرومانية بين الايطاليين، وإحياء روح الوحدة الايطالية تحت زعامة روما. وقد حاول أن يستولي على واحدة أو اثنتين من هذه المستعمرات ولكن محاولته باءت بالفشل. وعندئذ بدأ يدرك أن الحقد الدفين في قلب شخص واحد لا يمكن أن يكون ندا على مر الزمن للقوة الكامنة في شعب عملي منظم.

معركة كنّاي:

وكانت الفرصة الوحيدة أمامه هي أن يكسب معركة أخرى كبيرة حتى يرهب جنوب إيطاليا ويؤمن قاعدته تماما وينشر بالتدريج بذور السخط على روما في الشمال، وهو ما عقد أمله عليه. لكن هذه الفرصة لم تسنح له خلال عام 217. وكان السناتو الذي احتفظ باتزانه ورزانته قد طالب قنصلي تلك السنة بالتنحي وتعيين دكتاتور متزن رزين. وكان هذا الدكتاتور، وهو فابيوس مكسيموس (Q Fabius Maximus)، الذي لقب بالمرجىء أو المتواني (Cunctator)[11]، يعرف أن جنوده من المواطنين الرومان، بما عهد فيهم من توان وبطء، ليسوا أنداداً لجيش محترف سريع الحركة ماهر القيادة. ولذلك ظل يرفض أن ينازل العدو أو يلتحم معه في معركة فاصلة. وحتى عندما شق هنيبال طريقه شمالاً إلى سهل كمبانيا الخصيب وأخذ يستميل مدينة كابوا (Capua) الغنية إلى جانبه، لم يشتبك فابيوس معه، وإنما أخذ يتعقب خطواته وأوشك مرة أن يوقعه في كمين، ولكن هنيبال أفلت منه بحيلة بارعة. ولما ضاق الرومان ذرعاً بسياسة فابيوس ضربوا بجميع السوابق عرض الحائط ونصبوا مينوكيوس (Minucius) ـ رئيس الفرسان Magister equitum[12] ـ نصبوه دكتاتوراً ثانياً ليبادر إلى مهاجمة هنيبال. وعندما خاطر واشتبك مع القائد القرطاجي مني بالهزيمة ولم ينقذ جيشه

سوى مبادرة فابيوس إلى نجدته.

وفي العام التالي (216 ق.م) أرسل السناتو القنصلين الجديدين تيرينتيوس فارو (C.Terentius Varro) وأميليوس باولوس (L.Aemilius Paullus) على رأس جيش لا يقل تعداده من 100,000 رجل لمواجهة العدو في جنوب ايطاليا، حيث استطاع هنيبال أن يستدرجهما إلى القتال ـ على الرغم من عزوف أحدهما عن الالتحام ـ وذلك بأن استولى على مستودع هام للمئونة في بلدة كنّأي (Cannae) التي تقع على مقربة من البحر في سهل أبوليا. ومع ضآلة عدد جيشه، فقد أفلح بخططه العسكرية المحكمة كل الأحكام أن يوقع الفرق الرومانية المتراصة في شرك وأن يستخدم فرسانه النوميديين سريعي الحركة للأطباق عليها من الخلف ليسدوا عليها طريق الفرار. وتحولت المعركة إلى مجزرة، هلك فيها على ما يقال 80,000 جندي روماني[13]. لقد أبيد في هذه المعركة أضخم جيش أنفذته روما إلى ميدان القتال على بكرة أبيه[14]، وبدا كأنها لن تستطيع الافلات من قبضة عدوها اللدود.

ولنتوقف برهة حيث بلغت انتصارات هنيبال ذروتها لنرى كيف تلقى السناتو نبأ أفدح كارثة نزلت بروما. والحق أن الصفات الرائعة في أخلاق الرومان لم تبرز في أي فترة من فترات التاريخ الروماني مثلما برزت إذ ذاك. فقد كان على السناتو أن يعالج لا الأزمة العسكرية القائمة في إيطاليا فحسب، بل مشاكل الجيوش والأساطيل كذلك في كل من اسبانيا وصقلية وسهل البو. وكان عليه أيضاً أن يعالج في الداخل مشكلة في وسعنا أن نسميها مشكلة «الفزع الديني»، إذ بدأ الناس ـ وبخاصة النساء ـ يفقدون أعصابهم ويتوهمون أن الآلهة قد تخلت عنهم. وفي امكاننا أن نصدق المؤرخ الذي قال أن كارثة كهذه كانت كفيلة بالقضاء على أي شعب آخر قضاء مبرما. غير أن السناتو المتزن انعقد لبحث الموقف دون أن تخطر له أبداً فكرة الاستلام، فأقام الاستحكامات حول المدينة، وجند فرقا

جديدة (كان من بينها بعض العبيد)[15]، وأصدر قرارا بشكر «فارو» وهو القنصل الباقي على قيد الحياة لأنه «لم ييأس من أمر الجمهورية»، ورفض افتداء الأسرى من قبضة هنيبال أو استقبال السفير الذي أوفده لهذا الغرض، ولم يتحرك للأنباء القائلة بأن سكان جنوب إيطاليا ـ في بروتيوم ولوكانيا وأبوليا ومعظم سمنيوم ـ قد انحازوا إلى العدو، وأن بلادا متفرقة في الشمال قد تخلت عن روما، وأن فيليب المقدوني شرع يفاوض هنيبال تمهيداً لعقد معاهدة معه، وأن سيراكيوز التي مات ملكها هيرون، صديق الرومان، قد انضمت للعدو القرطاجي. كما فتحت كابوا ثانية مدن ايطاليا، أبوابها لهنيبال فتمكن بذلك من نقل قاعدته من أبوليا إلى سهل كمبانيا دون أن يترك عدواً وراء ظهره. ولكن السناتو لم ييأس. وأخذ الدكتاتور يملأ مقاعد المجلس التي خلت بمقتل أصحابها منذ قيام الحرب بأعضاء من خيرة المواطنين وأكثرهم خبرة، واتخذ كل التدابير الممكنة للاحتفاظ «بسلام الآلهة»، حتى أنه أوفد بعثة إلى مركز نبوءة أبوللون في دلفي ببلاد اليونان ليسأل الإله العظيم المشورة والنصح. وسرعان ما انجلت موجة «الفزع الديني».

وقد اضطرت الحكومة الرومانية إلى اتخاذ اجراءات غير عادية لمواصلة الحرب، فاقترضت في عام 216 من هيرون، ملك سيراكيوز، بعض الأموال للانفاق على جيشها في صقلية، واستنجدت في 215 بوطنية بعض شركات جباية الضرائب لمدها بالمعونة لكي تحتفظ بجيوشها في اسبانيا، وفرضت في 214 أعباء الزامية (Munera = leitourgiai) على ملاك الأراضي الأثرياء لتجهيز السفن بالملاحين، واستخدمت في 209 المال الاحتياطي المودع في «الخزانة المقدسة» منذ زمن طويل وهو حاصل ضريبة الـ 5% على عتق العبيد، كما ناشدت المواطنين التطوع والتبرع بالمال والذخيرة فتبرع كثير من أعضاء السناتو بمقادير كبيرة من الذهب والفضة.

وفي العام التالي وزع السناتو كعادته القيادات العسكرية على جيوش

صقلية وسردينيا واسبانيا، وكذلك على الأسطول الذي احتشدت وحداته في أوستيا، وهو الميناء الواقع عند مصب التيبر. ولم تمض بضعة أشهر بعد الهزيمة الكبرى حتى كانت الأمور تسير في روما سيراً عادياً.

وكأن هزيمة كنأي الساحقة لم يكن لها من أثر سوى أنها قادت الرومان إلى الانتصار ـ انتصار جميع الصفات المجيدة في أخلاقهم على لحظات الشك واليأس. وأن شعبا يستطيع أن ينهض من مثل تلك الكبوة ويستأنف الاصلاح في هدوء لم يكن من المحتمل أن ينمحي من الوجود حتى على يد قائد كهنيبال. وعلى الرغم من أن خطره بقي مخيما على الأراضي الايطالية عدة سنوات، إلا أنه فقد منذ ذلك الحين فرصة النصر النهائي. وقد مرت بروما بعد ذلك لحظتان عصيبتان ولكنها اجتازتهما بسلام. وجاءت الأولى في عام 211. عندما قام الرومان بمحاولة يائسة لانتزاع كابوا من يد هنيبال، فقام هذا القائد بزحف مفاجىء على روما ليرغم حكومتها على رفع الحصار عن كابوا بعد أن أيقن من عدم وجود قوات رومانية تحول دون بلوغه العاصمة. ورابط عند نهر الأنيو على بعد ثلاثة أميال شمالي المدينة. ثم زحف على رأس فصيلة من الفرسان صوب أبواب المدينة، ولكنه رد على أعقابه، لأن السناتو كان قد حشد من القوات ما يكفي للذود عن أسوارها. وخرب هنيبال الأراضي الرومانية وانسحب ثانية كموجة تتكسر ثم تنحسر عن شاطىء صخري.

معركة ميتاوروس:

وأما اللحظة العصيبة الأخيرة فجاءت بعد ذلك بأربع سنوات في عام 207. وكان السناتو بثاقب فكره قد عمل منذ مستهل الحرب على توطيد النفوذ الروماني في اسبانيا فلم تبلغ هنيبال أية امدادات من تلك الناحية. وفي النهاية تمكن أخوه هسدروبال (Hasdrubal) من الافلات من الجيش الروماني المرابط

هناك، واتخذ طريقاً جديداً ـ وهو طريق ولنجتون في «حرب شبه الجزيرة» ـ حتى يتجنب أي مقاومة قد تعترضه من جانب الرومان في شمال اسبانيا. وأخيراً أصبح الطريق ممهداً أمامه إلى ايطاليا. وكان هذا هو الطريق البري لا الطريق البحري الذي كان ينبغي لحكومة قرطاجة أن تبذل قصارى جهدها لتأمينه ببناء أسطول جديد. واضطر هسدروبال أن يعبر الألب واجتازها متحملاً خسارة أقل مما تحملها أخوه، نظراً لما توافر لديه من معلومات وخبرة. ثم اخترق أراضي الغال وبلغ بلدة أريمينوم (Ariminum) ـ وهي ريميني الحديثة ـ التي تقع على البحر الأدرياتيكي في اقليم أومبريا في شمال شرق شبه الجزيرة.

وكان هنيبال يرابط في اقليم أبوليا في الجنوب الشرقي حيث تصدى له أحد القنصلين وهو كلوديس نيرون (Claudius Nero) الذي عهدت إليه في نفس الوقت مهمة تأديب بعض الايطاليين المتمردين، وأما القنصل الآخر، وهو ماركوس ليفيوس (M. livius Salinator)، فكان يترقب وصول الفاتح الجديد على الطريق الساحلي الكبير في جنوب ميناء أريمينوم. وبعث هسدروبال إلى أخيه برسل ليخبره بمقدمه ويقترح عليه خطط التعاون، فوقع الرسل في أيدي القوات الرومانية المنبثة في كل مكان. ولما وصل ذلك إلى علم نيرون، القنصل المرابط في الجنوب اتخذ خطوة ـ وان كانت بدون اذن من السناتو ـ إلا أنها خلدت ذكره. فقد ترك قوة كافية لحجز هنيبال ثم تسلل خفية إلى الشمال مع 7000 من جنوده المختارين دون أن يكتشف أمره أكثر القواد دهاء. وبلغ معسكر ليفيوس، زميله القنصل، في المساء بعد رحلة استغرقت حوالي 200 ميل كان المخلصون من أهالي إيطاليا الوسطى يمدونه خلالها بالمئونة ويدعون لجيشه بالنصر. ونشبت بعد يومين معركة حاسمة في الحرب على ضفاف المتاوروس (Metaurus)، وهو نهر صغير يجري في اقليم أومبريا من جبال الأبنين إلى البحر الأدرياتيكي جنوبي أريمينوم ببضعة أميال. وانتصر الرومان في هذه المرة انتصار تاما ومزقوا جيش

الغزاة شر ممزق. وسقط هسدروبال في الميدان وهو يقاتل حتى الرمق الأخير. وعاد نيرون بسرعة إلى مركزه الأصلي في الجنوب وألقى برأس هسدروبال ـ كما يروى ـ في معسكر أخيه.

ولأول مرة بعد سنوات طويلة من بدء الحرب المريرة تغمر روما موجة من الفرح الشديد، ولأول مرة في تاريخها تقريباً، ينبعث منها شعور صادق بالشكر للآلهة على النعمة التي لا تقدر بثمن. ولم يكن العرفان بالجميل نحو الآلهة أو للبشر صفة بارزة في أخلاق الرومان، ولكن في تلك اللحظة التي تملكهم فيها شعور ديني صادق كان أول ما خطر ببالهم هو العرفان بالجميل لأنهم استعادوا «سلام الآلهة» تاما غير منقوص. وقرر السناتو اقامة عيد شكر رسمي لمدة ثلاثة ايام فاغتنم الرجال والنساء على السواء فرصة العيد وتدفقوا زرافات على المعابد وبينهم الأمهات مرتديات أزهى الثياب والأطفال برفقتهن.

معركة زاما:

ولنتابع قصة الحرب البونية الثانية التي أوشكت على النهاية. كان الرجل الذي أفلت منه هسدروبال في اسبانيا هو سكيبيو الأصغر[16]، ابن سكيبيو الذي أدى لبلاده خدمات جليلة ثم لقي حتفه باسبانيا في عام 211. وكان شابا قديرا فذا يكتنف شخصيته شيء من الغموض، ورومانيا من طراز جديد لا تنقصه ملكة الخيال. ولعل السنوات الطويلة التي قضاها في اسبانيا بمنأى عن المنافسين الذين قد يقفون في وجهه جعلته يعتدّ بشخصيته وينميها على نحو لم يتح من قبل لغيره من الأشراف المتحفظين أتباع المدرسة القديمة. وكان يثق بنفسه ثقة كبيرة، وذا مقدرة على جعل الآخرين يثقون به. فلما عاد إلى روما بعد معركة المتاوروس انتخب قنصلاً في عام 205 مع أنه كان ما يزال دون السن القانونية، وأسندت إليه قيادة جيش ولاية صقلية حيث انتزع الرومان السيطرة بعد أن تقلب حظهم هناك

أكثر من مرة. واقترح سكيبيو من فوره غزو أفريقيا حتى يرغم هنيبال على الجلاء عن ايطاليا، فأذن له السناتو بالشروع في الحملة مع أنه لم يكن في وسعه أو من رأيه أن يجازف بقوات ضخمة.

وعبر سكيبيو البحر إلى أفريقيا في سنة 204. فبادرت الحكومة القرطاجية إلى استدعاء هنيبال من ايطاليا. وامتثل القائد الحزين للأمر على مضض منه. ثم التقى في عام 202 بالقائد الروماني في معركة على مقربة من زاما (Zama) في اقليم نوميديا حيث مني بالهزيمة، لأن القوات المرتزقة غير المدربة على الطاعة والنظام التي أمدته بها حكومته عجزت عن الصمود في وجه الجنود الرومان المحنكين. وعندئذ نصح هنيبال قومه بعقد الصلح وتولى المفاوضات بنفسه، حتى يعمل ما في وسعه لاصلاح الضرر الفادح الذي نزل بقرطاجة في الحرب من جراء حقده الشخصي الدفين على روما. وقضت شروط الصلح (في عام 201) أن تسلم قرطاجة أسطولها، وأن تتنازل عن اسبانيا للمنتصرين، وأن تدفع غرامة حربية 10,000 تالنت مقسطة على خمسين عاماً متتابعة، وأن تشرف روما على سياستها الخارجية. ولم تعد قرطاجة في الواقع دولة مستقلة استقلالاً تاماً.

وهكذا أسدل الستار على الحرب البونية الثانية، ذلك الامتحان الرهيب لقوة الاحتمال الرومانية. فلم يحدث أن ابتلي شعب بمثل تلك المحنة وخرج منها سالماً. والحق أن الرومان لم يتخلوا أبداً عن مبادىء الواجب والنظام خلال تلك الحرب. وكانوا هم واللاتين ومعظم الايطاليين مستعدين لمواجهة الموت في أي لحظة دفاعاً عن بلادهم. لكن الحرب ـ وهي وبال دائماً ـ في وسعها إذا طالت أن تزرع بذور الشر المستطير للمستقبل. ولا مناص من أن نعترف آسفين أننا لن نرى بعد اليوم إلا قليلاً من صفات البطولة التي انتصرت روما بفضلها في تلك الحرب الضروس.

هوامش ومراجع

1 ـ يعرف هذا الصراع في التاريخ باسم الحروب البونية (Bellum Punicum) والصفة Punicus في اللاتينية معناها «فينيقي» لأن قرطاجة كانت في الأصل مستعمرة أنشأتها مدينة صور الفينيقية على ساحل افريقيا الشمالي (على مقربة من تونس الحديثة) في أواخر القرن التاسع ق.م. حوالي 814 ق.م وعلى ذلك ففي وسعنا أن نسمي هذه الحروب بالحروب الفينيقية. وتنقسم إلى ثلاثة أدوار وهي:

(1) الحرب البونية الأولى 264 ـ 241 ق.م. وانتهت بهزيمة قرطاجة البحرية في جزر آيجاتيس بالقرب من صقلية.

(2) الحرب البونية الثانية 218 ـ 201 ق.م. وانتهت بهزيمة قرطاجة في موقعه زاما بشمال افريقيا في 202 ق.م.

(3) الحرب البوبية الثالثة 149 ـ 146 ق.م. وانتهت بتدمير قرطاجة وتحويلها إلى ولاية رومانية باسم «ولاية افريقيا» (Provinica Africa).

2 ـ كانت الأولى معاهدة تجارية وعقدت بعد قيام الجمهورية في روما عام 508 ق.م. والثانية في عام 348 ق.م. عندما كانت روما مشتبكة مع اللاتين، وأما الثالثة فكانت في عام 280 ق.م. أثناء صراع روما مع بيروس الاغريقي.

3 ـ المسماة في اليونانية أكراجاس (Acragas).

4 ـ كان من بين هذه السفن حوالي 100 سفينة من ذات المجاذيف التي يحرك كل واحد منها خمسة ملاحين وكان الملاحون يجلسون في صفين أحدهما على الجانب الأيمن، والآخر على الجانب الأيسر من السفينة.

5 ـ Carmina 3, 5.

6 ـ التالنت عملة تساوي حوالي 350 جنيها (استرليني).

7 ـ القصة مشهورة وقد رواها لنا المؤرخ ليفيوس في كتابه الحادي والعشرين ـ الفصل الأول. وقد ولد هنيبال عام 247 ق.م. وكان أكبر ابناء هميلكار.

8 ـ فيما عدا السمنيين في الجنوب الذين انحازوا إلى هنيبال بعد انتصاره في موقعه كنّاي في عام 216 ق.م.

9 ـ لا يعرف حتى الآن على وجه اليقين الممر الذي اجتازه هنيبال عند عبوره الألب، ويقول المؤرخ بوليبيوس أنه ممر «كيبي»، ويرى بعض المؤرخين أنه ربما كان ممر «سان برنارد» أو ممر «جنيفر».

10 ـ وهو الزعيم الديمقراطي الكبير الذي كان أول من ناوأ السناتو قبل تيبريوس جراكوس.

11 ـ وقد اشتقت من اسمه عبارة (Fabian Tactis) وهي مصطلح مألوف في فن الحرب ومعناه الخطط العسكرية التي تقوم على التأني وتجنب القتال تجنباً لا يخلو من الحكمة وإرجاء الالتحام مع العدو حتى يرهق ارهاقاً تاماً.

12 ـ راجع 172 هامش 1 فيما تقدم.

13 ـ وان كان العدد 50,000 يبدو أقرب إلى الصحة.

14 ـ ومع هذا فقد استطاعت بضعة آلاف أن تفر وتعود سالمة إلى روما.

15 ـ وكان هذا اجراء نادر الحدوث في العالم اليوناني ـ الروماني.

16 ـ وهو كورنيليوس سكيبيو الذي لقب «بالافريقي» أي «قاهر أفريقيا» بعد أن هزم هنيبال في معركة زاما بشمال أفريقيا P. Cornelius Scipio Africanus.

الفصل الحادي عشر

روما والشرق الهللينستي

200 ـ 167 ق.م

أهم مصادرنا عن هذه الفترة: بوليبيوس (203 ـ 120)

ولد في ميجالوبوليس بإقليم أركاديا بالبلوبونيز. ويعتبر تاريخه المكتوب باليونانية أوثق مصدر لمعلوماتنا عن فترة التوسع الروماني خلال القرن الثاني (200 ـ 144). كان أبوه قطبا سياسياً فبدأ بالاشتغال بالسياسة في سن مبكرة أثناء فترة حاسمة من تاريخ بلاده وهي احتدام النزاع بين عصبة أو «حلف آخيّا» والرومان. ذهب إلى روما كرهينة مع ألف من بني قومه حيث قضى عدة سنوات تعرف فيها على أخلاق الرومان ونظمهم وزعمائهم. سمحت له السلطات الرومانية بالتنقل بين أنحاء ايطاليا. وبعد تدمير كورنثة (146) أسهم في تصفية الموقف مع بلاد اليونان. وكتب بوليبيوس تاريخاً عاماً أو عالمياً في 40 كتاباً عالج فيه الفترة الممتدة من 220 ـ 144. الكتب الخمسة الأولى (1 ـ 5) كاملة [وفيها يستعرض بإيجاز الحرب البونية الأولى، والأحوال في روما وقرطاجة والشرق خلال الفترة ما بين عام 264 وعام 216]، والكتب من (6 ـ 40) وصلتنا في شكل شذرات، فضلاً عن مقتطفات منها وردت ضمن مؤلفات ليفيوس وديودور الصقلي وأبيانوس وبلوتارخوس.

أهلته خبرته السياسية والعسكرية لأن يكون مؤرخاً كبيراً، وقد رجع

بنفسه إلى السجلات الرسمية، فضلاً عن معرفته بالشخصيات الكبيرة، وإلمامه بالأحداث الجارية. ولقد راعه صعود نجم روما في أفق البحر المتوسط، وتأثر بقوتها وأعجب باستقرار نظمها السياسية، وبالدستور الروماني الذي وصفه بأنه دستور متوازن يجمع بين مختلف العناصر: الملكية أو الحكم الفردي الممثل في القنصلية، والأرستقراطية الممثلة في السناتو، والديمقراطية الممثلة في الجمعيات الشعبية ونقباء العامة. لكنه لم يفطن إلى أن هذا الدستور كان قد بدأ يختل في أيامه نتيجة للفتوحات والتوسع. أعجب بوليبيوس بأخلاق الرومان، وعزا هذا التوسع إلى صلابة هذه الأخلاق ومتانة الدستور الروماني. لكن بمرور الزمن أحس بوليبيوس بأن تغييراً طرأ على أخلاق الرومان نتيجة للتوسع، والثروة، والفساد فتخلى عن نظريته السابقة وبدأ يعزو هذا التوسع إلى قوة خفية هي الحظ أو التوفيق (Tyché)[1].

كذلك توجد عدة نقوش معظمها يونانية نستقي منها معلومات عن هذه الفترة.

الحالة السياسية في الشرق في عام 200[2]:

استطاعت روما في غضون السنوات التي أعقبت معركة زاما (202) أن تفرض سيادتها على الجانب الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط مثلما فعلت في حالة الجانب الغربي منه نتيجة للحربين البونية الأولى والثانية، أي أن روما بعد أن فرغت من الجانب الغربي ولت وجهها شطر الجانب الشرقي. ولكي نفهم أسباب تدخلها في الشرق، واتساع سلطانها بسرعة في تلك المنطقة ينبغي أن نلقي نظرة على أحوال الممالك الهللينستية الثلاث التي كانت قد قامت على أنقاض امبراطورية الاسكندر الأكبر وهي مصر ومملكة آل سليوكوس (أو سوريا كما يسميها الرومان) ومقدونيا. ولا يفوتنا أن نلم الماما سريعا بأحوال

القوى السياسية الأخرى كمملكة برجامون، وجمهورية رودس، والاتحادات أو الأحلاف في بلاد اليونان.

وأما عن مملكة مصر التي كانت تحكمها أسرة البطالمة المقدونية فكانت تشمل وادي النيل، وبرقة وساحل سوريا وقبرص وبعض المدن في جزر وسواحل بحر ايجه. وكان البطالمة أجانب يحكمون رعايا أغلبهم من المصريين. وكانوا يحتفظون بسيطرتهم عن طريق جيش قوامه من المرتزقة المقدونيين والاغريق، وعن طريق إدارة مركزية قوية جميع مناصبها في يد الاغريق. ولما كان الملك البطلمي قد استولى على مصر بحد السيف، فقد اعتبر نفسه المالك الوحيد للأراضي. وكان الأهالي المصريون ـ ومعظمهم فلاحون يكسبون قوتهم من زراعة الأرض، يشتغلون كمستأجرين للأراضي الملكية. وقد فرضت عليهم قيود كثيرة والتزامات جعلتهم في وضع لا يختلف كثيراً عن أقنان الأرض. وكان نظام الضرائب والاحتكار معقداً مرهقاً، وبفضله تمكن البطالمة من تنمية الدخل واقتناء ثروة طائلة تحدث عنها الشعراء وعاشوا عيشة البذخ في عاصمتهم الاسكندرية، وساعدهم ذلك على متابعة سياستهم الاستعمارية.

وبعد عام 267 كانت سياسة البطالمة تهدف إلى توطيد سيادتهم في البحر الايجي ـ وهو ملتقى أنظار الممالك الهللينستية الثلاث ـ وجنوب بلاد اليونان، (التي كانت لا تزال قبلة أنظار ملوك العصر الهللنيستي بوصفها أماً روحية، وموطناً للخبراء والجنود المرتزقة، وأداة للدعاية) وفينيقيا الغنية بالاخشاب التي تفتقر إليها مصر. ولتحقيق هذه السياسة اضطر البطالمة إلى بناء أسطول للسيطرة على مياه الجانب الشرقي من البحر المتوسط، غير أن ذلك أدى إلى اصطدامها باستمرار بمقدونيا ومملكة سليوكوس، إذ كانت احداهما تسعى دائماً إلى طرد البطالمة من البحر الايجي، والأخرى تعمل على تطهير ساحل سوريا من نفوذهم.

في عام 242 تحطم الأسطول البطلمي على يد مقدونيا فضاعت سيادة

البطالمة البحرية، ولكنهم لم يتنازلوا عن ممتلكاتهم في سوريا والبحر الايجي. وفي عام 217 غزا الملك السليوكي مصر من الشرق فاضطر بطليموس الرابع (فيلوباتور) هو ووزراؤه إلى تجنيد المصريين في الجيش لأول مرة، وانتهت معركة رفح بانتصار البطالمة على العدو بفضل المصريين، وزال الخطر الخارجي، ولكن معركة رفح تعتبر نقطة تحول في تاريخ مصر البطلمية لأن هذا الانتصار زاد من اعتزاز الوطنيين بأنفسهم ودفعهم إلى المطالبة بحقوق وامتيازات كانوا محرومين منها، وانطلقت الحركة القومية فاشتد الاحتكاك بين العنصرين المصري والاغريق، ونشبت الثورات، الأمر الذي أدى إلى انهاك قوى الأسرة البطلمية واضعاف مركزها، وزادها ضعفاً استحكام النزاع بين أفرادها، وهو نزاع لم تستفد منه سوى روما التي تزايد تدخلها في شؤون مصر الداخلية، وصار البطالمة غير قادرين على حماية ممتلكاتهم في الخارج، أو الدفاع عن مصر نفسها ضد الغزو في المستقبل.

وأما مملكة سليوكوس التي عرفها الرومان باسم «سوريا» فكانت عاصمتها أنطاكية على نهر العاصي (Orontes). وتعتبر أكبر الممالك الهللينستية وأكثرها سكانا، وتلي مصر في الثروة. كانت في الواقع امبراطورية تمتد من البحر الايجي إلى حدود الهند، وتشمل جنوب آسيا الصغرى وبلاد ما بين النهرين، وفارس، وشمال سوريا. لكن اتساع رقعتها كان عاملاً من عوامل ضعفها لتباعد المسافات بين ولاياتها المختلفة، وعدم تجانس الشعوب التي تسكنها. كانت أسرة سليوكوس (Selecus) كأسرة بطليموس، تحتفظ بسيطرتها عن طريق جيش من المرتزقة، وعن طريق المدن الاغريقية التي أسسها الاسكندر الأكبر وخلفاؤه لتكون مراكز اشعاع للحضارة اليونانية. غير أن هذه المدن التي كانت بمثابة الجزر الصغيرة وسط بحر فسيح لم تحدث إلا اثرا طفيفاً ولم تنجح إلا نجاحا ضئيلاً في صبغ الأهالي بالثقافة الهللينية فظلوا خاضعين للغزاة لا يحفلون بهم أو يناصبونهم

العداء وقد زعزع من قوة مملكة آل سليوكوس الثورات المتكررة في الولايات الشرقية والمنازعات بين افراد الأسرة المالكة.

هذه العوامل أدت إلى تمزيق أوصال الامبراطورية لفترة امتدت حتى عام 220 عندما تحسن الموقف بفضل جهود ملك قدير عالي الهمة وهو انطيوخوس الثالث (Antiochus III) الذي أخمد ثورة حكام أقاليم ميديا وفارس وآسيا الصغرى وقام بعدة حملات موفقة (212 ـ 204) استرد بها ممتلكاته الآسيوية حتى باكتريا (Bactria) وهي تقابل شمال أفغانستان وجزءاً من تركستان الروسية. وكانت قد ضاعت من يد أسلافه، واكسبته الانتصارات لقب «الأكبر».

وجدير بالذكر أن البحر الايجي كان موضع نزاع بين البطالمة وآل سليوكوس وكان كل من الفريقين يتطلع إلى بلاد اليونان ويعمل على التودد إليها. على أن النزاع بينهما كان على أشده من أجل الساحل الفينيقي أو بالأحرى من أجل ما يعرف «بجوف سوريا» (Goelô Syria)[3]. وكان البطالمة ـ على نحو ما ذكرنا ـ في حاجة شديدة إلى خشب لبنان لبناء الأسطول، وأدى الصراع على «جوف سوريا» إلى سلسلة من الحروب تعرف «بالحروب السورية» بين الدولتين[*].

وأما مقدونيا ـ حيث كانت تحكمها أسرة أنتيجونوس (Antigonus) ـ فهي أصغر الممالك الهللينستية مساحة وأقلها سكانا وأضإلها موارد. ولكنها كانت أمة قوية في الداخل، وأكثر تماسكا من الممالك الأخرى. وقد احتفظت أسرة أنتيجونوس بطابع الملكية التقليدية، وعملت على إحياء الروح القومية بين المقدونيين وكسب ولائهم، وتمسكت بالنظام والتقاليد العسكرية التي كانت سائدة في أيام فيليب الثاني وابنه الاسكندر الأكبر. وتهيأت لملوكها فرصة تكوين جيش من المقدونيين فقط الذين لم يفقدوا صفاتهم الحربية، وكان هذا الجيش على صغره جيشا وطنياً قديراً. وكانت مملكة آل انتيجونوس تشمل إلى جانب مقدونيا،

ثيساليا وشرق بلاد الاغريق حتى برزخ كورنثة. وقد فشلت محاولات أسرة أنتيجونوس في السيطرة على جنوب بلاد الاغريق بسبب مقاومة الحلفين الآخي والأيتولي اللذين كانا يتلقيان مساعدات ضخمة من البطالمة. غير أن المنازعات بين الدويلات الاغريقية أدت إلى انحياز الحلف الآخي (عصبة آخيا) إلى جانب مقدونيا. وفي عام 222 تمكنت مقدونيا من توحيد وسط بلاد اليونان والبلوبونيز في حلف أو عصبة تحت زعامتها. واستطاع فيليب الخامس، أن يحتفظ بمركز مقدونيا في بلاد الاغريق على الرغم من هجمات آيتوليا وبرجامون ورودس أثناء الحرب المعروفة بالحرب المقدونية الأولى (215 ـ 206). وكانت بلاد اليونان ذات أهمية خاصة بالنسبة لمقدونيا لوقوعها بالقرب منها مباشرة. ومنذ أن غزا فيليب والاسكندر بلاد اليونان لتأمين ظهره قبل قيامه بالحملة على بلاد الفرس صار لمقدونيا حق التدخل والتسلط، ولذلك عملت على تثبيت اقدامها في تلك البلاد باحتلال ثلاثة مراكز استراتيجية وهي ديميترياس وخالكيس وكورنثة التي اشتهرت باسم «أغلال بلاد اليونان». يلاحظ أيضاً أن محاولة تجميع بلاد اليونان في شكل حلف إنما هو تقليد قديم يرجع إلى أيام فيليب الثاني الذي أنشأ عصبة كورنثة تحت زعامته الشخصية.

* وتقع برجامون (Pergamon) في اقليم ميسيا بوادي نهر كايكوس (Caicus) الخصيب على بعد حوالي 15 ميلاً من الساحل الغربي لآسيا الصغرى. ويبدأ تاريخها الحقيقي منذ القرن الثالث عندما حكمتها أسرة أتالوس (Attalus)، وصارت عاصمة لمملكة هللينستية تلي مقدونيا ومصر ومملكة آل سليوكوس في الأهمية. كان دستورها على غرار دستور المدن اليونانية (Polis) حتى تحت الحكم الملكي. وقد أخضعت لسيطرتها المناطق المتاخمة لها. وكان قوام جيشها من الاغريق. ويعزى ثراء برجامون إلى مهارة ملوكها في استغلال مواردها الطبيعية التي كانت تتكون من مناجم الفضة، وحقول القمح، والمراعي الفسيحة حيث كانت تربى

الأغنام والماشية مما أدى إلى ازدهار صناعة المنسوجات الصوفية وصناعة الرق الذي كان ينافس البردى، وهي السلعة التي احتكر البطالمة صناعتها في مصر. ولم يؤسس آل أتالوس مدنا كثيرة ولكنهم جعلوا من برجامون نفسها مدينة من أعظم المدن اليونانية وأجملها. كانت بمبانيها العامة المشيدة على سفح تل منحدر وتنتهي بالقصر وحصون الأكروبول نموذجا رائعاً لتخطيط المدن في العصر الهللينستي. وكان بها مجموعة من مشاهير المثالين، ومكتبة لا تفوقها سوى مكتبة الاسكندرية، وحظي الأدب والفلسفة والفن برعاية ملوكها.

كان أتالوس الأول (269 ـ 197) هو أول من رفض أن يدفع الجزية للجلاتيين، وانتصر عليهم انتصاراً كبيراً حوالي عام 230، مما أكسبه صيتا في العالم الهلليني بوصفه منقذاً للتراث اليوناني من هؤلاء البرابرة. وقد خلد انتصاره باقامة النصب التذكارية البديعة، وبحمل لقب «المنقذ». ولعله حمل بهذه المناسبة لقب «الملك» لأول مرة. كان أتالوس قائداً فذاً وسياسياً بارعاً، استطاع أن يرفع برجامون إلى مصاف الدول الكبرى. وبهجومه المضاد على أنطيوخوس هيراكس (Hierax) الذي تعاون مع الجلاتيين، استولى على ممتلكات السليوكيين في آسيا الصغرى ما عدا قيليقيه Cilicia (229 ـ 228) ولكن خلفاء هيراكس وبخاصة أنطيوخوس الثالث، الملقب بالأكبر، انتزع منه ثانية معظم هذه الفتوحات (216 ـ 214). ولعل موقع برجامون بين مملكة سليوكوس من ناحية ومملكة مقدونيا من ناحية أخرى، جعلها تشعر كأنها بين شقي الرحى فعاشت في خوف مستمر من أطماع جارتيها فأخذت تتلمس العون من الخارج، وارتمت في أحضان روما.

وأما رودس (Rhodus) ـ تلك الجزيرة التي لا تزيد مساحتها عن 420 ميلاً مربعاً وتتاخم ساحل اقليم كاريا بآسيا الصغرى ـ فقد استعمرها اغريق دوريون منذ القدم وأسسوا فيها ثلاث «دول ـ مدن» وهي ياليسيوس وليندوس وكاميروس. وقد ترتب على الحرب التي نشبت بينها وبين أثينا (411 ـ 407)

وبعض الظروف الداخلية أن قامت حركة اندماج سياسي بين المدن الثلاث في دولة واحدة لها عاصمة اتحادية جديدة عرفت أيضاً باسم رودس، وان كانت المدن الأصلية الثلاث ظلت محتفظة بدرجة كبيرة من الاستقلال الذاتي المحلي. وكان الحكم في رودس جمهوريا ديمقراطيا في أغلب الأحيان. وكان رخاؤها مستمداً من التجارة وقد زادت تجارتها نشاطاً ورواجاً عقب فتوحات الاسكندر الأكبر التي فتحت أمامها أبواب الاتصال المستمر مع مصر وقبرص وفينيقيا. ولم يأت القرن الثالث حتى كانت رودس أغنى «دول المدن» اليونانية. كذلك مكنها تقسيم امبراطورية الاسكندر بعد وفاته عام 323 من تثبيت دعائم استقلإلها ، وانتهاج سياسة خارجية تتفق ومصالحها. وقد أثارت سياستها المستقلة غضب ديميتريوس المقدوني فضرب عليها حصاره الشهير في عام 305 ـ 304. وخرجت رودس من المحنة أقوى نفوذاً وأكثر ثقة بنفسها، واستطاعت في القرن الثالث أن تحتفظ بكيانها دون الخضوع لضغط الدول الهللينستية الكبرى. وكانت رودس كأثينا من قبل مركزاً نشطاً للتبادل التجاري (تجارة الترانسيت) واستثمار رؤوس الأموال، وعدوة للقرصنة تعمل على تطهير البحار منها. وكانت تملك أسطولاً كبيراً على درجة كبيرة من الكفاية، وكان ربابنة هذا الأسطول يختارون من بين الأسر العريقة، وأما الملاحون وعمال أحواض السفن فكانوا غالباً من فقراء المواطنين. وقد اشتهرت رودس «بقانونها البحري». وكانت تشارك برجامون مخاوفها من مقدونيا ومملكة آل سليوكوس، وتعتبر مسؤولة مثلها عن التدخل الروماني الأول في شؤون الشرق الهللينستي (201).

كان نجم بلاد اليونان السياسي قد أفل بعد هزيمة أثينا وطيبة على يد فيليب الثاني، ملك مقدونيا، في معركة غايرونيا (Chaeronea) باقليم بويوتيا عام 338، الذي يعتبر بمثابة الحد الفاصل بين العصر الهلليني والعصر الهللينستي. وفرضت مقدونيا نوعا من الحماية على بلاد اليونان. وتضاءل شأن أثينا على الأقل

من الناحية السياسية (لا من الناحية الثقافية إذ ظلت مركزاً مزدهراً للدراسات الفلسفية) وكذلك شأن اسبرطة وطيبة. ولم تلبث أن ظهرت بدلاً من المدن الحرة قوى سياسية أخرى كان في مقدمتها «الحلف الآخي»، وهو في حقيقته دولة اتحادية (Sympoliteia) أنشىء في عام 280 باتحاد أربع مدن في أخيّا Achaea (إلى جنوب خليج كورنثة) ثم انضمت إليها المدن الآخية الأخرى واكتسب الحلف قوة وأهمية بادماج مدن غير آخية كانت تقبل فيه كأعضاء على قدم المساواة مع الآخيين حتى أن الدوريين والأركاديين ظهر من بينهم أقطاب وجهوا سياسة الحلف. وتعني كلمة Sympoliteia في الأصل المشاركة في حقوق المواطنة أو الحياة السياسية وصارت تدل على معنى الدولة الاتحادية (وقد تسمى في الوثائق Ethnos أو Koinon أيضاً). وتتميز بتقسيم السلطة بين حكومة الاتحاد المركزية والحكومة المحلية في المدينة العضو، وازدواج الجنسية (فيما يتعلق بالحقوق المدنية فقط). وعندما قبلت مدينة «سيكيون» عضواً بالحلف بعد طرد طاغيتها عام 251، آلت قيادة الحلف إلى زعيمها أراتوس Aratus (271 ـ 213) الذي انتهج سياسة معادية لمقدونيا، وألحق الهزيمة بالحلف الآيتولي الذي تحالف مع أنتيجونوس جوناتاس، ملك مقدونيا (241). وعاد أراتوس إلى التحالف مع ايتوليا وكرر هجماته على أثينا وأرجوس (239 ـ 229) وقد أثار دخول مجالويوليس والمدن الأركادية الأخرى في الحلف عداوة اسبرطة ومهد الطريق لمهادنة مقدونيا والتفاهم معها وقد طلب أراتوس نفسه المساعدة من مقدونيا وسمح للآخيين بالانضمام إلى الحلف الهلييني (Symmachia) الذي أنشأه أنتيجونوس دوسون، ملك مقدونيا (224). وقد ظل هذا التضامن قائماً حتى انحازت آخيا إلى جانب روما (198). وأدى هذا التحالف الجديد إلى ادماج كل البلوبونيز تقريباً في الحلف الآخي، لكنه أدى أيضاً إلى الاحتكاك بالرومان. وانحل الحلف الآخي بعد تدمير كورنثه في 146.

وأما عن الحلف الأيتولي (إلى شمال خليج كورنثه) فنقول أن التنظيم القبلي الواهي للأيتوليين تطور في القرن الرابع إلى حلف أو بالأحرى إلى دولة اتحادية (Sympoliteia). وعلى عكس الحلف الآخي لم تخرج زعامة الحلف الأيتولي أبداً من يد الأيتوليين أنفسهم وذلك لأن الدويلات البعيدة عن أيتوليا لم تكن تقبل كأعضاء منتظمين في الحلف وإنما ارتبطت به فقط على أساس تبادل حقوق المواطنة أو ما يسميه اليونان Isopolitoia، وهي كلمة نشأت أصلاً عن اجراء منح الجنسية لمواطنين جدد على أساس المساواة مع المواطنين القدامى، أي تعني منح حقوق المواطنة للأفراد أو لمجموعة مواطني مدينة أخرى، أو تبادل حقوق المواطنة بين مدينتين مع احتفاظ كل منهما بكامل شخصيتها وبقائها متميزة عن الأخرى دون اندماج. وبمقتضى ذلك كان مواطنو مدينة معينة يصبحون مواطنين اعتباريين أو جوازيين بمدينة أخرى، ولا يصبحون مواطنين عاملين أو فعليين إلا بعد توافر شرط الاقامة والتسجيل. وحتى يتم ذلك كانوا يتمتعون بامتيازات في المدينة الأخرى بحق امتلاك الأراضي، والزواج كامل الأهلية، والتجارة مع الاعفاء من الرسوم الجمركية في حالة الاستيراد أو التصدير. وهكذا اقتصر حق المدن البعيدة عن آيتوليا والتي شاءت الانضمام إلى الحلف الايتولي أو دولته الاتحادية اقتصر على تمتع أبنائها بالحقوق المدنية (في مدن الاتحاد)، وحق حماية الاتحاد دون حق الاشتراك في إدارة شؤونه، حتى تثبت الاقامة ويتم التسجيل في احدى مدن الاتحاد العاملة أي المتمتعة بحقوق المواطنة الفعلية. وقد اكتسب الحلف الآيتولي قوة كبيرة في آخر القرن الرابع وظل محتفظاً بها حتى في الفترة الأولى من التدخل الروماني. وقد فرض الآيتوليون نوعاً من الحماية على دلفي في القرن الثالث، ولما اتسعت دولتهم الاتحادية آلت اليهم السيطرة على الحلف الأمفكتيوني (الديني). وقد ناصبوا مقدونيا العداء، ولذلك كان من الطبيعي أن يكونوا أول حلفاء لروما داخل بلاد اليونان، وقد ساءت علاقتهم مع روما

بسبب تطرفهم فتعاونوا مع أنطيوخوس الثالث، وكان ذلك بداية انحلال الحلف الآيتولي.

هكذا كانت الأوضاع في الشرق الهللينستي عند بداية التدخل الروماني. ولنسرد الآن أسباب هذا التدخل.

في عام 203 مات بطلميوس الرابع (فيلوباتور) فتولى عرش مصر طفل كان ألعوبة في يد حاشية فاسدة. وقد شجع هذا الوضع أنطيوخوس الثالث على تجديد المحاولة لانتزاع ممتلكات مصر في سوريا. وكانت انتصارات الملك السليوكي في حملته الآسيوية التي استرد بها ما ضاع على يد أسلافه، قد أثارت الغيرة في قلب فيليب الخامس، ملك مقدونيا، فهاجم فجأة بعض مدن على ساحل طراقيا تدخل في نطاق الحلف الآيتولي، وبعض جزر البحر الأيجي، وقام باحتلالها في عام 202. وقد قيل فيما بعد أنه كان هناك اتفاق سري أو تواطؤ بين أنطيوخوس وفيليب على اقتسام دولة البطالمة أو على الأقل اقتسام ممتلكاتهم الموجودة خارج افريقيا. غير أننا نشك في أن مثل هذا الاتفاق قد تم بين الملكين، لأن مصالحهما كانت متضاربة إلى حد أن قيام هذا الاتفاق يبدو لنا أمراً عسيراً مستبعداً. ولم يأت عام 201 حتى كانت اعتداءات فيليب على جزر البحر الايجي قد أدت إلى اصطدامه ببرجامون ورودس اللتين استندتا بروما نظراً لعجزهما عن وقف اعتداءاته. وهذه الخطوة التي اتخذتها برجامون ورودس هي التي أدت إلى تدخل روما في شؤون الشرق الهللينستي وإلى قيام «الحرب المقدونية الثانية»[4].

الحرب المقدونية الثانية (200 ـ 196):

لم يكن لروما سياسة شرقية محددة حتى عام 201. وأما اصطدام روما مع دول أخرى كالليريا ومقدونيا فقد نجم عن عدوان هذه الدول عليها أو على حلفائها، ولم ينجم عن سياسة عدوانية مرسومة من جانبها. وكانت طبقة ملاك

الأراضي الأرستقراطية في روما منصرفة عن بلاد الاغريق والشرق الهللينستي ولم تدخلهما بعد في نطاق مطامعها. وهناك أكثر من قرينة على أن روما كانت لاهية عن شؤون العالم الهلليني ولا تكترث بها ولا تخشى أي خطر من جانبه، بدليل شروط الصلح السهلة التي فرضت على فيليب الخامس بعد الحرب المقدونية الأولى، وعدم تلبية السناتو نداء ايتوليا لنجدتها من عدوان فيليب في عام 202، وعدم اهتمامه بشكاوى مصر ضد أنطيوخوس ونواياه السيئة نحوها. غير أن السناتو بدأ يفيق من غفوته ويغير موقفه السلبي من الأحداث الجارية بالعالم الاغريقي، بل بدأت تساوره المخاوف على المصالح الرومانية تحت تأثير ادعاءات أتالوس الأول ورودس بأن فيليب وأنطيوخوس يتآمران سراً على اقتسام ممتلكات مصر. وكانت صورة الصراع القريب مع هنيبال لا تزال ماثلة في أذهان الرومان فساورهم القلق من احتمال غزو إيطاليا مرة ثانية، وارتابوا في أن تكون الحملة التي يقوم بها فيليب في طراقيا والبحر الأيجي ليست سوى مقدمة لغزو إيطاليا نفسها بمساعدة حليفه أنطيوخوس. لذلك قرروا العمل بسرعة للقضاء على فيليب قبل أن يزداد قوة. وتلمسوا ذريعة لاشهار الحرب عليه فاتهموه بالعدوان على مملكة حليفهم أتالوس دون مبرر مع أن أتالوس كان في الحقيقة هو المعتدي، وأن فيليب كان حريصاً على أن لا يتحرش بحلفاء روما في العالم الاغريقي. ولم تقتنع الجمعية المئوية بقرار اعلان الحرب الذي أوصى به السناتو، ولم تصادق عليه إلا بعد تردد، وبعد أن أفهمها السناتو أن إيطاليا قد تتعرض لغزو جديد إذا لم يبادر بوقف عدوان فيليب. وكانت روما قد أوفدت سفراء إلى بلاد الاغريق لارهاب فيليب وتشجيع أعدائه هناك، ولم تلبث أن عهدت إليهم بتقديم انذار نهائي رسمي إلى الملك المقدوني الذي كان مشغولاً وقتئذ بحصار «أبيدوس» (Abydos) على الدردنيل. وتضمن الانذار المطالب التالية: الكف عن مهاجمة أي مدينة اغريقية وممتلكات بطليموس الخامس، وقبول مبدأ التحكيم في نزاعه مع برجامون ورودس.

ولما رفض فيليب قبول الانذار بدأت الحرب. وعندئذ عهدت روما إلى سفرائها بالاتجاه إلى رودس ثم زيارة أنطيوخوس في سوريا للتوسط لديه من أجل مصر في الظاهر، ولتوكيد حسن نوايا الرومان نحوه في الواقع حتى لا ينصرف عن حملته ضد مصر، وينضم إلى فيليب.

وفي أواخر عام 200 عبر جيش روماني البحر الأدرياتي إلى الليريا. وحاول التوغل في قلب مقدونيا ولكنه فشل في تلك السنة والتي بعدها على الرغم من المساعدات التي تلقاها من الحلف الآيتولي وبرجامون ورودس وأثينا، ولم يستطع أن يلحق بفيليب هزيمة فاصلة أو أن يغزو مملكته. لكن في عام 198 تغير الموقف بوصول القنصل فلامينينوس T.Quincvius Flamininus) الذي استطاع أن يكسب الحلف الآخي إلى جانب الرومان، وأن يرغم فيليب على اخلاء مراكزه في ابيروس، والانسحاب إلى ثيساليا. وجرت مفاوضات لعقد الصلح انتهت بالفشل لأن الرومان أصروا على جلاء الحاميات المقدونية عن كورنثة وخالكيس وديميترياس، وهي القلاع الثلاث التي اشتهرت بأنها «الأغلال التي كان فيليب يكبّل بها بلاد اليونان». وفي عام 197 استؤنف القتال في ثيساليا حيث جرت معركة كينوسكفلاى (رأس الكلب) (Cynoscephalae) التي انتصر فيها الرومان انتصاراً ساحقاً. ويعزى النصر إلى المساعدات الكبيرة التي قدمها الحلف الآيتولي، وبخاصة إلى تفوق الفرقة الرومانية (Legio) في تشكيلها العسكري المرن على الفيلق اليوناني الجامد (Phalanx). ولاذ فيليب بالفرار إلى مقدونيا. وكان الحلف الآيتولي يرغب في القضاء على فيليب قضاء تاما، ولكن فلامينيوس أدرك أهمية مقدونيا كسياج منيع يقي حضارة العالم الاغريقي من اغارات القبائل الكلتية الزاحفة من حوض الدانوب الأدنى، فلم يساير الايتوليين في رغبتهم. وأملى السناتو على فيليب شروط الصلح التي قضت باستقلال بلاد اليونان، وتجريد مقدونيا من ممتلكاتها في بلاد اليونان، والليريا، وجزر البحر الأيجي

ودفعها، تعويضات حربية (صغيرة) قدرها 1000 تالنت، وتنازلها عن كل السفن الحربية تقريباً. وأذعن فيليب لهذه الشروط (196) بل صار حليفا للرومان بعد ذلك.

وفي حفل الألعاب الدورية الذي أقيم ببلدة استموس Isthmus (بالقرب من كورنثة) عام 196 أذاع البروقنصل فلامينينوس «تصريحه» الشهير الذي يقضي باستقلال الشعوب التي كانت خاضعة لحكم مقدونيا. وأثار التصريح موجة من الحماس الشديد في معظم المدن اليونانية. وقضى فلامينينوس فترة ليرقب آثار تصريحه ويشرف على تنفيذ ما جاء به، ولينظر في مطالب المدن اليونانية. وعاد فلامينينوس إلى روما في عام 194 تاركاً للاغريق حرية التصرف، ويبدو أنه قد تأثر هو وغيره من القواد الرومان بالثقافة اليونانية. غير أن الرومان لم يكونوا مستعدين للتنازل عن ثمرات النصر التي جنوها في الحرب الأخيرة، وكانوا يريدون ضمانا ضد الغزو من الشرق، وبدأوا ينظرون إلى بلاد الاغريق كمنطقة نفوذ رومانية، ويأملون في ألا يتعارض ذلك مع الحرية التي منحوها للاغريق، وقد توقعوا أن يجدوا في بلاد الاغريق التي حرروها من سيطرة مقدونيا حلفاء موالين لهم، وسياجا يقيهم من عدوان فيليب أو أنطيوخوس.

الحرب مع أنطيوخوس والحلف الآيتولي (192 ـ 189):

أثار نشاط أنطيوخوس ريبة السناتو الروماني، وأصبح ينذر بالاحتكاك واندلاع الحرب. وكان الملك السليوكي قد أتم غزو «جوف سوريا (Coelê Syria) ـ وهي حوران وجزء من الأردن ـ في عام 198 ثم انتهز فرصة انشغال فيليب بالكفاح ضد الرومان، وولى وجهه شطر آسيا الصغرى وطراقيا على أمل أن يسترد الممتلكات التي كانت في يد سلفه سليوكوس الأول (نيكاتور). وفي عام 196 عبر أنطيوخوس الدردنيل ليوطد أقدامه في طراقيا. وحاول الرومان اقناعه

بالانسحاب دون جدوى. وبعد حوالي سنتين دخل في مفاوضات مع السناتو على أمل أن يحصل على اعتراف الرومان بحقوقه في طراقيا وبعض المدن في آسيا الصغرى التي رفضت الاعتراف بسيادته اعتماداً على تأييد روما لها. ولم يفلح في ذلك لأن الرومان كانوا يرون في احتلاله لطراقيا خطراً دائماً على مصالحهم في بلاد الاغريق. وفي الحق أن أنطيوخوس كان لا يضمر أي نوايا سيئة نحو روما، ولكنه لم يكن مستعداً للتنازل عن ممتلكاته الأوروبية وبدا له أن يساعد العناصر المناوئة للرومان في بلاد الاغريق هادفاً بذلك إلى الضغط على روما فتسلم بمطالبه في أوروبا. وعلى ذلك فقد استقبل أنطيوخوس سفراء الآيتوليين الذين كانوا يحملون وقتئذ لواء المعارضة ضد الرومان في بلاد الاغريق. وكانوا قد حالفوا روما في الحرب المقدونية، وبالغوا في قيمة المساعدات التي قدموها لها، غير أنهم لم يلبثوا أن انقلبوا ضدها وازداد حنقهم عليها لأنها لم توافقهم على تمزيق أوصال مقدونيا والقضاء عليها، ولم تسمح لهم بتوسيع رقعة أراضي دولتهم الاتحادية على حساب جيرانهم. وبالاجمال كان الحلف الآيتولي يطمع في أن يتبوأ المركز الذي كانت مقدونيا تتبوأه بين الاغريق من قبل. وكان يرى في الحرب وسيلة مشروعة لتحقيق أطماعه، وتنمية ثروته دون اعتبار لمصالح الغير، وهو شيء لم تقره روما لأنه كان لا يتمشى مع سياستها التي تهدف إلى إقرار السلام في ربوع بلاد اليونان. وكان الآيتوليون قد بدأوا عقب معركة كينوسكفلأي يعملون على تقويض النفوذ الروماني بين الاغريق، فلما تبين لهم موقف انطيوخوس من روما وما بينهما من جفاء وتوتر في العلاقات أخذوا يحرضونه على تحديها والاصطدام بها.

وفي عام 192 هاجم الآيتوليون بعض المدن المناصرة لروما واستولوا على قلعة ديميترياس، وعرضوها على أنطيوخوس، ووعدوه ـ على غير أساس ـ بالحصول على مساعدة فيليب، ملك مقدونيا. واستناداً إلى هذه الوعود عبر أنطيوخوس البحر من آسيا إلى بلاد الاغريق. وعند وصوله انتخبه الآيتوليون

قائداً عاماً لقواتهم. كذلك أخذ هنيبال ـ الذي قد قد اضطر إلى الفرار من قرطاجة بسبب مؤامرات خصومه واللجوء إلى قصر انطيوخوس أخذ هو الآخر يحرضه على غزو ايطاليا! ولعل أنطيوخوس كان حكيماً حين رفض أن يعمل بنصيحة القائد القرطاجي نظراً لتعذر تنفيذها، ولكنه أخطأ خطأً جسيماً بتفويته فرصة الانتفاع بمواهب هنيبال العسكرية. ولم يكن هنيبال أعظم قواد عصره فقط، بل كان أيضاً ألد أعداء الرومان.

ولم تقف روما مكتوفة اليدين فأنفذت في عام 191 جيشاً عبر البحر الأدرياتي تحت قيادة القنصل جلابريو (A.Acilius Glabrio) الذي نزل ببلاد الاغريق والتحم بقوات أنطيوخوس وأنزل بها الهزيمة في موقعة ثرموبيلأي (Thermopylae). وفر الملك السليوكي إلى آسيا وقد خاب أمله في الاغريق، إذ عجز الآيتوليون عن شد أزره وتعرضت بلادهم نفسها لخطر الغزو. وتبين له أن وعودهم كانت جوفاء لأن فيليب والحلف الآخي وقفا إلى جانب الرومان، وانضمت سفن رودس ويومنيس (Eumenes)، ملك برجامون الجديد، إلى الأسطول الروماني.

وعندما لم يستجب أنطيوخوس لشروط الصلح التي وضعها الرومان قرر هؤلاء غزو آسيا الصغرى، وتمكنوا من تدمير اسطوله في معركتين بحريتين بفضل مساعدة رودس وبرجامون، وبالتالي من السيطرة على مياه البحر الايجي، مما سهل لهم مهمة عبور الدردنيل في عام 190 وكان الرأي في روما يميل إلى اسناد قيادة الحرب إلى سكيبيو قاهر أفريقيا الأكبر (P. Cornelius Scipio Africanus). غير أنه لم يكن من الجائز حينئذ اعادة انتخابه قنصلاً ليتولى هذه الحملة، ومن ثم فقد رأى السناتو أن يتخطى هذه العقبة بترشيح أخيه «لوكيوس» قنصلاً ليتولى القيادة على أن يرافقه أخوه بوبليوس كنائب مساعد له (Legatus) ويمارس بذلك الاشراف على الحملة من الناحية الفعلية.

وأحرز الرومان انتصاراً حاسماً في معركة مجنيسيا (Magnesia) في خريف عام 190 وجنح الملك السليوكي للسلم ورضخ لشروط الصلح الذي تم في عام 188، وقضت بانسحابه من جميع الأراضي التي تقع شمالي جبل طوروس وغربي بامفيليا، وتسليم كل فيلة الحرب وكل اسطوله ما عدا عشر سفن، ودفع غرامة حربية تعتبر من أفدح الغرامات التي فرضتها روما على عدو مهزوم، إذ بلغت 15,000 تالنت، على أن تسدد على 12 قسطاً سنوياً، والكف عن مهاجمة حلفاء روما، وتسليم هنيبال (الذي أتاح له أنطيوخوس فرصة الهرب إلى بروسياس، ملك بيثينيا، فلما انهزم الأخير على يد الرومان ورأى أن لا مفر من تسليم هنيبال، آثر القائد القرطاجي أن ينتحر بالسم على أن يقع في يد أعدائه، ومات في سنة 182، أي بعد سنة واحدة من موت خصمه سكيبيو افريكانوس ويلاحظ أن روما لم تعامل أنطيوخوس معاملتها لقرطاجة من قبل إذ تركت له حرية الدفاع عن مملكته ضد أي هجوم.

وكان من الطبيعي أن تكافىء روما حليفتها برجامون ورودس وتسمح لهما بتوسيع رقعة أملاكهما على حساب الملك السليوكي. ولا مراء في أن برجامون كانت المستفيدة الأولى من هذه الحرب وأن ملكها «يومنيس» هو الذي أوعز إلى الرومان بضرورة طرد أنطيوخوس من آسيا الصغرى ووزعت روما بينهما الأراضي التي انتزعت منه هناك، فاستولت رودس على ليكيا وكاريا، واستولت برجامون على بقية الممتلكات السليوكية في آسيا الصغرى، ووضعت يدها على الدردنيل (شبه جزيرة غاليبولي)، والمدن اليونانية التي ادعى يومنيس ملكيته لها من قبل، وتركت المدن الأخرى محتفظة باستقلالها . وشرعت روما في توطيد السلام في ربوع آسيا الصغرى بأن أخضعت القبائل الكلتية في جلاتيا، وهم أعداء برجامون، وأرغمتهم على دفع غرامة حربية كبيرة. وجدير بالملاحظة أن روما لم تحتفظ لنفسها بأي أراضٍ في آسيا الصغرى، بل آثرت عملا بمبدأ. فرق

«تسد». توزيعها بين الدويلات المتنافسة حتى لا تقوى واحدة منها فتتجرأ على تحديها أومناوءتها في المستقبل.

وجاء دور الآيتوليين الذين جردت روما حملة عليهم في عام 191 سعوا بعدها إلى عقد الصلح وخاصة عندما هاجمهم أيضاً فيليب ملك مقدونيا. وطالبهم الرومان بالاستسلام دون قيد أو شرط. ورفضت الشروط فاستؤنف القتال. ومضى عام دون أن تتخذ روما ضدهم اجراءات حاسمة ثم أنفذت إليهم في العام التالي 189 جيشاً بقيادة القنصل نوبيليور (Fuivius Nobilior) الذي مضى في قتالهم بهمة وشدد الحصار على قلعتهم الحصينة في أمبراكيا. لكن ازاء مقاومة الآيتوليين العنيفة، ووساطة الأثينيين بين الطرفين، تنازل الرومان عن طلب الاستسلام غير المشروط، وعقد الصلح الذي نص على تنازل الحلف الايتولي عن حقه في كل الأراضي التي استولى عليها أعداؤه في الحرب، وعقد محالفة دائمة مع الرومان على غير قدم السماواة مع الالتزام بمساعدة روما ضد جميع أعدائها، وتسليم قلعة أمبراكيا. وقد نهبت هذه القلعة واحتلت القوات الرومانية جزيرة كفالينيا (Cephallenia)، وكر القراصنة.

الحرب المقدونية الثالثة (171 ـ 167):

لقد وطدت المحالفة الأخيرة بين روما والحلف الآيتولي أقدامها في بلاد الاغريق بصفة مستديمة، وكان انتصارها في الحرب على أنطيوخوس معناه أنها تزاول نوعاً من الحماية على العالم الاغريقي. ومع هذا فإن السناتو لم يبد منه أنه يرغب في نقض سياسة غلامينيوس، فبقيت الدويلات الاغريقية صديقة لروما طالما كانت تتمتع باستقلالها السياسي. غير أن هذه العلاقات الودية لم تستمر طويلاً واعتراها فتور أعقبه توتر شديد، مما دفع روما إلى التدخل في شئون الاغريق والقضاء في النهاية على استقلالهم الظاهري. وكان السبب الجوهري في

ذلك التغيير هو أن روما كانت تفسر استقلال الاغريق بمعنى حرية التصرف بشرط ألا يتعارض ذلك مع تنظيمات روما ورغباتها بينما كان الاغريق يفسرونه بمعنى تمتع الدويلات المستقلة بالحرية المطلقة. ومن ثم فإنهم كانوا يبغضون أي انتقاص أو مساس بحقوقهم. وازاء هذا التضارب في وجهات النظر، لم يكن هناك مناص من قيام المشاكل ووقوع الاصطدام.

والأسباب الرئيسية التي أدت إلى تغيير سياسة روما هي المتاعب التي أثارها الحلف الآخي، وتجدد أطماع مقدونيا. كان هذا الحلف (أو الدولة الاتحادية) يضم دويلات كثيرة على غير ارادتها فكانت تسعى إلى استرداد استقلإلها ، ولكن الحلف كان يقاوم هذه النزعات الانفصالية. وقد ساءت علاقات اسبرطة بالآخيين بسبب سياستهم نحوها في مسألة إعادة المنفيين الاسبرطيين، مما دفعها إلى الاستنجاد بروما. وقد جرح القرار الروماني كبرياء الاتحاد الآخي دون أن يحسم هذه المشكلة، وأثار تشبث الاتحاد بحقوقه حنق الرمان. وقد ظهر في الاتحاد الآخي حزبان، حزب يناصر سياسة روما ولا يرى غضاضة في الإذعان لأوامرها، وحزب قومي يصر على التمسك بحقه في حرية التصرف. وكانت روما قد عمدت منذ عام 180 إلى تقوية الأحزاب الأرستقراطية في الدويلات الإغريقية لإدراكها بأن هذه الأحزاب أثبت على الولاء لها وأكثر تمشياً مع سياسة السناتو. وترتب على ذلك أن الأحزاب الديمقراطية بدأت تبحث عن المعونة الأجنبية، فولت وجهها شطر مقدونيا.

وفي ذلك الوقت كانت علاقات فيليب قد بدأت تسوء مع الرومان لأنهم رفضوا مطالبه بضم الأراضي التي فتحها عندما كان يعاونهم ضد أنطيوخوس في الحرب السورية. وكان الرومان يخشون من توسع مقدونيا ويؤثرون بقاءها ضعيفة حتى لا تصبح خطراً عليهم مرة أخرى. ويتحول فيليب بسبب موقفهم منه إلى عدو لدود، ويكرس جهوده لتقوية جيشه حتى يناوىء سيطرة الرومان

في بلاد الاغريق مرة ثانية. غير أن فيليب توفي في عام 179 تاركاً وراءه جيشاً يتراوح عدده بين 30,000 و 40,000 مقاتل، ورصيدا في الخزانة قدره 6000 تالنت. وخلفه على عرش مقدونيا ابنه برسيوس (Pereusos) الذي ورث منه كراهيته للرومان، وسياسته في توثيق العلاقات مع أعداء روما في كافة أنحاء بلاد الاغريق. ولم تخف نوايا برسيوس على السناتو الروماني الذي كان مطلعاً على تدابيره، فبادر إلى افسادها قبل أن تتم وإلى إرغامه على القتال ـ مثلما ارغم أباه من قبل ـ قبل أن يستكمل استعداده. وكان يومنيس الثاني ملك برجامون يعمل كأبيه أتالوس على تشويه سمعة ملك مقدونيا والوشاية به والايقاع بينه وبين السناتو الروماني. أوفد إليه السناتو سفارة رومانية لتتقدم إليه ببعض مطالب كان قبولها معناه القضاء على استقلال بلاده. وكان من الطبيعي أن يرفض برسيوس هذه المطالب. وعادت السفارة إلى روما حيث أعلنت الحرب على مقدونيا في عام 171. ولما تبين لبرسيوس أن الرومان جادون في عزمهم، حاول تلافي الخطر بتهدئة خواطرهم واسترضائهم. ولكن دون جدوى، إذ نزلت قوة رومانية في بلاد الاغريق عام 171، واتجهت نحو تساليا. لكن في حملات هذه السنة والتي تلتها لم يستطع القواد الرومان أن يحرزوا أي تقدم. كذلك لم يظهر برسيوس أي مقدرة على استغلال الفرص التي سنحت له، وحال بخله وتقتيره دون الحصول على مساعدة قبائل الكلت والدردانيين والجيساتأي التي تقطن على حدود مملكته. ولم يتلق سوى مساعدات ضئيلة من جمهورية ابيروس الاتحادية، وأحد زعماء الليريا وبضع مدن في اقليم بويوتيا. وأخيراً أسندت قيادة الجيش الروماني إلى رجل قدير، وهو القنصل آميليوس باولوس (L.Aemilios Paullus) الذي رفع روح الجنود المعنوية وانتصر على برسيوس انتصاراً ساحقاً في معركة بيدنا (Pydna) عام 168. ولاذ الملك المقدوني بالفرار ثم أرغم على تسليم نفسه، ونقل إلى روما حيث عومل معاملة مهينة ومات في الأسر، وانهارت مقدونيا،

وقسمت أراضيها إلى أربع جمهوريات مستقلة منعت من تبادل حقي التعامل (Commereium) والزواج كامل الأهلية (Conubium)، وفرضت عليها جزية سنوية قدرها 100 تالنت. واستولت روما على المناجم والضياع الملكية. وأغلقت مناجم الذهب والفضة لفترة من الزمن.

وكافأت روما أنصارها وعاقبت خصومها، وكان القتل أو النفي جزاء زعماء الأحزاب المعارضة لها في كل مكان (وقد وجدت السلطات الرومانية أسماءهم في أوراق برسيوس التي سقطت في يدها). ومع أن الآخيين لم يبدر منهم شيء يدل على عدم ولائهم للرومان، فقد امرت السلطات بترحيل 100 زعيم من زعماء آخيا إلى روما بحجة اتاحة الفرصة لهم لكي يدافعوا عن أنفسهم أمام مجلس الشيوخ الروماني، وكان من بينهم المؤرخ الشهير بوليبيوس. وكان الغرض الحقيقي هو الاحتفاظ بهم كرهائن في إيطاليا ضمانا لسلوك الحلف الآخي في المستقبل. وحتى رودس التي كانت قد حاولت التوسط بين روما وبرسيوس لحسم النزاع بالطرق السلمية، أرغمت على التنازل عن ممتلكاتها في آسيا الصغرى، وأصيبت تجارتها بضربة قاصمة عندما جعل الرومان من ديلوس ميناء حرة. وأما يومنيس ملك برجامون الذي اثار بتصرفاته ارتياب الرومان في ولائه، فقد عاملته روما معاملة مهينة وإن تركته يحتفظ بمملكته سليمة. لكن مصير أبيروس كان أسوأ، إذ نهبت مدنها السبعين، وبيع أهلها البالغ عددهم 50،000 في أسواق الرقيق.

وبالاجمال صارت روما منذ ذلك الحين السيد الحقيقي في الجانب الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط. ولم يعد حلفاؤها وأصدقاؤها يتمتعون إلا بالاستقلال المحلي، ولا يملكون إلا إطاعة أوامرها. وليس أدل على تلك الحال من قصة «دائرة بوبيليوس»، وهي قصة شهيرة. ففي اثناء الحرب المقدونية الثالثة غزا أنطيوخوس الرابع ملك سوريا، الديار المصرية (168)، فلما

انتهت روما من الحرب مع برسيوس، أوفدت إلى مصر سفارة برئاسة بوبيلوس لايناس (C.Popilius Laenas) لكي تطلب إلى الملك السليوكي الجلاء عن مصر. والتقت السفارة بالملك عند ضاحية اليوسيس (الحضرة أو النزهة) قرب الاسكندرية، حيث سلم بوبيليوس الملك قرار السناتو. وقرأ الملك القرار ثم طلب مهلة ليتدبر الأمر مع مستشاريه. ولكن السفير الروماني رسم بعصاه دائرة على الرمل حول الملك الواقف أمامه، وأمره بالاجابة على رسالة السناتو قبل أن يغادر الدائرة. وذهل الملك من لهجة الأمر العنيفة، ثم رضخ قائلاً بأنه سيعمل ما أمر به السناتو. وعندئذ فقط مد بوبيليوس يده إليه مصافحاً كصديق وحليف للشعب الروماني.

وقد تضخمت ثروة روما بفضل الغنائم التي استولت عليها في الحرب المقدونية إلى حد أنها ألغت منذ عام 167 ضريبة الأملاك المفروضة على المواطنين الرومان (Tributun civium Romanorum). وأتاح ازدياد الدخل الناتج من كافة الامبراطورية للحكومة إعفاء المواطنين الرومان من كل الضرائب المباشرة.

وجدير بالذكر أنه أثناء الحروب ضد مقدونيا وسوريا كان الرومان منهمكين أيضاً في دعم سيطرتهم في شمال إيطاليا وفي اسبانيا. وكان الجانب الأكبر من غالة الواقعة جنوب الألب اوغالة القريبة (Gallia Cisalpina) قد ضاع من يد الرومان منذ غزو هنيبال لها، فاستردها الرومان بعد حرب مع قبائل الانسوبريس (Insubres) والبويين (Boii) بين سنتي 198، 191. ومد الرومان طريق فلامينيوس (Via Flaminia) وهو الطريق العسكري الكبير، الذي شق في عام 220 ليصل بين روما وأريمينوم، مدّوه حتى بلاكنتيا (مارّا بمستعمرة بونونيا) تحت اسم جديد، وهو طريق اميليوس (Via Aemilia). وشقوا طريقاً آخر وهو طريق كاسيوس (Via Cassia) في عام 171 ليربط

روما بحوض البومارا بأتروريا. وبنيت حصون جديدة: في مستعمرتي بونونيا (Bononia) وأكويلايّا (Aquileia) في عام 183. وبذلك وطدت روما سيادتها على «غالة القريبة»، وأصبح الطريق ممهداً لنشر الثقافة اللاتينية في هذه المنطقة الواقعة بين الأبنين والألب.

وخلال الفترة نفسها أخضعت روما الليجوريين الذين سببت أغاراتهم على حدود الأراضي الرومانية مضايقات شديدة للرومان. واستطاع الرومان تدريجياً بعد عدة حملات استمرت حتى 172 أن يبسطوا سيطرتهم على القبائل الليجورية، وامتدت هذه السيطرة إلى ماسيليا (Massilia) وهي مرسيليا الحالية. ولإقرار السلم في هذه المنطقة رحّل الرومان حوالي 40,000 ليجوري من مواطنهم إلى أماكن أخرى خالية بجنوب ايطاليا. وأسسوا مستعمرة لاتينية في لوكا (عام 180)، وأخرى خاصة بالمواطنين الرومان في لونا (عام 177). وبين سنتي 181، 176 قامت قبائل سردينيا بثورة قمعها الرومان وبذلك أتموا اخضاع الجزيرة.

وكانت روما قد نظمت في عام 197 الأراضي التي كسبتها من قرطاجة في اسبانيا كولايتين (Provinciae) احداهما باسم «اسبانيا القريبة» (Hispania Citerior) والأخرى باسم «اسبانيا البعيدة» (Hispania Ulterior). غير أن القبائل الحليفة والخاضعة لروما، لم تكن قد روضت تماماً على السيادة الرومانية ولم تألف رؤية المحتلين الرومان، فقامت بثورات خطيرة. وقد تم اخماد إحدى هذه الثورات على يد كاتو (M. Porcius Cato) في عام 196، وأخرى على يد أيميليوس باولوس (L. Aemilius Paullus) بين عامي 191، 189، وثالثة على يد سمبرونيوس جراكوس (T. Sempronius Grachus)، وهو أب الأخوين الشهيرين، في سنتي 179، 178. وقام الأخير بتسوية مشكلات كثيرة وأجرى تنظيمات أدت إلى اقرار السلم هناك سنوات طويلة. وقد أسس

الرومان في اسبانيا أولى مستعمرات لهم خارج ايطاليا، وأهمها ايتاليكا (Italica) على مقربة من اشبيلية عام 206، وكارتيا (Carteia) عام 171، وكانت كلتاهما ـ من ناحية الوضع القانوني ـ مستعمرة لاتينية.

هوامش ومراجع

1 ـ عن بوليبيوس وغيره من المؤرخين الذين كتبوا عن فترة التوسع الروماني في شرق البحر.

2 ـ التواريخ كلها قبل الميلاد إلا إذا قرنت بما يفيد غير ذلك.

3 ـ أي جنوب سوريا: حوران والبقاع وجزء من الأردن.

4 ـ عن «الحرب الأولى»، أنظر فيما بعد.

الفصل الثاني عشر

السياسة الاستعمارية الجديدة

(133 ـ 167)

تنقسم هذه الحقبة من علاقات روما الخارجية إلى فترتين، فترة كانت فيها سياسة روما الخارجية ترمي إلى الاحتفاظ بسيطرتها في أرجاء حوض البحر المتوسط بالوسائل الديبلوماسية وقد تجنبت فيها الحرب وضم أراضٍ جديدة لأنها تكبد خزانة الدولة نفقات طائلة وتخلق مشاكل إدارية صعبة، وفترة أخيرة عدلت فيها روما عن هذه السياسة وانتهجت سياسة عدوانية استعمارية، لم تتردد فيها عن الالتجاء إلى القوة لإدماج الأراضي المفتوحة في الامبراطورية. ويعزى سبب تغيير السياسة الرومانية أولاً إلى نفوذ فريق من أعضاء السناتو كانوا يطمعون في تولي قيادة الجيوش في الخارج، والحصول على شرف الاحتفال بانتصارهم بعد العودة (Triumphus) وغنم اسلاب الحرب، كما يعزى ثانياً إلى فريق من غير طبقة السناتو وهم رجال الأعمال وأرباب المصالح المالية الذين كانوا يطمعون في فتح ميادين جديدة لاستغلالها واستثمار أموالهم فيها. هذا إلى أن روما شعرت بأن بعض الدويلات التي كانت تحت حمايتها لم تعد تكترث بأوامر السناتو، مما يؤدي إلى الانتقاص من هيبتها، فرأت أن لا علاج لهذه الحال إلا بحرمان حكومات هذه الدول من حرية التصرف. وقد تمخضت هذه الاتجاهات الجديدة التي بدأت

تظهر منذ عام 150 عن (أ) حروب طويلة في اسبانيا (ب) ضم قرطاجة ومقدونيا إلى الممتلكات الرومانية. (ج) فرض السيطرة المباشرة على بلاد الاغريق. (د) الاستيلاء على ملكة برجامون في آسيا الصغرى.

الحروب الأسبانية (154 ـ 139):

في عام 154 نشبت ثورات في ولايتي اسبانيا القريبة واسبانيا البعيدة ترتبت عليها حروب دامية. وقد طال أمد هذه الحروب بسبب عدم كفاية القواد الرومان وقسوتهم وغدرهم بالاسبان. وقد أرهقت هذه الحروب موارد روما العسكرية، وبلغ من عنف القتال أن قل الاقبال على الخدمة العسكرية في اسبانيا حتى أن السلطات الرومانية لقيت صعوبات جمة في تعبئة القوات اللازمة لحملتي سنة 151 وسنة 144. وكان يحمل راية الجهاد ضد روما القبائل الكلتية ـ الأيبيرية في اسبانيا القريبة، وقبائل لوسيتانيا في اسبانيا البعيدة. وفي عام 150 قتل البروقنصل جالبا (Ser.Servilius Galba) غدرا 8000 رجل من بعض قبائل اللوستياني التي استسلمت له وباعهم في أسواق الرقيق (وقد حوكم جالبا في روما بعد عودته وبرئت ساحته). وقد أدت المذبحة إلى استئناف القتال تحت قيادة فيرياثوس (Viriathus) وهو قائد اسباني قدير في حرب العصابات استطاع أن يتحدى روما حوالي ثماني سنوات (147 ـ 139). وأرغم في آخر الأمر على الاستسلام، ثم اغتيل أثناء الهدنة على يد خونة بتحريض من القائد الروماني. وأعقب ذلك مباشرة اخضاع لوسيتانيا. وقد نشبت الحرب مرة أخرى بعد فترة من الزمن في عام 143 بولاية اسبانيا القريبة حيث تركز القتال حول مدينة نومانتيا (Numantia). ولا يعنينا منه سوى ما حل بالرومان من خزيٍ، إذ عقد أحد قوادهم صلحاً مع أهل نومانتيا في عام 140 ثم نبذه بعد ذلك. وتجاهل

السناتو اتفاقه. وبلغ عزوف الناس في روما عن الخدمة في الميدان الاسباني مبلغاً اضطر معه نقباء العامة إلى التدخل في عام 138 لحماية بعض الأفراد المتهربين من الجندية. وعندما تجاهل القنصلان وساطتهم، زج نقباء العامة بهما في السجن فترة من الزمن. وفي عام 137 استسلم القنصل مانكينوس (C. Hostilius Mancinus) هو وجيشه البالغ عدده 20,000 جندي روماني لأهل نومانتيا بعد أن عقد معهم معاهدة لانقاذ حياة جنوده. غير أن السناتو الروماني رفض المعاهدة المؤكدة باليمين وغدر بالقائد الروماني جاعلاً منه كبش الفداء، وسلمه مقيداً بالأغلال لأهل نومانتيا الذين أبوا تسلمه. ولما ضاق الرومان بالهزائم أعادوا انتخاب سكيبيو آميليانوس (P. Cornelius Scipio Aemilianus) ـ وهو قائدهم المحنك، مدمر قرطاجة في عام 146 والملقب «بقاهر افريقيا الأصغر» ـ أعادوا انتخابه قنصلاً لسنة 134 كي يتولى القيادة العامة في اسبانيا. وأعاد سكيبيو آميليانوس النظام الصارم إلى الجيش، وحاصر نومانتيا 15 شهراً، وضيق الخناق عليها حتى استسلمت جوعا، ثم دمرها تدميرا تاما. وبذلك اكتسب أيضاً لقب قاهر نومانتيا (Numantinus). وأوفدت روما كعادتها في مثل هذه الظروف لجنة من عشرة أعضاء من مجلس الشيوخ لإعادة تنظيم اسبانيا التي أقبلت على عهد سلام طويل.

تدمير قرطاجة (الحرب البونية الثالثة) 149 ـ 146:

كانت المعاهدة التي أبرمت عند نهاية الحرب البونية الثانية تحرم على قرطاجة القيام بالحرب خارج افريقيا أو داخلها بدون موافقة روما. وقد نصبت روما في الوقت نفسه عدوا لقرطاجة يدعى ماسينيسا (Masinissa) أميرا على مملكة متاخمة لحدودها. وكان هذا الوضع ينذر بالاصطدام وتدخل روما في أي

لحظة ومع هذا فقد نعمت قرطاجة بفترة من السلام. وكان يتولى مقاليد الأمور فيها حزب مناصر للرومان وكان يركز كل جهوده لانعاش التجارة القرطاجية واستعادة حالة الرخاء السابق. غير أن هذا الرخاء بدأ يثير حقد السناتو الروماني وحسد أصحاب المصالح المالية في العاصمة، مما جعل روما تتلمس المعاذير للقضاء على غريمتها القديمة. وقد سنحت الفرصة عندما احتدم النزاع بين قرطاجة وماسينيسا الذي جدد المطالبة ببعض أراضٍ قرطاجية كان يدّعي ملكيتها. ولم يسع قرطاجة إلا أن تستنجد بروما لحمايتها من هذا الأمير. غير أن اللجان التي أوفدتها روما لحسم النزاع بين الطرفين كانت تنصر ماسينيسا على قرطاجة، بل ان كاتو (**M. Porcius Cato**) الذي اختير عضواً في إحدى اللجان بحث الشكاوي الخاصة بالاعتداء على الحدود، والذي كانت صورة الصراع الرهيب بين روما وقرطاجة لا تزال ماثلة في ذهنه منذ الشباب، عاد من مهمته منزعجاً أشد الانزعاج من حالة الرخاء المادي الذي كانت تنعم به قرطاجة فكان يختتم خطبه دائماً في مجلس الشيوخ بالعبارة المأثورة عنه: «لا بد من تدمير قرطاجة **Dekenda est Carthago**». وقد أدى الاحتكاك المستمر بين قرطاجة وماسينيسا إلى نشوب الحرب بينهما. وأصيبت قرطاجة بهزيمة فادحة. ولما كانت قد نقضت شرطاً من شروط المعاهدة مع روما بدخولها في حرب دون استئذان فقد استعد الرومان للحرب في الحال. وأحس القرطاجيون بأنهم تجاوزوا حقوقهم وأوجسوا خيفة من الانتقام. لذلك عرضوا الاستسلام بلا قيد أو شرط على أمل أن يصفح عنهم الرومان. وأمنهم السناتو على حياتهم وأملاكهم ونظام حكمهم. ولكنه طالبهم برهائن، وتنفيذ أوامر القنصلين اللذين عبرا البحر إلى افريقيا على رأس جيش روماني. وما أن وصل القنصلان حتى طلبا إلى القرطاجيين تسليم أسلحتهم وجميع معدات القتال. وامتثل القرطاجيون

للأوامر رغبة منهم في تهدئة خواطر الرومان واسترضائهم بأي ثمن. ثم جاءهم الانذار الذي ينص على ضرورة رحيلهم عن مدينتهم والسكنى على بعد عشرة أميال من البحر على الأقل. وكان ذلك بمثابة الحكم بالاعدام على المدينة التجارية القديمة. واستولى على القرطاجيين جنون اليأس، فبادروا إلى صنع أسلحة كيفما اتفق، وحصنوا أسوار قرطاجة، وتحدوا الرومان.

وانقضت سنتان دون أن تحرز القوات الرومانية أي انتصار. وازاء هذا الاخفاق والخوف من العدو القديم. طالب الشعب الروماني بانتخاب سكيبيو آميليانوس قنصلاً. وقد أظهر كفاية ممتازة كتربيون عسكري (Tribunus militum) ولم يكن قد شغل سوى الأيديلية فقط. ولم تتوافر فيه بعد شروط الترشيح للقنصلية. ولكن الجمعية القبلية أصدرت قانوناً بابطال القيود الحائلة دون ترشيحه، وانتخب سكيبيو اميليانوس قنصلاً لعام 147 وأسندت إليه قيادة الحرب ضد قرطاجة. ولم يلبث أن أعاد النظام إلى الجيش الروماني وهزم القرطاجيين في الميدان وشدد الحصار على المدينة التي هلك كثير من أهلها جوعاً وسقط كثير من جنودها صرعى. وفي ربيع عام 146 اقتحمها الرومان واستولوا عليها بعد قتال مرير في الشوارع والبيوت. وبيع من بقوا من سكانها أحياء في اسواق الرقيق. وسويت المدينة بالأرض. واعتبر مكانها ملعونا. وتحولت أراضي قرطاجة إلى ولاية جديدة باسم ولاية أفريقيا Provincia Africa وأسدل الستار على آخر فصل في قصة الصراع المثير بين الدولتين.

ضم مقدونيا وحل الحلف الآخي (149 ـ 146):

الحرب المقدونية الرابعة (149 ـ 148):

اضطرت روما ازاء المنازعات بين الدويلات الاغريقية إلى التدخل

واستعمال العنف وخاصة ضد الأحزاب المناوئة لها في هذه الدويلات. وقد أثار ذلك استياء فريق كبير بين الاغريق من سياسة روما وجعلهم يتحينون الفرصة للتخلص من سيطرتها. وحدث وقتئذ أن ادعى ولاية العرش في مقدونيا رجل يسمى اندريسكوس (Andriscus) ونصب نفسه ملكاً عليها (149). ودحر طلائع القوات الرومانية التي أرسلت لقمع حركته، ولكنه اندحر في العام التالي على يد البريتور ميتللوس (Q. Caecilius Metellus) عند بيدنا (Pydna)، مكان المعركة القديمة، واستردت روما مقدونيا، وألغت الجمهوريات الأربع، وجعلت من كل مقدونيا ولاية رومانية (Provincia Macedonia) في عام 148.

وكان الشعور بالضيق من «الحماية الرومانية» يزداد يوماً عن يوم وبخاصة بين مدن «الحلف الآخي» وقد زاده التهابا عودة من بقوا أحياء من المنفيين السياسيين (وعددهم 300) الذين كانوا قد أخذوا إلى روما كرهائن في عام 167. وكان يسيطر على شؤون الحلف وقتئذ الحزب المناوىء لروما والذي كان يلقى تأييداً من العناصر الديمقراطية في مختلف المدن اليونانية. واصطدم الحلف الآخي باسبرطة بسبب احتدام النزاع على الحدود من جديد عام 149. وقد احيل النزاع على السناتو لتسويته، ولكن الحلف الآخي لم ينتظر قرار الناتو، هاجم اسبرطة وهزمها، مستغلا فرصة انشغال الرومان بالحروب في ميادين اسبانيا وافريقيا ومقدونيا ورأى السناتو تأديب الحلف أن يفصل بعض المدن من عضويته. لكن الجمعية العمومية للحلف (Synkletos) ـ وهو اتحاد كونفدرالي ـ رفض الاذعان لمطالب السفراء الرومان على الرغم من أن «الحرب المقدونية الرابعة» كانت قد انتهت، واستعدوا للحرب استناداً إلى تأييد الحلف البويوتي وبعض دويلات أخرى في وسط بلاد اليونان. كذلك لقي الحلف تأييداً من

جانب الطبقات الفقيرة في مختلف المدن التي كانت ترى في الثورة الاجتماعية فرصة لتحسين أحوالها الاقتصادية. ومضى عام دون أن يستجيب الحلف لأوامر الناتو. وعندئذ أرسلت روما ضده أسطولاً وجيشاً تحت قيادة القنصل مومبوس (L. Mummius). وكان ميتللوس ـ قاهر مقدونيا ـ قد أخضع بلاد اليونان الوسطى. فجاء مومبوس وفرق شمل قوات الاتحاد الآخي في موقعه ليوكوبترا (Leucopetra) عند الخليج الكورنثي عام 146. ونهبت كورنثة، ودمرت بالنيران، ونقلت كنوزها الغنية إلى روما وبيع اهلها في سوق الرقيق، وضمت أراضيها ـ كأراضي قرطاجة ـ إلى الأراضي الرومانية العامة. وأوفدت روما لجنة من أعضاء الناتو لتحل الحلف الآخي والمنظمات السياسية المشابهة كالحلف البويوتي والحلف الفوكي. وعقدت روما معاهدات منفردة مع المدن الاغريقية. ولم تحتفظ بوضعها السابق كحليفات لروما إلا تلك المدن التي وقفت إلى جانبها مثل أثينا واسبرطة، وأما المدن الأخرى فقد أخضعت وفرضت عليها الجزية. ولم تنظم روما بلاد اليونان على شكل ولاية، وإنما وضعتها تحت اشراف حاكم ولاية مقدونيا.

ضم مملكة برجامون (133):

في عام 133 مات أتالوس الثالث، ملك برجامون، الذي انقرضت أسرته بموته، وقد ترك أتالوس وصية أورث فيها مملكته للشعب الروماني. ولعله اتخذ هذه الخطوة لادراكه بأنه لو لم يفعل ذلك لأدى التطاحن من بعده على العرش إلى تدخل الرومان وغزو مملكته: فرأى أن يجنب بلاده الويلات وإراقة الدماء. وقبل الرومان التركة. لكن قبل أن يضعوا أيديهم عليها ظهر مطالب بالعرش ادعى أنه ابن غير شرعي للملك يومنيس الثاني، واحتل هذا المدعى المسمى أرسطونيكوس

(Aristonicus) جـزءاً مـن المملكـة، وهـزم القائـد الرومـاني وقتلـه في سـنة 130، ولكنـه انهـزم وأسر بعـد ذلـك في بلـدة سـتراتونيكيا باقليـم ليديـا عـلى يـد القنصـل بربرنـا (M. Perperna).

وفي عام 129 جعل الرومان من مملكة برجامون ولاية باسم «ولاية آسيا» (Provincia Asin). وباحتلال هذه المنطقة تصبح روما سيدة على ساحلي البحر الايجي، وتكسب نقطة ارتكاز ملائمة للتوسع شرقاً. غير أن ادماج برجامون في الامبراطورية الرومانية كان نقمة لا نعمة على رعايا أتالوس الذين عانوا الأمرّين مدة طويلة من سوء الإدارة والارهاق الضريبي بسبب تطاحن الأحزاب السياسية في روما.

الفصل الثالث عشر

أثر الحروب والفتوحات في الحياة الرومانية

(روما وإيطاليا والولايات)

264 ـ 133

تمخضت عن سيادة روما على معظم أقطار البحر الأبيض المتوسط نتائج خطيرة بعيدة المدى أثرت في الدولة الرومانية نفسها. وكانت الحروب السالفة الذكر هي التي أدت إلى الأزمة التي انتهت بانهيار الجمهورية الرومانية. وقبل الكلام عن التغيرات التي حدثت والمشاكل التي نجمت عن هذه الحروب والفتوحات، يجدر بنا أن نستعرض الشكل العام للحكومة الرومانية خلال تلك الحقبة.

1 ـ سيطرة طبقة السناتو الأرستقراطية على الإدارة الحكومية:

لم يطرأ على الدستور الروماني خلال فترة التوسع سوى بعض تعديلات قليلة أهمها:

(أ) استبعاد نظام الدكتاتورية دون الغائها قبل نهاية الحرب البونية الثانية، وهي خطوة تتفق وسياسة السناتو الذي كان يعمل على عدم تمكين أي حاكم شغل مركز يجعله مستقلاً عنه في تصرفاته. والمعروف أن «امبريوم» الدكتاتور كان اعلى من أي «أمبريوم» آخر، ولم يكن له زميل يحد من تصرفاته، كما أن اعتراض

أي من «ترابنة العامة» لم يكن يسرى عليه.

(ب) انشاء منصب بريتور الأجانب (Praetor peregrinus) في سنة 243 للفصل في المنازعات بين الأجانب أو بين الرومان والأجانب. وقد زيد عدد البريتوريس (الحكام القضائيين) إلى أربعة في عام 227 ثم إلى ستة في عام 197، وذلك لتنصيبهم حكاما على الولايات المتزايدة، وقد تجنب السناتو زيادة عدد هؤلاء الحكام باستخدام القناصل بعد انتهاء مدتهم السنوية (Pro consule) والبريتوريس بعد انتهاء مدتهم السنوية (Pre Praetore) كحكام على الولايات بعد عام 148. ويلاحظ أن حكم الولايات كان لا يسند إلا إلى حاكم سبق له أن مارس سلطة «الأمبريوم».

(جـ) انشاء آخر قبيلتين ريفيتين (أي منطقتين إداريتين) في عام 241 لقيد المواطنين الجدد فيصير عدد القبائل 35. ويتجمد عددها عند هذا الرقم إلى ما بعد قيام الامبراطورية. ومن ذلك الحين جرت العادة عند تأسيس مستعمرات جديدة أو منح الجنسية الرومانية لشعوب جديدة، على إلحاق المواطنين بأي قبيلة من القبائل القديمة. وأصبحت العضوية في القبائل وراثية بصرف النظر عن تغيير محل الاقامة.

(د) تغيير نظام «الجمعية المئوية» في تاريخ يرجح أنه عام 220، إذ وزعت الوحدات المئوية (Centuriae) على اساس القبائل (Tribus) وخصص لكل قبيلة عدد متساو من وحدات الشبان والشيوخ في كل طبقة (Chassis) (ويبدو أن الطبقة الأولى اصبحت تشتمل حينئذ على 35 وحدة من الشبان و 35 وحدة من الشيوخ. ولما كنا لا نعرف عدد الوحدات التي صارت تشتمل عليها كل طبقة من الطبقات الأربع الأخرى، فنحن لا نعرف بالتالي ما إذا كان العدد الاجمالي لوحدات «الجمعية المئوية» قد زاد أم ظل ثابتاً عند الرقم 193)[1].

وبرغم جهلنا بالتفاصيل فإنه يبدو أن الاصلاح كان ديمقراطي الطابع لأنه قلل من أهمية الطبقة الأولى في الجمعية وسلب من وحدات الفرسان حق الأولوية عند التصويت (إذ صار هذا الحق يمنح لوحدة تختار طريق القرعة في كل جلسة)، كما أنه جعل السيطرة في الجمعية المئوية في يد جماعة أقل ثراء عن ذي قبل، وقوامها ملاك الأراضي القاطنون بالريف الايطالي.

ومع هذا فقد صارت كل من الجمعيتين الأساسيتين في الشطر الأخير من القرن الثاني، آلية عديمة الجدوى كأداة للتعبير عن إرادة الأغلبية وذلك لأنه مع انتشار المواطنين في شتى أنحاء ايطاليا، والابقاء على الجاليات الرومانية في الولايات، واقامة كثير من المواطنين الرومان هناك أو في غيرها من الأماكن خارج شبه الجزيرة، لم يعد يحضر جلسات أي من الجمعيتين (المئوية والقبلية) إلا أقلية من الناخبين. لقد كانت كل من الجمعيتين جهازاً دستورياً يصلح فقط لمدينة أو مدينة ـ دولة. وكان عجز الرومان عن ابتكار بديل عن هذا النظام يلائم التوسع الجديد، هو المسؤول إلى حد كبير عن فقدان الشعب سلطة السيادة، وقد ترتب على ذلك أن آلت السيطرة في الجمعية المئوية إلى يد فئة صغيرة من ملاك الأراضي، وفي الجمعية القبلية إلى دهماء المدينة الفقراء وهي طبقة لا تصلح لتمثيل كل المواطنين الرومان.

وكان انتصار العامة في حركة الكفاح ضد الاشراف قد قضى على احتكار الاشراف للسلطة السياسية، وتمخض عن نظم تبدو كأنها ديمقراطية في الظاهر. لكن نظام الحكم لم يصبح أبداً ديمقراطياً في الواقع. إذ ظلت الحكومة ـ على الرغم من التسليم بأن الشعب هو صاحب السيادة ـ على وضعها القديم قبل عام 287 أي في يد طبقة أرستقراطية. غير أن هذه الطبقة نفسها كانت تختلف عن طبقة الاشراف القديمة (Patricii) اختلافاً كبيراً. ولا مراء في أن العشائر الشريفة (Gentes Particiae) كانت تؤلف عنصراً هاماً في الطبقة الجديدة، وظلت تمد

روما بعدد كبير من زعمائها السياسيين فترة طويلة، وتتمتع بنفوذ اجتماعي ضخم. غير أن الأرستقراطية الجديدة كانت تشمل، إلى جانب الاشراف (Patricii)، مجموعة كبيرة من عشائر العامة (Plebs) التي كان بعضها قد تزعم حركة الكفاح من أجل المساواة السياسية، وبعضها الآخر كانوا مهاجرين وافدين على روما ينتمون إلى العشائر الأرستقراطية المحلية في بلدان إيطاليا المتمتعة بالحكم الذاتي (Municipia) التي اكتسبت حقوق المواطنة الرومانية. وقد انضمت أفراد العشائر العامة هذه إلى صفوف الأرستقراطية القديمة عن طريق بلوغ المناصب العليا، وادراج أسمائهم في مجلس السناتو نتيجة لذلك، ومنذ ذلك الحين كان اشتراك المصلحة والمصاهرة والتبني تعمل على دعم روح التضامن بين جميع طوائف الطبقة الحاكمة. لكن لما كانت العشائر الشريفة (Gentes Patriciae) تضمحل تدريجياً، فقد كانت الطبقة الأرستقراطية تكتسب بالتدريج طابعاً عامياً واضحاً. وبينما كانت كل العشائر التي سبق لأحد أسلافها أن عين عضواً في السناتو في وقت من الأوقات، تعتبر ضمن الطبقة الأرستقراطية، فقد كان يوجد داخل هذه الطبقة نفسها فوارق تقوم على درجات المناصب التي كان يشغلها الأسلاف. وكانت أرفع طائفة في هذه الطبقة هي تلك الطائفة الضيقة من الرجال الذين يسميهم الرومان بالنبلاء (Nobiles) أو بالطائفة النبيلة (Nolilitas)، وهي تسمية لا تنطبق ـ إذا توخينا الدقة ـ إلا على سلالة مَنْ مارسوا مرة سلطة «الامبريوم العليا» كالدكتاتور والقنصل والتربيون العسكري المتمتع بالسلطة القنصلية (Tribuns militum consulari potestate).

كانت الأرستقراطية الجديدة تمثل في الوقت نفسه أرستقراطية الثروة وأرستقراطية المنصب. وخلال القرن الثالث استطاعت طائفة الأسر السناتورية (أسر أعضاء السناتو) التي توسعت بادماج بعض العشائر من العامة على النحو الذي شرحناه، أن تحتكر المناصب العامة (Magistratus) وبالتالي مقاعد

مجلس الشيوخ، حتى صارت أميل إلى أن تكون طائفة ضيقة أو دائرة مغلقة. كما استطاعت الاحتفاظ بهذا الاحتكار والحيلولة دون توسيع دائرتها لأسباب كثيرة من بينها (1) النفقات التي يتطلبها شغل المناصب العامة. لأن هذه المناصب كانت غير مأجورة (Honores) (2) المصروفات الباهظة اللازمة للدعاية في الانتخابات. (3) مقتضيات التفرغ الكامل للمنصب وعضوية مجلس الشيوخ التي كانت عائقاً دون السعي وراءها إلا بالنسبة لمن كان لديه ثروة كافية. (4) الصعوبات التي يلاقيها مغمورو الأصل في الفوز في الانتخابات ضد منافسين ينتمون إلى عشائر شهيرة تولت مقاليد الأمور في روما منذ عدة أجيال. (5) التطور الكبير الذي حدث في نظام التبعية الاختيارية (Clientela) نتيجة لتغير الأحوال الاقتصادية، وتكوين الائتلافات أو المحالفات (Socii, amici) السياسة القوية الأثر والنفوذ، والدعاية الشخصية لكسب اصوات الأنصار من ذوي النفوذ. جميع هذه العوامل كانت ترجح كفة المرشح الذي ينتمي إلى عشيرة ثرية أو بيت عريق (6) أضف إلى ذلك أن الحاكم الذي كان يرأس الجمعية في يوم الانتخاب كان يجوز له أن يستبعد أي مرشح لا يروق له. وازاء هذه العقبات كان من العسير على المرشح الذي لا ترضى عنه غالبية أعضاء السناتو أن يفوز بمنصب الكويستور (Quaestor) وهو أول منصب في سلك الوظائف العامة (Cursus) يفتح الطريق إلى دخول السناتو. لا عجب اذن أن صارت القنصلية وهي سمة النبالة الحقة، عسيرة المنال على من لا ينتمون إلى طبقة السناتو. وحسبك أن تعلم أنه من بين 108 قناصل انتخبوا بين سنتي 200 و 146 كان هناك 8 فقط ينتمون إلى عشائر لم يسبق لها أن تقلدت هذا المنصب، ولم يبلغ القنصلية إلا أفراد قلائل ذوو كفايات أو قدرات نادرة مثل كاتو الأكبر، ومثل ماريوس وشيشرون ـ في فترة لاحقة ـ والذين اجتازوا هذه الحواجز والعقبات وارتقوا أعلى منصب في الدولة، وكان أمثال هؤلاء الأفراد يطلق على الواحد منهم اسم

«الرجل الجديد» (Novus homo) أو «الرجل العصامي». هذه بالاجمال كانت الطبقة الأرستقراطية التي كان السناتو يتألف من أعضائها، والتي كانت عن طريق السناتو تحكم العالم الروماني.

ومنذ صدور قانون هورتنسيوس (Lex Hortensia) في عام 287 إلى تربيونية تيبيريوس جراكوس، كان السناتو يسيطر على التشريع والادارة وجهاز الحكم سيطرة تامة. فكان يستطيع توجيه أو عرقلة أعمال الحكام ونقباء العامة والجمعيتين المئوية والقبلية. وقد أتيح له ذلك بفضل طريقة تشكيله (إذ كان يتألف من الحكام السابقين وجميع الحكام الذين تعلو مناصبهم الكويستورية) وغرابة تنظيم الجمعيتين الشعبيتين، والقيود التي تعرقل نشاطهما وتعقد شكليات انعقادهما في بعض الأحيان. وفي الحق أن كبار الحكام كانوا بمثابة لجنة سناتورية منتخبة من احدى الجمعيتين. وكانت مصالحهم مشتركة مع مصالح السناتو، وكان العرف الدستوري يحتم عليهم استشارته في كل المسائل إلها مة. وكان السناتو هو الذي يحدد للقناصل والبريتوريس مهامهم ويعين نوابهم ويوزع عليهم القيادات العسكرية. ولم تكن العقود التي يبرمها الرقباء (Censores) تصبح نافذة قانونا إلا بعد مصادقة السناتو عليها. وكان السناتو أقوى ما يكون أثناء غيبة القنصلين عن روما إذ كان يهيمن على جميع أوجه الصرف من الخزانة العامة. ومع أن البريتور كان يتمتع أيضاً بالامبريوم، إلا أن هيبة الامبريوم البريتوري لم تبلغ أبداً مستوى هيبة الامبريوم في يد القنصل. ولم يكن القنصل حتى بعد عودته إلى روما هو الذي يسير دفة الأمور، على الرغم مما كان لسلطته العليا من هيبة مبعثها وجوده الشخصي بالمدينة، وإنما السناتو هو الذي كان يبت في المسائل الهامة لأن خبرته بالشؤون العامة وشجاعته التي لا تعرف أبداً الخضوع أو الاستسلام هي التي قادت روما وسط العواصف والانواء إلى بر الأمان. وحتى سلاح التربيونية وهو حق الاعتراض (Intercessio) ـ أو حق الفيتو ـ الذي نشأ في الأصل للحد

من سلطة السناتو والحكام، أصبح أداة طيعة في يد السناتو استطاع بواسطتها أن يكبح جماح نقباء العامة (الترابنة) أنفسهم. وتفسير ذلك أنه بعد عام 287 صار العامة يؤلفون شطراً كبيراً من أعضاء الناتو. فلم يعد من العسير على هذه الهيئة أن تستميل أحد الترابنة ليستعمل حق الاعتراض ضد أي اجراء أو مشروع لا ترضى عنه سواء أكان المتقدم به قنصل أم تربيون. ولما كانت أي من الجمعيتين لا تصوت إلا على المشروعات التي يعرضها الحاكم رئيس الجلسة (ولا تنتخب إلا أسماء المرشحين الذين يقبلهم ذلك الحاكم) فإن السناتو بفضل نفوذه على الحكام ونقباء العامة كان يسيطر أيضاً على نشاط الجمعيتين التشريعي والانتخابي.

وكان السناتو فضلاً عن ذلك يهيمن على السياسة الخارجية. وكان على نقيض الحكام السنويين هيئة مستديمة من السهل انعقادها بدعوة من القنصل للنظر في كافة المسائل التي تهم الرأي العام. كان طبيعياً إذن أن يستأثر مجلس الشيوخ الروماني بالاشراف على السياسة الخارجية بشرط أن يحصل بداهة على مصادقة الجمعية المئوية في حالة اعلان الحرب أو عقد الصلح. وهكذا صار من حقوقه المكتسبة تنظيم الولايات وإدارتها. كذلك كان السناتو هو الذي يعالج الأزمات الطارئة التي تهدد كيان الدولة كانتشار جمعيات باكخوس (Bacchanalia) التي أصدر قراراً بحلها في عام 186 (S. C. de Bacchanalibus) سواء لخطرها على الأخلاق أو للارتياب في سريتها ونشاطها الهدام[2]. وأخيراً فإن الناتو ادعى لنفسه حق اعلان حالة الطوارىء باصدار ما يعرف باسم قرار السناتو الأخير أو النهائي (Senatusconsultum ultimum)، وهو قرار كان يخول القنصلين أن يتخذا من التدابير ما يكفل تجنيب الدولة الضرر أو حمايتها من الخطر. (Res Publica ne qui detrimenti caperet). وهو بمثابة اعلان الأحكام العرفية. وهكذا نرى أنه على الرغم من رأي المؤرخ بوليبيوس في أن الدستور الروماني كان مزيجاً متوازياً من الحكم الملكي والحكم الأرستقراطي

والحكم الديمقراطي إلاّ أن الدولة الرومانية كانت في الواقع محكومة بالسناتو. كانت سلطة السناتو تستند إلى العرف والتقاليد، وإلى هيبة المجلس كهيئة ونفوذ أعضائه كافراد (Auctoritas Patrum) لا إلى سلطة مستمدة من القانون. صحيح أن السناتو لم يكن دائماً صاحب السيطرة المطلقة على الموقف، مثلما حدث بين سنتي 233، 217 عندما استطاع الزعيم الشعبي جايوس فلامينيوس (C.Flaminius) كتربيون وقنصل وكنسور أن ينتهج سياسة ديمقراطية مخالفة لرغبة السناتو فوزع اراضي «بلاد الغال» على الفقراء من المواطنين الرومان برغم معارضة السناتو. لكن ما أن قضى نحبه حتى استرد السناتو سيطرته بل صارت أقوى مما كانت من قبل.

وليس أدل على مدى نفوذ السناتو من موقفه إزاء آل سكيبيبو، ومنه نتبين كيف كان يقف دائماً بالمرصاد لأي فرد يحاول أن يكون له السيطرة في الدولة. ذلك أن سكيبيو «قاهر أفريقيا الأكبر»، استطاع أن يساعد أنصاره السياسيين على الفوز في انتخابات القنصلية الهللينية خلال تلك الفترة. وقد انتخب هو نفسه قنصلاً للمرة الثانية عام 194. لكنه كان يواجه حتى خلال تلك الفترة صعوبات كثيرة. وكانت طلباته تقابل أحياناً بالرفض، إذ طالب مثلاً ببقاء هنيبال ـ الذي كان يعطف عليه ـ في قرطاجة، فطردته منها لجنة من أعضاء مجلس الشيوخ. ومرة أخرى نرى سكيبيو وأخاه لوكيوس يستدعيان من الشرق عند نهاية قنصلية الأخير عام 190 مع أن العادة جرت على بقاء القائد الموفق في قيادته حتى ينهي حملته العسكرية. وكان يتزعم حركة مناوأة سكيبيو رجل عنيد متزمت وهو كاتو (M.porcius Cato) ـ الشهير «بالكنسور» أي الرقيب الذي عارض التدخل الروماني في بلاد الاغريق، وعارض المؤثرات اليونانية ونبه إلى خطرها على أخلاق الرومان ووقف لها بالمرصاد[3]. وقد بدأت حوالي عام 190 سلسلة من الاتهامات السياسية على يد كاتو وآخرين لمحاولة تقويض نفوذ «رابطة سكيبيو» وأدين بعض أعضائها

بتهم كالرشوة وغيرها من الجرائم. وأخيراً أوعز كاتو بمطالبة لوكيوس شقيق سكيبيو، بأن يقدم حسابات للسناتو عن مبلغ 500 تالنت كان الملك أنطيوخوس الثالث قد دفعها له كقسط أول من الغرامة الحربية التي فرضت عليه عقب هزيمته في معركة مجنيسيا عام 190. واعترض سكيبيو على ذلك بدعوى أن القائد ليس مضطراً إلى تقديم حساب عن اسلاب غنمها في الحرب وذهب إلى ابعد من ذلك ومزق دفاتر الحساب أمام مجلس الشوخ. غير أن خصومه ادعوا بأن هذا المبلغ لا يمكن أن يعتبر جزءاً من أسلاب الحرب. وفي عام 18 طالب أحد نقباء العامة لوكيوس سكيبيو بأن يقدم حساباً عن أعماله أمام الجمعية القبلية، لولا مناشدة أخيه «افريكانوس» للشعب لما سقطت الدعوى مؤقتاً. وفي اجتماع لاحق عقدته الجمعية القبلية فرضت غرامة باهظة على لوكيوس لادانته بالاختلاس. ولما رفض أن يقدم ضمانا أو يدفع المبلغ المختلس أوشك أن يزج به في السجن لولا تدخل نقيب للعامة من أنصاره، وعلى الرغم من وقف الدعوى إلا أن نفوذ آل سكيبيو تقوض تماماً حتى أن بوبليوس سكيبيو «قاهر أفريقيا» اعتزل الحياة العامة إلى نهاية حياته في عام 183.

وكان السناتو منقسماً منذ وقت مبكر إلى عدد من الطوائف المتنافسة التي يتكون كل منها من أسر متحالفة تسعى بقدر المستطاع إلى احتكار المناصب العليا وألقاب الشرف والتكريم في الدولة. لكن طالما كانت روما مهددة بالأخطار وكان مصير الصراع مع الأعداء من أجل السيادة العالمية لا يزال معلقاً، فإن السناتو برغم تلك المنافسة بين طوائفه ـ قد أظهر من الصفات العالية كالكفاية والذات والتضحية ما يعزي إليه انتصار روما في النهاية. كما أظهر مهارة فائقة في توجيه السياسة الخارجية وتنظيم العلاقات مع الدول الأجنبية. وما زالت الأخطار الخارجية حتى بدأت تظهر بين صفوفه المطامع الشخصية، والمصالح الطائفية حتى على حساب قوميته وهيبته. وأصبح شغل المناصب العليا وما يصحبه من

فرص لتولي الحكم في الولايات، واستغلال الشعوب المقهورة وقيادة الحروب المربحة، وسيلة في يد أعضاء السناتو وأصدقائهم لاقتناء الثروات لكي يحتفظوا بمستوى معيشة الترف والبذخ التي بدأت تروق في أعين الطبقة الحاكمة في روما. وكان أعضاء السناتو يسعون سعياً حثيثاً وراء المناصب العليا بالذات لأنهم كانوا ممنوعين ـ وفقاً للعرف السائد ـ من ممارسة الأعمال المصرفية أو قبول العطاءات الحكومية، وكان محظوراً عليهم بمقتضى قانون «كلوديوس» الصادر في عام 218 حيازة السفن ذات الحمولة الكبيرة للمتاجرة عبر البحار. وترتب على ذلك أن احتدم التنافس من أجل المناصب احتداماً شديداً وتدهورت الدعاية الانتخابية لكسب الأصوات إلى رشوة للأفراد والجماهير، ومن مظاهر ذلك محاولة الترفيه عن الجماهير وتسليتهم باقامة الحفلات والمهرجانات الفاخرة سواء في المسرح أو في ساحة مصارعة الوحوش. ومع هذا فقد كان الشعور بالمسؤولية ما يزال قوياً بين أعضاء السناتو كهيئة ومن ثم فإنها عملت على استصدار تشريعات لوقف تيار المفاسد والقضاء على المساوىء. ففي عام 180 صدر قانون فيليوس (Lex Villin annalis) الذي رتب الوظائف العامة ترتيباً معيناً: الكويستورية فالبريتورية فالقنصلية. ولم تكن الايديلية ضرورية للصعود في سلم الوظائف ولكنها كانت تشغل عادة بعد الكويستورية لأن صاحب هذا المنصب (الأيديليس) كان يدخل في اختصاصه الإشراف على الأسواق العامة والأعياد والمهرجانات مما يتيح له فرصة التقرب من الجماهير وارضائهم. وأما التريبيونية فلم تعتبر وظيفة عامة (Magistratus) لأنها كانت مقصورة على فريق واحد من الشعب وهم العامة ونشأت أصلاً للحد من سلطة الحاكم المتمتع بالامبريوم. لكن بمرور الزمن دخلت في اطار الدستور الروماني وصارت كأي وظيفة عامة وكانت تشغل بعد الكويستورية وقبل الايديليه. وأما الكنسورية فكانت وفقاً للعرف المتبع تأتي بعد القنصلية. واشترط القانون سن 28 كحد أدنى لشغل الكويستورية، وانقضاء

مدة سنتين بين كل وظيفة والتي تليها. وفي فترة لاحقة حوالي 151 حرم إعادة الترشيح لنفس المنصب. وفي عام 181 مرة أخرى في 159 صدرت قوانين تنص على عقوبات رادعة ضد رشوة الناخبين. وقامت محاولة أخرى لاستئصال الفساد بأن تقرر أن يكون الاقتراع سرياً في الجمعيتين. ونص قانون صدر في 139 على التصويت السري في الانتخابات، ثم صدر قانون آخر بعد سنتين يقضي بجعل التصويت سرياً في المحاكمات التي تجري أمام الجمعيتين، وأخيراً تقرر في عام 131 استخدام الاقتراع السري على المشروعات المقدمة إليهما.

إن هذه القوانين لم تحقق الغرض المنشود منها لأنها كانت تتناول أعراض الداء لا أصله، إذ كان السناتو يتدهور في الكفاية وفي الأخلاق، ويواجه مشاكل إدارية وعسكرية واجتماعية لعله لم يستطع أن يجد لها حلاً أو فهم هذه المشاكل وأغمض عينه عليها. ولقد أظهر السناتو عجزاً فاضحاً حيال هذه المشاكل. أكبر الظن لأنه لم تكن لديه أي دراية بعلاج مثل هذه المفاسد الاجتماعية أو لم تتوافر لديه الرغبة في دراستها. كان اعضاء مجلس الشيوخ الروماني رجالاً من نفس الطراز يستهدفون نفس المصالح السياسية أو الشخصية، وينتمون في حقيقة الأمر إلى أسر نبيلة معدودة وقلما كانوا يُدخلون في صفوفهم عناصر أجنبية. ولئن كانوا جميعاً قد انتخبوا في وقت من الأوقات على يد الشعب لشغل المناصب، فإن ذلك يرجع إلى أن اختيار الشعب كان يقع دائماً أو غالباً على أبناء الأسر العريقة المعروفة. ويبدو أن الناخب الروماني سيطرت على ذهنه الفكرة القائلة بأن سليل الأسرة التي أدت للدولة خدمة جليلة، يحتمل أن يؤدي هو الآخر نفس الخدمة. وترتب على ذلك أن صار السناتو بالتدريج ـ على الرغم من مقدرته الفائقة في تصريف الأمور ـ هيئة أولجركية تمثل مصالح طبقة واحدة في المجتمع. والمبدأ لا غبار عليه في بعض أدوار التطور الاجتماعي. ولكنه كفيل بأن يبرز على مر الزمن عيوب الأولجركية وهي النفور من التغيير أياً كان نوعه، وضيق الأفق الاجتماعي،

وعدم العطف على الطبقات الأخرى أو الرغبة في فهم مطالبها. وسنرى كيف انتهت هذه الهيئة الأولجركية إلى نهاية مخزية. لقد أنقذ السناتو الدولة من ألد أعدائها ووضع أساس الامبراطورية، ولكنه أخفق اخفاقاً ذريعاً في تحقيق العدالة الاجتماعية. وحتى في ميدان السياسة الخارجية تعثرت خطواته أثناء المراحل الأولى من الحروب المقدونية، والحرب البونية الثالثة، والحملات الاسبانية التي تكبدت فيها روما خسائر فادحة. وكانت هيبة السناتو تقوم أساساً على نجاحه في السياسة الخارجية ولكن هذه العثرات بدأت تسيء إلى سمعته فلا عجب أن بدأت طبقة رجال الأعمال وأصحاب رؤوس الأموال الجديدة تنازعه حقه في الاستئثار بتوجيه السياسة الخارجية منذ حوالي منتصف القرن الثاني.

روما وحلفاؤها الايطاليون:

في وسعنا أن نقول بوجه عام أن روما كانت تحترم الحلفاء التي نصت عليها المعاهدات معهم سواء أكان هؤلاء الحلفاء من اللاتين أو من الايطاليين. ومن ثم فنحن لا نسمع إلا عن حالات فردية قليلة اعتدي فيها على الاستقلال الذاتي المحلي لهذه المدن اللاتينية أو الايطالية. وإذا كان قد حدث شيء من هذا القبيل، فإن ذلك مرده إلى تصرف بعض الحكام الرومان الذين تجاوزوا حدود سلطتهم بأن فرضوا مطالب تعسفية على هذه المدن الحليفة كإجبار الأهالي على تقديم المئونة للجيش وايواء الجنود عنوة في مساكنهم أو الترحيب بالقوات الرومانية المارة بأراضيهم أو انزال عقوبات بهم لعصيانهم الأوامر أو عدم ابدائهم مظاهر الاحترام. ولا شك في أن الحلفاء قدموا خدمات عسكرية أكبر من خدمات الرومان أنفسهم أثناء النضال من أجل السيطرة وتكوين الامبراطورية. غير أنها كانت تتناسب وتعداد سكانهم. وفي تعبئة الجيوش خلال القرن الثاني كانت نسبة عدد قوات الحلفاء إلى قوات الرومان 2: 1 وهي نسبة كانت سائدة

أيضاً قبل الحرب البونية الثانية. وفي الحق أن عبء الخدمة العسكرية قد وزع منذ عام 193 توزيعاً أكثر عدالة من قبل، إذ عدل عن النظام القديم الذي يلزم كل مدينة حليفة بتقديم عدد الرجال المنصوص عليه في معاهدتها مع روما، وصارت كل مدينة تمد القوات الرومانية بعدد من الكتائب يتناسب وعدد مواطنيها من الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و 45 سنة. وأما عن غنائم الحرب التي كان القواد أنفسهم يقومون بتوزيعها على الجنود، فإن قوات الحلفاء كانت تنال نصيباً معادلاً لنصيب القوات الرومانية المزاملة لها في السلاح. وليس هناك ما يؤيد الرأي القائل بأن في توزيع الأراضي العامة على المستعمرين كانت الاقطاعات التي تمنح لمواطني المدن الحليفة أقل مساحة نسبياً مما كانت عليه من قبل. ومع هذا كله فلم يكن هناك مناص من أن يكون لازدياد قوة روما أثر مضاد على وضع حلفائها إذ ازدادت الهوة بين الفريقين اتساعاً من الناحية الواقعية إن لم يكن من الناحية القانونية. وأحس الحلفاء أنهم صاروا في وضع أدنى بكثير من الرومان. وقد زاد من شعورهم بالنقص والحطة أنه لم يكن لهم أي نصيب في إدارة شؤون الامبراطورية، ولم يكونوا في مركز يمكنهم من الحصول على المكاسب المالية التي يحصل عليها المواطنون الرومان من استغلال أراضي الولايات خارج ايطاليا. كذلك زاد من حدة هذا الشعور أن حركة صبغ إيطاليا بالحضارة الرومانية كانت تسير باطراد حتى أصبح اندماج كافة سكان شبه الجزيرة في مجموعة المواطنين الرومان أمراً لا مندوحة عنه في النهاية.

ومع هذا فإن الحلفاء لم يجاهروا بالمطالبة بالجنسية الرومانية قبل عام 133 بل انهم، على النقيض من ذلك، كانوا حتى عام 150 أكثر حرصاً على الاحتفاظ بشخصيتهم واستقلالهم منه بالاندماج في صفوف الشعب الروماني الحاكم. وقد أرغمت الأزمة الاقتصادية وحالة الفقر التي تفشت بين صغار المزارعين في جميع أنحاء إيطاليا خلال القرن الثاني كثيراً منهم على مغادرة مواطنهم والهجرة إلى روما

مما أدى إلى نقص عدد السكان في مدن الحلفاء وخاصة في عدد الرجال اللائقين للخدمة العسكرية، وقد احتجت هذه المدن لدى السناتو على ادماج مواطنيها في مجموعة المواطنين الرومان وطالبت باعادتهم إليها. ولم تكن روما تزيل من قائمة المواطنين أسماء المهاجرين اللاتين، والايطاليين الذين اكتسبوا الجنسية الرومانية في القرن الثاني بالحق أو بالباطل إلا نزولاً على رغبة حكومات المدن الحليفة. وكان الرومان لا يشعرون وقتئذ بأنهم في مركز أسمى من الحلفاء حتى ينتهجوا سياسة ترمي إلى عدم اشراك الحلفاء في حقوق المواطنة الرومانية ففي عام 189 رد أهل كمبانيا إلى سابق وضعهم بعد أن كانوا قد حرموا من بعض حقوق الجنسية في عام 210. وفي العام التالي منحت الجنسية الرومانية الكاملة لثلاث مدن وهي فوندي، وفورمياي، وأربينوم على حدود لايتوم الجنوبية وكانت من قبل لا تتمتع بالجنسية إلا تمتعاً جزئياً. وتراخى الكنسوران (الرقيبان) تراخيا شديدا عام 169 في تنفيذ القانون ضد الحلفاء الذين انتحلوا الجنسية الرومانية زوراً، وظل اللاتين محتفظين بحق الحصول على الجنسية الرومانية إذا هم تقلدوا مناصب حكومية في مواطنهم.

إدارة الولايات:

باستثناء الحلفاء الايطاليين والمدن أو الجماعات القبلية التي رأت روما لسبب أو لآخر أن تعاملها معاملة هؤلاء الحلفاء، كان سكان الولايات الرومانية يعاملون معاملة الرعايا الخاضعين لا معاملة الحلفاء حتى ولو أطلق عليهم أحياناً هذا الاسم فكانوا لا يتمتعون إلا بالحقوق التي يرى الغزاة منحها اياهم. وكانت السمة التي تميزهم هي التزامهم بدفع ضريبة أو أداء جزية للرومان، وعدم دعوتهم لشرف الخدمة العسكرية إلا في الأحوال الاستثنائية.

وقد حاول الرومان في البداية إدارة الولايات (Provinciae) عن

طريق حكام العاصمة العاديين (Magistratus). وعندما لم تنجح المحاولة خصصوا لإدارة الولايات حكاما جددا بمرتبة البريتوريس. ثم عدلوا عن هذا النظام واستقر الأمر على تعيين القناصل السابقين والبريتوريس السابقين حكاما على الولايات، على أن يحمل كل منهم لقب بروقنصل (Pro Consule) أو بروبريتور (Pro Praetore)، أي «القنصل البديل» أو «البريتور». ويعزى هذا العدول إلى معارضة طبقة النبلاء في خلق وظائف جديدة من درجة البريتورية (حتى لا يزيد عدد المرشحين سنوياً لمنصب القنصلية) ومعارضتهم بالتالي للزيادة المقابلة في عدد الكويستوريس. ولما كانت الكويستورية هي أول درجة تتيح لصاحبها الارتقاء في سلم الوظائف، فإن تعدد شاغليها يزيد من فرص «الرجال الجدد» أو «العصاميين» (Novi homines) في دخول السناتو نفسه. وكان النظام الجديد في إدارة الولايات يتيح لحكام المدينة (روما) الفرصة لتعيينهم حكاماً بالولايات بعد انتهاء مدة خدمتهم السنوية بالعاصمة، وما يصاحب ذلك من فرصة لاقتناء الثروات. وكان السناتو هو الذي يحدد الولايات التي يتولاها القناصل البدلاء أو «البريتوريس البدلاء» (أي الولايات القنصلية والولايات البريتورية). على أن توزيع الولايات على المرشحين الذين يقع عليهم الاختيار كان يتم عن طريق القرعة أو بالاتفاق الودي بين المرشحين أنفسهم. وفي بعض الأحيان كان حكم الولاية يسند إلى قنصل لا يزال يشغل منصبه، وذلك عن طريق تشريع خاص من الجمعية القبلية.

وجرت العادة على أن يعهد إلى لجنة من عشرة أعضاء من مجلس الشيوخ وضع ميثاق أو قانون للولاية (Lex Provinciae)، ويصادق عليه السناتو ويحدد حقوق سكان الولاية وواجباتهم. وكانت كل ولاية تتألف من طائفة من الجماعات (Civitates) بعضها ذات تنظيم مدني، وبعضها الآخر ذات تنظيم قبلي، ولا تربطها أي وحدة سياسية سوى وجود ممثل السلطة الرومانية. وكانت

هذه الجماعات (سواء في شكل مدن أو جماعات قبلية) على ثلاث فئات.

تتألف كل ولاية من ثلاث فئات (طوائف) هي:

(أ) مدن أو جماعات قبلية حرة مرتبطة مع روما بمعاهدات (Civitates liberae et foederatae)

وكانت هذه الجماعات القليلة على الرغم من قيامها داخل نطاق الولاية لا تتبعها في الواقع لأنها كانت حليفات حرة لروما، وتحدد وضعها السياسي المعاهدة الدائمة المعقودة مع الدولة الرومانية.

(ب) مدن أو جماعات حرة معفاة من الضرائب (Civitates liberae et immunes)

وهذه أيضاً كانت قليلة وكان حق اعفائها من الضرائب ينص عليه في ميثاق أو قانون الولاية، ويملك السناتو سحبه إذا شاء.

(جـ) جماعات خاضعة للضرائب والجزية (Civitates Stipendiaria)

وكانت هذه أكثر عددا من غيرها وعليها يقع عبء الضرائب المقررة على الولاية وكانت كل مدينة أو جماعة قبلية تتمتع بدستورها وقوانينها القديمة تحت رقابة السلطات الرومانية.

وعلى رأس كل هذه الجماعات الموجودة بالولايات كان يقوم الحاكم بمرتبة القنصل البديل (Pro consule) أو البريتور البديل (Pro praetore) وكانت مدة ولايته سنة واحدة قابلة للزيادة اما بالاطالة أو لعدم تعيين خلف له. وكانت اختصاصات الحاكم أو الوالي عسكرية و إدارية وقضائية، فكان هو القائد العام لقوات الاحتلال المرابطة بالولاية لحفظ الأمن وحماية الحدود، وينظم

العلاقات بين الجماعات المختلفة، ويشرف على الإدارة الداخلية، وعلى جباية الجزية أو الضرائب ويفصل في القضايا إلها مة التي تنشب بين سكان الولايات وجميع القضايا بين هؤلاء والرومان أو بين الرومان أنفسهم. وكان الحاكم عند توليه مقاليد الأمور يصدر منشوراً (Edictum) على نسق المنشورات التي أصدرها الحكام السابقون للولاية أو على نسق «المنشور البريتوري» في روما، محدداً المبادىء القانونية العامة التي سيعمل بمقتضاها أثناء مدة ولايته. وكانت الولاية مقسمة إلى ثلاث دوائر قضائية (Conventus) وينتقل المجلس القضائي إلى كل منها للفصل في المنازعات التي تثور فيها على أن يحدد المكان والوقت ليعرفه المتقاضون وأصحاب الشكاوي.

وكانت الهيئة التي تساعد الحاكم في الولاية تتألف من:

أ) كويستور (Quaestor) ليتولى الاشراف على الخزانة ويتسلم دخل الولاية الناتج من جباية الضرائب.

ب) ثلاثة مساعدين (Legati) وهم من أعضاء السناتو وكان الحاكم يرشحهم ويصادق السناتو على الترشيح. وكانوا بمثابة مجلس استشاري له، وينوبون عنه عند الضرورة.

جـ) عدد من الرفقاء (comites) وهم عادة من شبان الأسر الصديقة له. وكان القصد من مرافقتهم له اتاحة الفرصة لهم للاستفادة من التجارب والتمرس على الإدارة ومعرفة اصول الحكم في الولايات أو لتكليفهم ببعض المهام الرسمية أحياناً.

د) حاشية الحكم وهم الكتبة والخدم

ولم يكن حاكم الولاية يتقاضى مرتباً، ولكنه كان يمنح مبلغاً كبيراً من المال لتغطية نفقاته ونفقات الهيئة الإدارية التي تساعده.

نظام الضرائب في الولايات:

كان الغرض من جباية الضرائب من الولايات في أول الأمر أن تغطي نفقات الاحتلال والدفاع عنها. ومن هنا سميت الضريبة المباشرة باسم **stipendium**. (وهي كلمة تعني في الأصل راتب الجندي)[4]. وقد طبق الرومان بوجه عام نظام الضرائب الذي وجدوه سائداً في كل ولاية قبل احتلإلها . وكاوا يجبون من الولاية اما ضريبة سنوية محددة ثابتة (stipendium) كما كان الحال في ولايات اسبانيا وافريقيا ومقدونيا أو ضريبة مباشرة غير ثابتة بل متناسبة مع مقدار المحصول السنوي كالعشور (Decuma) كما كان الحال في ولايتي صقلية وآسيا. ولم تكن الضريبة التي فرضها الرومان على أي ولاية أعلى بل عادة أقل من التي كان يجبيها الحكام السابقون. وأما الأراضي والمناجم والملاحات والغابات العامة أو «الملكية فقد أدمجتها روما في أراضيها العامة (ager publicus) وكان حق تأجير هذه الأراضي أو استغلإلها يمنح للأفراد أو الشركات نظير ايجار معين[5]. وكانت روما تحصل أيضاً ضرائب غير مباشرة تسمى كل منها (Vectigal) وأهمها المكوس والعوايد الجمركية (Portoria) التي كانت تجبى على السلع في الموانىء وعلى الحدود الواقعة بين الولايات، وضريبة المراعي العامة (Scriptura).

وكانت طريقة جباية الضرائب تختلف باختلاف الولاية ونوع الضريبة. ففي حالة الضريبة المحدد الثابتة (Stipendium) جرت العادة على توزيع المقدار المطلوب على المدن أو الجماعات على أن تتولى كل منها تحصيل نصابها بوسائلها الخاصة، وتقدمه إلى الكويستور. لكن في حالة الضريبة المباشرة المتغيرة المسماة دائماً بالعشور (Decuma)، اتبع الرومان النظام السائد في إيطاليا وأقطار البحر الأبيض المتوسط ألا وهو تأجير حق جباية الضريبة في مناطق معينة للشركات

الأهلية أو محترفي جبايتها من الملتزمين (Publicani) الذين كانوا يتقدمون بأكبر عطاء للحصول على هذا الامتياز، على أن يقدموا للحكومة المقدار المتفق عليه في العقد، ويحتفظوا بما يزيد على ذلك كربح صاف لهم. واتبعت نفس الطريقة في جباية الضريبة غير المباشرة (Vectigal) كالمكسوس والعوايد الجمركية (Protoria)، وضريبة المراعي (Scritura) وايجارات الأراضي العامة التي آلت إلى روما في الولايات. وكان طوائف الملتزمين (Publicani) وأهمها طائفة ملتزمي جباية ضريبة العشور (Decumani) تؤلف شركات مساهمة (Societates publicanorum) لها مكاتب رئيسية في روما، ووكلاء في الولايات ويقوم على رأسها مدير عام (Magister) ومجلس من الشركاء. وكان موظفو الشركة ينتمون إلى طبقة الفرسان. وكان المستخدمون والعمال مواطنين رومان من الطبقة الدنيا أو ايطاليين أو سكانا من الولايات، معتقين أو عبيدا.

كان نظام جباية الضرائب عن طريق «شركات الالتزام» سبباً من أسباب الظلم الذي عاني منه سكان الولايات. وفي الحق أنه كان من أجسم العيوب التي شابت الإدارة الرومانية هناك، فلم يكن يعني ملتزمي جباية الضرائب سوى جني أرباح طائلة من مضارباتهم المالية، وكانوا ينتحلون شتى المعاذير ويلجأون إلى التهديد ويستعملون العنف كي يبتزوا مقداراً من الضريبة أكبر من المقدار المشروع. وكان واجب حاكم الولاية يحتم عليه كبح جماح الملتزمين الجشعين. لكنه قلما كان يقوم بواجبه على الوجه الأكمل أما عدم عطفه على أهالي الولاية المظلومين أو لرغبته في تحاشي إغضاب رجال الأعمال الرومان ذوي النفوذ، أو لاستجابة فرض رقابة صارمة على جباة الضرائب. وكان أولو الأمر في روما يعرفون حقيقة ما يحدث في الولايات ولكنهم لم يتخذوا أي إجراءات حاسمة لمعالجة الحالة. يحدثنا المؤرخ الروماني ليفيوس (4018045) بأنه حيثما يكون الملتزمون، تنتهك القوانين العامة، فقد الحلفاء حريتهم. وكان من بين عوامل

النظام أيضاً ذلك النشاط الذي كان يمارسه الصيارفة والمرابون الرومان المعروفون باسم «المرابون»: Negotiatoros الذين امتلأت بهم الولايات وبخاصة مدن ولايات الشرق الهللينستي حيث كانت الأزمة الاقتصادية حادة مما هيأ لهم فرصة إقراض الأموال بفوائد فاحشة. وكان الصيارفة المرابون ينتمون إلى نفس طبقة ملتزمي الضرائب وهي طبقة الفرسان (Ordo Equoster) لكنهم كانوا في أحوال كثيرة وكلاء لأعضاء السناتو الذين كان محرما عليهم عقد صفقات أو الاشتراك المباشر في عمليات مالية من هذا النوع. وترتب على ذلك أنه عندما كان المرابون يلجأون إلى حاكم الولاية لمساعدتهم في تحصيل ديونهم، لم يكن يتردد في أغلب الأحيان عن الاستجابة لهم خشية من نفوذهم السياسي. فكان يضع تحت تصرف هؤلاء الدائنين جنوده أو يأمر المدن المقصّرة في أداء ديونها بايواء هؤلاء الجنود في منازلها لارغامها على الوفاء بالديون، ولو كان في ذلك القضاء التام على هذه المدن أو الجماعات. وسبب آخر من أسباب سوء الإدارة والظلم في الولايات هو جشع الحاكم ورجاله. كانت السلطة المطلقة (Imperium) في يديه اغراء لا يقوى على مقاومته. ولقد ظهر بين الحكام الرومان في الولايات من كانوا على خلق قويم، وقدر كبير من النزاهة، يراعون أسمى التقاليد الرومانية في الحكم، لكن غالبية الحكام كانوا يسيئون استعمال هذه السلطة سعياً وراء المال. وكان قصر مدة الحكم حائلا دون إلمام الحاكم بأحوال الولاية إلماما تاما. وكان قصر المدة يزيد أيضاً من شراهة الحاكم الجشع الذي كان في أغلب الأحيان رجلاً مثقلاً بالديون بسبب ما أنفقه من أموال في دعايته الانتخابية للفوز بالبريتورية أو القنصلية، فكان يحاول ابتزاز أكبر مقدار من المال من جيوب أهالي الولايات التعساء في اقصر مدة ممكنة. وكان أضعف من أن يرفض الهدايا والرشاوي، ولا يتورع عن الأذى والاغتصاب والابتزاز والمصادرة في سبيل اقتناء ثروة كبيرة قبل عودته إلى روما.

ولما كان الإشراف على إدارة الولايات يدخل ـ وفقاً للعرض المتبع ـ في اختصاصات السناتو، فقد كان هذا المجلس يتولى رقابة تصرفات الحكام. وعند عودة الحاكم إلى روما كان السناتو يفحص حساباته. ويناقش قراراته وأعماله، وينظر في طلبه الخاص بالحصول على شرف دخول روما في موكب نصر صغير (Ovans) أو كبير (Triumphus) احتفاء بانتصاراته العسكرية. وفي نفس الوقت كانت تصل إلى روما وفود من أهالي الولاية لتقدم للسناتو شكاواها ضد الحاكم أو لتشكره ـ كما كان يحدث غالباً ـ على جهوده لأنه كان قد ضغط عليها وأوعز إليها بذلك. وكان أهالي الولاية يجدون أحياناً بين اقطاب الرومان أنصاراً يتطوعون للدفاع عن قضيتهم. وكانت الشكاوي تعرض على المحاكم المختصة بالنظر في قضايا التعويضات أو تتخذ أساساً لاقامة الدعوى أمام الجمعية القبلية. غير ان هذه الوسائل تبين أنها غير مجدية ولم تقض على الفساد أو توقف تيار الظلم. وعندما ازدادت الحالة سوءاً استيقظ ضمير الشعب الروماني في آخر الأمر وأدرك فداحة الغبن الواقع على الولايات فصدر في عام 149 قانون كلبورنيبوس (Lex Calpurnia) بانشاء محكمة دائمة للفصل في قضايا استرداد الأموال من الحكام المدانين بالابتزاز في الولايات (Quaestio de repetundis)[6]. وكانت هذه المحكمة تتألف من 50 محلفاً من أعضاء السناتو، ويرأسها بريتور. ويعتبر انشاؤها سنّة جديدة وخطوة هامة في اجراءات القانون الجنائي عند الرومان، لأنه حتى ذلك الوقت كان المتهمون بالجرائم الخطيرة يقدمون للمحاكمة أمام احدى الجمعيتين الشعبيتين أو يستأنفون أمامها الأحكام الصادرة ضدهم من أحد الحكام. واكتفى السناتو بانشاء هذه المحكمة (محكمة الابتزاز أو استرداد الأموال المبتزة أو التعويضات) لاعتقاده بأنها وسيلة كافية لردع حكام الولايات الجشعين. لكن هيهات، لأن هذه المحكمة لم تحقق الغرض المنشود للأسباب الآتية:

أ) النفقات الطائلة للسير في اجراءات المحاكمة الطويلة في روما.

ب) صعوبة الحصول على الأدلة أو الشهود لادانة الحاكم المتهم.

ج) اقتصار العقوبة على أن يدفع الحاكم بعد إدانته تعويضاً عن الضرر.

د) الخوف من انتقام الحكام الذين يتولون حكم الولاية من بعده.

هـ) ضعف الأمل في كسب القضية لتحيز المحلفين إذ كان الحاكم المتهم ينتمي إلى طبقتهم.

جميع هذه العوامل كانت لا تشجع المنكوبين من أهالي الولايات على المطالبة بالتعويضات عن خسائرهم. وهكذا ظلوا يعانون جميع ألوان العسف على يد الحكام وملتزمي الضرائب حتى آخر عصر الجمهورية.

أثر الحروب في الحياة والتطور الاقتصادية والاجتماعية

لقد طرأت تغييرات هامة خطيرة على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في روما وإيطاليا خلال الفترة ما بين 264، 133، إذ ترتب على التوسع السياسي الروماني في عالم البحر الأبيض ازدياد اتصال الرومان بالاقطار ذات الحضارات القديمة، وبالنظام الاقتصادي المتقدم في الشرق الهللينستي. وتأثر الرومان وحلفاؤهم الايطاليون بمظاهر الحضارة الهللينستية، الحسنة منها والسيئة. وأفادت الزراعة في إيطاليا من ادخال أنواع جديدة من الفواكه والخضروات وآلات زراعية أفضل، وأساليب فنية مبتكرة في فلاحة الأرض. كذلك بدأت روما تتبع في سك العملة قاعدة النقد الفضية بدلاً من البرونزية، متأثرة بالممالك الهللينستية. وذلك لسد حاجيات الامبراطورية.

على أن أهم التطورات التي حدثت أثناء تلك الفترة في إيطاليا نفسها هي:

أ) نشأة الضياع الواسعة (Latifundia) التي يقوم العبيد بزراعتها أو رعي المواشي فيها.

ب) اضمحلال طبقة صغار المزارعين الأحرار في الريف الايطالي.

ج) تضخم الطبقة الفقيرة من سكان روما.

د) ظهور طبقة متميزة من رجال الأعمال والتجارة.

هـ) انحراف مستوى المعيشة إلى الترف والبذخ بين أثرياء روما.

وأما عن الضياع الواسعة (Latifundia) فكانت هناك عوامل كثيرة أدت إلى نشأتها وفي مقدمتها:

أ) نظام توزيع الأراضي العامة.

ب) خراب المناطق الريفية في جنوب إيطاليا بسبب الحرب البونية.

ج) عدم قدرة صغار الملاك على العناية بمزارعهم بسبب دعوتهم للخدمة العسكرية أو منافسة الضياع الواسعة.

د) وفرة الأيدي العاملة الرخيصة من العبيد لكثرة عدد أسرى الحروب.

وكانت العادة قد جرت منذ القدم على توزيع ذلك الجانب من الأراضي العامة (Ager Publicus) الذي لا يخصص لانشاء مستعمرات على المواطنين الرومان أو مواطني الحلفاء لزراعته أو رعي المواشي فيه، وذلك في مقابل دفع ايجار للحكومة الرومانية تختلف قيمته باختلاف نوع محصول الأرض. وقد زادت مساحة الأراضي العامة التي يمكن توزيعها على الأفراد زيادة كبيرة كنتيجة لحملة هنيبال على إيطاليا التي دمرت بلاداً كثيرة وأهلكت أعداداً كبيرة من الناس الذين تركوا وراءهم أراضي مقفرة أولا أصحاب لها، فآلت إلى يد الحكومة الرومانية. كذلك كانت الحكومة قد صادرت مساحات واسعة من أراضي المدن عقاباً لها على انحيازها لهنيبال. وقد ظل الجانب الأكبر من الأراضي العامة في جنوب إيطاليا شاغراً وفي متناول الأفراد لاستغلإلها . وكان أول من استغلها هم ملاك الأراضي الأثرياء الذين كان لديهم الأيدي العاملة اللازمة لاستصلاح مساحات واسعة للزراعة، ولديهم رأس المال الكافي لتزويد المزارع بالحيوانات الزراعية وشراء قطعان كبيرة من المواشي لتربيتها في المراعي. وكان شاغلو الأراضي العامة أو

المستحوزون عليها عن طريق وضع اليد (Possessores) بعد مرور عدة أجيال يعتبرونها جزءاً من أملاك الأسرة. وفي أحوال كثيرة كانت تختفي السجلات القديمة الخاصة بظروف ملكية الأرض وبالحدود الفاصلة بين الاقطاعات. ولم تعد الايجارات تدفع للحكومة. وفي القرن الثاني جدت ظروف ساعدت أيضاً على ازدياد الضياع الواسعة ذلك أنه منذ عام 218 أصبح محرماً على أعضاء السناتو الاشتغال المباشر بالأعمال التجارية خارج إيطاليا وكانت الأعمال المصرفية والعطاءات تعتبر غير لائقة بمكانتهم في المجتمع، بينما كانت الزراعة ـ هي قوام الاقتصاد الروماني ـ تعتبر أشرف المهن المربحة. لذلك اضطر أعضاء السناتو والطبقة الحاكمة إلى استثمار أموالهم التي كسبوها في الحروب أو من الولايات في الزراعة ودفعهم ذلك إلى شراء مزيد من الأراضي العامة، بل وشراء مزارع صغار الملاك حيثما استطاعوا. وكان الملاك أو الفلاحون قد استدعوا للخدمة العسكرية وتغيبوا عن مزارعهم فترات طويلة. ولعل بعضهم لم يعودوا أبداً أو عادوا غير لائقين أو زاهدين في ممارسة مهنة الزراعة أضف إلى ذلك أن الاتجاهات الجديدة في الزراعة التي ارتقت باقتباس الأساليب المتبعة في الممالك الهللينستية كانت ترجح كفة كبار المزارعين أصحاب رؤوس الأموال على جيرانهم من صغار المزارعين. وحدث أن تناقص محصول الأرض في الحبوب أما لتآكل التربة أو لاجهادها أو لشدة الطلب في الأسواق الرومانية. فاستحدثت محاصيل جديدة أوفر ربحاً، وحلت بدل الحبوب كالقمح مثلاً بساتين الكرم والزيتون والفواكه والخضروات، وحلت بدلها في جنوب إيطاليا المراعي الفسيحة. وأصبحت زراعة هذه المحاصيل وتربية الماشية عملية تجارية مربحة، وتحسنت أساليبها، وتقدر مصاريفها وأرباحها تقديراً دقيقاً. ولم يعد الانتاج كافياً لسد حاجات الاستهلاك المحلي فقط، بل كافياً أيضاً للتصدير إلى الأسواق الخارجية. وكان متوسط مساحة الضيعة الرومانية يتراوح بين 100 و 240 فداناً رومانياً (Iugera)[7] بينما كان متوسط مساحة

المزرعة التي تملكها الأسرة العادية يتراوح بين 4، 8 أفدنة... وكان كثير من كبار ملاك الأراضي يملكون عدة ضياع متناثرة في شتى أنحاء ايطاليا. وكانت الضيعة البالغ مساحتها 100 فدان روماني تتطلب حوالي 16 عبداً لفلاحتها، إلى جانب عدد آخر من الأجزاء للقيام بأعمال متصلة بها. من السهل أن ندرك إذن لماذا لم يكن في استطاعة الفلاح الايطالي الذي لا يملك سوى أدواته الزراعية البسيطة ومجهود أسرته، أن ينافس مالك الأرض الغني. وهل كان في وسعه أن يشرع في غرس بستان من الكروم أو الزيتون ثم ينتظر سنوات طويلة قبل أن ينتج محصولاً مربحاً؟ أو هل كان في وسعه أن يوفر المرعى الصيفي في التلال، والمرعى الشتوي في السهول الواطئة على السواحل، وكلاهما لازم لرعي الماشية رعياً مربحاً؟.

ولكي تستثمر الضياع الواسعة بنجاح كان لا بد من توافر الأيدي العاملة الرخيصة باستمرار. وكان أهم مورد للعبيد (Servi) في القرن الثاني هي الحروب التي كانت تمد روما بأعداد ضخمة من الأسرى، فتغرق بهم أسواق الرقيق الموجودة في منطقة البحر الأبيض. ومورد آخر للعبيد وهو غارات القراصنة على السواحل الشرقية في العالم الاغريقي، حيث كان يختطف السكان ويباعون في أسواق الرقيق. وقد بلغ عدد العبيد الذين أحضروا إلى إيطاليا حوالي 250,000 أسير بين سنتي 200، 150. هذا بالاضافة إلى العبيد الذين كانوا يربون في الضياع الواسعة حتى ينتفع بهم سادتهم. ولما كانت أثمان العبيد زهيدة، فإنهم كانوا يفضلون على الأجراء الأحرار، لأن العبيد كانوا غير ملزمين بالخدمة العسكرية، ولأن رعي قطعان الماشية في الضياع الفسيحة لم يكن بحاجة إلى مهارة أو خبرة كبيرة، وكانوا يستغلون دون رحمة وبلا خوف من العواقب.

وقد ورد في بحث كاتو «الرقيب» عن «الزراعة» أن العبيد كانوا يعاملون معاملة السوام بل كان من رأيه أنه ينبغي تجويعهم حتى الموت عندما يصيرون عديمي النفع. وكان عبيد الضياع الواسعة يقيدون بالأغلال. وفي الليل يحبسون

في جحور أو أقبية تحت الأرض، حتى أن هؤلاء التعساء لم يروا في يوم من الأيام أي بصيص من الأمل في الخلاص، ولم يحدث أن اهتم مواطن حر بحالتهم أو فكر في الخطر الاقتصادي الناجم عنهم. ولم يفطن الرومان إلى خطر العبيد عندما يكون عددهم غفيرا وتساء معاملتهم. ولقد فوجئوا بثوراتهم، مرة في عام 135 عندما ثار حوالي 70,000 (حرب العبيد الأولى في صقلية) وتحدوا الرومان زهاء ثلاث سنوات. وتوالت ثورات العبيد بعد ذلك في ايطاليا، وهي ثورات كانت روما تقمعها بقسوة بالغة. وكان العمل يقوم على سواعد العبيد حتى في الضياع المتوسطة التي لم تكن رعوية بحتة. ويتضح من بحث كاتو في «الزراعة» أنه برغم الاستعانة بالأيدي الحرة في بعض الفصول كفصل الحصاد مثلاً، فإن الدعامة الاقتصادية للعمل ارتكزت على سواعد العبيد. وليس ثمة شك في أن المزرعة الصغيرة والمزارع الحر كلاهما بدأ يختفي بسرعة ازاء ازدياد رؤوس الأموال وانخفاض سعر العبيد. وكان عدد عبيد المنازل (Vernae) يزداد في مدينة روما التي تدفقت عليها جموع غفيرة من العبيد من مختلف الأجناس. وقد استخدمهم الأثرياء ورجال الأعمال في شتى الحرف. وكان كثير منهم كالاغريق مثقفين. وفي امكانهم القيام بالأعمال الكتابية والحسابية والتعليم. وقد أتيحت لهؤلاء بمضي الزمن فرصة الحصول على الحرية فأصبحوا عتقاء (Liberti).

لكن غالبية العبيد كانوا مخلوقات وضيعة فاسدة، لا معيار خلقي لديهم سوى اطاعة سيدهم ولا جزاء أدبي سوى العقاب. ومع أن تناقض عدد السكان الأحرار كان داء وبيلا إلا أن العلاج كان أكثر منه وبالا. فالعبد الذي ينتزع من الأرض التي كان يعيش فيها راضياً بموطنه الأصلي، ويحرم من أسرته، ويفقد ثروته، ويتجرد من ديانته، لا بد أن يصبح في معظم الأحوال شخصاً منحلاً ميؤوساً منه. ولا نسمع أي نغمة اشفاق على العبيد حتى في الأدب اللاتيني في تلك الفترة. ويرسم بلاوتوس (Plautus) الشاعر المسرحي الكوميدي الكبير

في تلك الفترة (255 ـ 184) صورة حالكة للعبد، فيصوره كذاباً أشراً ولصاً مجرداً من الضمير. وكانت عواقب الرق وخيمة أيضاً بالنسبة لأخلاق مالك العبيد. وان لم تظهر بوضوح لأول وهلة. فالسيد الذي يقوم على خدمته عشرات من العبيد، وهم بشر مثله، ولكنهم تحت رحمته يفعل بهم ما يشاء، هذا السيد يصبح عرضة لأن يتبلد بالتدريج احساسه بالواجب، إذ ليس عليه التزامات نحو العبيد، وإنما له حقوق عليهم. وبذلك يصبح عرضة لأن يتبلد أيضاً احساسه نحو اخوانه من المواطنين الأحرار، لأن ما يكتسبه من طبع في معاملة العبيد يؤثر بداهة على طريقة معاملته لغيرهم من الناس. وهكذا غدت الأخلاق الرومانية، وهي بطبيعتها أخلاق صلبة، غدت في أواخر عصر الجمهورية أكثر صلابة، بل غدت أكثر شراسة. ويتضح ذلك من القسوة البالغة، والاستهتار بالأرواح، والغلظة في معاملة المقهورين والشعوب الخاضعة اثناء القرن الأخير من عصر الجمهورية. لقد صارت الأخلاق الرومانية الخشنة بتأثير الرق أخلاقاً وحشية وقد يأبى أديب كبير كشيشرون التفرج على العبيد وهم يتصارعون في ساحة المصارعة، أو يرق قلب كاتب رقيق مثل بلينيوس الأصغر فيعاف رؤية الدماء ويستهجن ارغام العبيد على مصارعة الوحوش الضارية. لكن هذا لا يكفي لتبرئة الرومان من هذه الوصمة. وعلينا أن ننتظر مجيء المسيحية قبل أن نرى مظاهر الاشفاق على هذه الجموع البائسة من المخلوقات البشرية المستعبدة التي زخرت بها الامبراطورية الرومانية.

اضمحلال طبقة صغار المزارعين في ايطاليا:

لقد ترتب على انتشار الضياع الواسعة نقص عدد صغار المزارعين، وقضت منافسة هذه الضياع على المزارع الصغيرة وجعلتها غير مرحبة لملاكها. وكان كبار ملاك الأراضي يلجأون إلى وسائل غير مشروعة لطرد صغار المزارعين

من الاقطاعات الصغيرة التي منحت لهم من الأراضي العامة، بل كانوا يتحينون الفرص لشراء الأراضي الخاصة (Ager Privatus) التي يمتلكها صغار الفلاحين. وثمة عامل آخر هام وهو الخدمة التي كان صغار المزارعين مطالبين بأدائها. ولما كان المواطنون ذوو النصاب العقاري البالغ قدره 4000 آس as وحدهم المعرضين للخدمة العسكرية، وكان معظمهم من صغار المزارعين، فإن عصب الجيوش الرومانية كان يتكون من فلاحي الريف الايطالي، ولما صارت الحروب تدور في إيطاليا بل جهات منطقة البحر المتوسط خارج ايطاليا، وأصبح من الضروري الاحتفاظ بحاميات في بعض الولايات المفتوحة، لم يعد في وسع الحكومة الرومانية أن تسرح الجنود في الخريف وتعيد حشدهم للحملات العسكرية في الصيف. لم يعد في وسعها أن تفعل واستحال على الجنود الفلاحين العودة إلى مزارعهم ليباشروا على الأقل جانباً من الأعمال الزراعية الضرورية فكان الجندي، بمجرد انخراطه في سلك الجيش، يرحل بعيداً عن وطنه لسنوات متتالية، تاركاً حقوله عرضة للتلف والخسارة، وكان طول مدة الخدمة العسكرية إلى جانب ما تهيئه من فرص للكسب المؤقت من غنائم الحرب وأسلابها، من العوامل التي جعلت الجندي الفلاح غير لائق للقيام بالأعمال الزراعية المجهدة الرتيبة، كان الجنود المسرحون (Veterani) يعودون إلى مزارعهم فيجدون أن أسراتهم قد رهنت الأرض لتسد رمقها أثناء غيابهم، وعندئذ يضطر هؤلاء الفلاحون إلى بيع مزارعهم لجيرانهم الأغنياء إما لعجزهم أو لعزوفهم عن كسب قوتهم من مزارعهم الصغيرة المرهونة. ولم يكن هناك مجالٌ لهؤلاء الجنود الفلاحين ليشتغلوا كمستأجرين في أراضي غيرهم، لأن العمل في المزارع كان موسمياً وغير مضمون. ولذلك نزح كثير منهم إلى روما فتضخم بذلك عدد الدهماء المتعطلين. كما هاجر بعضهم إلى غالة القريبة حيث كانت الأراضي الجديدة لا تزال ميسورة لصغار المزارعين. ولا ينبغي اغفال الخسائر في الأرواح أثناء الحروب التي

استنزفت أعداداً غفيرة من طبقة صغار المزارعين الايطاليين (ولا سيما الحملات الاسبانية بين سنتي 154 ـ 133).

وبغض النظر عن تدهور الحياة الأسرية، فإن قوائم التعداد الخاصة بها بالمواطنين الرومان البالغين سن الجندية، قد سجلت هبوطاً مستمراً في العدد بين عامي 164 ـ 136. ففي خلال هذه الفترة هبط الرقم من 337,000 إلى 317,000 أي بنقص قدره حوالي 10,000، في حين أن العدد كان ينبغي أن يزيد 50,000 اسما على الأقل. وازاء هذه الظروف أصبح من العسير تعبئة القوات اللازمة، والتجأت الحكومة إلى وسائل القهر والارغام حتى أن نقباء العامة كانوا يتدخلون في كثير من الأحيان لاعفاء الفلاحين من الخدمة العسكرية. وقد حل بصغار الفلاحين في ريف أراضي الحلفاء ما حل بالفلاحين الرومان، ويتبين ذلك من هجرتهم زرافات ووحدانا إلى روما مما دفع مدنهم إلى مطالبة السناتو بإرغامهم على العودة إلى مواطنهم. هكذا أصبح السناتو يواجه مشكلة خطيرة، فأما أن يرجع عن السياسة الاستعمارة العدوانية ويتخلى عن الممتلكات الخارجية، أو يستمر في تعبئة الجيوش حتى تستطيع متابعة الحروب وحماية الولايات والدفاع عنها. فكيف يتسنى له القيام بهذه الالتزامات العسكرية المتزايدة بينما يتناقص عدد الرجال القادرين على حمل السلاح تناقصاً مستمراً؟

ولم تكن الحكومة الرومانية غافلة تماماً عن العواقب الوخيمة، المترتبة على ازدياد الضياع الواسعة. فمنذ حوالي عام 362 ـ إذا صحت رواية المؤرخ ليفيوس ـ حددت ملكية الفرد من الأراضي بـ 500 فدان روماني (Iugera) وملكيته من المواشي في المراعي العامة. لكن المحاولة باءت بالفشل لأن قانون تحديد الملكية تراخت السلطات في تنفيذه أو ضرب به عرض الحائط. كما وضع بعض الأفراد أيديهم على المراعي العامة. وبين عامي 180، 170 صدر قانون آخر يمنع الفرد من أن يمتلك أكثر من 500 فدان من الأراضي العامة أو يحتفظ بأكثر من

100 رأس من المواشي (الثيران والعجول) أو 500 من الأغنام (الخراف والماعز والحيوانات الأليفة الأخرى). هذه المحاولة فشلت أيضاً لخلو القانون من أي نص جزائي أو عقوبة على المخالفين. وفي عام 173 خوّل السناتو أحد القنصلين السلطة لتعيين الحدود بين الأراضي العامة والأراضي الخاصة في كمبانيا حتى لا يجور أصحاب الأخيرة على الأولى. فلم تجد المحاولة فتيلا لأن السناتو وجد في عام 162 ان كل منطقة قد وقعت في أيدي أصحاب الأراضي الخاصة. ولم يستطع استرداد سوى 50,000 فدان وذلك عن طريق شرائها ثانية من الذين وضعوا أيديهم عليها. وانتصر كبار ملاك الأراضي.

لكن ينبغي التنبيه إلى أن إيطاليا لم تتأثر بتوسع الضياع بدرجة واحدة. إذ كانت الضياع الواسعة منتشرة فقط في جنوب إيطاليا وكمبانيا ولاتيوم واترووريا، وأما في وسط ايطاليا، وفي أومبريا فقد ظل صغار المزارعين الايطاليين، وهم طبقة تتصف بالقوة وشدة المراس محتفظين بأراضيهم.

تضخم طبقة الدهماء الفقيرة في روما:

ترتب على الفتوحات أن صارت روما المركز السياسي والاقتصادي لعالم البحر الأبيض المتوسط وقد بلغ عدد سكانها في عام 133 نصف مليون نسمة على أقل تقدير، فاصبحت تنافس العواصم الهللينستية الكبرى كالاسكندرية وانطاكية، ومع أن روما لم تكن مدينة صناعية كبيرة إلا أنها كانت دائماً سوقاً هامة. وكانت شوارعها تعج وقتئذ بالتجار والباعة من جميع الأنحاء. وبالعبيد التابعين للبيوتات الكبيرة، وبالمعتقين الذين يشتغلون لحسابهم أو لحساب سادتهم، وبالفلاحين الذين تركوا مهنة الزراعة لأسباب مختلفة سعياً وراء الرزق في العاصمة معتمدين على الموارد غير الثابتة أو على سخاء بعض السادة

(Patroni)، بعد أن يرتبطوا بهم كأتباع (Clientes) بمحض اختيارهم. ولم يكن بالمدينة منشآت صناعية تستطيع أن تستوعب الأيدي العاملة ولم يكن هؤلاء الفلاحون يعرفون أي مهنة سوى الزراعة التي زهدوا فيها.

وكانت الولائم والمهرجانات والهبات التي توزع في الأعياد القومية والمعارك الانتخابية هي التي تجذب هذا العنصر من الناس وتشجعه على التسكع والبطالة. وقد احتدمت مشكلة تموين العاصمة بالمواد الغذائية بسبب بطء وسائل النقل براً، ومخاطرها بحراً، واكتظاظ المدينة بالسكان إذ كان أي ارتفاع في أسعار الغلال أو تأخر وصول شحنات القمح من صقلية يعرض فقراء المدينة للمجاعة، وكان لهذا العنصر أثر سيىء على الجمعيات الشعبية، إذ كان دهماء المدينة (Plebs urbana) الذين كانوا ما يزالون مسجلين في قبائلهم الريفية ويتمتعون دائماً بحق حضور الجلسات يسيطرون على الجمعية القبلية بالذات. وكانت قرارات هذه الجمعية تؤثر بداهة بمصالح هذا الفريق من المواطنين الشخصية وبرغباته المتطرفة الجامحة وكذلك كان يباح للمواطنين وغير المواطنين على السواء حضور تلك الاجتماعات العامة (غير الرسمية) المسماة (Contiones) للاستماع إلى الخطب السياسية، فكانت من وسائل اثارة حماس الغوغاء لارهاب الجمعيات الدستورية (Comitia) التي كانت تبادر إلى الموافقة على المقترحات والمشروعات التي من شأنها تحقيق نفع مادي لهم. وكان في الامكان تجنب هذا الخطر لو أن الدستور الروماني كان يتضمن بنوداً تنص على اتباع وسائل كافية لحفظ الأمن. وكان حفظ الأمن خارجاً عن اختصاص الحكام ومساعديهم. وفيما عدا الأيديليس الذين أنيط بهم مراقبة الأسواق، ولم يكن هناك في الواقع أشخاص مخولين سلطة حفظ الأمن بالمدينة. ولم يكن للقناصل حق ممارسة السلطة العسكرية داخل نطاق البوميريوم (Pomerium) ولذلك لم توضع تحت تصرفهم أي قوات عسكرية.

ظهور طبقة رجال الأعمال (– طبقة الفرسان):

كان من نتائج القيود التي وضعها القانون والعرف على نشاط أعضاء طبقة السناتو في ميدان العمل والتجارة أن ظهرت طبقة من رجال الأعمال الأثرياء الذين لا ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية الحاكمة. ومنذ حوالي منتصف القرن الثاني كانت الحكومة تبرم العقود (بعد المناقصات أو المزايدات) مع أصحاب رؤوس الأموال الذين يتعهدون ببناء المنشآت العامة، أو استغلال مناجم اسبانيا ومقدونيا، أو تحصيل الايجارات عن الأراضي العامة في ايطاليا، أو المكوس والعوايد الجمركية في إيطاليا وصقلية واسبانيا. وكان هؤلاء الأشخاص الذين ترسو عليهم العطاءات يسمون (Publicani). ولم يكونوا دائماً أصحاب رؤوس أموال كبيرة لأنه كان يجوز لهم تكوين شركات مساهمة. ولم تكن هذه الشركات تقدم للحكومة إلا ضمانات محدودة مما كان يساعدها على تحصيل راس المال اللازم من صغار المساهمين وكبارهم. كذلك كانت الأعمال المصرفية التي تشمل اقراض الدين بالربا إحدى ميادين النشاط المربحة في كل من إيطاليا والولايات وكان الصيارفة (رجال البنوك) يدفعون فوائد على الودائع مما يدل على أن الفرص كانت مهيأة لهم لاستثمار أموالهم. ولا ريب في أن رجال الأعمال الرومان كانوا يسيطرون على جانب كبير من تجارة روما المحلية: كانوا يشتغلون أيضاً بأعمال الشحن والتفريغ، وبخاصة بنقل الغلال المحصلة كضرائب من صقلية وسردينيا وأفريقيا إلى العاصمة الرومانية.

وكان الأثرياء بين رجال الأعمال ينتمون إلى الطبقة التي عرفت باسم طبقة الفرسان (Equites – ordo equester). وكانت هذه الطبقة تتألف من هؤلاء الأفراد الذين كانت أسماؤهم مسجلة في وحدات الفرسان الثماني عشرة بالجمعية المئوية ويشملون:

أ) الـ 1800 فارس الذين تتراوح أعمارهم بين 18 و 45 سنة وكانت الدولة تمدهم بالخيول على نفقتها.

ب) الآخرين من نفس السن الذين كان في مقدورهم شراء خيولهم على نفقتهم الخاصة.

جـ) الشيوخ الذين تزيد أعمارهم عن 45 سنة وصاروا غير لائقين للخدمة الفعلية بسلاح الفرسان ولكنهم يملكون النصاب العقاري المطلوب لتسجيل أسمائهم في وحدات الفرسان. وكانت وحدات الشبان أ، ب تضم بين صفوفها أبناء أعضاء السناتو الذين لم يتقلدوا بعد منصبا ساميا يؤهلهم لدخول السناتو. فكان هؤلاء بمجرد تقلدهم أحد المناصب السامية، أو بمجرد تجاوزهم سن الـ 45 تسقط أسماؤهم على الفور من قائمة الفرسان لكن بازدياد عدد ملاك الأراضي ورجال الأعمال، قلت نسبة الأعضاء المنتمين إلى طبقة السناتو بين الفرسان حتى أصبحت الطبقتان تمثلان مصالح مختلفة متضاربة. وكان الفرسان بوجه عام يؤيدون سياسة العدوان الخارجية مع استغلال الأراضي المفتوحة دون رحمة لمصلحة أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة.

المستوى المعيشي الجديد:

أثناء الحملات العسكرية في صقلية وافريقيا وبلاد الاغريق وآسيا الصغرى اتصل الرومان اتصالاً مباشراً بحضارة أعرق من حضارتهم وأرقى حيث كان المجتمع أكثر ذوقاً وأناقة ودماثة من المجتمع الروماني. وقد أظهر الغالون استعداداً للاقتباس من المغلوبين، وبدأوا ينقلون إلى روما كل مظاهر الترف. غير أن أقطاب الرومان لم يعملوا بالمثل الاغريقي القائل «بالاناقة في غير بذخ» وأخذوا كأغنياء الحرب ومحدثي النعمة يتنافسون في أظهر ثرائهم الفاحش. وقد تغير تبعاً لذلك المنزل الروماني تغيراً تاماً. كان المنزل في الأصل بسيطاً يحتوي

على قاعة كبيرة تسمى (Atrium)، وتستعمل كمطبخ في الوقت نفسه، وعلى حجرة جلوس، وغرفة نوم. تغير ذلك وأصبح «الاتريوم» قاعة استقبال مزدانة بالأعمدة الرشيقة، وأضيفت إليها حجرات لاستعمالها في الأغراض المنزلية الأخرى (كما أضيف في فناء «الأتريوم» فناء تحيط به أعمدة من الطراز الاغريقي. وصار المنزل يزخر بالتماثيل الثمينة والتحف الفنية التي نهبها أصحابها من المدن الاغريقية أو اشتروها من هناك. وصارت أفخر أنواع الأطعمة وأندرها تقدم في المآدب الأنيقة على صحاف من الفضة. وامتلأت بيوت الأغنياء بأسراب العبيد الذين كان كل منهم مدرباً على عمل معين من الأعمال. وكانت مغازل الشرق تمد الرومان بالملابس الجميلة المنسوجة نسجاً دقيقاً. واتسعت الهوة بين حياة الأغنياء وحياة الفقراء. وقد لقي هذه التغيير في مستوى المعيشة معارضة شديدة من أنصار مذهب البساطة في الحياة الرومانية، الذين رأوا في مظاهر البذخ والاناقة الجديدة خطراً على صلابة الرومان وأخلاقهم. وكان زعيم حركة البساطة والتقشف رجلاً محافظاً رجعياً متزمتاً وهو كاتو الأكبر الملقب «بالكنسور» ـ أي «الرقيب» وقد جدد أثناء توليه هذا المنصب في عام 184 أسعار أدوات الترف، والعبيد بعشرة أضعاف أسعارهم في السوق، وفرض عليهم ضريبة باهظة. غير أن هذا الاجراء كان يجافي روح العصر، فأغفل خلفاؤه في المنصب قوانينه المشددة. وأخفقت كذلك كل المحاولات لوقف انتشار الترف عن طريق التفريع. كما أن قانون أوبيوس (Lex Oppia) الذي صدر تحت وطأة الظروف للحد من بذخ النساء وتبرجهن في الملبس والزينة في عام 215، ألغي بعد سنوات قليلة في عام 195 وذهبت عبثاً كل المحاولات التالية لاصدار تشريعات لمكافحة الاسراف والترف والخلاعة في أعوام 181، 161، 143.

هوامش ومراجع

1 ـ راجع فيما تقدم.

2 ـ راجع فيما تقدم.

3 ـ عن كاتو «الأكبر» أو «الرقيب»، راجع ص 165 هامش 1، ص 128 هامش 2 فيما تقدم.

4 ـ وأما كلمة Tributum (التي أصبحت في عصر الامبراطورية أو حتى قبل بداية ترادف كلمة Stipendium أي صريبة مباشرة ثانية) فكانت في عصر الجمهورية تعني ضريبة على أملاك المواطنين الرومان تفرض من وقت لآخر لمواجهة أعباء الحرب. وكانت تعتبر قرضاً اجبارياً أكثر منه ضريبة مباشرة، وقد يسددها المواطنون من غنائم الحرب لكن منذ عام 167 ق.م. أصبحت كلمة Tributum لا تطلق إلا على الضرائب المباشرة في الولايات. ولم يكن المواطنون في عصر الامبراطورية خاضعين لأي ضريبة مباشرة Tributum إنما كانوا يخضعون لضرائب غير مباشرة (Vectigalia).

5 ـ تسمى أيضاً ايجارات الأراضي العامة، والمناجم والملاحات باسم (Vectigalia).

6 ـ وتعرف أيضاً باسم Quaestio rerum Repetundarum.

7 ـ الفدان الروماني = 3/ 5 الفدان المصري.

الخلاصة

في عام 133 كانت الدولة الرومانية تواجه طائفة من المشاكل التي خلقت في مجموعها أزمة خطيرة. وكان الأساس الاقتصادي للمجتمع الروماني غير سليم وكانت روما تعيش إلى حد كبير على استغلال الولايات وكان الدخل من هذه الموارد يذهب معظمه إلى أيدي الطبقة الأرستقراطية صاحبة المناصب. وبعضه إلى أيدي طبقة رجال الأعمال. ولم تستفد الطبقة منه إلا قليلاً وتدهورت أحوالها بالتدريج باتساع الامبراطورية. وحدث نفس الشيء في حالة معظم حلفاء روما في ايطاليا. أصبحت الحاجة شديدة إلى اصلاح اقتصادي شامل ليقضي على مشكلة البطالة بين الفقراء وذلك بتوفير فرص العمل في ميدان الصناعة والتجارة أو بجعل ميدان الزراعة محبباً إلى نفوس صغار المزارعين مرة أخرى. كما أصبحت الحاجة ملحة إلى اصلاحات سياسية، إذ غدت الجمعيتان الشعبيتان (Comitia) والأداة الحكومية (Magistratus)، وهي الأجهزة التي كانت تلائم بالأمس ظروف «مدينة ـ دولة» غدت هذه أجهزة عاجزة عن معالجة مشاكل امبراطورية شاسعة وظهرت بوادر التذمر بين الحلفاء اللاتين والايطاليين. كما كانت موارد الدولة العسكرية في طريقها إلى النضوب والانهيار بينما كانت أعباؤها العسكرية آخذة في الازدياد. وكان خطر ثورة الدهماء والمجاعة يتهدد روما نفسها. وقد احتدمت الأزمة في وقت بدأت تظهر فيه على الطبقة الحاكمة أعراض التدهور الخلقي في الحياة العامة، وبدأت طبقة السناتو تصطرع مع طبقة الفرسان من أجل السيطرة على الأداة الحكومية.

فهرس